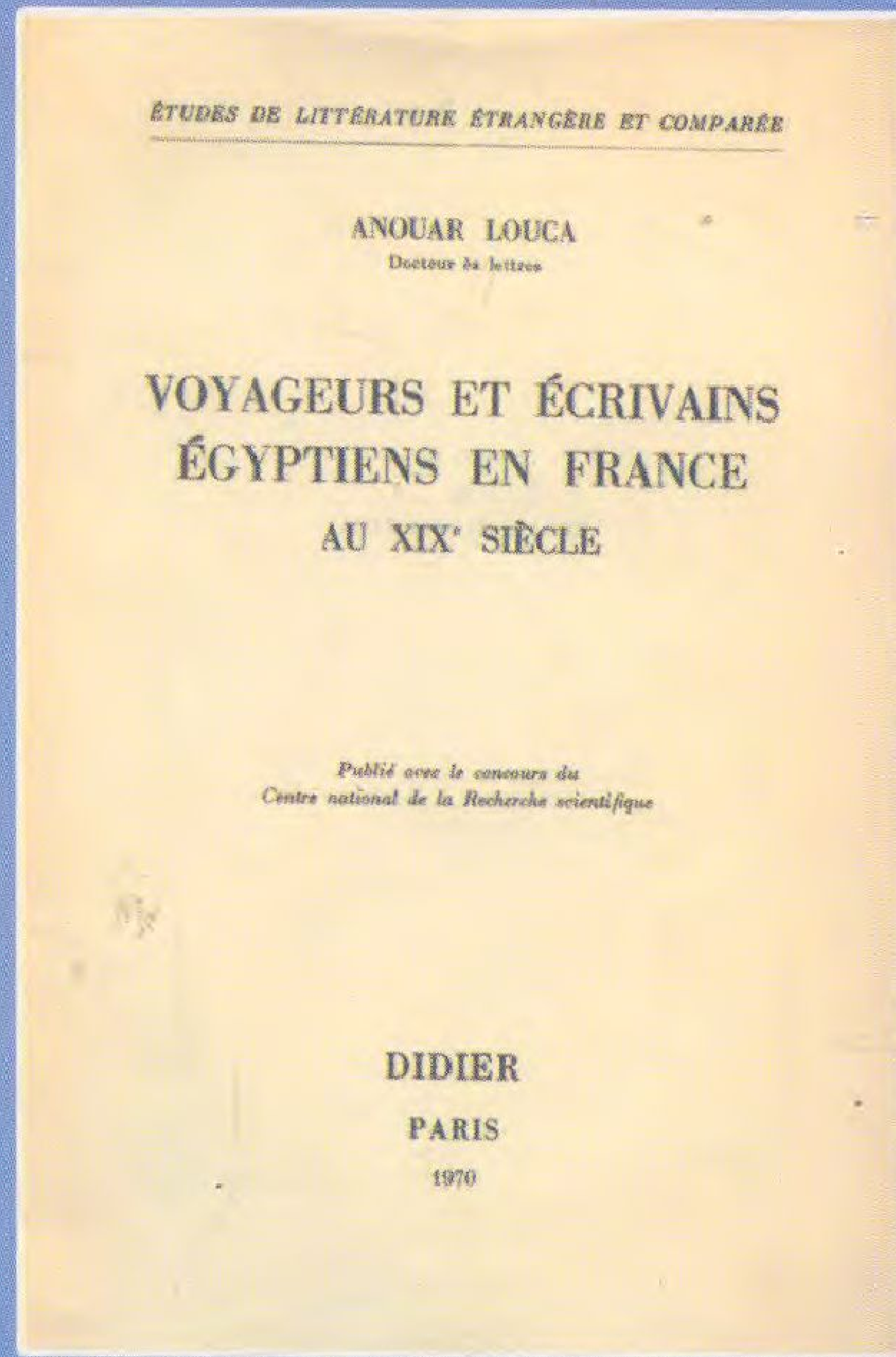


رحالة وكتّاب مصريون إلى فرنسا في القرن التاسع عشر



ÉTUDES DE LITTÉRATURE ÉTRANGÈRE ET COMPARÉE

ANOUAR LOUCA
Docteur ès lettres

VOYAGEURS ET ÉCRIVAINS
ÉGYPTIENS EN FRANCE
AU XIXe SIÈCLE

Publié avec le concours du
Centre national de la Recherche scientifique

DIDIER
PARIS
1970

د. أنور لوقا

ترجمة
د. كاميليا صبحي
د. أمل الصبان

من إصدارات دورة
«شوقي ولامارتين»
(باريس - أكتوبر ٢٠٠٦)

رحالة وكتاب مصريون
إلى فرنسا في القرن التاسع عشر

تأليف

د. أنور لوقا

ترجمة

د. كاميليا صبحي
د. أمل الصبان

الكويت

2006

راجع هذا الكتاب ودققه وأشرف على طباعته

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

محمد العلي

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

928.62 لوقا، أنور.

رحالة وكتاب مصريون إلى فرنسا في القرن التاسع عشر/ أنور لوقا؛ ترجمة كاميليا صبحي، أمل الصبان. – ط1. – الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006م.

424 ص؛ 17×24سم.

1. تراجم الأدباء 2. مصر – تراجم. أ. العنوان

ب. كاميليا صبحي (مترجم) ج. أمل الصبان (مترجم)

Depository Number: 2006 / 424 : رقم الإيداع

ISBN : 99906 -72 - 36 - 9 :ردمك

العنوان الأصلي للكتاب

VOYAGEURS ET ECRIVAINS EGYPTIENS EN FRANCE AU X1X SIECLE

من منشورات: ديديه Didier **باريس** 1970

بالتعاون مع المركز القومي للبحث العلمي سلسلة: دراسات الأدب الأجنبي والمقارن

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديــر

كتاب «رحالة وكتاب مصريون في فرنسا في التاسع عشر». كتاب شديدُ الثراء يرصد فترة مهمة من فترات تلاقح الشرق والغرب، ويحمل قيمة مزدوجة من التأثر والتأثير، ويكرّس فكرة التفاهم بين الشعوب. والكتاب لا يؤرخ للرحالة والكتاب المصريين إلى فرنسا فحسب، وإنما يقدّم لنا إضاءات هامة من تاريخ مصر نفسها، ويلقي الضوء، من خلال هؤلاء الرحالة، على الأوضاع السياسية والثقافية والتعليمية في مصر في القرن التاسع عشر، وهو تاريخ بدء هؤلاء الرحالة والكتاب بتشكيل حلقة اتصال مهمة للقاء الشرق العربي ممثلاً بمصر بالغرب الأوروبي ممثلاً بفرنسا.

وهذا الكتاب في الأصل أطروحة علمية نال بها الأستاذ أنور لوقا درجة دكتوراه الأدب ونوقشت في السوربون عام ١٩٥٧م تحت إشراف جان ماري كاريه. ومثلما يرسم الكتاب صورة لفرنسا فهو يرصد صورة لمصر في القرن التاسع عشر، أو بالأحرى يرصد فترة تلاقح الشرق والغرب على صفحات الرحالة، وهو شكل مهم من أشكال الاتصال لا توفره غير الرحلة، ومن هنا تبرز الأسئلة الجوهرية التي طرحها هؤلاء الرحالة على أنفسهم مما يمس وجودهم ذاته ويولد أسئلة الوعي بالهوية القومية وأهمية التعليم وأساليب التغيير وتحديث اللغة إلى غير ذلك من سعي نحو التجديد وإعادة البعث الحقيقي للثقافة العربية لتوائم تحولات العصر.

أما مؤلف الكتاب الأستاذ أنور لوقا فقد أسهم - إلى جانب كتابه القيم هذا - في نشر فكر هؤلاء الرحالة التنويري وفي إبراز دروهم ودور غيرهم من الكتاب

العرب في أوربا، وأثرهم في تجسير الفجوة الثقافية والعلمية، ومشاركاتهم المهمة في وضع أسس الحركة الثقافية والأدبية العربية الحديثة منذ بداياتها.

ونحن، إذ نسعد في مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بتقديم هذا الكتاب المهم عن بواكير النهضة ضمن إصدارات دورة شوقي ولامارتين، لنؤكد على وضع لبنة جديدة في صرح الإسهام بحوار الحضارات وفي التواصل بينها مدركين أهمية التعرّف والتعارف وليس القطيعة والانغلاق. ولعلها مناسبة طيبة أن أهدي هذا الكتاب إلى كل قرّاء العربية مفكرين وأدباء وكتابًا ومؤرخين وإلى كل المهتمين بتاريخ الأدب الحديث وأدب الرحلات، وإلى العاملين الجادين في مجال حوار الحضارات والثقافات.

ويسعدني أن أقدم بالغ الشكر للدكتورة كاميليا صبحي التي بدأت مشكورة بترجمة هذا العمل العلمي الجاد عن الفرنسية، وزميلتها الدكتورة أمل الصبّان التي أكملت مشوار الترجمة، كما أشكر الباحثين في الأمانة العامة للمؤسسة الذين نهضوا بأعباء التصويب والمراجعة.

والله من وراء القصد،،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت 25 من جمادى الآخرة 1427هـ

الموافق للعشرين من يوليو 2006م

****

تقديم

الأستاذ الدكتور أنور لوقا (١٩٢٧ - ٢٠٠٣) ولد في مدينة ملوي بصعيد مصر. وتلقى أول دروس اللغة العربية في الكتّاب فساعده هذا مبكرًا على إتقان هذه اللغة التي منحته أسرار السلاسة وجزالة التعبير ودقته. وفي عام ١٩٣٥ التحق بالمدرسة القبطية الابتدائية بملوي، وشرع من خلالها في تعلم اللغة الإنجليزية التي كانت والدته تتقنها وتعاونه في اكتسابها.

يحكي أنور لوقا عن عشقه المبكر للقراءة الذي بدأ بعثوره في البيت على بعض أعداد من مجلة نسائية كانت تصدر في بداية القرن العشرين اسمها «الجنس اللطيف» وقد أسرته لغتها النثرية المسجوعة، ورسخت عشقه للعربية. ومنذ ذلك الحين، دأب أنور لوقا على متابعة المجلات الثقافية مثل « المقتطف» لفؤاد صروف، و«المجلة الجديدة» لسلامة موسى، و «مجلتي» لأحمد الصاوي محمد؛ فكانت مدخله إلى عالم الأدب الرفيع، ينهل عن طريقها من فكر وأسلوب طه حسين ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقي وغيرهم.

لعب الحظ دوره في تعلم أنور لوقا اللغة الفرنسية التي برع فيها لاحقًا، وصاحبته في رحلته المهنية طوال حياته. فبعد أن أتم المرحلة الابتدائية، تقرر عام ١٩٣٩ فتح فصل تجريبي في حي العباسية بالقاهرة، يتم فيه تدريس اللغة الفرنسية بدلاً من الإنجليزية. فكان أن انتقل إلى القاهرة، وأقام في حي مصر الجديدة بدعوة من شقيقه مهندس الطيران المدني ليستكمل دراسته الثانوية. وخلال الإجازات الصيفية التي كان يقضيها في ملوي، راح أنور لوقا يلتهم القصص والروايات الفرنسية، ويترجم تلقائيّاً إلى العربية أحب الفقرات إلى قلبه وعقله. خلال تلك المرحلة، تأكدت ميوله الأدبية، فكان أثناء محاولاته المتعثرة لحل مسائل الجبر العصية يلوذ بنظم أبيات من الشعر العربي على هوامش الكتاب. وجاءت المفاجأة الكبرى متمثلة في نجاحه الباهر في الثانوية العامة، حيث جاء

ترتيبه الثاني على مستوى مصر ، فحق له استلام جائزة التفوق من وزير المعارف آنذاك الدكتور محمد حسين هيكل. وعلم لاحقًا أنه حصل على الدرجة النهائية في امتحان اللغة العربية بسبب إجابته البارعة عن سؤال خاص بمراحل تطور الشعر العربي، استشهد خلالها بأبيات من تأليفه، دون أن يذكر هذا بطبيعة الحال!

ومن بين عشرين طالبًا ضمهم فصله في الثانوية العامة، كان الوحيد الذي تابع دراسته في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة القاهرة التي تخرج فيها عام ١٩٤٨، وعين معيدًا بها عام ١٩٤٩ وتأكيدًا لعشقه للغتين، العربية والفرنسية، قرر أن يتخصص في دراسة الأدب المقارن.

أحب لوقا كتابات لابروييرLa Bruyère. وأصدر عام ١٩٤٨ - وهو بعد طالب - أول مؤلفاته بمعاونة الملحق الثقافي الفرنسي في القاهرة آنذاك. وهو كتاب يحتوي على ترجمة لبعض نصوص لابروييز، ومقدمة طويلة عن الكاتب. يقع الكتاب في مائتي صفحة، ويحمل عنوان «صوت لابروييز La Bruyère» يحاكي فيه كتاب طه حسين «صوت أبي العلاء». لم يكن لوقا قد تعرف على طه حسين بعد، ولكنه كان مشبعًا بأدبه وأفكاره.

أما ترجمته الثانية، وكانت لمسرحية بيرينيس Bérénice للكاتب المسرحي الفرنسي الكبير راسين Racine الذي عاش في القرن السابع عشر، ، فقد حصل على دعم قدره عشرون جنيهًا من والدته ليتمكن من نشرها. كان وقتئذٍ قد اطلع على ترجمة طه حسين لمسرحية أندروماك للكاتب نفسه، وراح يقارن بين الأصل والترجمة ليرى كيف تحولت أبيات راسين على يد طه حسين إلى نثر يكاد يلامس لغة الشعر. أخذ يحاكيه، وأضاف مقدمة للترجمة هي في حد ذاتها دراسة قيمة لتلك المسرحية الشعرية الجميلة، ثم أهدى العمل إلى طه حسين، وحرص على أن يصل إلى يده.

وكانت سعادته جمة حينما حدد له طه حسين موعدًا لمناقشة الترجمة معه. خلال هذا اللقاء، راح أنور لوقا - منبهرًا بوجوده في حضرة طه حسين - يحكي له عن تجربته في ترجمة المشاهد الأولى للمسرحية شعرًا. كما عرض عليه موضوع أطروحته للماجستير، عن رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس، فاقترح عليه طه حسين عقد مقارنة بين هذه الرحلة

وبين رحلة الكاتب الفرنسي نيرفال Nerval إلى مصر، ورحب بالإشراف على الرسالة، ولكن تعيينه وزيرًا للمعارف حال دون إتمام هذا المشروع. وفي هذه الفترة استكمل لوقا كتابه بالعربية عن الكاتب الفرنسي «بلزاك Balzac، سيرته وأعماله».

ثم كانت نقطة التحول عام ١٩٥٠، عندما استدعاه الوزير طه حسين إلى مكتبه ليبلغه منحه بعثة دراسية إلى فرنسا، وهو الحلم الذي طالما راوده. وفي فرنسا، شرع أنور لوقا في إعداد أطروحته التي نوقشت عام ١٩٥٧ والتي نقدمها اليوم للقارئ العربي بعد أن توسع في موضوعها الذي اقترحه عليه في البدء طه حسين، لتحمل عنوان «رحالة وكتّاب مصريون إلى فرنسا»، والتي من أجلها، وبفضلها، أضيفت إلى محصلة الأعمال العربية المترجمة إلى اللغة الفرنسية ترجمته الرائعة لكتاب رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». هذه الترجمة هي التي أقنعت أستاذه المستشرق الفرنسي الكبير بلاشير بجديته.

ولم يكن كتاب رفاعة هو الوحيد الذي نقله أنور لوقا إلى الفرنسية، فولاؤه الممتد لطه حسين جعله يترجم له أكثر من كتاب، من بينها «الفتنة الكبرى» وكان الأديب الكبير يناقش معه ـ بالتفصيل ـ كل فصل من فصول الكتاب قبل ترجمته.

كانت تلك الفترة من أخصب الفترات التي ترجم أنور لوقا خلالها، سواء إلى الفرنسية أو العربية. فقد وجد في الترجمة متعة كبيرة. وراح يترجم كثيرًا للمجلات الثقافية، وللبرنامج الثقافي في الإذاعة. كان ينقل المسرحيات التي شاهدها في باريس، والتي تحمس لها الإذاعي - آنذاك - الكاتب الكبير الآن وفي كل وقت، بهاء طاهر، كان من بينها نصوص لكلوديل Claudel ويونيسكو Ionesco وبيكيت Beckett. كما نشر عام ١٩٦٢ أنطولوجيا لـ «سان جون بيرس Saint John Perse» الحاصل آنذاك على جائزة نوبل، ويقول إنه لاحظ لاحقًا تأثر صلاح عبد الصبور بهذا الشعر.

وفي الفترة ما بين عام ١٩٨٢و ١٩٩٤، قام أنور لوقا بالتدريس في جامعة ليون بفرنسا حتى أصبح أستاذًا متفرغًا. كذلك درّس الترجمة في مدرسة المترجمين بجنيف، وهي واحدة من أشهر مدارس الترجمة في العالم. وخلال الفترة نفسها عهد إليه بإعداد

كتالوج المخطوطات العربية بالمكتبة الجامعية بجنيف. كان كل ما يربط النص بالتاريخ محببًا إلى نفسه، وتجلى هذا من خلال العديد من مؤلفاته، ومن بينها «مصر في القرن التاسع عشر من خلال المراسلات القنصلية بالبرتغال» وصدر عام ١٩٧٣، «جوانب خفية من الثورة العرابية» وصدر في العام نفسه، «ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي» وصدر عن دار المعارف بالقاهرة في سلسلة أقرأ عام ١٩٨٥، «إدريس أفندي في القاهرة» وهي مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين Prisse d' Avennes ما بين عامي ١٨٠٧ و١٩٧٩ (وهو الكاتب الذي يستشهد بأعماله في أكثر من موضع في أطروحته)، وقد صدر عن كتاب اليوم بالقاهرة عام ١٩٩١. ومن أواخر مؤلفاته كتاب ابو حيان التوحيدي وشهرزاد الصادر في تونس عام ١٩٩٩ وكتاب «على بهجت أول أثري مصري» الصادر عن دار الهلال في سلسلة كتاب الهلال في القاهرة عام ٢٠٠٣.

وقد استعرض أنور لوقا من خلال أطروحته، التي نسعد بتقديمها اليوم إلى القارئ العربي، ليس فقط تاريخ هؤلاء الرحالة الأوائل إلى فرنسا، وإنما تاريخ مصر نفسها في هذه الحقبة. فظروف سفر هؤلاء الطلاب - خاصة الأوائل منهم - ارتبطت تمامًا بالأوضاع السياسية والثقافية والتعليمية في مصر في القرن التاسع عشر. ومن خلال تقديمه لها، وإبراز مميزاتها ونقائصها، نلمح نقده الصارم لحكام مصر وللظروف السياسية التي شهدتها في تلك الفترة. فهو وإن أعطى محمد على حقه من الإطراء، إلا أنه لا يفوت الفرصة للإشارة بقوة إلى قلة معرفته، واعتباطية بعض قراراته وتحكم أهوائه ومصالحه فيها. كما أنه ينتقد بقسوة سلوك الأمراء الذين تم إرسالهم ضمن البعثة الثانية. ويحلل شخصية الخديوي إسماعيل، ويشرح الأسباب التي افضت لاحقًا إلى سلوكه المالي المنفلت، وبذخه غير المحسوب الذي كبل مصر بالديون.

ويتضح بقوة من خلال هذا الكتاب فكر أنور لوقا النقدي، فهو لا ينهي فصلاً من فصول أطروحته العلمية الجادة إلا بعد أن يعطي محصلة دقيقة لسلبيات وإيجابيات الشخصية أو الشخصيات التي تحدث عنها، ولنا في هذا الشأن ملاحظتان:

أولاً: كتاب أنور لوقا هذا هو معزوفة عشق لشخصية رفاعة الطهطاوي. فهو وإن لم

يكن الموضوع الرئيسي للكتاب، إلا أن فصلاً من الكتاب لا يكاد يخلو من ذكره. فبخلاف الفصل الذي خصصه له، نجده في كل مرة يقارن بينه وبين الشخصية الجديدة التي يتناولها، فيخرج رفاعة دائمًا من تلك المقارنة غانمًا مرفوع الراس. ولنلاحظ أنه كلما أورد ذكره، فإنه يذكره دائمًا باسمه الأول: «رفاعة» بخلاف الشخصيات الأخرى التي يوردها معظم الأحيان باسمها كاملاً مثل علي مبارك، ومحمد عبده وغيرهما. أما رفاعة، فهو المقرب، المحبب، النموذج، البطل التاريخي المجسد، ويؤكد أنور لوقا أن تفرد رفاعة جاء نظرًا لأنه لم يكن اختيار محمد علي، أي أنه لم يكن اختيارًا عشوائيًا، وإنما رشحه أستاذه الشيخ حسن العطار لكفاءته وتفرده. وفي هذا مزيد من النقد لمحمد علي.

ولعل الشخصية الثانية التي يتحدث عنها أنور لوقا دائمًا بود كبير هي شخصية جومار، أحد أهم علماء الحملة الفرنسية على مصر، ورئيس تحرير موسوعة «وصف مصر» فهو أيضًا لا يتحدث عنه وعن دوره مع هؤلاء الرحالة إلا بكل إكبار وتقدير.

ثانيًا: لاينسى أنور لوقا لحظة في هذا الكتاب انتماءه الديني. ونستطيع أن نلحظ ــ بغير جهد ــ تعاطفه الشديد ــ البعيد عن أي تعصب، مع الشخصيات القبطية، وهو الملمح الذي يتضح منذ أولى صفحات الكتاب. فالمقدمة تكاد تكون استرجاعًا لتاريخ بعض الأقباط الذين كان لهم أثر كبير في الحياة العامة المصرية. وبعدها، نجد رأيه القاطع ونقده اللاذع يلين، والأعذار تأتي ودودة متفهمة، حينما يتعلق الأمر بتلك الشخصيات. ويفرد لها صفحات تحكي عن حياتها ومآثرها - بحماس بالغ - أكثر مما تحكي عن الموضوع الرئيسي للكتاب، كما فعل مع شخصية اديب إسحق، على سبيل المثال. وهو يُنحي باللائمة على من يكتبون التاريخ لإغفالهم تلك الشخصيات، والأولى أن يكتب عنها ويؤرخ لها كل من يعرف أهميتها دون انتظار أن يفعل آخر غيره هذا. فسهو البعض لا يبرر إحجام البعض الآخر انتظارًا لما سوف يأتي.

ومن ناحية أخرى، ينتقد لوقا - ما بين السطور وبلطف شديد - بعض العادات العربية أو الإسلامية التي يراها اسهمت - في فترة ما - في تأخر هذه الأمة، ويقابل دائمًا بينها وبين عادات المجتمع الأوربي عامة، والفرنسي خاصة، وهو حينما يبرز محاسنها على

لسان أحد شخصياته، فإننا نكاد نشعر أن لسان حاله هو الذي يتكلم، خاصة حينما يتعلق الأمر بالمرأة - على سبيل المثال - ووضعها في المجتمع في ذلك الحين، أو بوضع الفلاحين وما كانوا يتعرضون له من قهر وسخرة على يد الإقطاع. فمن خلال كتابه، نراه عاشقًا حقيقيًا للمجتمع الفرنسي، حتى مع انتقاده بعض طلاب البعثة الذين لم يأخذوا منه إلا المتع الرخيصة والعادات السيئة.

وأنور لوقا في كتابه هذا يكتب بلغة فرنسية سلسة، وفصيحة. فهو عاشق للغة الفرنسية، كما كان عاشقًا للغة العربية. واللافت في أسلوب كتابته بالفرنسية ذلك الإحساس الذي يتكثف شيئًا فشيئًا ونحن نقرأ الكتاب: فليس فقط موضوع الكتاب هو شخصيات مصرية، ولكن اللغة التي يكتب بها روحها عربية ونكهتها فصحى بليغة. فهو يستخدم الصور والأخيلة الخاصة باللغة العربية، ويلجأ إلى المتلازمات اللفظية ذاتها، وإلى التعبيرات الشائعة في العربية عند الحديث عن مواقف بعينها، كل هذا دون أن يكون في هذا أي إخلال بعبقرية اللغة الفرنسية وقواعدها. ونأمل أن تكون الترجمة خير دليل على هذا، وأن يكون الكتاب قد رد بها إلى أصله.

وبالنسبة للترجمة، فقد حرصنا على الالتزام الكامل بالنص الأصلي. وإن كان ثمة صعوبة حقيقية، فقد تمثلت في إرجاع بعض الأسماء العربية إلى أصلها، ورد بعض النصوص العربية - التي ترجمها لوقا إلى الفرنسية ليتسنى له الاستعانة بها في نصه - إلى أصلها، نظرًا لعدم توافر هذه النصوص. فهي تستلزم الرجوع إلى الأصول التي اطلع المؤلف على بعضها في أرشيف مكتبات أجنبية غير متاحة لنا، لهذا نرجو أن يتفهم القارئ هذه الصعوبة، كذلك، لم نورد - لأسباب تقنية بحتة تؤثر على الوقت - فهرست الأسماء الذي وضعه الكاتب في نهاية عمله، لما يتطلبه هذا من انتظار حتى يتم طبع الكتاب بأكمله، لتتفق أرقام الصفحات مع مواضع الأسماء. كذلك حرصنا على وضع الأسماء الأجنبية إلى جانب كتابتها بالعربية لتأكيد الكتابة والنطق الأجنبي، وكذلك لمن يريد الرجوع إلى معلومات تخص هذه الشخصيات في الأصول الأجنبية. وللسبب الأخير نفسه، نورد - كما هي القاعدة - المراجع الأجنبية بلغتها الأصلية.

وأخيرًا، ليس غريبًا على من قضى جل عمره يتتبع سير المفكرين الرحالة - وبخاصة رفاعة الطهطاوي وطه حسين اللذان تأثر بهما أنور لوقا تأثرًا بالغًا - أن يحمل بعضًا من ملامحهما: فمثلهما أتى من قلب الصعيد إلى القاهرة ثم إلى باريس ومثلهما، كان مؤلفًا، ومترجمًا منشغلاً بالتاريخ وتأثيره على الأمم. وإن كان رفاعة وطه حسين قد أسهما إسهامًا حاسمًا في تحديث الفكر المصري، فقد أسهم أنور لوقا في إبراز هذا الدور والتأكيد عليه من خلال كتاباته، ونشر فكرهما التنويري في جميع المدن الأوربية التي حل بها، وأثرى، ليس فقط المكتبة العربية وإنما الفرانكفونية أيضًا، بأعمال عن الثقافة العربية التي عاش - رحمة الله عليه - خير سفير لها.

د. كاميليا صبحي

باريس ٢٠٠٦

****

تمهيد

«رحّالة وكتاب مصريون في فرنسا» يأتي هذا العنوان رجع صدى، بعد ثلاثين عامًا، ليحاكي عنوان كتاب جان ماري كاريه Jean Marie Carré «رحّالة وكتّاب فرنسيون في مصر»، الذي كان في صدور طبعته الثانية عام ١٩٥٦ أحد آخر مباهج مؤلفه. ولكنني لا أدين للعالم الراحل العظيم فقط بعنوان العمل الذي حظيت بإعداده تحت إشرافه بالسوربون والذي شكل أطروحتي الأساسية لنيل درجة دكتوراه الأدب، بل أدين له أيضًا بإنسانية التبادلات الثقافية. فبصفته هو نفسه رحّالة وكاتبًا انجذب إلى مصر على نحو خاص، وكانت مصدر إلهام له. وكان كاريه مهتمًا بأدب الرحلات، متحمسًا لفك شفراته ودلالته، وموجهًا الأبحاث في اتجاه هذا المجال ذي الرؤى شديدة الثراء. وقد فتح كتابه أبواب هذا المجال، وراح باحثون - ليس هنا مجال تعدادهم - من جميع الأنحاء يحذون حذوه. وقد سعوا مهتدين بعلمه وبدافع منه إلى إجلاء الصلات والتداخلات المحيطة بمسألة المواطنة العالمية ومختلف التأثيرات، مبددًا بهذا بعض الأوهام، جالبًا مزيدًا من الفهم بين الشعوب. أما بالنسبة للرحّالة المصريين في فرنسا، فقد كانوا محل حماسه وفي بؤرة اهتمامه والذي حظي بعنايته - وتفانيه حتى أخريات أنشطته العلمية. وهذا البحث الموازي لما قام به كاريه - إنما يعد انعكاسًا لمواطن إيثاره واصطفائه، وامتدادًا لعمله. وحسبنا أن يكون في صدوره شهادة وفاء لفكر العالم والإنسان الذي جعلنا نتعلق بشخصه وبقلبه. ولعله يبقى تعبيرًا عن امتنان لا يفتر.

ومع هذا هناك سمة أساسية تميز تيار رحّالينا. فعلاوة على جِدّة الموضوع الذي يضيفه المصريون إلى آدابهم من خلال رسم صورة لفرنسا، فإنهم استطاعوا في ضوء الحضارة الغربية التي اكتشفوها أن يطرحوا أسئلة حيوية تمس وجودهم ذاته. وقد ترتب على هذا إعادة بعث حقيقي مع تحولات الثقافة العربية المعاصرة.

فكيف يرى الرحّالة الأوائل العالم الحديث وقد خرجوا لتوهم من القرن التاسع عشر الذي يعادل بالنسبة إليهم القرون الوسطى؟ نستطيع القول بأن فرنسا التي تعد تجسيدًا مصغرًا للعالم الغربي لم تختزل في تجربة هؤلاء الرحالة إلى مجرد رؤية ممتعة لبلد غربي، وهدفٍ قُصد للسياحة والتلهي، ولكنها تحولت فورًا إلى مركز تعلم وممارسة نشاط، وإلى مدرسة، ومنبر، ومعرض عالمي وترسانة للأفكار الفلسفية والسياسية والاجتماعية. ومن هنا تولدت ردود الأفعال التي كانت لها أبلغ العواقب: وعي بالهوية القومية، وبأهمية التجهيزات التقنية، والتعليم، وتحديث اللغة وأسلوب التعبير، والانتعاش الفكري، ومواجهة الفكر الديني والتقاليد، مع كثير من التجديد. وباختصار فإننا في صحبة أجيال الرّحالة الثلاثة الذين سنتحدث عنهم في هذا العمل سوف نشهد حركة النهضة وهي تحدث أمام أعيننا. وعملية حصر محصلة ما جلبوه مع متاعهم سوف تتيح للمؤرخ إدراك التمفصل المركب لمختلف العناصر التي تمكننا من فهم الشرق الأوسط في إطار السياق الدولي اليوم.



وقد التزمنا في عرضنا لموضوعنا إطار التسلسل التاريخي، حيث شكلت العلاقات الفرنسية المصرية خلال قرن من الزمان دورة كاملة أكدها تطور نوعية الرحالة نفسه. ونظرًا لتنوع التوثيق الذي يتطلبه البحث عن شخصيات ونصوص غير معروفة في أحيان كثيرة، فقد سعينا في ثبتنا الببليوجرافي إلى تصنيف الأدوات المتباينة التي استقينا منها معلوماتنا، ووضعها تحت عناوين تتناسب وموضوعاتها. وعليه، فسوف نجد أن لكل جزء من أجزاء العمل ثبتًا بيليوجرافياً خاصاً به بعناوين ثانوية تتلاءم معه. هذه القوائم التي حرصنا على إيرادها مجتمعة في نهاية العمل تبدأ بالمصادر التوثيقية والأعمال العامة. وغني عن القول أن مثل هذا التقسيم للأعمال التي اطلعنا عليها وأخضعنا محتواها لمخطط أطروحتنا، ينطوي ـ بلا شك ـ على شيء من العشوائية، فأعمال الكاتب نفسه سنجدها متفرقة تحت أكثر من عنوان. ومن ناحية أخرى، سوف نجد أن الهوامش المصاحبة للنص لا تردنا إلا بصورة إجمالية إلى الإحالات، وإن كانت تورد بصورة كاملة الأعمال التي تم الرجوع إليها عرضًا والتي لا ترد ـ بالتالي ـ في الثبت الببليوجرافي الرئيسي. ومع هذا، فقد حرصنا على وضع فهرست خاص أوردنا فيه مجمل الأعمال

المذكـورة على نحـو يسـمح بضـبط نسق التـصنيف وضـمـان وحدته، كـمـا أنه يخـضـع للمقتضيات المعتادة للترتيب الألفبائي.

أما بالنسبة لكتابة الكلمات العربية بأحرف لاتينية، فقد التزمنا بالنظام المستخدم في «موسوعة الإسلام» باستثناء حرفي الجيم والقاف، فقد التزمنا بكتابتها على التوالي q. j. ومع هذا فقد احتفظنا بطريقة كتابة بعض الكلمات كما شاعت في الفرنسية مع استـخدام النهايات الصرفية الفرنسية في حالة الجمع.



لم يكن لهذا العمل أن يتم دون إقامة طويلة في باريس. ونحن إذ نغتنم الفرصة كي نعبر عن خالص الامتنان لأستاذنا الجليل طه حسين الذي يرجع له فضل المبادرة بإرسالنا إليها. فمن خلال مؤلفاته التي كتبها بصفته رحّالة، وبفضل معاونته السمحة أيضًا فإننا لايمكن فصل طه حسين عن غايتنا من بحثنا. ففصول عملنا التي تفضي إليه تسهم بالفعل في توضيح حجم دوره. وبفضل حضوره، سعدنا بالتعرف على قيمة التيار الذي جسده في القرن العشرين.

ونحن إذ نتـوجـه بالشكر أيضـا للسـيـد شـارل ديديان Charles Dédéyan الذي اسـتلم من جـان مـاري كـاريه Jean Marie Carré وانري روديـيـه Henri Roddier عـملنا الذي لم يكن قد اكتمل بعد لمعاونتنا على إتمامه. كما إننا نتوجه بالشكر أيضًا إلى كل من السـادة بيير مورو Pierre Moreau وريجيه بلاشـير Régis Blachère ، وجاسـتون فييت Gaston Wiet، وجـاك بيـرك Jacques Berque وشـارل بيـلا Charles Pellat للاهتـمـام الكبير الذي أبدوه تجاه بحثنا هذا. ومن بين أصـدقائنا وزمـلائنا الذين ساندوا جـهودنا برعايتهم فإننا، لا نملك إلا أن نعبر عن خـالص امتناننا للسـادة ريمون فرانسيس Ray-mond Francis، وجيلبير دي لا نو Gilbert Delanoue وجان دانيل كاندو Jean Daniel Candaux الذين منحونا الوقت والجهد لإعادة قراءة مـخطوطنا. كل الامتنان لهم لما قدموه من اقتراحاتهم الغالية.

لقد كان مقدرًا لهذا العمل أن ينشر ضمن سلسلة «أبحاث ووثائق» التي استهلت بكتاب Opera minora للوي ماسينيون Louis Massignon، وكان من المقرر أن يصدر في كل من القاهرة وبيروت منذ عام ١٩٦٣، بيد أن التوقف المبكر للمشروع كاد أن يحكم على عملنا بعدم النشر لفترة طويلة لولا رعاية السيد جاك فوازين Jacques Voisine. كما إن المساندة الكريمة التي لقيناها من السيد مارسيل باتايون Marcel Bataillon، الذي فتح أمامنا باب سلسلة «الدراسات الأدبية الأجنبية والمقارنة» سمح لمؤلفنا هذا: «رحّالة وكتاب مصريون إلى فرنسا» أن يندرج بدوره تحت راية الإنسانية كما عاشها ومارسها جان ماري كاريه J. M. Carré . وفي إطار مشاركتنا في إحياء ذكراه، فإنني أتوجه إليهم جميعًا بأسمى آيات الامتنان.

أنـور لوقــا

هيليوبولس، مايو ١٩٦٣
جنيف ـ باريس ، سبتمبر ١٩٦٨

****

مقدمة المؤلف

لكل تاريخ، تاريخ سابق عليه. فإذا كان الرحّالة المصريون تدفقوا على فرنسا بصورة لافتة في القرن التاسع عشر، فهناك من سبقوهم. فعلى ضفتي البحر المتوسط، تعين على مركزي الحضارة القديمة والحديثة إنماء علاقات وتبادلات متعددة. لنعد إذن إلى هذا الماضي البعيد الذي يغيب أحيانًا عن المؤرخين والذي تغلفه الأساطير، وسوف نلتقي بمصريين على الأراضي الفرنسية. غير أن الكشف عنهم جميعًا، وتتبع أثرهم عبر الأزمنة منذ أقدم العصور، ليس - بالطبع - الغرض الذي نسعى إليه في هذه المقدمة. ثم إن الحديث عن ذكراهم يتطلب اللجوء إلى تقنيات خاصة، وعودة إلى الحفريات وإلى التاريخ المقدس، أو إلى التاريخ الاقتصادي، كما يتطلب أن نسائل العمارة والكنيسة والسياسة، وأن نفتش في أوراق ثاوية في سجلات ومحفوظات يصعب الوصول إليها، إن لم تكن قد فُقدت إلى الأبد.

وبالفعل، منذ القرون الأولى من عصرنا، وتحت حكم الإمبراطورية الرومانية التي كانت بلاد الغال جزءًا منها مثلها مثل مصر، يبدو أن عدد المصريين الذين توافدوا على الغرب كان كبيرًا. ونحن نعرف أن الجيش الروماني في القرن الرابع الميلادي ضم بالفعل عدة فيالق من طيبة، من بينها واحد كانت إيطاليا مقره. كما كان هناك - على ما يبدو - مصريون ضمن القوات التي احتلت بلاد الغال. يقول أحد المتخصصين في هذا المجال إن «فرق من هذا النوع كانت دائمة التنقل بين الشرق والغرب في ظل الإمبراطورية في القرون الأخيرة كما في القرون الأولى» (١).

ونحو عام ٢٨٦، شهدت مدينة آجون Agaune مذبحة فيلق طيبة على يد ماكسيميان هرقل Maximien Hercule مما أسفر عن استشهاد ضباطه الشجعان : موريس Maurice وأكزوبير Exupère وكانديد Candide (٢) ولسنا هنا في مجال مناقشة

مدى موثوقية تاريخ القديسين، وصحته، وقيمة مصادره. فحتى إذا اقتصرت الوقائع التاريخية على الحد الأدنى من الصحة، فإن هذا يؤكد ـ مع هذا ـ عمق الحضور المصري، حتى إذا لم يصنعه الوعي، أو إذا ضخمته أجيال من المريدين. فمدينة أجون Agaune التي تحمل حاليًا اسم القديس موريس Maurice تعكس مدى تطلع جماهير كاملة إلى التماهي مع الشهداء الشرقيين [٣].

ولكن المصريين القادمين إلى الغرب ذهبوا إلى أبعد من جبال الألب فهناك رهبان أقباط [٤] واراهم الثرى في أراضي ايرلندا، ونلحظ في الشعائر الآيرلندية الكثير من تأثيرهم [٥] . وقد كتب مؤرخ إنجليزي يقول: «نحن في الجزر البريطانية لا نعلم بعد حجم ما ندين به لهؤلاء الزهاد الأقدمين. فهناك احتمال كبير أننا ندين لهم بأول تبشير بالإنجيل في إنجلترا، حيث ظل النظام الرهباني المصري سائدًا حتى قدوم أغسطين. ولكن الأهم هو ذلك الاعتقاد بأن المسيحية الآيرلندية التي شكلت أكبر عوامل التحضر في مستهل العصور الوسطى من بين أمم الشمال، هي وليدة الكنيسة المصرية. وهناك سبعة رهبان مصريين مدفونين في ديزيرت أوليد Disert Ulidh، كما أن هناك ملامح عديدة من الطقوس والمعمار الآيرلندي ترجع إلى عصور شديدة القدم، تذكرنا ببعض أقدم الآثار المسيحية بمصر. ونحن نعلم أن الأعمال اليدوية التي أنجزها الرهبان الآيرلنديون في القرنين التاسع والعاشر تفوق بمراحل كل ما يمكن أن نجده في أي مكان آخر بأوربا، وإذا كانت الزخارف شبه البيزنطية التي تزين أعمالهم البديعة المصنوعة من الذهب والفضة والمنمنمات التي لا مثيل لها، قد ترجع إلى تأثير المبشرين المصريين، فعلينا أن نشكر الأقباط أكثر مما كنا نعتقد» [٦].

هذه البعثات التبشيرية التي كانت منتظمة، على ما يبدو، ألم يكن عليها اجتياز بلاد الغال للوصول إلى آيرلندا؟ فقد كان هذا مسارًا أقصر وأقل خطورة قياسًا إلى الطريق البحري [٧]. ويحملنا هذا على الاعتقاد أن مثل هذه البعثات كانت تُبشر بالمسيحية في بلاد الغال أيضًا.

أما الشيء الأكثر ثبوتًا فهو الرحلات التي قامت بها إلى بلاد الغال شخصية جليلة في العالم المسيحي الخاص بالقرن الرابع هي اثناسيوس بطريرك الإسكندرية ومريد القديس أنطونيوس(*) وصديقه وكاتب سيرته الذاتية. لا يسعنا إلا أن نذكر ملامح هذا البطريرك الشجاع الذي ظل طوال حياته يحارب الهرطقة ويتحداها بقوة ضارية أصبحت مضربًا للأمثال، إذ يقال: «اثناسيوس في مواجهة العالم». وخلال ولاية أسقفية دامت ٤٧ عامًا كلفته مواقفه النفي خمس مرات. وقد نفي عام ٣٣٥م إلى بلاد الغال وبقي حتى عام ٣٣٨م في تريف Trèves، حيث استقبله الأسقف مكسيميانس بكل المحبة [٨]. فهل اصطحب معه المطارنة المصريين الآخرين الذين لازموه للدفاع عنه في مجمع تير Tyr الدين (٣٣٥) وفي قسطنطينية[٩] ؟ كل ما نعلمه هو أنه زار آرل Arles خلال توجهه إلى هذا المنفى[١٠]. كذلك توجه ثانية إلى ارل عام ٣٤٣م [١١] قادمًا من روما، حيث كان لنشاطه ما بين عامي ٣٣٩م و ٣٤٥ الفضل في أن يعتاد الغرب على حياة الرهبنة، خاصة بفضل النساك الأقباط الذين تبعوه وأثاروا إعجاب الشعوب اللاتينية بتقشفهم وزهدهم.

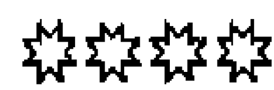
والكل يعلم بالفعل الأصول المصرية للرهبنة في الغرب. ومما لاشك فيه أن الأديرة الأولى التي أنشئت في منطقة البروفنس في جزر ليران Lerins أو في مرسيليا، طبقًا لنظام القديس باخومييوس(**) أو القديس مكاريوس(***) كانت ثمرة رحلات عديدة متبادلة بين الشرق والغرب قام بها حشد من الرحّالة طواهم النسيان اليوم فيما عدا أمثال اثناسيوس، أو أونورا Honorat، أو جون كاسيان Jean Cassien. ويؤكد بعض الكتّاب أن جزر ليران Lérins كانت ملجأ للعديد من الرهبان الأقباط الذين جاءوا للتبشير في أوربا بعقيدة مسيحية جديدة [١٢]. ومع هذا، فقد اجتذبت الأماكن المقدسة في فلسطين ومصر - فيما يبدو - من الحجاج الغربيين أكثر من المبشرين الذين أوفدتهم بعثات التبشير إلى الغرب [١٣]. فكانت جماعة القديس باخوميوس في صعيد مصر تضم أقباطًا كما كانت تضم أيضًا رومانًا ويونانيين. وإن لم يتبق ، منذ عام ١٨٧٦، أي أثر لدير القديس أونورا Honorat البدائي بجزر ليران Lérins إلا أن الوصف الذي خلفه كل من ميريميه Méri-mée وفيوليه لودوك Viollet - le - Duc يشير إلى أنها تعد تقليدًا مباشراً للأبنية

الشرقية (١٤). فهل كان هذا من صنيعة بنائين شرقيين جلبهم القديس أونورا Honorat في أعقاب رحلة الحج التي قام بها؟ والفرضية نفسها قد تنطبق أيضًا على الحرفيين والنساك المصريين، فربما رافقوا جون كاسيان Jean Cassien إلى مارسيليا، حيث قام نحو عام ٤١٥م، وبعد طول مقام بين رهبان طيبة، بتشييد ديرين، وكتب بعض النصوص التي كان لها أبلغ الأثر على تاريخ المؤسسات الرهبانية الغربية.

وعن الرحّالة المصريين إلى الغرب خلال السنوات الأولى من تاريخنا، نستطيع أن نخلص إلى أن : «بدايات الرهبنة في الغرب ما زال يكتنفها غموض ليس من السهل اختراقه وفك حجبه. وما من شك أن الغرب أخذ الفكرة من مصر؛ ولسنا هنا بصدد التشكيك في الدور المنسوب إلى القديس اثناسيوس، ولكن من الصعب أن نحدد بدقة الأشخاص الذين كان لهم السبق في نقل هذه الفكرة من على ضفاف النيل إلى ضفاف التبر Tibre، بل وإلى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وعلينا ألا ننسى، بالفعل أن مصر كانت مقاطعة رومانية منذ عدة أجيال في القرن الرابع، وأن عاصمتها الإسكندرية لم تكن فقط المركز الإداري للمقاطعة، وميناءً مهمًا، ولكنها كانت أيضًا، ومنذ نحو ثمانية قرون، المركز الفكري والثقافي الأشهر للعالم اليوناني الروماني. وفي ظل هذه الظروف، فإن الدراسات، والتجارة، والإدارة كان لها دور حتمي في التبادل المتعدد والمتكرر للأفكار والأشخاص بين مصر وما سمي فيما بعد بالعالم اللاتيني. فمن الجائز بشدة إذن أن عددًا كبيرًا من الأقباط توافد إلى عاصمة الإمبراطورية وإلى المدن الغربية الأخرى، حتى إننا نجد لهم أثرًا هناك في وقت لاحق بعد هذه الفترة بكثير. ففي عام ٥٨٩ م كانت هناك جمعية للسكندريين، وفي عام ٦٠٢، أعطى البابا جريجوار الأول Grégoire خطاب توصية إلى مجموعة من المصريين العائدين إلى بلادهم ...» (١٥).

وهناك تفاصيل كثيرة تؤكد استمرار هذه العلاقات الروحية والتجارية خلال القرن السادس الميلادي فـ «ورق البردي، ذلك الناقل الثمين للفكر، كان يأتي من مصر إلى مارسيليا حيث كان البحارة يفرغون حمولاتهم من الزيت والسوائل الأخرى. كما أن بعض التجار كانوا يجلبون من مصر إلى أوسبيسيوس Hospitius ـ أحد نساك مدينة نيس – بعض النباتات التي كان يتغذى عليها خلال أيام الصوم الكبير» (١٦).

وفي فرنسا استمر تأثير الأقباط، فقد تعاظم نفوذهم في بلاد شارلمان Charle-magne (١٧) حتى إنهم حاولوا تغيير التقويم وفرض شهر سبتمبر ليكون أول شهور السنة(١٨). وقد أسهم الحجاج في نشر مذكرات عن نساك الصحراء وعن العديد من الشهداء والقديسين وتناقلها عبر الأجيال. ومنذ القرن الحادي عشر كان بحوزة مدينة روان Rouen رفات للقديسة كاترين (١٩). وفي القرن الثاني عشر الميلادي كان يتم نحت تيجان الأعمدة على طراز فيزليه(*) Véselay القديس أنطوان والقديسة أوچيني بمصر (٢٠) وفي القرن الثالث كانت اللوحات الزجاجية الملونة في مدينة شارتر Chartres تعكس، بكل ألق الشرق ونوره، وجوه القديس أنطونيوس، والقديسة كاترينا الاسكندرية والقديسة مريم المصرية، ولكن، هل كان هناك دومًا علاقات بين البطريركية والبلاط الفرنسي؟ من المؤكد أنه في عام ١٧٠٢، غادر القاهرة إبراهيم حنا مبعوث يوانس Joannès حاملاً رسالة إلى لويس الرابع عشر، وإلى وزيره الكونت دي بونشارتران de Pontchar-train وإلى قس اعترافه الأب دو لا شيز de La Chaize، بخصوص مبشرين يسوعيين بمصر والحبشة. وقد وصل إلى مارسيليا في الثامن من يوليو، وبلغ باريس في الرابع والعشرين من الشهر نفسه، حيث عد سفيرًا فوق العادة، واستقبله الملك ومنحه هدايا رائعة (٢١)، غير أن تلك الأحداث لا يرد ذكرها في التاريخ.



وما لا يمكن تجاهله، ويؤكده أنري بيرين Henri Pirenne، هو الشُّقة المفاجئة التي حدثت في العالم المتوسطي مع زحف الإسلام. يقول بيرين : «هذا ما حدث للجماعة المتوسطية التي تبقت من الإمبراطورية الرومانية فالبحر المؤنس، شبه العائلي، الذي كانت تلتف حوله أصبح فجأة غريبًا وعدائياً. لقد ظلت الخصائص الأساسية للوجود الاجتماعي قبلها بقرون عديدة واحدة على جميع شواطئه؛ فكان الدين واحدًا، والعادات والأفكار واحدة أو لنقل شديدة التقارب. ولم يُحدث غزو البربر القادمين من الشمال أي تعديلات جوهرية على هذا الوضع. وإذ بالبلاد التي نشأت فيها حضارتنا نفسها وقد انتزعت منها تلك الحضارة فجأة لتحل شعائر النبي محل العقيدة المسيحية، وتحل الشريعة الإسلامية

محل القانون الروماني، واللغة العربية محل اللغة اليونانية واللاتينية. وبعد أن كان البحر المتوسط بحيرة رومانية أصبح بحيرة إسلامية. ولم تعد الملاحة البيزنطية تتجاسر على المجازفة بالخوض في عرض هذا البحر؛ ولم تعد تتجاوز حدود وشواطئ إيطاليا الجنوبية. كذلك، لم تعد السفن السورية تجوب البحر التيراني. وقد افتقدنا كل أثر للنشاط الشديد الذي شهدته حركة التنقل في القرن السادس الميلادي، بين موانئ الشرق والغرب، خلال القرن الثامن الميلادي. كما أن استبدال بلاد الغال الرق بورق البردي في ذلك الحين فيه دليل على هذا الفقدان يصعب دحض دلالته (٢٢).

ومع هذا، لم تلبث العلاقات بين مصر العربية وعالم الفرنج أن عادت من جديد تحت مسمى «الحملات الصليبية». ولاشك أن عملية البحث في هذا المد والجزر الإنساني الهائل بصفته اتصالاً عسكرياً واقتصادياً، واجتماعياً، وفكرياً من شأنها أن تقودنا إلى آفاق بعيدة. فالحملة الصليبية السابعة ـ على وجه الخصوص ـ بقيادة لويس التاسع، كانت بالنسبة لكل من مصر وفرنسا لقاءً مشهودًا في منتصف القرن الثامن الميلادي. ومن بين النتائج التي أفضت إليها هذه الملاحم، كما يشير جاستون ڤييت Gaston Wiet، نذكر تأثير الحضارة العربية، والنظام الإداري للمدينة الشرقية اللذين يمكن تبيُّنها من خلال كل من نظامي الشرطة والمهن في الغرب، وخاصة في فرنسا (٢٣).

وقد شهد هذا التاريخ بداية دخول مصر في الأدب الفرنسي من خلال حوليات السيد جوانفيل Joinville (١٣٠٩م). وفي القرن الرابع عشر، استطاع العديد من الحكائين في فرنسا وأسبانيا وإيطاليا، اعتمادًا على مصدر فرنسي سابق، أن يتخيلوا بسهولة صلاح الدين، سلطان مصر، مسافرًا متنكرًا إلى الغرب (٢٤) ومن الممتع بالفعل متابعة أسفاره ومغامراته. فها نحن نراه قادمًا بحرًا إلى براندي Brandis مارّاً بروما، ومجتازًا لومبردي Lombardie، ليصل أخيرًا إلى باريس حيث استقبله البارونات استقبالاً يليق به. ولما كان الملك فيليب الثاني غائبًا، كانت الملكة هي من استقبلته. وقد شغفت على الفور بهذا الغريب شديد الوسامة والأدب والشجاعة. وعلى غرار مشاهير

الفرسان في أدب القرون الوسطى، صيغت سيرة كاملة حوله. وقد دافع ببراعة عن براءة كونتيسة شابة من بانتيو Ponthieu شوهت سمعتها افتراءً، وأطاح بالملك ريتشارد، ملك بريطانيا، في مبارزة بينهما، وأعد في الشرق أسطولا قوياً، وعاد بنية غزو فرنسا، ولكن البارونات نجحوا في صرف ضرباته إلى إنجلترا. ولفرط شهرته فإن أحد مشاهد هذه المعركة الأخيرة والذي سمي «خطوة صلاح الدين» انتقل من الشعر الشفاهي إلى التصوير الزيتي والسجاد في كثير من قاعات القصور، بل إنه اتخذ شكل عروض حقيقية تؤديها شخصيات حية تمثل اثني عشر، وأحيانًا ثلاثة عشر فارسًا، يقومون بحراسة فرقة عسكرية يحاول جيش عربي اختراقها بقيادة صلاح الدين. وتجدر الإشارة إلى أنه - بصفة عامة - كان الحكاؤون الذين يقصّون أسطورة صلاح الدين في الغرب يبرزون أبطالهم على نحو فيه - بالأحرى - محاباة لهم. وبالفعل، وخلال القرون التي شهدت الحملات الصليبية، كان باستطاعة تجار الجملة الشرقيين السفر بسلام إلى فرنسا. فأثناء زيارة اليهودي الإسباني بنجامين الطليطلي لمونبلييه Montpelier خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر، التقى بعدد كبير من التجار القادمين من الأراضي المصرية (٢٥).

ومع نهاية القرن الثالث، بدأت حقبة جديدة من التبادلات التجارية بدلاً من الحرب والدعوات التبشيرية، ميزت العلاقات بين أوربا والشرق. أما شارل داجو Charles d' Ajou ، كونت البروفنس وسيد مارسيليا، ملك نابلس وصقلية، والذي كان أقل تقوى من أخيه لويس التاسع، فقد ربطته علاقات طيبة بسلطان القاهرة الظاهر بيبرس. كذلك فإن المزايا التي حظيت بها الولايات المسيحية الموجودة في سوريا لم تمنع البحّارة الأوروبيين من التدفق على مصر لأنها كانت مستودعًا للتجارة القادمة من بلاد الهند. وكانت فرنسا تأتي في المرتبة الثانية بعد فينيسيا في هذه التجارة الرائجة. «فمن خلال البضائع التي كانت تشتريها مثل جوخ لانجدوك Languedoc وحرائر ليون، وأقمشة أرخص ثمنًا من البروفانس، ومعادن خام وأخرى مشغولة، وتوابل، ومشروبات، أسهمت مصر في ازدهار صناعات كانت تعيش عليها مقاطعات فرنسية عديدة. ومن ناحية أخرى كانت تمد

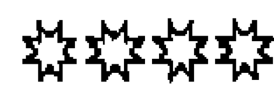
المستهلكين بالمملكة ببعض المواد الأولية والحبوب والقطن والكتان والبن والأرز والتوابل والعطارة» [٢٦]. وفي عام ١٤٤٧ توثقت من جديد العلاقات التي كانت قائمة بين مدينتي بورج Borges والقاهرة: فقد كلف شارل السادس ابن أخيه جان دو فيللاج Jean de Village بحمل هدايا إلى سلطان مصر؛ وأسفر هذا عن نوع من المعاهدات التجارية بين البلدين.

وقد واكب اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ خروج البندقيين والإنجليز والهولنديين من مصر، بينما بقي التجار الفرنسيون واستمروا في القيام ببعض عمليات نقل البضائع على نطاق ضيق على الرغم من طغيان المماليك. وقد سعى قنصوة الغوري، أحد آخر الحكام المماليك، إلى التصالح مع ملك فرنسا بعد أن أزعجه البرتغاليون طويلاً، فأرسل إلى باريس تاجرًا حاملاً رسالة إلى لويس الثاني عشر ومرسومًا يقضي بالسماح للفرنسيين بحرية التجارة في الموانئ المصرية والسورية. وقد أوفد لويس الثاني عشر بدوره إليه سفيره آندريه لوروا André le Roy بصحبة حاشية كبيرة، وقد ترك لنا جان تينو Jean Thenaud، وكان ضمن من سافروا، نصًا يحكي فيه عن هذه الرحلة[٢٧]. وقد أرادت فرنسا من خلال اتفاقيات التسليم الموقعة عام ١٥٣٥، ليس فقط حماية الكاثوليك، وإنما المفاوضة قبل كل شيء إضافة إلى ضمان مصالحها التجارية في مختلف دول الإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر. ومع هذا، فإن هؤلاء التجار الفرنسيين الذين كانوا يأتون إلى مصر ويعيشون في القاهرة والاسكندرية ورشيد لم يكونوا من المتأملين الذين يملأهم الفضول، ولا من الكُتّاب المحترفين، فلم يكونوا معنيين بمظاهر الحياة الفكرية أو الفنية في أي من البلدين [٢٨].

وعلى الرغم من تميز القرون الوسطى بحركة تجارة عالية إلا أنها لم تكن منفتحة على العالم، بل كانت متجمدة داخل معتقداتها. يقول جاستون باري Gaston Paris: «إن العالم المادي يتبدى للخيال على القدر نفسه من الاستقرار والمحدودية، بالسماء الدوّارة المرشقة بالنجوم، التي تظلله، وبأرضه الساكنة، وبجحيمه؛ وكذلك الحال بالنسبة للعالم المعنوي.. فلا أحد يفكر في الاعتراض على المجتمع الذي يعيش فيه، أو يحلم بآخر يكون

بناؤه أفضل.. فعالم ذلك الحين كان ضيق الأفق، زائفًا، واعتباطيًا» [٢٩]. لقد تميزت القرون الوسطى في الغرب بـ «كراهية المسلمين»[٣٠] وفي الشرق كان الحذر والكبرياء إزاء الفرنج هو الشعور الذي ولدته الحملات الصليبية مما نجم عنه هوة عميقة بين العالمين.

ومع هذا كان انغلاق الإسلام على ذاته أقوى، كما استمر طويلاً. ولا يسعنا ذكر أسماء رحّالة شرقيين في فرنسا خلال القرون التي كان يزور فيها مصر بيير بيلون Pierre Belon وتيفونو Thévenot، وغيرهما كثيرون [٣١]. ولن نستطيع أن نتهم صعوبة حركة التنقل بأنها كانت السبب وراء هذا. يقول أحد المستعربين : «إن القرون الوسطى بكل تمزقاتها السياسية، والغزوات التي شهدتها، وردود فعل العالم المسيحي، أجبرت المسلم على أن يلوذ بأرضه، على نحوٍ ما. وحينما حصرت العقيدة نفسها في دراسة قضايا ثانوية، فقد أسهم هذا في تعميق البعد عن كل ما هو غير إسلامي، فالأحكام التي تقضي بها توصي بشدة بأقل قدر من التعامل الممكن مع غير التابعين للدين. أليست الدول الأجنبية هي المكان الذي يعاني فيه المسلم أشد المعاناة في سبيل ممارسة الفروض الأساسية التي يقضي بها دينه مثل الصلاة والصوم؟ فإذا غفل عنها تحرجًا منه أو لكونه غير مبالٍ، ألا يجازف بهذا بالتعرض للعقاب الإلهي بعد موته؟ ومن ناحية أخرى، فإن التصوف بمختلف أشكاله، حينما ينادي بأن الحياة الداخلية هي وحدها التي تحسب وأنه من غير المجدي أن نبحث بعيدًا عما نحمله بداخلنا، فإنما يساعد هذا الفكر على إذكاء القطيعة مع العالم الخارجي [٣٢].



ومصر التي ارتبطت بقسطنطينية منذ عام ١٥١٧م، لم تلتفت قط صوب الغرب. وقد امتدت مشاعر عدم الاكتراث تلك حتى القرن الثامن عشر. وفي فرنسا، ساد الاعتقاد أن الشرقي يفضّل أن يبقى في بلده. وفي «إرشادات للسيد ڤانسليب Vansleb المتوجه إلى المشرق في السابع عشر من مارس عام ١٦٧١، والتي كتبها كاركافي Carcavy أمين المكتبة الخاصة بلويس الرابع عشر، نقرأ: «أثناء أبحاثه وخلال أسفاره، إن استطاع

العثور على أحد النبلاء يكون على دراية جيدة بعدة لغات شرقية معًا، مثل العربية، والتركية، والفارسية، والأرمينية، فليحرص على إلحاقه بخدمة صاحب الجلالة، وعلى إجباره على القدوم هنا من خلال تغذية طموحه إلى ظروف مميزة وكريمة.. ولكن قبل أن يلتزم مع أي شخص، عليه أولاً فحص كل من سيعرضون عليه بصورة دقيقة، ليس فقط فيما يتعلق بدرجة إجادة اللغات، وهو الشق الأهم، ولكن أيضًا فيما يخص العادات، والنزاهة، ومدى الاستقرار هنا في هذا البلد، فالشرقيون عادة لايثبتون على حال .. »[٣٣] .

وفي مذكراته التي كتبها أثناء رحلته، لا يخفي فانسليب خيبة أمله، وحينما يرسم ملامح المصريين، فإنه يستفيض في وصف «عيوبهم» يقول: «هم في غاية الجهل بجميع أنواع العلوم والآداب: فهم معتدّون بأنفسهم، ومتفاخرون، وعلى الرغم من أنهم يعرفون جيدا أنهم فقدوا تمامًا نبلهم، وبلادهم، والعلوم، واستخدام السلاح بلغتهم، كما فقدوا كتبهم الأساسية وتاريخهم العام وإنهم بعد أن كانوا ذات يوم أمة مجيدة وشجاعة أصبحوا عبيدًا وصاروا شعبًا متدنيًا وكريهًا، فإن غرورهم يذهب بهم مع هذا إلى حد الاعتقاد بعدم احتياجهم لأي شيء كان، بل إنهم يشعرون بالإهانة حينما ننصحهم ـ نحن الفرنجة ـ بإرسال أطفالهم إلى بلدنا لدراسة العلوم، وليروا كيف نحكم أنفسنا فيها »[٣٤].

علينا أن نبحث في انعزال مصر نفسه عن سبب تدهورها. وعبثًا حاولت فرنسا أن تجتذب إليها بعض أبناء هذه «الأمة المجيدة». ولكن السبات نفسه شل حركة الأقباط والمسلمين معًا. وبعد فانسلب ومنذ عام ١٦٩٩ فإن القنصل بونوا دي مابيه Benoit de Maillet سعى بأمر من بلاطه إلى توظيف ثلاثة أقباط من عائلات كريمة تتراوح أعمارهم ما بين اثني عشر وثمانية عشر عامًا، لإرسالهم إلى فرنسا[٣٥]. وقد توجه إلى اليسوعيين، وإلى آباء الأرض المقدسة، وإلى الرهبان الكابوشيين(*) الذين كانوا يديرون في القاهرة مدارس يرتادها أطفال من المنشقين(**) ، غير أن جميع جهوده باءت بالفشل، وقد تفجرت خيبة أمله بدورها على أحد صفحات كتابه. يقول : «قد نعتقد أن تربية بعض الأطفال الأقباط بيننا ربما يكون لها تبعات لصالح الدين. وبودي أن أعتقد بدوري في سلامة هذا

الاعتقاد. ومع هذا ، فقد جعلتنا التجربة نتيقن بصورة كافية من عكس هذا. ونحن نعرف أن في روما عدة مدارس يتم فيها رعاية عدد كبير من الشباب القادمين من جميع الأمم المنشقة في الشرق، بهدف استخدامهم ذات يوم في تحويل أوطانهم إلى الدين فإذا افترضنا أن الحال كان مختلفًا مع أبناء الأقباط، فهل نستطيع أن نفاخر بأنهم بعد عودتهم إلى بلادهم سوف يحتفظون طويلاً بالمشاعر التي حرصنا على بثها في نفوسهم؟ خاصة إذا أخذنا في الاعتبار مشاعر الكراهية والاحتقار التي يكنها الأقباط لنا ولديننا. فأي فرصة لنا مع شباب لم يتم تغذيته إلا بأحاديث في غير صالحنا، وبمشاعر كريهة إزاء ديننا وعاداتنا، ليفضلوا عقيدة لقنهم إياها أجانب على عقيدة مواطنيهم، وأسلافهم! فمشاعر العداء التي تكنها لنا تلك الشعوب من الحدة والعنف بحيث إنهم حينما يذهبون في إهانة رجل إلى أقصى مدى، فإنهم يقولون له يا «إفرنجي» وهذا - فيما يرون - يعبر عن احتقارهم في كامل مداه». (٣٦)

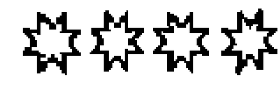
وهناك حدث صغير وقع عام ١٧٠١، خلال إبحار شارل بونسيه Charles Poncet (٣٧) من بولاق في طريقه إلى مارسيليا، يؤكد بدوره تعنت هذا الفكر الشرقي إزاء عالم الفرنجة فباعتقاده أن اصطحابه حبشيًا شابًا معه سيضفي مزيدًا من الطابع المحلي على رحلته، فقد أثار بونسيه حفيظة سكان القاهرة، وعرض نفسه للإنكشاريين الذين استشاطوا غضبًا، وقدموا للاستيلاء على الحبشة(٣٨). وبالفعل، طبقًا لقوانين الأتراك وأعرافهم كان محظورًا إدخال سود أو ملونين غير مسيحيين إلى بلاد مسيحية دون إذن خاص، وقد يصل جزاء هذا الفعل إلى حد الموت(٣٩).

ومع هذا، لم ينصرف الطموح الفرنسي في أية لحظة عن مصر. وما الوثيقة التاريخية مجهولة المؤلف التي تحمل عنوان «شعار الطرق المفضية إلى بابل» والتي ترجع إلى الفترة التي تعقب لويس التاسع مباشرة، سوى خطة لغزو البلد (٤٠). وفي عام ١٥١٠، كان لويس الثاني عشر حكم بالتعاون مع جاك الرابع ملك اسكتلندة يعد للقيام بحملة تهدف إلى معاقبة السلطان الغوري جراء إساءته للمسيحيين، ولكن المسألة قُضت بالطرق

السلمية، من خلال تبادل إرسال مبعوثين من كلتا السفارتين، وهو الأمر الذي أشرنا إليه آنفًا(٤١). وكان خطاب دوبليسي مورني Du Plessis Mornay الذي وجهه إلى هنري الثالث عام ١٥٨٤ يضع بالفعل تصورًا لكيفية «النهوض بالمحور التجاري في العالم، من خلال إعادة تجارة التوابل والمنتجات القادمة من الشرق الأوسط إلى السويس»(٤٢). وقد أصبحت مسألة استرجاع مكانة التجارة في فرنسا الشغل الشاغل لكولبير Colbert الذي أسس - كما نعرف - «شركة الهند» المعروفة. وفي الوقت الذي بدأت فيه مفاوضات بين قصر فيرساي والباب العالي، وألهمت سفارة سليمان أغا برسوماتها ونقوشها موليير «المشاهد التركية» التي جاءت في مسرحيته «البورجوازي النبيل» Le Bourgeois Gentilhomme وسافر الماركيز دي نوانتيل de Nointel إلى قسطنطينية بصحبة كتّاب وفنانين، ثم توجه إلى مصر عبر سوريا وفلسطين(٤٣)، استبعد لويس الرابع عشر الاقتراح الذي تقدم به ليبنز Leibniz عام ١٦٧٢ بغزو مصر، لإبعاد جيوشه عن هولندا(٤٤). ولسنا بحاجة لأن نعدد جميع الرحالة الذين سافروا إلى مصر، من بعد كتاب جان ماري كاريه Jean - Marie Carré الذي يقول إن «موجة أولى من المهتمين بدأت تتدفق نحو عام ١٦٥٠، واستمرت الحركة الناجمة عنها نحو قرن من الزمان» (٤٥). وطوال القرن الثامن عشر، تباطأت إنجلترا قياسًا إلى فرنسا في الاهتمام بشئون مصر (٤٦). وفي عام ١٧٣٧، جاء بالفعل في أحد التقارير اقتراح بنقل عمود السواري من الاسكندرية إلى باريس، على أن يوضع في أحد ميادين العاصمة، يعلوه تمثال للويس الخامس عشر(٤٧). ومع نشوب الحرب التركية الروسية التي أعلنت عام ١٧٦٨، عادت للظهور في فرنسا من جديد، في وثائق الشئون الخارجية، الفكرة التقليدية الخاصة بالاستيلاء على مصر التي كانت تتهيأ للانفصال عن الامبراطورية العثمانية. وإذا كانت أسماء من وقعّوا على هذه الوثائق قد تغيرت، فإن مضمون العرض لم يتغير، بداية من شوازول Choiseul، ولوزان Lauzun، والدوق ديجييون d' Aiguillon، وسان ديدييه Saint - Didier، والبارون توت Tott، ووصولاً إلى تاليرون Talleyrand (٤٨)، وهذا هو أصل حملة بونابرت (٤٩).

وقد شهدت نهاية القرن الثامن عشر تزايدًا كبيرًا في اهتمام فرنسا بمصر. فكتب القس لو ماكرييه Le Mascrier «لم يعد أحد يتحدث إلا عن المدن العتيقة : طيبة ومنف وصحراء ليبيا وكهوف طيبة، وأصبح النيل مألوفًا للكثيرين أكثر من نهر السين، بل إن آذان الأطفال مُلئت بصوت جداوله ومصباته. الكل شاهد مومياواته أو سمع عنها، وباختصار فإن بير يوسف، وعمود السواري، ومنار الاسكندرية، وأهرامات الجيزة ، كلها أشياء كثر الحديث عنها حتى أصبحت محاولة إضافتها إلى المعارف القائمة هي أشبه بتعريف الباريسيين بسان دوني Saint - Denis(*) أو وصف مقبرة القديس مارتان لأحد سكان مدينة لا تورين La Touraine (٥٠).

ولكن أبدًا لم يكن انعزال مصر مطلقًا على هذا النحو. فقبل أيام من وصول الأسطول الفرنسي حاملاً جيش الشرق، أسرع نلسن Nelson الذي كان يرصد تحركاته إلى بلوغ الاسكندرية، حيث ابعده محمد كريِّم حاكم المدينة الذي رد عليه باستنكار: «ليس معقولاً أن يأتي الفرنسيون إلي بلادنا، ليس لهم صالح بها» (٥١). هذه الكلمة التي قيلت ليلة نزول بونابرت على شاطئ مصر، تبرز عنف لقاء غير متوقع، جاء ليخرج البلد من صفاء خلو البال الذي كان عليه.



كان هذا بداية لعهد جديد بالنسبة لمصر اكتشفت معه وجود عالم آخر أفضل بكثير من عالم الأتراك والمماليك. فبدأت تستعيد العلاقات مع الغرب الذي استهدف من جانبه سحبها إلى مداراته. ولما كانت فرنسا قد كشفت لمصر عن هذه الحياة الحديثة، فقد عهدت إلى متخصصين فرنسيين بإمدادها بالمعدات، وأرسلت عددًا من أبنائها إلى فرنسا لينهلوا من العلوم والتقنيات التي تفتقدها. وقد تجاوز البعض ما استهدفه الحكام، وشرعوا في دراسة المؤسسات الاجتماعية والديمقراطية. وحينما أحكمت السياسة الخديوية الخناق عليهم، وكذلك فعل الإنجليز، لاذوا بالشعب الذي طالب بحقوق الإنسان، ليترافعوا عن قضية حريتهم واستقلالهم. ومن ناحية أخرى وعلى مدى هذا القرن، قام عدد متزايد من

الرحّالة بوصل الإسكندرية بمارسيليا. فتدفق مهاجرون ولاجئون وطلبة وصحفيون وأدباء وسائحون تباعًا على باريس، أو كانوا يتوقفون في جنوب فرنسا، حيث كانوا يجدون الملاذ والمدرسة والمنبر العالمي الذي كانوا يبحثون عنه، في تقليد بدأ يرسو.

وكان بونابرت نفسه هو من أراد إرسال شباب مصري إلى فرنسا حين كان في القاهرة، ولكن ظروف الحرب وحالة الترقب التي كان عليها الإنجليز في مياه البحر المتوسط لم تسمح بهذا قط، ومع هذا، فقد سنحت الفرصة بعدها بقليل لإرسال بضع مئات من المصريين إلى السواحل الفرنسية، مع انسحاب جيش الشرق، وقد اعتمد مشروع كامل لاستقلال مصر على هذه الهجرة (٥٢) . غير أن وفاة قائدها المعلم يعقوب خلال الرحلة البحرية ـ مع الأسف ـ كان بمثابة ضربة قاضية للمفاوضات التي كان سيبدأها مع كل من الحكومة الفرنسية والإنجليزية. وبرحيل رائد القوميين هذا، تحول «المفاوضون المصريون» إلى «لاجئين مصريين» يعيشون في مارسيليا وميلان Melun في بؤس بعدما أثبتوا شجاعة فائقة في جميع ميادين القتال التي خاضتها الامبراطورية، من إسبانيا إلى روسيا.

وفي المجال الفكري ، فلا يوجد مثيل «لحركة انتقال الأفكار خلال الهجرة الفرنسية منذ عام ١٧٨٩ إلى عام ١٨١٥ (٥٣). هؤلاء المهاجرون، وإن لم يكن معظمهم يجيد القراءة أو الكتابة، إلا إنهم مع هذا أمدوا مدرسة اللغات الشرقية بمترجمين، وبمدرسي لغة عربية بارزين نذكر من بينهم اثنين كان فضلهما كبيرًا : إلياس بقطر Ellious Bocthor (١٧٨٤ ـ ١٨٢١) وهو موهبة مجهولة، ومؤلف قاموس مهم، حالت وفاته المبكرة دون إظهار قدراته كاملة(٥٤) كذلك يوسف أجوب Joseph Agoub (١٧٩٥ ـ ١٨٣٢)، الشاعر اللطيف الذي لاقت أبياته الفرنسية نجاحًا كبيرا في صالون السيدة دو فرينوا Madame Dufrénoy وكذلك في المجلات الصادرة في ذلك الحين، كما أن ترجمته للمواويل ـ وهي أغانٍ شعبية مصرية ـ كانت محل إعجاب لامارتين Lamartine (٥٤). ومع هذا، فإننا نمعن في نسيان الدور الذي لعبوه في نهضة الاستشراق وإرساء الموضوعات الرومانطيقية. وحتى لا نثقل

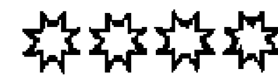
على هذا الكتاب، فإن الدراسة التي أعددناها في صدر أطروحتنا بخصوصهم وبشأن مدى تأثيرهم، ستكون محل نشر خاص مزود بوثائق جديدة، وستحمل هذا العنوان: «مهاجرو مصر، ونشأة الرومانطيقية الفرنسية».

هذا اللقاء بين الشرق والغرب الذي أملته أحداث الحرب والسياسة، آتى ثماره خاصة في فرنسا، أما التجربة التالية الممثلة في البعثة المدرسية المصرية التي أتى بها جومار Jomard إلى باريس عام ١٨٢٦ بعد أن نجح في لفت نظر محمد علي بعيدًا عن إيطاليا، فقد منحت مصر أول صنّاع نهضتها، ويكفينا أن نذكر رفاعة الطهطاوي نموذجًا. كانت فرنسا هي المكان الذي شهد بشكل مختلف عناصر إنجازاته المتعددة. فمذكرات رحلته التي كتبها في فرنسا تحتوي على بذور نشاطه المستقبلي، كما أنها تمثل ـ من هذا المنطلق نفسه ـ شهادة ذات قيمة إنسانية وتاريخية عالية، فهي شهادة على طالب الأزهر السابق الذي تحول إلى داعٍ للحداثة، شهادة على منابع تحديث مصر. استمر بانتظام هذا اللقاء الخصب مع الحضارة الغربية، وكان من نتاجه ـ في أواسط القرن ـ علي مبارك. وعلى الرغم من كون «أحمد الفلاح» لإدمون أبوت Edmond About مجرد بطل خيالي في رواية إلا أنه شخصية حقيقية، فهو بالقضايا التي يطرحها يمثل طبقة كاملة من الشباب الذي تربى في فرنسا ثم عاد إلى بلده بكل الفضائل والطاقات، مع قدرة على إعادة إنتاجها، ورغبة في هذا (٥٥).

وإلى جانب بضع مئات من طلاب سافروا إلى فرنسا خلال بعثات متتالية،، ظهر خلال الربع الأخير من ذلك القرن، صحفيون وأدباء استبعدهم الخديوي إسماعيل ومن بعده توفيق بسبب آرائهم الليبرالية ولم يترددوا في السفر إلى باريس. وهناك في ظل مناخ محفّز، وبفضل التنافسات المستحكمة بين فرنسا وإنجلترا، عاودوا نضالهم ضد النفاق الخديوي والطغيان البريطاني، وقاموا بنشر مذكراتهم التي اتسمت بأنها لاذعة أكثر من أي وقت مضى، ومن بينهم، يطفو وجه أصيل، هو وجه يعقوب صنّوع الذي كان يدير في القاهرة مسرحًا شعبيًا ويقوم بتحرير مجلة فكاهية ساخرة نثرًا وشعرًا. تلك المجلة التي

كانت تصدر تحت اسم «أبو نضّارة» وتهاجم بشدة الخديويين وتندد بتجاوزاتهم بكل جرأة اللغة العامية، نجحت في الدخول سرًا إلى مصر. وكثيرًا ما كان صنّوع يضيف إلى المجلة صفحات باللغة الفرنسية. وفي الوقت نفسه تقريبًا قام أديب إسحاق وهو صحفي شاب مشتعل بالحماس، كانت ثقافته فرنسية، بإصدار مجلته «مصر القاهرة» في «باريس تحت سماء الحرية». وسرعان ما انضم إليهم أستاذهم جمال الدين الأفغاني، ذلك الرجل الذي أحدث هزة في الفكر في الشرق المسلم برمته هو ومريده الشيخ محمد عبده، وأطلقوا «العروة الوثقى» لسان حال الفكر التقليدي النضالي. وبعد أن أصبح هؤلاء الصحفيون المثقفون أكثر وطنية من جراء نفيهم، وجدوا خلال إقامتهم في باريس أفكارًا وتقنيات جيدة، كلها أسهمت في تغذية الليبرالية وصحافة مصر الناهضة.

وسواء أكانوا مهاجرين ، أم طلبة، أم منفيين، فإن جميع المصريين الذين تحدثنا عنهم حتى الآن ليسوا رحّالة حقيقيين. فالطابع اللا إرادي الذي اتسم به سفرهم، والهموم الملحة التي كانت تحدد تنقلاتهم، كل هذا ينتقص من السفر ما ينطوي عليه من متعة الإحساس بالاغتراب وبالاكتشاف الشخصي. لذلك علينا أن ننتظر العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وخاصة الفترة ما بين عامي ١٨٨٩ و ١٩٠٠ لنشهد وصول رحّالة مصريين ، بالمعنى السياحي للكلمة، إلى باريس لزيارة المعارض العالمية. كان هؤلاء يسافرون بشكل فردي، ويسافرون للسفر، وكانوا غالبًا ما يكتبون يوميات يسجلون فيها انطباعاتهم [٥٦] ، ومن المثير للاهتمام استخلاص ردود الأفعال نفسها من مذكرات رحلة كل من أمين فكري، والباجوري، وأحمد زكي، فهي ردود أفعال مصر إزاء الحضارة الغربية. وسواء أكان هذا عن وعي أم عن غير وعي وعلاوة على مباهج الرحلة وسحرها ، فقد سعى رجال نهاية القرن هؤلاء إلى أخذ معلومة وتعلم درس سارعوا بتوصيله إلى مواطنيهم.



ومن هذا المنطلق، فإن موضوعنا يرتكز على الزمن ومع زوار المعارض، أصبحت فرنسا هدفًا سياحيًا. فبعد المهاجر، والدارس، والمنفي، كان السائح هو النتيجة الطبيعية للتطور العام لنوعية الرحّالة. ونحن إذ نخط مراحل هذا التطور فإننا في الحقيقة نتتبع تاريخ تدرج فهم مصر لباريس إلى مداه.

وهذا التاريخ هو الذي شهد حدوث «الوفاق الودي»، ذلك الذي أصاب مصطفى كامل والحزب الوطني بخيبة الأمل، غير أنه لا يعكس مع هذا قطيعة حقيقية بين البلدين. فبعد أن تخلت فرنسا رسمياً عن مصر لصالح إنجلترا، حاولت أن يكون لها تأثير فكري [٥٧] بدلاً من التأثير السياسي. وسرعان ما تم تجاوز خيبة الأمل ونسيانها، وعادت بعثات طلابية للسفر من جديد في القرن العشرين إلى المدن الجامعية الفرنسية. وإلى جانب رجال الأعمال راحت فئة برجوازية تقوم كل صيف برحلات استجمام إلى المصايف الفرنسية. وقد عقدت مؤتمرات علمية وعالمية كثيرة في باريس، شارك فيها عدد من المصريين الذين قاموا بعد عودتهم بنشر انطباعاتهم عن السفر. وإذا كنا نقر مع آنري بيريس Henri Pérès أن «فرنسا شكلت في القرن التاسع عشر مركز جذب لاجدال فيه، وربما عاد هذا ـ دون أن تدري - إلى انتشار أفكار الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩ ، وإلى مكانة نابليون، ولكن الأمر الأكثر تأكيدًا هو أن هذا يرجع إلى الإبهار الذي تشكله مدينة النور»[٥٨]، فإننا نعتقد أن عام ١٩٠٤ شكل نهاية عهد ما. وفي بداية القرن العشرين، وانتظارًا لأن تلغي الطائرة المسافات، فإن خط سير الرحلات لن يتجه فورًا من الاسكندرية إلى مارسيليا وإلى فرنسا حصرًا. ومنذ ذلك الحين، بدأنا نجد في كتابات الرحلات إلى أوربا ـ ودون الحديث عن أمريكا ـ أن فرنسا أصبحت تشغل فصلاً في الكتاب إلى جانب بلاد أخرى. فما بين عامي ١٨٨٩ و ١٩٠٠ كان السفر إلى باريس يتم بغرض زيارة المعرض الدولي. وكان تذبذب السياسات، وسهولة الانتقال وإيقاع الحياة العالمية المضطرم وراء إنطلاق المصريين صوب الأفق الأكثر تنوعًا.

وهناك بعض التحفظات التي تفرض نفسها على استخدام الألفاظ: «الرحالة والكُتاب المصريون». فقد رأينا الآن جميع الخصائص التي يردنا إليها لفظ «رحّالة» وتنويعاته التي تبدأ من المنفى، حتى تصل إلى السائح. ومن بين هؤلاء الرحالة، نجد صحفيين وأدباء، ولكننا لن نجد من بينهم كاتبًا كبيرًا قبل العقد الأخير من القرن التاسع عشر. ذلك أنه لم يكن هناك في هذا العصر كتاب كبار في الأدب العربي. فبعد فترة ركود طويلة تعود إلى

القرون الوسطى، تمثلت مهمة الأجيال الأولى في القرن التاسع عشر في زعزعة هذا السبات ونجحت في هذا إلى حد ما، لن تفرز روائع بعد لانشغالها باكتساب عناصر حياة فكرية وثقافية جديدة، وهو ما كانت تسعى وراءه في أوروبا. وما كان رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك إلا اثنين من رواد هذه الحركة، وتتبعهم في فرنسا هو بمثابة دراسة للميلاد الشائق للأدب المصري الحديث. ولايسعنا إلا التأكيد على أهمية كتاب «تخليص الإبريز» وهو تدوين لرحلة رفاعة.

وحينما كتب الروائي الأول المويلحي كتابه «الرحلة الثانية» فيتعين ألا يغيب عن ذهننا الخيط الذي يربطها بكتاب رفاعة مرورًا أيضًا بكتاب «علم الدين» لعلى مبارك. وسوف نرى كذلك كيف سافر كبار كتّاب مصر وشعرائها إلى فرنسا وتشكلوا بها، وأخذوا منها أفكارًا وأشكالاً وأنماطًا أدبية جديدة. وقد بشرت رحلات المويلحي وشوقي في نهاية القرن التاسع عشر بما كتبه طه حسين وتوفيق الحكيم، ومحمد حسين هكيل، وحسين فوزي ويحيى حقي، في هذا المجال. يقول كراتشوفسكي [٥٩] «علينا أن نعتبر تاريخ الأدب العربي في مجمله تاريخًا للتأثير الأوروبي» والتأثير الفرنسي تحديدًا، طالما تعلق الأمر بالقرن التاسع عشر، وطالما كانت كلمة تأثير تعني حافزًا لإبداع باعث على النهضة. إن هؤلاء المتلقين لثقافة إنسانية هم لسان حال الروح المصرية المستعادة، هؤلاء الكتّاب الرحالة، وحتى أصحاب الدور الثانوي من بينهم، اضطلعوا بمهمة كبيرة، لذلك فإن دراستهم مجدية. وقد اضطررنا للتضحية من أجلهم بالآخرين: فنيين، وعسكريين، ودبلوماسيين وغيرهم.

وتكتسب صفة «مصري» قيمتها كاملة حينما ننعت بها هؤلاء الرحالة بداية من المعلم يعقوب وحتى مصطفى كامل، وهما وطنيان سعيا إلى فرنسا من أجل تحرير وطنهم. فقد بدأت القومية المصرية في التعبير عن ذاتها خلال القرن التاسع عشر والتأكد بصورة رسمية على انفصال مصر عن الإمبراطورية العثمانية، وابتعاد أسرة محمد على عن أصولها. ويضم مفهوم «الشرق» المبهم ـ في ظل الالتباس العثماني ـ كلاً من المسلم ،

والمصري، والعربي، والشرقي، والتركي وغيره. وتحت مسمى «لاجئ مصري» نجد في أرشيفات مدينة فانسان Vincennes جميع أسماء السوريين، واليونانيين، والأمريكان، بل والإيطاليين الذين تبعوا جيش الشرق في فرنسا. وكانت «البعثات التعليمية المصرية» التي أرسلها محمد على تضم أرمن وشراكسة وأتراك أكثر من المصريين الحقيقيين. ولن نهتم بهؤلاء إلا بالقياس إلى مدى تمثيلهم لمصر أو خدمتها.

ومع هذا، فإن تاريخ مصر السياسي لن يتم تناوله إلا باعتباره خلفية لا غنى عنها لفهم الأحداث، وسبب تنقلات أحد الرحالة ونشاطه، ولتفسير ما استرعى انتباهه. سوف نبحث لدى كل رحّالة عن صفته ومشواره، وغايته، وردود أفعاله، ورؤيته لفرنسا، وما يدين به من معارفه لسابقيه، وما كان له الفضل في اكتشافه، وخاصة ما نقله لمواطنيه. وبخلاف الأهمية التاريخية، والتبحر الأدبي، فإن تيار الرحالة المصريين في فرنسا في القرن التاسع عشر يمنحنا مشهدًا إنسانيًا، يتمثل في اللقاء بين عالمين، وفي علاقات معقدة بين شعبين وحضارتين.

****

الهوامش

1 - C. Julian: "La Légion thébaine," 43.

٢ ـ انظر الهوامش التكميلية، الهامش رقم ١.

٣ ـ «كلمة موريشيوس Mauricius مأخوذة من الصفة Mauricus المشتقة من كلمة Mauras أو Le Maure

D.Van Berchem, Le martyre de Légion Thébaine , 31.

٤ ـ كلمة «قبطي» تعادل كلمة «مصري» وربما يرجع أصل الكلمة إلى Coptos، وهو اسم مدينة في صعيد مصر، اشتهرت بالحصار الطويل ذي العواقب الوخيمة الذي وقف فيه المصريون ضد ديوقليتيانس *Dioclétien وربما يعود الاسم إلى كلمة ايجيبتوس Aiguptos الاسم اليوناني لمصر، والذي يرجع فيما يبدو ـ إلى اسم العاصمة المصرية ممفيس Ha _ Ka - ptah حا ـ كا ـ بتاح (= بيت روح بتاح، الإله ممفيت Memphite) وفي أعقاب الفتح العربي، وبما إنه كان يشار إلى سكان مصر بالأقباط، وكانوا مسيحيين، للتمييز بين المسلمين وبينهم فقد أضيف المعنى الديني للكلمة إلى المعنى العرقي، وظلت كلمة «قبطي» مرادفًا لـ «مسيحيّي مصر». ارجع إلى:

G. Wiet: "Kibt", Enc. de L'Islam 1er éd, II, 1048 - 1061

W.B. Bishai: "The Transition From Coptic To Arabic", Muslim World, LIII (1963), 145-150.

M. Kamil: Coptic Egypt, 20 -21

(*) ديوقليتيانس (٢٤٥ ـ ٣١٣) من كبار أباطرة الرومان (٢٨٤). أعاد تنظيم الامبراطورية وأنشأ النظام الرباعي ٢٩٣. فعين مكسيميانس في الغرب مع قيصر يساعده واحتفظ لنفسه بالشرق يساعده غاليريوس. بدأ أعنف اضطهاده للمسيحيين في عامي ٣٠٣ ـ ٣٠٤ . واستقال عام ٣٠٥. (المترجمة)

5 - W.A. Philips: History of the Church of Ireland, 138 - 139.

(٦) Stanley Lane- Poole : Cairo, sketches of its history, monuments and social life London, 1892, 203- A.J. Butler: The ancient Coptic churches,14.

كذلك، هناك بعض الوثائق التي اكتشفت مؤخرًا وتم الإشارة إليها في جريدة وطني، القاهرة، ٢٦ أغسطس و٢ سبتمبر ١٩٦٢.

(٧) عن الطرق الداخلية في أوروبا العربية، انظر:

Parias : Histoire universelle des explorations, I, 275.

(*) هو أبو الرهبان المصريين، وتلميذ بولا أول الحبساء. تنسك في الصعيد واقتدى به كثيرون، وأسسوا الرهبانيات، (المترجمة).

(8) J. Szymusiak: "les luttes d'Athanase d'Alexandrie", 22 _ 23.

(9) G. Hermant: La Vie de Saint Athanase, I. 408 - 409.

(١٠) W.A. Philips, 18.

(١١) السابق ص ١٣.

(**) باخوميوس: هو مؤسس الحياة النسكية المشتركة. أسس عدة أديرة في مصر العليا ووضع لها القوانين الرهبانية الأولى. (المترجمة)

(***) مكاريوس: قديس تنسك في وادي النطرون. نسبت إليه رسائل قيمة في الحياة الصوفية (المترجمة).

(12) E. Ledewich : Antiquities of Ireland, 88.

نقلاً عن:

Saint Eucher : de Laudibus eremi, dans saint Hilaire: De S. Honorato oratio funebris, Paris 1578.

(13) M. Labib: Pélerins et voyageurs.

(14) Viollet - le-Duc: Dictionnaire Raisonné de L'architecture Française. Paris, 1861

(15) Th. Lefort: " Coptes et Latins".

(16) Ebersolt: Orient et Occident' éd. 1928, I, 29.

(١٧) مذكور سابقًا Th. Lefort.

(١٨) بدأ التقويم القبطي مع عمليات الاضطهاد والتعذيب الكبرى وجاء لتخليد ذكرى الشهداء في نهاية شهر أغسطس عام ٢٨٤م، وهو تاريخ وصول ديوكليسيان Dioclétien إلى الحكم.

(19) Ebersolt, I, 82.

(20) E. Mâle: L'art religieux du XIIe Siècle en France, Fig 126 et 167.

(21) Saint - Aymour: La France en Ethiopie.

(22) H. Pirenne: "Mahomet et Charlemagne" 85.

ويورد م. لومبار M. Lombard في كتابه "Arsenaux et bois de marine" أن «ندرة الأخشاب في البلاد الإسلامية تسهم في تفسير كيف أنه خلال القرن السادس الميلادي انتقلت السيطرة على البحر وعلى مراكز التجارة البحرية الكبرى من البحر المتوسط الإسلامي إلى البحر المتوسط المسيحي».

(23) G. wiet: "Le rôle de la France en Egypte"

(24) G. Paris: "La Légende de Saladin en Occident".

(25) Benjamin de Tulède: Voyage ,éd. P. Bergerson, La Haye 1735, 2, 66 ,67 ,Cf. Ebersolt, II, 15 - 16.

(26) F. Charles _ Roux: Les orignes de L'expédition d'Egypte, 5.

(27) L'Isthme de Suez et Les rivalités européennes au XVI Siècle

انظر : J. - M.Carré: Voyageurs, I. 3

(28) Le Mascrier: Description de L'Egypte, p. VI.

(29) G. Paris: La Littérature Française au moyen âge, 31.

(30) P. Martino: L'Orient dans la littérature française aux XVII et XVIII Siècle, 6.

(31) J. - M.Carré: Voyageurs.I.

(32) H. Pérés: Voyageurs musulmans en Europe.

(33) H. Omont: Missions archéologiques Françaises en Orient aux XVIIIe et XVIIIe siècles , I, 59- 60.

(34) Père J.M. Vansleb : Nouvelle relation en forme de journal d'un voyage fait en Egypte, 42.

(35) Saint - Aymour, 186.

(*) رهبان تابعون للفرنسيسكان (المترجمة).

(**) عن الكنيسة الكاثوليكية (المترجمة)

(36) Benoît de Maillet, 67.

(٣٧) عن شارل بونسيه Ch. Poncet انظر J. - M . Carré Voyageurs, I, 42.

(38) J.Bruce: Voyage en Nubie et en Abyssinie, II, 553.

(39) Saint - Aymour, 190.

(40) Schefer: Etudes Sur la devise des chemins de Babylone

(٤١) ارجع إلى الهامش الخاص بقناة السويس والمنافسات الأوربية .

(٤٢) السابق ذكره: F. Charles - Roux.

(43) Vandal: Les voyages du marquis de Nointel (1670 - 1680).

(44) Vandal: Louis XIV et L' Egypte.

(٤٥) السابق ص ١٤.

(46) F. Charles - Roux: L'Angleterre, L'isthme de Suez et L'Egypte au XVIII Siècle

(47) F. Charles - Roux: La politique française en Egypte à la fin du XVIII Siècle

(48) F. Charles - Roux: Le projet français de la conquête de L'Egypte sous le règne de Louis XVI..

(49) F. Charpes - Roux: Les Origines de L'expédition d' Egypte.

(*) حي شهير في باريس، وهو أيضا اسم لمدينة فرنسية اشتهرت في القرون الوسطى بالدير الموجود فيها، وبكنيسة مبنية على الطراز القوطي ما زالت تضم آثارًا جنائزية لبعض ملوك فرنسا. (المترجمة).

(50) Le Mascrier: Description de L'Egypte, P,III - IV

(51) Nicolas Turc: Chronique d'Egypte, publ. par G. Wiet

النص العربي صـ ٦ (من كتاب فييت).

(52) Georges Douin: L'Egypte indépendante. Projet de 1801, Le Caire, Soc. de géographie, 1924.

(53) F. Baldensperger: Le mouvement des idées dans L'émigration française de 1789 à 1815 - Paris, Plon, 1925, 2 vol.

(54) A. Louca: Ellious Bocthor, sa vie et son oeuvre, Cahiers d'histoire égyptienne, V, 5-6 (déc. 1953) , 309 - 320 :,"Joseph Agoub," ibid. IX, 5 - 6 (1958), 187 - 201

(55) J. - M. Carré : Voyageurs, II, 267

(٥٦) ارجع إلى:

Gabriel Olivier : "Le Tourisme à travers les âges", Annales du centre universit. méditerranéen, II (1947 - 48), 241 - 42, Pierre de Gorsse: "Histoire et technique du tourisme" ibid., IV (1950 - 51), 238. 41.

(57) Léon Blier : "La France en Égypte".

(58) H. Pérès: "Voyageurs musulmans en Europe".

(59) Enc. de l'Islam, 1er éd., suppl. p. 27.

****

الجزء الأول
البعثات التعليمية

الفصل الأول
المدرسة المصرية بباريس
(١٨٢٦ - ١٨٣٥)

عند قدومه إلى الإسكندرية في شهر مارس من عام ١٨٢٦، أراد الملازم أول البحري روبييار Robillard، وكان قائدًا للسفينة «ترويت» الخاصة بالملك، أن يستفيد من مروره على مصر لزيارة الأهرامات[١]. وفي القاهرة، تم تقديمه هو وأربعة من ضباط سفينته إلى محمد علي الذي كان «شديد الأدب واللطف معهم»، وحدثهم بأشياء «غاية في الأمانة» [٢]. ولا شك أنه طلب منهم أنباء عن الفرقاطات التي كانت تصنع في مارسيليا لحسابه. وقد شجعهم حسن الاستقبال هذا على عدم الاقتصار على زيارة الجيزة فحسب، ولكنهم ذهبوا إلى سقارة، ودهشور، ومعسكر أبي زعبل أيضًا حيث كان الجنرال بوييه Boyer يشكل الفرق الجديدة [٣]. وعند رحيلهم، كلفهم الباشا باصطحاب أربعة وأربعين شخصًا من رعاياه على متن سفينتهم، وأرسلهم إلى باريس لاستكمال دراستهم [٤].

لم تكن فكرة إرسال بعثات دراسية إلى باريس جديدة، بل كانت ترجع إلى نحو خمسة عشر عامًا. فقد سبق أن طرحها جومار Jomard، مهندس بونابرت الجغرافي السابق، الذي أصبح عضوًا في الأكاديمية ورئيسًا لتحرير موسوعة «وصف مصر»، وكان هذا «قبل عام ١٨١٢» [٥]. فعن طريق القنصل دروفيتي Drovetti، تقدم آنذاك إلى محمد علي بـ «خطة تهدف إلى تحضّر مصر من خلال التعليم»[٦]. ولما كان الباشا منشغلاً بإقرار سلطته أكثر من انشغاله بتحضر البلد، فقد أهمل المشروع. وحتى يسد الاحتياجات العاجلة لحكومته كان يستعين بفنيين وخبراء من أوربا. غير أن ضرورة تزويد الإدارة بمطبعة جعلته يقرر نحو عام ١٨١٥ إرسال نيقولا مسابكي - وهو سوري الأصل - لتعلم الطباعة في إيطاليا [٧].

وكان اختيار إيطاليا، لأنها كانت آنذاك أكثر الدول اللاتينية اهتمامًا بالاستشراق. ونحن نعلم أن المستشرقين الذين قدموا مع الحملة الفرنسية صادروا مطبعة مجمّع التبشير في روما وهم في طريقهم إلى الإسكندرية. وقد ظلت اللغة الإيطالية حتى بداية القرن التاسع عشر أكثر اللغات الأوربية انتشارًا في الشرق (٨). وكان هناك ضباط وأطباء ومدرسون إيطاليون يعملون في مصر (٩). ونحو عام ١٨١٩، عاد مسابكي من ميلانو مزودًا بالمطبعة التي أصبح مديرًا لها عام ١٨٢١ في بولاق نفسها حيث كان ملحقًا في البداية بمدرسة عثمان نور الدين (١٠). وتحت رعايته صدر في العام التالي أول عمل مطبوع، وكان معجمًا ثنائي اللغة : إيطالي، عربي (١١). أما عن زملائه الاثنين أو الثلاثة الآخرين، فيبدو أن التاريخ تجاهلهما (١٢).

بعد أن زار سويسرا وألمانيا وأقام بعض سنوات في إيطاليا، كان التركي عثمان نور الدين أول الطلبة المبعوثين إلى فرنسا. فقد أخذه تركي آخر هو إسماعيل جبرالتار Gibraltar الذي كان «أميرالاي» ومترجمًا لمحمد علي على متن سفينته من ليفورن Livourne إلى مارسيليا، حيث أدى بعض الأعمال لأستاذه نحو نهاية عام ١٨١٨ (١٣) قبل أن يتوجه إلى العاصمة. وفي باريس، درس الفرنسية والإنجليزية والرياضيات (١٤) لمدة تتجاوز العام بقليل، ولم يتأخر جومار في أن يعهد إليه بـ «نسخة أخيرة من الخطة» الموجهة إلى الباشا(١٥). ولكن نظرًا لشغف عثمان بكل ما هو إيطالي فقد سلم عند عودته إلى القاهرة عام ١٨٢٠ بلا حماس مشروع جومار الجديد إلى محمد علي الذي رأى على الفور أنه من السابق لأوانه تنفيذه (١٦).

ومسيرة عثمان المهنية الصاخبة معروفة في خطوطها العريضة: فهو مدرس لغة فرنسية(١٧)، ومدير مدرسة بولاق ومكتبتها(١٨)، وقد ترقي عام ١٨٢٥ لرتبة رقيب عام، وأصبح قائدًا في البحرية عام ١٨٢٨، ولكنه هجرها عام ١٨٣٣ إثر اضطرابات كاندي Candie التي حرص خلالها علي اتخاذ موقف سلمي مفرط ليحظي برضي الحاكم.

وسرعان ما فرضت عملية إرسال بعثة دراسية إلى أوربا نفسها، إذ لم يكن هناك أي تعليم عام في مصر [١٩]. صحيح أنه كانت هناك دائمًا تلك المدارس الأساسية العجيبة التي كانت تسمى «كتّابًا» [٢٠] في المساجد والأضرحة حيث كان يتعلم الأطفال القراءة والكتابة إلى جانب مبادئ الدين الإسلامي. وكذلك، كان للأقباط مدارسهم الملحقة بالكنائس [٢١]. أما بالنسبة لجامعة الأزهر العتيقة، فلم تكن تعيش إلا على مجد تاريخها اللامع أيام الفاطميين والأمويين. بل إن الدراسات التي تأثرت بالممارسات الدينية السرية[٢٢] لم تعد حتى تشغل المكانة الأولى. وكثير من الدارسين الفقراء كانوا يسعون بالدرجة الأولى وراء الطعام المجاني والمأوى الذي تكفله. كذلك، فإن التجار والجنود والمتشردين، الذين تجذبهم تلك الأماكن المقدسة، وطراوة الأحواش المرصوفة، كانوا يلوذون بالمسجد ويتطاولون على الطلاب ويلقون بكتبهم ومتعلقاتهم خارج المسجد [٢٣]. كما أن المعلمين الذين افتقدوا الوعي بعقم علمهم يجسدون لناظرينا استنفاد أغراض ثقافة انكفأت طويلاً على ذاتها وانعزلت عن أية محفزات خارجية. لم يكونوا يدرسّون إلا علوم الدين، والشريعة الإسلامية والمنطق والبلاغة [٢٤]. ولكن وضع يدهم على حكمة الشريعة، واعتقادهم بأنهم فئة عليا جعل هؤلاء الأزهريين لايتنازلون ويهتمون بالعلوم الدنيوية. وقد أدرك محمد علي أن التحرر يتطلب منه الانصراف عن بؤرة التقاليد الضيقة. كان بحاجة إلى ضباط، وبحّارة، وفنيين، ورجال قادرين على قيادة الترسانات ومواقع العمل والورش.

وبعد أن قضى على المماليك وانتصر على الوهابيين، بدأ محمد علي بأن عهد عام ١٨١٦ إلى حسن افندي الدرويش الموصلي بشباب العبيد الأبيض حتى يعلمهم في القلعة الكتابة والحساب [٢٥]. وتوسعت المدرسة؛ فحل التركي روح الدين أفندي محل الدرويش بها؛ وتضمن برنامجها الدراسي تعلم القرآن، واللغة التركية، والفارسية، والإيطالية، والتدريبات العسكرية. ونحو عام ١٨٢٠، تم نقل «مدرسة الهندسة» التي تم بالكاد إنشاؤها في القلعة أيضًا في ذلك الحين - إلى بولاق حيث قام بالتدريس فيها على ما يبدو باسكال كوست Pascal Coste المعماري المارسيلي[٢٦]. وفي عام ١٨٢٥، أي بعد مرور عام على

وصـول الجنرال بوييـه Boyer وبعـثـته، تم نقلهـا من جـديد إلى قـصـر العـيني تحت اسم «المدرسـة الإعـدادية العـسكرية»، ولـم يكن يقـبل فـيـهـا سـوى الطلبـة الأتراك والشـراكسـة والأكراج واليونانيين والأكراد، وهو خليط عثمـاني كان العنصـر المصري مستثنى منه[٢٧]. وحتى يحظى بأسرع النتائج، رأى محمد علي أنه من الأجدى إرسـال جزء من هؤلاء الطلبة للدراسة في أوربا [٢٨].

وكان هذا في شـهر يناير ١٨٢٦ حينمـا سـأل وزير الخـارجية باغـوص دروفيتي Dro-vetti في أي بلد، إيطاليـا أم فـرنسـا، يمكن لمجموعة من الشـبـاب الذين عينهـم البـاشـا تلقي أفـضل تعليم. وفي بادرة تنم عن ترفع وحيادية كبيرة، أشـار لوبيمونتيـه Le Piémontais عليـه مخلصًا بعدم اللجوء إلى المعاهد الإيطالية حيث كانت الحيـاة الفكرية تقـع تحت وطأة نظام رجعي [٢٩] وأضـاف بالـفرنسية قائلاً له : «إن مرأى شـخص مـسلم لا تثير في باريس النفـور نفسـه الذي تثـيره في مـدن إيطاليـا، حـيث تنشط الأحكام السـيئـة المسـبـقـة على المعتقدات الدينية، وتسود بدرجة أكبر، إضـافة إلى أن ظروف حـرب «التـحـالف المقـدس»[*] ضـد اليـونانيين قـد تثير بدورهـا مزيدًا من مـشـاعـر البـغـض وتجـعل اللقـاء غير سـار. ثم إن الفـرنسـيين يكنون للأتراك مـشـاعـر الـود والعطف؛ أمـا فـي إيطاليـا فـلا ينظر إلى المسلمين بعين الرضـا إلا في الموانئ لفائدتهم بالنسبة للتجارة». ولكن الجـمـيع لم يكن يشـاطره هذا الرأي.

وعلى الرغم من معـارضـة الحزب الإيطالي والإنجليزي، وكل من باغوص وعثمـان نور الدين، إلا أن القـرار اتخـذ لصـالح فـرنسـا [٣٠] بعـد مناورات دامت عدة أسـابيع. ولـم يبدد مـحـمـد علي الوقت، بل اسـتـفـاد من النوايا الطيبـه لقـائد السـفـينة لاترويت La Truite، وأصدر أوامره لهؤلاء الشبـاب بالتوجه إلى الإسكندرية والالتحاق بالسفينة المغادرة.

دامت الرحلة اثنين وثلاثين يومًا. وفي يوم ١٥ مايو، بلغوا مارسيليا واتجهوا مباشرة إلى لازاريه Lazaret. وقد أحدث ظهور رعايا البـاشـا القادمين من القاهرة أثرًا ملحوظًا في فرنسـا. غير أن هـذا الميناء الذي ضم سفنًا يونانية إلى جانب موقع العمل الذي كان يشـيد

فيه لوفيبور دي سوريزي Lefébure de Cerisy فرقاطات محمد علي شهد أنصارًا لليونان وللأتراك يسعون دائمًا للتشاحن فيما بينهم. وقد حاولت السفينة سبارتيات Spar-tiate إحراق السفينة أمازون Amazone قبلها بشهرين ولكن وجود سفينتين للملك كان ضروريًا لتهدئة النفوس[٣١]. وإذا كان قدوم المصريين غير المتوقع لم يتسبب في حدوث أي واقعة سيئة، إلا أن الليبراليين استغلوا الفرصة مع هذا للتنديد بوزارة فيليل Villèle التي أدينت بالتواطؤ مع إقطاعيي الملك.

وقد نشرت الصحف النبأ وعلقت عليه، واعتبره اليساريون إدانة، بينما اتخذه اليمينيون ذريعة للهجوم، ورد الاعتبار للحكومة. واستمر الربط الغريب بين هذه البعثة المدرسية وحرب الاستقلال اليونانية حتى في دوريات بثقل «لاريفو أنسيكلوبيد يك» (*) La Revue encyclopédique. فقد جاء بها: «بقدر ما أسفنا على السياسة الخاطئة والشرسة التي تأثر بها نائب ملك مصر، بالمشاركة الإيجابية - على الرغم منه - في حرب الإبادة الموجهة ضد الدولة اليونانية البطلة، بقدر ما يطيب لنا امتداح القرار الحكيم الذي أثمر عن نتائج مستقبلية والذي تبناه الأمير مؤخرًا وأعد سبل تنفيذه بدأب واستهدف تنشئة عدد من الشباب المصريين في فرنسا، وإعدادهم لتولي مناصب مهمة في وطنهم لاحقًا» [٣٢].

غيرت الأحداث الجارية إذن من الحجم الحقيقي للأشياء. ومثل جميع الأحداث الكبرى، أثارت هذه البعثة المدرسية البسيطة اهتمامًا حادًا. أخذ الجميع يتحدث عنها، ويستعلم عن أخبارها متتبعًا تنقلاتها. وأخذ جومار يمد الصحف بلا كلل بالبيان تلو البيان، مدافعًا عنها، مصححًا الأنباء غير الدقيقة، وكاشفًا بعض التفاصيل الجديدة.

وبعد أن غادر الأفندية [٣٣] الشباب السفينة لازاريه Lazaret بعد ١٨ يومًا على متنها، بقوا في مارسيليا شهري يونيو ويوليو أيضًا. تعلموا في البداية الأحرف الهجائية الفرنسية، وتنزهوا في الشوارع متأملين الأبنية بإعجاب. كانوا يرتادون المقاهي حيث

شـاهدوا الجـرائد للمـرة الأولى. وقـابلـوا أيضـًا بعض الـلاجـئين المصـريين والسـوريين، ودهشوا كثيرًا لمرأى النساء غير المحجبات يعملن في المحال. وبلغ انبهارهم أشده حينما شاهدوا العروض المسرحية [٣٤]. فقط اصطحب أجوب رؤساء البعثة الثلاثة إلى باريس حيث دعاهم جومار فور وصولهم للعشاء في منزله، بصحبة بعض أعضاء من الحملة على مصر، وكان بيليار Belliard من بينهم. وقد وجد هؤلاء الأفندية «جيدين للغاية» [٣٥]. أما الآخرون فقد انقسموا إلى أربع مجموعات تحت قيادة أربعة مترجمين تم اختيارهم من بين الجالية المصرية بمرسيليا، وما لبثوا أن استقلوا المركبات تباعًا وتوجهوا إلى العاصمة[٣٦].

وقد فجر وصولهم إلى باريس الاهتمام بهم. فعرفت الجماهير أنهم في الخامس من أغسطس تم تسكينهم في شـارع كليـشي Clichy رقم ٣٣، وأنه بداية من التـاسع من الشهر نفسه بدأوا في تلقي دروس اللغة الفرنسية، والرياضة، والرسم الخطي من السابعة صباحًا وحتى السادسة مساء، وأن الكثير منهم أثبت بالفعل كفاءة كبيرة[٣٧] حتى إنهم استقطبوا فضول سكان باريس وأصبحوا مادة خصبة للجرائد الساخرة مثل لاباندور La Pandore والفروندور Le Frondeur. فـقـد نشـرت البـاندور رسـالة مـسلية من «شـاب مصري، وصل إلى باريس مؤخرًا، وأقام في شارع كليشي. وهي موجهة لأبيه في دمياط» يقول فيها:.

«أبي العزيز جدًا.

في حفظ النبي، أنهينا رحلتنا سالمين، اطمئن على صحتي فالطبيب الفرنسي المكلف بمتابعة حالتنا الصحية أفاد بأنها جيدة، غير أنه يرى أن سحنتي يشوبها بعض الشحوب ووصف لي دواء ليعيد لها الإشراق. سوف آخذ كل ما يريدون فأنا هنا لأتعلم.

هم يصطحبوننا في نزهات في انتظار أن نبدأ التعليم. شاهدنا الشانزليزيه وتيفولي والباليه رويال. وكانت الزيارة الأخيرة هي أكثر الزيارات سحرًا. فالمكان عبارة عن سوق واسعة تعرض فيها بضائع من العالم أجمع. وعند الغروب في حديقة لذيذة تعبق برائحة

الزهور وتشيع الشلالات النضارة في جوها، يظهر حشد من الشابات الجميلات، انسللن - لا شك - من حرملك مجاور، لايخفي أي حجاب ساتر مفاتنهن ولا يحرسهن أي حارس. أخذت إحداهن تنظر إليّ ضاحكة ورحت مشدوها نشوانًا أتبع خطاها، وأردت أن أرمي لها منديلي لولا انه لم يكن في جيبي، ولابد أن يدًا حذرةً سحبته منه - لا شك - لتمنعني من ارتكاب فعل مجنون. ولكن، لا يهم، فسوف أعود إلى هذا المكان، ولسوف أرى الجميلة المجهولة من جديد، وأرجوك، بعد أن أصبح عالمًا، أن تشتريها لي إن كانت - كما آمل - للبيع..»(٣٨).

كذلك، قام كل من بارتليمي Barthélemy وميري Méry بتجسيد شخصياتهم في قصيدة بطولية كوميدية تحمل عنوان «البكرية» باعتبارهم مبعوثين إلى فرنسا بطلب من Osmin، سفير حاكم الجزائر لدى محمد علي، وذلك للثأر من ناتان بكري Nathan Bacri التاجر اليهودي الذي كان يبدد في باريس ملايين أخذها بغير حق من حاكم الجزائر.

في النسخة البريئة من الحكاية.
اختار Osmin الحذر قصرًا في حي كليشي.
جعله مقامًا للمتعصبين الخمسين .
وبدلاً من إبعادهم عن أنظار نهمة شاء أن يقوم كل تركي - وقد، حمسه برأيه.
بالتنزه أولاً في المدينة الفسيحة.
وراحت فرنسا المضيافة - زاهية بوجودهم.
تربت على هؤلاء الأبطال بيد اليفة.
ومن اجل إرضاء أبناء الوزراء.
أخذت كل يوم تبتكر لعبًا ومباهج جديدة.
وهم يخرجون بصحبة مترجمين نبلاء.
وتستقبلهم الاكاديمية في جلسات سرية.

☆☆☆☆

ولكن شيئًا لا يبدد قلقهم الغامض.
وقد استبدت الوحشة بأرواحهم كاملة.
يبكون على شاطئ السين منفاهم،
يفتشون حولهم عن شلالات النيل،
والواحات الخضراء ووديانها الرطبة،
حيث تغفو الأهرامات كما العماليق.
وحتى في حدائقنا حينما تمر
بنات المسيحيين بلطف تحت أشجار البرتقال،
ابدًا لا تجرؤ أعينهم المتبتلة في عذارى الدنيا،
على استنطاق الأثواب الهفهافة.» (٣٩).

وفي العام التالي، حينما وصلت بكل فخار إلى فرنسا الزرافة التي أهداها محمد علي إلى شارل الخامس، وجاب صيتها الآفاق (٤٠)، عاد المصريون للصدارة، وكانوا دائمًا يماثلون بينهم وبين الأتراك، ألد أعداء اليونانيين. وأصبحت الأحداث اليومية من الهزل بحيث أغرت مؤلفي المسرحيات الهزلية بالكتابة (٤١).

لم تخطئ كل هذه الكتابات الشعبية قط حينما اعتبرت رعايا محمد علي من الأتراك. فمن بين الأربعين طالبًا الذين أوفدهم كان هناك ستة عشر تركيّاً وشركسيّاً أو أرمينيّاً، ولدوا أغلبهم في قسطنطينية، غير العثمانيين الذين ولدوا في القاهرة، بينما كان عدد المصريين خمسة وكان الحزب الأول - الأكثر حظوة ـ مثل مصطفى مختار وعبدي شكري، يتولى القيادة أو يعد لتولي القيادة. لهذا جاءوا لتعلم الإدارة المدنية والعسكرية والدبلوماسية والملاحة. أما الآخرون من أبناء الفلاحين فكان عليهم تعلم مهن تابعة لهذه المعارف مثل الحفر والطباعة، والطباعة الحجر، والزراعة، والصناعات الكيميائية والطبية.

وكان محمد علي قد أنشأ هذه المدارس الأولى لتنقية الارستقراطية العثمانية(٤٢)، الداعمة لسلطته أو درعها الواقي (٤٣) فكان يأتي من قسطنطينية بشباب وصبية يشغل بهم

هذه المنشآت [٤٤]، ولم يكن يخفي هذا. فقد صرح لقنصل روسيا عام ١٨٣١ : «في إطار النظام الذي أقررته، يتم منح سلطات ثانوية إلى شباب الأتراك الخارجين من بيتي ومن بيت ابني، وأن يعهد بالجانب الإداري لمن قمت بتنشئتهم، ومن لايزالون يعيشون في أوربا على نفقتي. ومن أجل رعاية هذا الغرس، الذي يعد عصب حكومتي، والحفاظ عليه، لا أخفي عليك أنني أمرت بشراء عبيد بيض من الجنسين من مصر بواسطة تجار أتراك قادمين من قسطنطينية» [٤٥].

لم يبالغ بريس دافين Prisse d'Avennes إذن حينما كتب: «لم يفكر محمد علي قط في إمكانية عتق هذا الجنس العربي الذي احتقر لغته وازدراه. ولم يكن يحابي سوى الأجانب الأتراك أو المسيحيين؛ كانوا هم من يتمتعون بينما يعمل أهل البلد. وفي الجيش كان العثمانيون وعبيدهم يحظون بجميع الرتب، وكذلك كان الحال في الوظائف العامة»[٤٦].

ونستطيع أن نفهم أيضًا هذه الكلمات التي أعلن بها بوييه Boyer المهمة لبليار Belliard: «استطاع دروفيتي أخيرًا إقناع الباشا بإرسال ما بين أربعين إلى خمسين تركيًا إلى فرنسا (...) حينما تراهم، سوف يدهشك الاختيار [٤٧] كان أصغرهم في الخامسة عشرة من عمره، وأكبرهم في السابعة والثلاثين، ولا أحد بينهم يتحدث الفرنسية. كانت التركية هي اللغة الأم لأغلبهم. ولم يتلق أحد عشر شخصًا من بينهم أي تعليم ابتدائي. أما طلاب الأزهر السابقون الثلاثة [٤٨]، وخريجو قصر بولاق أو قصر العيني، فلم يكونوا متقدمين عنهم كثيرًا.

وفي شارع كليشي، باءت بالفشل محاولة تعليمهم مبادئ الفرنسية كلهم معًا. فقد استمروا في «الحديث فيما بينهم كالمعتاد بلغتهم» [٤٩]. ومن أجل الإسراع بتقدمهم، اتخذ قرار بتوزيعهم على أكثر من مقر في باريس. وجاء في La revue encyclopédique «هنا، لن تكون لهم علاقات إلا بفرنسيين، وسيكونون لحسن الحظ مضطرين إلى التحدث دائمًا بلغتنا، ولن يلبثوا أن يعتادوا عليها. عندئذٍ فقط ستؤتي دروس أساتذة العلوم لدينا ثمارها وهم يستمعون إليها، وسيكون بمقدورهم دراسة كلاسيكياتنا. هم لا يشغلهم الآن

إلا تعليم اللغة الفرنسية، والكتابة، والرسم، والحساب. وبعض الطلاب ممن يتمتعون بموهبة طبيعية، يأخذون أيضًا دروسًا في الموسيقى. أما الأكثر تقدمًا بينهم، فهم يبدأون قبل غيرهم في تعلم مبادئ الهندسة[٥٠]. وكان رفاعة، عضو البعثة أكثر دقة في الحديث عن هذه المرحلة الأولى من الدراسات : يقول:

«كانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب، وهو أنّا كنا نقرأ في الصباح كتب تاريخ ساعتين، ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية، ثم بعد الظهر درس رسم، ثم درس نحو فرنساوي، وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة. وفي مبدأ الأمر كنا نأخذ في الخط درسين، يعني معرفة الكتابة الفرنساوية، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسًا، ثم انتهى الأمر إلى أننا تعلمنا الخط، فانقطع عنا معلم الخط. وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهّل الله علينا بالرجوع». [٥١]

وقد تم توزيعهم على أفضل التربويين في باريس. فعلى سبيل المثال، استقبل جوبو Goubaux، مؤسس مدرسة شابتال الإعدادية كلاً من آرتين وأخيه خسروا والشاب مظهر.

كان الجميع يدرسون الحساب والجغرافيا والتاريخ والرسم ولم يفقدوا مع هذا ارتباطهم بالبيت المركزي. فكان عليهم الذهاب إليه عند خروجهم من محل إقامتهم لأخذ التعليمات الخاصة بالنزهات التي عليهم القيام بها في مجموعات صغيرة. ويوم الخميس ، كانوا يزورون المدينة بصحبة معلميهم وزملائهم الفرنسيين. وأما من لم يكن لديه واجبات دراسية يقوم بها مساءً فكان بإمكانه الخروج، شريطة أن يكون سلوكه لائقًا. وقد وضع جومار، مدير الدراسات، بالتعاون مع رؤساء البعثة الثلاثة المكلفين بالإدارة المادية، لائحة تنص على عقاب صارم لمن يعصي الأوامر[٥٢]. في البداية تتابع الرؤساء الثلاثة على القيادة بواقع يوم لكل واحد، ثم شهر، حتى تولي عبدي أفندي القيادة وحده في النهاية[٥٣]. وقد دخل مرة في صراع مع جومار، ولكن محمد علي أمره باتباع خطة المدير العلامة [٥٤]. وبعد مغادرته البلاد في أكتوبر ١٨٣١، حل التركي أمين أفندي محله. وكان

الباشا يفرض إرسال تقرير شهري يبيّن ما يبذله كل طالب من جهد. وكان يرسل إليهم من حين إلى آخر خطابات تشجيع مثقلة أحيانًا بالمآخذ والوعيد. (٥٥)

وفي شهر يونيو ١٨٢٧، أي في نهاية السنة الدراسية الأولى، جمع الطلاب وأدوا امتحانًا عامًا. وسعد محمد علي بالنتائج سعادة بالغة حتى إنه منح جومار راتبًا منتظمًا قدره عشرة آلاف فرنك في العام (٥٦). غير أن جومار ترفّع بنبل عن قبول العرض ونشر ردًا في الجريدة الرسمية (٥٧) جاء فيه أنه ما أراد سوى «الإسهام في إعادة الحضارة إلى قطر كان مهدًا لها، وتكوين علاقات أشد وثوقًا بين مصر وفرنسا تهدف إلى زيادة المصالح التجارية بينهما». ثم تحدث عن الحملة الفرنسية التي غرست في تراب مصر بذور الإصلاح، وتحدث عما أسهم به شخصيًا في «تجديد التعليم الإبتدائي» في فرنسا، وعن رضاه بإدارة دراسات الشبان المصريين بدون أجر بموافقة عدد كبير من أصدقاء التنوير والإنسانية واختتم رده بأمله في حشد «عدد كبير من الأصدقاء لفرنسا» سيجد بقربهم رحالة وفنانين وتجارًا ممن سيدعون إلى ضفاف النيل «سندًا مؤكدًا ومشاعر الامتنان الصادقة».

وإتمامًا لدراستهم التمهيدية شهد العام التالي اجتياز الطلاب لامتحان عام كانت له أصداء مدوية. جرى الامتحان يومي ٢٨ فبراير والأول من مارس عام ١٨٢٨، تحت رئاسة الكونت دي شابرول Chabrol المحارب السابق أثناء الحملة الفرنسية، ووالي محافظة السين Seine وعضو غرفة النواب. وكان يجلس إلى جانبه كل من المستشرقين جوبير Jaubert، وبيانشي Bianchi وجارسين دي تاسي Garcin de Tassy، إلى جانب الأكاديميين والجنرالات. وقد اكتسب الحدث معناه الحقيقي بوجود ضيفين جليلين كان هناك حرص على دعوتهما وهما السيد سيدني سميث Sidney Smith الذي عاد أسطوله بجيش الشرق إلى فرنسا، والسيد دافيد مورييه، David Morier قنصل صاحب الجلالة ملك بريطانيا. جاءت الاختبارات الكتابية والشفاهية في الإنشاء باللغة الفرنسية، والتحليل المنطقي والنحوي للغة، وفي الجبر والهندسة والرسم.

وفي اختبار الإنشاء طلب منهم أن يكتبوا رسالة إلى صديق بقي في مصر، يصفون له فيها أكثر ما جذب انتباههم في فرنسا. وكان أفضل موضوع هو الذي كتبه مظهر فقد كتب في رسالته:

«صديقي العزيز،

في خطابك الأخير، ذكّرتني بما عاهدتك عليه لدى مغادرتي مصر، لأصف لك أكثر ما يشد الانتباه في فرنسا.

فما كدت أصل إلى شاطئ مارسيليا حتى رأيت مجموعة مشاهد غريبة على ناظري. أول ما لاحظته هو جمال منشآت هذه المدينة، ثم ارتفاع المنازل الكبير، والشوارع المرصوفة التي تتميز بالسعة والانتظام؛ وبعد مسيرة خطوات، تناهى إلى مسامعي صوت ضوضاء تسري في كل جانب. وفي اللحظة نفسها رأيت للمرة الأولى عربات تجرها عدة خيول سريعة تسير باستمرار في المدينة. أما أكثر ما لفت انتباهي من بين أشياء عديدة أخرى هو أن أرى في الشوارع والأماكن العامة والمنتزهات السيدات الفرنسيات يرتدين ثيابًا أنيقة، ويسرن بحرية دون حجاب، وهو شيء يتعارض مع شرائعنا وأعرافنا.

وحينما بلغت باريس، اصطحبونا إلى حدائق بديعة حيث رأيت الشعب كله يتنزه؛ ثم أخذونا إلى قاعات عرض ضخمة، تحتوي على أجمل اللوحات التي رسمت في فرنسا، ذهبنا أيضًا إلى معارض أخرى تضم منتجات الفن والصناعة الفرنسية. كذلك، فإنني أرتاد من حين إلى آخر المسارح، وهي أشياء لن تدرك معناها أبدًا دون أن تراها.

تعلم جيدًا أنهم كانوا يحدثوننا كثيرًا عن درجة الحرارة في فرنسا، والحقيقة أنني لم أجدها قاسية إلى هذا الحد وقد حرمني دفء الجو هذا العام تحديدًا من مشهد مسل، هو أن أرى التزحلق على الجليد، ويتمثل في ذهاب الشباب إلى مكان يسمونه مثلجة، وحينما تتحول المياه إلى ثلج وتتجلد تمامًا، يقومون بالتزحلق على الجليد بواسطة حذاء مزود بقضيب من حديد، ومن خلال بعض الحركات التي يأتونها، تراهم يمرون أمامك مثل البرق، والمشهد غريب بحق» (٥٨).

تم تسليم الجوائز في احتفال رسمي في الرابع من يوليو بالبيت المركزي، وبحضور المستشرقين أنفسهم، إضافة إلى عدد من كبار الشخصيات بالأكاديمية، والجامعة والجيش. وقد سلم الجنرال بيليار Belliard الجوائز إلى الفائزين الذين ألقى عليهم جومار خطابًا بليغًا جاء فيه:

«إن أقداركم تستحق الغبطة، فأنتم مدعوون إلى إحياء وطنكم، وهو الحدث الذي يعتمد عليه مصير الحضارة في الشرق. أي قدر أجمل من هذا يمكن أن تطرب له قلوب واعية بالمجد الحقيقي يحركها حب مخلص لبلد المنشأ. انهلوا من قلب فرنسا، انهلوا من النبع الأصيل، من أنوار الحكمة والآداب التي ترفع أوربا عالية فوق مختلف ربوع العالم، وفي هذا استعادة لفضائل القوانين والفنون لوطنكم الذي كان يتمتع بها خلال قرون عديدة، وعلى هذا، فإن ما تفعله مصر - وأنتم نوابها - هو مجرد استعادة لما كانت تملكه، وبالإسهام في تعليمكم فإن فرنسا لا تعدو أن تؤدي من جانبها سوى الدين الذي تدين به أوربا جمعاء تجاه شعوب الشرق» (٥٩).

ومنذ ذلك الحين، أصبح الطلاب قادرين على التخصص في مختلف فروع الدراسات وتم تقسيمهم وتوزيعهم على خمسة عشر فصلاً ليتعلموا على التوالي الإدارة العسكرية التي كان يقوم بتدريسها مفوض الحروب السابق السيد لاكور Lacour والحقوق والاقتصاد السياسي على يد ماكاريل Macarel أستاذ الحقوق الإدارية، إلى جانب الهندسة والمدفعية بقيادة الكابتن أوليفييه Olivier خريج المدرسة الفنية العسكرية، والكيمياء في معمل البروفسير جوتييه دي شوبري Gauthier de Chaubry، ثم في بعض الورش لتطبيق تلك العلوم في مجال الصباغة، وصناعة الأملاح، والفخّار والصناعات الزجاجية والإسمنت وغيرها، كذلك كان البعض يدرس الطب من خلال درس خاص في التشريح ثم دروس في كلية الطب، إلى جانب الميكانيكا، والهيدروليكا، والتاريخ الطبيعي، والحفر، والطباعة الحجر والترجمة التي كان يتدرب عليها الشيخ رفاعة. وقد سافر إلى مدينة بريست الطلاب الذين تم اختيارهم للبحرية بعد أن أتموا دروسهم، فرحلوا على متن

السفن الفرنسية ليتموا دورتهم التدريبية. أما من اختيروا للزراعة فقد توجهوا إلى مزرعة روفيل Roville التدريبية ليعملوا بها.

وقد أسهم التقدم الذي أحرزته تلك المجموعة الأولى - بلا شك - إلى جانب التدمير الذي تعرض له الأسطول المصري في نافارين Navarin في ذلك الحين، في أن يعقد الباشا عزمه على إرسال ستة طلاب إلى طولون بحلول شهر اغسطس ١٨٢٨ لتعلم الإنشاءات البحرية. وقد أعقبهم آخرون، وصلوا إلى باريس قبل نهاية العام نفسه (٦٠). ولحق بهم رفاق آخرون على التوالي خلال الأعوام ١٨٢٩(٦١)، ١٨٣٠، و١٨٣٢. وهكذا بلغ مجموع عدد طلاب المدرسة المصرية عام ١٨٣٣ مائة وخمسة عشر طالبًا (٦٢). ولكن محمد علي الذي انشغل للأسف بعد هذه الفترة بحروبه ضد السلطان، وأحبط من الموقف الذي اتخذته فرنسا بشأن قضية الشرق، أهمل البعثات المدرسية.

وقد اكتسبت بعثة عام ١٨٣٢ بقيادة كلوت بك شهرة خاصة. فقد أراد مدير مدرسة طب أبي زعبل التي تأسست عام ١٨٢٧ توفير معاهد صحية رائعة لمصر، مستقلة عن «مساعدة أجنبية يمكن لمصلحتها وأهوائها وألف ظرف آخر أن تضطر طلابها إلى العودة إلى وطنهم». ومن ثم، تحدث مع الباشا بشأن ضرورة أن يتم إعداد أطباء وأساتذة ثابتين من المواطنين المحليين، يصبحون قادرين فيما بعد على نقل معارفهم إلى طلابهم دون الاصطدام بعقبة اللغة (٦٣). واختار اثني عشر طالبا من خيرة طلابه، وكان معظمهم من الأزهريين وكان عليهم – مع هذا – قبل المغادرة انتظار وصول بريد الجيش المصري في سوريا، حاملاً أنباء أراد محمد علي تكليف كلوت بك بها، إذ كان يواكب الهدف العلمي من هذا السفر هدف سياسي أيضًا (٦٤).

وبعد ٣٢ يومًا من السفر و ٢٥ يومًا في الحجر الصحي كان ظهور هذا البك الفرنسي في مدينته التي ولد بها أثره مدويًا، كان مرتديًا ــ نزولاً على تعليمات محمد علي ــ بذلة تركية، عبارة عن حلة جميلة حمراء مذهبة عليها شعار مرصع بالماس. وقد توجه لزيارة السلطان يتبعه في كل مكان اثنا عشر طالبًا يرتدون قفاطين مزركشة بالذهب.

ومثلهم مثل أقرانهم الأكبر سنًا، لم يضع وقت هؤلاء الطلاب هباء. فقد كانوا يمارسون اللغة الفرنسية التي تعلموها ويسعون للتأقلم مع المجتمع الأوروبي، هذا العالم الجديد الذي لم يكونوا قد ألفوا عاداته بعد. وفي المستشفى الرئيسي أظهروا «اندماجًا كبيرًا» وأقاموا علاقات ودية مع الطلاب الفرنسيين. ولكنهم وجدوا قاعة المحاضرات الخاصة بالتشريح «أدنى بكثير من مستوى قاعة أبي زعبل المبلطة بالرخام والمزينة بالرسومات التشريحية (٦٥). وفي مؤسسة الأمومة، أجاب الطالب منصور بسهولة ودقة على الأسئلة التقنية التي وجهتها له قابلة. وقد وجد الملجأ الخيري في استقبالهم تشريفًا له، كما أن الصحف في مارسيليا كانت تتحدث باستفاضة عنهم وعن باشا بلادهم الرائع (٦٦). وكانت حملة إعلامية حقيقية! وبعد خمسة عشر يومًا، دخلوا إلى مدينة ليون حيث قاموا أيضًا بزيارة المستشفى. وفي رجوعهم إلى باريس في الثالث عشر من نوفمبر، اجتازوا في الثامن عشر من الشهر نفسه، وعلى نحو رائع ، امتحانًا عامًا في الأكاديمية الملكية للطب. وحتى يتابعوا محاضرات أكبر الأساتذة المرموقين، تم توزيعهم في المستشفيات الرئيسية في العاصمة، وأرسلوا أربعة طلاب إلى مستشفى فال دي جراس Val - de - Grâce، وأربعة إلى المستشفى الرئيسي وأربعة إلى المبرّة.

وكان عليهم كل ثلاثة أشهر اجتياز امتحان على يد لجنة مؤلفة من الأطباء: أورفيلا Orfila ، ودوبويتران Dupuytren، وبريشيه Breschet، وباريزيه Pariset، بالتعاون مع جومار - بطبيعة الحال - وإرسال النتائج إلى القاهرة. (٦٧).

وفي شهر يناير ١٨٣٥، حينما أرسل محمد علي إلى جومار علبة تبغ من الذهب مصحوبة برسالة ودية للغاية، لم يكن أحد يشك لحظة أن نهاية هذا العام نفسه، ستشهد حل المدرسة المصرية بباريس. ألم يقل له : «ما هي سوى ذكرى أمير ساعدته على التقدم بعض الخطوات نحو تحضّر الشعب الذي يحكمه، ولكنه أيضًا رجاء بالاستمرار مستقبلاً في استكمال ما بدأته على أفضل نحو (٦٨). ولابد أن جومار دهش حينما تلقى خطابًا من القاهرة بتاريخ الأول من ديسمبر عام ١٨٣٥ يفيد باستدعاء جميع المبعوثين.

وقد فتح هذا الإجراء المجال لمختلف التأويلات. فبالنسبة لجومار الذي انشغل باستبعاد أي دافع سياسي وراء الأمر (٦٩)، فقد رأى أن الحاجة إلى تعويض الخسائر التي تسبب فيها الطاعون هي التي حتمته، وأسف لموت ستة من طلابه السابقين خلال العامين السابقين. وقد صرح، من ناحية أخرى، قائلاً: «نستطيع أن نعتبر أن الهدف الذي وضعته الحكومة المصرية نصب عينيها، والمتمثل في إرسال أكثر من مائة مصري منذ عشر سنوات وبتكلفة عالية للتعلم في باريس قد تم تحقيقه تقريبًا». أما بشأن المجموعة الأخيرة من طلابه وقد بقي أحد عشر طالبًا من بينهم أكثر من ثلاث سنوات في فرنسا، بينما بقي آخرون ست أو سبع أو ثماني سنوات، فقد أعلن أنهم سيعملون مدرسين للعلوم الفيزيائية والرياضيات في المدارس المصرية(٧٠).

وقد حان الوقت لطرح أكثر الأسئلة أهمية: فما هي النتائج المؤكدة للمدرسة المصرية بباريس؟ وفي أي شيء استخدم محمد علي رعاياه، وأي خدمة استطاعوا أن يؤدوها إلى البلد؟ أو بمعنى آخر، أي فائدة عادت عليهم من دراستهم وإقامتهم في فرنسا؟

منذ البداية، بنى جومار على طلابه آمالاً عريضة. قال: «إذا تمكن عدد من هؤلاء الطلاب من نقل مفاهيم دقيقة قريبًا إلى بلادهم عن القوانين والإدارة وحقوق الناس والزراعة والعلوم والفنون، وخاصة أفكارًا عن النظام والعدل طالما تم تجاهلها في وطنهم البائس لكان في هذه مكافأة كافية لي» (٧١).

ولنكن أكثر واقعية من جومار، ولنتابع في مصر أعضاء الفرقة الأولى التي عاد معظمها إلى مصر عام ١٨٣٢؛ وقد ذهب أعضاؤها لتحية «ولي النعم»:

طلب محمد علي من أحدهم، وهو السيد أ.. أفندي، أن يتحدث عما تعلمه. فأجاب أ.. أفندي.

- الإدارة المدنية.

فأردف الباشا:

ـ وما هي؟

ـ هي دراسة كيفية إدارة الأعمال.

ـ لا! لا! لن تتدخل في شئون الإدارة؛ هذا وقت مهدر! أنا الذي أدير الأعمال؛ اذهب إلى القاهرة، وسوف تقوم بترجمة الأعمال العسكرية.

ـ ولكن ـ ياصاحب السمو ـ لم أدرس إدارة الحرب على الإطلاق.

ـ قلت لك اذهب، أنت تجيد التركية والفرنسية، وهذا يكفي.

وسأل محمد علي موجهًا كلامه إلى آخر:

ـ ما الذي تعلمته؟

ـ الزراعة.

ـ الزراعة! هكذا صاح عبد... أفندي السكرتير المقرّب من نائب الملك الذي كان حاضرًا تقديم القادمين الجدد إلى محمد علي. وتابع، يا إلهي بأي شيء شغل نفسه هذا الرجل ! وضع البذور في الأرض ! فلاحتها! ولكن، فلاحينا لم يذهبوا إلى أوربا ومع هذا هم يجيدون الفلاحة! هل الزراعة هي أيضا علم في فرنسا؟ أهي موضوع دراسة خاصة ؟ كان أجدر تعلم الحرب أو الطب. وأنت؟

ـ أنا أجيد صناعة شمع الأختام.

وأي فائدة تعود على مصر من هذه المهنة؟

ـ حكومة معاليكم تأتي من أوربا بالشمع الذي تحتاجه، أي أن النقود تخرج ولا تدخل؛ سوف أقوم أنا بصناعة الشمع.

قال الباشا متوجهًا نحو رابع:

- وأنت؟

- أجيد صناعة الورق.

- وما فائدة هذا؟ نحن نتلقاه مصنوعًا جاهزًا.

وتقدم خامس، فسأله الباشا:

- ماذا فعلت في أوربا؟

- درست اللغات والرياضيات.

- سوف تدير مغزلة للقطن.

هذا المشهد المصور الذي حكاه هامون Hamont، لايخلو من حقيقة. فقد اتسمت عملية التعيين بالاستخفاف الشديد، وعلينا الا نرى فيها مجرد صورة لأهواء «ولي النعم»، وإنما لنلمح فيها مكره في توزيع السلطات على نحو يجعله يحتفظ بقربه بمن هم محل ثقته، ويلقي إلى الظلام بمن يراهم مشكوكًا في أمرهم. كما أن ضحالة ثقافته لا تجعله قادرًا على تبين الفضائل أو تقدير دراسة كل واحد منهم. وهكذا، فإن مختار الذي درس الإدارة العسكرية عين بالإدارة المدنية، وستيفان الذي درس الديبلوماسية أصبح في البداية مسئولاً عن المعدات في وزارة التعليم العام، وبيومي الذي درس الهيدروليكا عين أستاذًا للكيمياء نظرًا لعدم وجود كفاءات، وأمين الذي تخصص في سباكة المعادن عين مديرًا لمصنع البارود [٧٢]. ويذكر ماكسيم دي كان Maxime Du Camp حالة «خليل افندي» فبعد أن تلقى في باريس دروسًا في العلوم التطبيقية ودرس في كلية الحقوق ثم تعلم أصول صناعة الحرير في مدينة ليون، كلف بتجليد الكتب في القاهرة [٧٣]. وإذا كان لنا أن نأخذ بحذر شهادة ماكسيم دي كان، فإن شهادة أرتين Artin، وهو عضو البعثة ومروج محمد علي وداعيته، تبدو لنا موثوقًا بها، فقد كتب عام ١٨٣٥ إلى جومار يقول: «أتمنى بشدة الا يلقى الشباب الذي سيصل من باريس الإهمال نفسه الذي لقيته مجموعة عام

١٨٣٢ [٧٤]. بل إن جومار نفسه سوف يستنكر عام ١٨٣٩ سوء استخدام الطلاب السابقين الذي يحدث في أغلب الأحيان في مصر [٧٥].

والأمثلة كثيرة للغاية. ولكن هذا يجعلنا نفترض أن الحاكم تجاهل قدرات تأسست تأسيسًا قويًا في المنشآت الفرنسية. وعلينا مع هذا ألا ننسى المستوى الفكري شديد الاضمحلال الذي كان عليه هؤلاء الطلاب في البداية، وأعمارهم التي كانت متقدمة بالفعل على أن تبدأ في تلقي الدراسة. وقد عاد خمسة طلاب من الفرقة الأولى لأسباب صحية أو لعدم التكيف، واستغل ولي النعم العقوبات المفروضة في السجون التي أنشأها حديثًا لحبس هذه الفئة الأخيرة [٧٦] ، ومع هذا، يؤكد كلوت بك أن «نسبة الناجحين أكبر مما رصد بشكل عام» [٧٧]. ويستند فقط إلى نتائج الامتحانات العامة، ولابد أن نعترف بأن تواطؤ أعضاء لجان التحكيم كان يجعل طلاب بعثات الباشا يحصلون على أكبر الألقاب بعثًا على الزهو. أما بريس دافين الذي كان أقل لجوءًا إلى الإطراء، فقد عين في القاهرة تلميذًا سابقًا لمدرسة باريس كان يعمل إسكافيًا في أحد أزقة الحي الأفرنجي، و «إبراهيم الساعاتي» وكان يرى أنه عديم المهارة والنزاهة [٧٨].

ولم تكن حالات الفشل نادرة. ولم يستطع جومار السكوت عن الأمر، فقد كتب بشكل رسمي : «تعرف من تخرج من مدرسة باريس من طلاب في الإدارة المدنية العسكرية، ومن مهندسين، وأطباء، وأساتذة، وضباط بحرية وهندسة، وكيميائيين، ومتخصصين في الزراعة، والمناجم، ورسامين، وممارسين لأعمال الحفر، وصنّاع وحرفيين. لا شك أن كثيرًا منهم بل عددًا كبيرًا، لم ينجح بشكل كامل، كما أن احتياجات مصر جعلت آخرين يحيدون عن دراساتهم المتخصصة. ولكن النتيجة العامة كانت جيدة وفي صالح الطلاب، وليس عليّ أنا تقديرها» [٧٩].

وبالطبع، فإن الأتراك عبدي ومختار أصبح أحدهما رئيسًا للمجلس المدني الأعلى[٨٠]، والآخر وزيرًا للتعليم العام. وأصبح الأرمنيان أرتين وستيفان على التوالي وزيرين للخارجية بعد وفاة مواطنهم باغوص [٨١]. واستطاع مظهر، العثماني الأصل، أن

يصل إلى وزارة الأشغال العامة. وبدوره أصبح حسن السكندري، وهو المفضل لدى محمد علي [٨٢]، وزيرًا للبحرية. أما الشركسي محمود نامي فأصبح وزيرًا للمالية. وهذه هي وظائف، ومفاخر، وكوادر، وتلك هي مكاتب وورش وموظفين. ولكن كلمة شاتوبريان Chateaubriand عن باشا مصر تعاودنا، ملؤها الحقيقة يقول: «لا أترك نفسي تنبهر بالسفن البخارية والسكك الحديدية، وبيع منتجات المصانع... فكل هذا لا يمثل الحضارة» [٨٣].

اسمحوا لي إذن أن أنظر خلف تلك الواجهة الجميلة. فعلى الرغم من تعلمه في فرنسا، إلا أن مختار احتفظ بالأمزجة غير الطبيعية شديدة الشيوع بين الأرستقراطية التركية. فبعد أيام من انتهائه من مواءمة قانون العقوبات تسبب في وفاة خادم مصري شاب ضربًا بالعصا دون أن يناله أي جزاء لرفض الخادم تلبية رغبته [٨٤]. وعاد من فرنسا، بالشراسة نفسها، ذلك التركي الآخر، وكان جيرانه بدرب الحبالة يسمونه أحمد أفندي أبو شنب. كان يعكف على الشراب ويستبد بعبيده من النساء، وكان عددهن إحدى عشرة استطعن ذات ليلة التخلص منه إلى الأبد[٨٥].

والسؤال هو: ماهي عناصر الحضارة التي جلبها هؤلاء الرجال لمصر؟ ويرد بريس دافين على هذا السؤال فيقول: إنهم جلبوا «بعض مفاهيم الجبر، والهندسة، وبعض مبادئ فنوننا ومهننا، ولكن قبل كل شيء ذكرى عروضنا المسرحية، والمجلات، واستعراضات فرقنا، أضف إلى هذا بعض السلع الفاخرة والترفيهية، وبعض ألعاب الورق، والتعود على المشروبات الروحية... هذا هو ما جلبه هؤلاء المصلحون إلى مصر. أما عن حركة حضارتنا، والمؤسسات التي تحكمنا فقد ظلت غريبة تمامًا. لقد سنحت لي كثيرًا فرصة رؤيتهم، فلم أسمع أحدًا منهم يتحدث بحماس عن إحدى مؤسسات أوربا ويتمنى أن تحكمه تلك القوانين. ولكن جميع الأحاديث كانت تقود إلى ذكرى فتياتنا الساحرات، ورقصنا، ولعبنا، واستعراضاتنا، وكل ما كان لابد من نسيانه في القاهرة».

هذا الحكم المفرط في اطلاقه، ينطبق أكثر على الرعايا العثمانيين الذين يفتقرون إلى أي شعور وطني تجاه مصر والذين راحوا يتصرفون كأطفال مدللين. نعرف أن مختار كان

لديه في باريس آلات موسيقية وحصان عربي [٨٦]. أما المصريون الذين كانوا يلقون عناية أكثر اعتدالاً من الباشا، فقد فرغوا إلى دراستهم بقدر من الجدية. ومن المؤثر أن نرى شخصًا مثل رفاعة، مدركًا لواجبه إزاء وطنه، يخصص جزءًا من راتبه الضئيل لدفع قيمة دروس إضافية، وشراء كتب وتمضية ليال في العمل والدراسة على الرغم من تعليمات طبيب عيونه.

وبفضل ملاحظة لفلوبير Flaubert نستطيع أن نحدد مكانة هؤلاء الرجال العائدين من فرنسا، في الحياة المصرية. فيحدد فلوبير من خلال بعض الخطوط، ملامح المهندس محمود الذي لقيه في وادي حلفا: فهو «مهندس عربي يتحدث اللغة الفرنسية جيدًا: كره الإنجليز فقد رفض أحدهم مؤخرًا - إعطاءه زجاجة عرق، وباع في اليوم التالي خمسين زجاجة إلى مواطن آخر. أخذ يلقي علينا مقاطع من «برج نسل Nesle» وراح يغني: «افتح لي بابك» ويتحدث عن التعصب الإسلامي وغيره.. وقد رآه جوزيف في اليوم التالي يتوضأ ويصلي مثل أي متدين حق، أتى إلى هنا للاشتراك في أعمال حفر مجرى الشلالات، وأهديناه زجاجة عرق، مما سره - فيما يبدو - سرورًا بالغًا: فلابد أن يأخذ جرعة كل صباح، وهو لا يستطيع الاستغناء عنها»[٨٧] .

وعلى الرغم من ارتباط المهندس محمود ورفاقه بالمجتمع الأوربي من خلال الذكريات والعادات المكتسبة إذ إنهم لم يجرؤوا على الاقدام على قطيعة صريحة مع عادات المجتمع الإسلامي وتقاليده [٨٨]. ولكنهم كانوا يفكرون بطريقة ويتصرفون بأخرى إنقاذًا للمظاهر. وفي هذه الحياة المزدوجة كان الجانب السري أحب إلى نفسهم إلى أقصى حد. وبين الأتراك الذين كانوا يخشون تأثيرهم، والموظفين الأوربيين الذين كانوا يخشون منافستهم، تاهت مكانتهم، إذ كانوا أعلى مرتبة من الفئة الأولى، وأدنى من الفئة الثانية، ضائعين بين عالمين، يستمدون آراء جديدة جاءت لتحل محل أخرى وتزيد من تعقيد النهج القديم. وبسبب تعرضهم في أغلب الأحيان - لنبذ حكومة متعسفة، مضطرة لخدمة شخص الباشا بدلاً من خدمة نموذج للعدالة والمساواة، فقد لاذوا بوسطية سهلة، متناسين أساس الفكر الإصلاحي، محتفظين من الحضارة الحديثة بمجرد قشرة براقة واستخدامات جذابة.

ومع هذا، لم يكن جميع تلامذة جومار من محتسي العرق، وممن يغنون «افتح لي بابك»، إذ كان من بينهم عدد جيد من الأساتذة، ممن كرسوا جهودهم للتدريس ولترجمة الكتب العلمية مثل بيومي أستاذ الرياضيات، والأطباء السبكي والبقلي، وكذلك رفاعة الطهطاوي الذي لم يكل، والذي أدى دور الوسيط بين المجتمعين على أكمل وجه وبكل توازن، والذي تعود إليه إلى حد كبير نهضة مصر، لم يختره محمد علي عضوًا في البعثة الدراسية عام ١٨٢٦، ولكنه أرسله بناء على طلب شيخ الأزهر، وضمه للأفندية ليكون إمامًا لهم. والحقيقة أن نموذج رفاعة الطهطاوي يعوض جميع النماذج الفاشلة التي أرسلها الباشا. فبفكره المتفتح وبالنسيج الثقافي الذي ميزه ألف رفاعة خلال إقامته في فرنسا كتابًا في أدب الرحلات ذا أهمية كبرى، ولعله المؤلف الوحيد الذي يرجع إلى منتصف القرن التاسع عشر وتصلح قراءته حتى الآن. فهذا الرجل، وهذا الكتاب يجسدان تاريخ مصر الحديثة التي تستعيد روابطها بالشرق وتستعيد ذاتها. أفلا يمثل رفاعة - الذي غادر طهطا إلى باريس - مصر بكاملها التي تخرج من العصور الوسطى لتأخذ طريقها - بالفعل - إلى الحياة المعاصرة؟.

****

الهوامش

1- Archrives du ministère des Affaires étrangères, Paris. correspondance consulaire, Le Caire, vol 26. f 278, 10 mars 1826.

(٢) السابق.

(3)Douin: Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly.

(4) Arch. du min. des Aff. étrangères Paris. Correspondance consulaire, Le Caire, Vol, 26, f 282, 4 avril 1826.

(٥) فيما يتعلق بكل من «لجنة العلوم والفنون» الخاصة بجيش الشرق (١٧٩٨ - ١٨٠١) وموسوعة «وصف مصر» ارجع إلى :

J. M Carré: Voyageurs. I.

الجزء الثاني، الفصل الثالث.

(6) Jomard : Banquet de L'Expédition d'Egypte.

وعن هذا المشروع الأول الخاص بإرسال بعثة دراسية مصرية إلى فرنسا، انظر الهوامش التكميلية رقم ٢.

(٧) عن نيقولا مسابكي ومسيرته المهنية، انظر «صابات: تاريخ الطباعة، ١٤٨ - ١٥١.

(8) Artin: L' Instruction publique en Egypte, 69.

(٩) بشأن رجحان العمالة الإيطالية بمصر في مطلع القرن التاسع عشر، ارجع إلى :

Bowring : Report on Egypt and Candia, 139, Douin: Une mission militaire, 40, Lettre de Boyer à Jomard, 20 mai 1825, Angelo Sammarco: Gli. Italiani in Egitto. Alexandrie, 1937.

(١٠) طبقًا للرحالة الإيطالي بروتشي Brocchi الذي زار هذه المدرسة في الخامس من ديسمبر ١٨٢٢، كان هناك مدرسان إيطاليان وهما دون كارلو بيلوتي Don Carlo Bilotti من مدينة كلبريا، والقس سكاجليوتي Scagliotti من بيامون، إضافة إلى دون رافائيل موناشي Raphaël de Monachis، وهو سوري ثقافته إيطالية وكان منافسًا لإلياس بقطر في باريس.

G. B. Brocchi: Giornale delle osservazioni jatte ne'viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia, Bassano, 1841, I, 159.

(11) Dizionario italiano - orabo, Bolacco, Della Stamperia Reale 1822. Cf. T. X. Bianchi: "Catalogue des livres arabes, persans et turcs imprimés à Boulac en Egypte depuis L'introduction de l'imprimerie dans ce pays", Nouvau Journal asiatique, 1843 II, 203 - 204.

(١٢) يستند مؤرخو التعليم الحديث في مصر (سلامة، وعبد الكريم، وهيورث دون وHeyworth Dunne _ في أعمالهم الصادرة عامي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ إلى طوسون الذي كان يجهل عام ١٩٣٤ حتى مجرد أسماء أعضاء هذه البعثة الدراسية الأولى. غير أن هناك خطابًا (نشره ج مارو G. Marro عام ١٩٣٤: 21 _ Documenti inediti, p 19 واردًا من تورين في الثاني عشر من فبراير عام ١٨٢١، موجهًا من سين دي سالوس إلى القنصل دروفيتي Drovetti يكشف لنا أن إيليا صباغ وروفائيل مسابكي كانا يدرسان - على التوالي الكيمياء والرياضيات في الكولاج دي بروفانس Collège des Provinces في مدينة تورين، بعد إقامة في ميلانو لم تؤت ثمارًا كبرى، وأنهما طلبا متابعة دراستهما في ليون أو باريس.

(١٣) عن سفر إسماعيل جبرلتار إلى ستوكهولم. انظر:

Arch. du min. des Aff. étrangères, Paris Correspondance consulaire, Alexandrie, Vol 19, f 278 - 281.

La monographie d'Auriant, Ismaïl Gibraltar, amiral égyptien, Rev bleue, 1926, 626 et suiv, et L'étude de J. Tagher, Ismaïl Gibraltar, premier amiral de la flotte de Mohammad Ali, Cah. d'hist . égyptienne, 1V, 2 (fév 1925), 102 _ 110.

(14) Jomart: Banquet.

(١٥) المرجع السابق.

(16) Douin : Une mission militaire, 110.

(17) Brocchi, I, 157 - 158.

(١٨) ورد في صحيفة التايمز Times الصادرة في ٤ يوليو ١٨١٨ أن محمد علي طلب ٦٠٠ كتاب فرنسي، وطبقًا للأرشيف الروسي في مصر، جلب عثمان «بقيمة تقترب من الخمسين الف روبل كتبًا فرنسية بسيطة المستوى في العلوم، والفنون، والاقتصاد السياسي» (انظر Cattaoui 387 - 388) . وانصب الاهتمام في بولاق على ترجمة هذه الأعمال في المقام الأول.

كان هناك كتب إيطالية كثيرة، وموسوعات وكتب رياضيات وعلوم عسكرية، وغيرها. أما الكتب الأدبية فتمثلت في أعمال دانتي، وفولتير، وروسو (انظر 161 - Brocchi, I, 160).

(١٩) يقول شابرول Chabrol «لا تدين المدارس العامة بوجودها إلا إلى الأعمال الخيرية». انظر:
Essai sur les moeurs des habitants modernes de l'Egypte, Description de l'Egypte, Paris, 1826, t. XVIII, p. 65.

(٢٠) السابق ص ٦٤.

(٢١) السابق ص ٦٥.

(٢٢) كان الأستاذ الشيخ عثمان إمام جامع الأزهر يعتقد أن طلبة غير مرئيين، من الجن، يحضرون حصصه.

انظر: Salama: L'Enseignement islamique en Egypte, 114.

(٢٣) السابق، ص ١٣٠ - وأيضًا جاء في كتاب Vollers: al - Azhar أنه «كان هناك مشادات وسرقات تحدث في الأزهر خلال الأعياد» ٥٤٢.

(24) Gibb and Bowen: Islamic society and the West, I, Islamic society in the eighteenth centur, part II chap. XI. Education, 139 - 164.

(٢٥) الجبرتي - ج ٤ - ٢٢٥.

(٢٦) باسكال كوست Pascal Coste الذي أرسله جومار Jomard في خدمة محمد علي، كان معروفًا بصفة خاصة بأنه سبق بريس دافين في دراسة العمارة العربية. (انظر كتابه:
Architecture arabe ou monuments du Caire, Paris Didot, 1837 - 1839, J. - M. Carré, Voyageurs, I, 283).

وطبقا لبلانا Planat:

(Histoire de régénération de l'Egypte, 31 - 32, 86)

أنه أنشأ مدرسة مهندسي الطرق والكباري في بولاق وكان مديرًا لها. ويقول فولابيل:
(Vaulabelle, Histoire de L'Egypte moderne, II, 255)

إن هذه المدرسة «كانت مخصصة لتعليم مبادئ الفنون والعلوم البحتة؛ وقد تم إلحاق عدد كبير من شباب الأتراك الأولين والعرب بها وعلى الرغم من العقبات الكثيرة التي ولدها الجهل والأحكام الدينية المسبقة، فسرعان ما تخرج منها طلاب بدأوا في وضع سجل مساحي لصعيد مصر. وهناك مرسوم أصدره محمد علي بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٨٢٠، عين بمقتضاه بالفعل أوربياً اسمه كوست Qusti مدرسًا للرسم والرياضيات يقوم على تعليم خمسة أو ستة من طلاب «دار الهندسة».

(Heyworth - Dunne. An Introduction to the history of education, 108)

غير أن باسكال كوست لا يذكر هذه المدرسة في مذكراته على الاطلاق.

Mémoires d'un artiste, Notes et souvenirs de voyages, 1817, 1877 Marseille, Coyer, 2 vol. 1878).

(27) Artin: L'Instruction publique en Egypte, 70.

(٢٨) «هذا القرار الذي قد يكون له بعدها نتائج شديدة الإيجابية لصالح البلد، اتخذه الباشا حينما أقر أن هؤلاء الطلاب الملتحقين بالكلية التي أنشئت لتعليمهم لا يحققون التقدم الذي كان يعول عليه؛ وعلى هذا، فقد رأى أن الإقامة عامين في فرنسا ستجعلهم يتعلمون أكثر مما يمكن أن يتعلموه في أربع سنوات هنا، وكان محقًا في ما ذهب إليه»

Arch. du min. des aff. étrangères, Paris:

Correspandance consulaire, Le Caire, vol. 26, F282.

(٢٩) خطاب السابع من يناير ١٨٢٦ الموجه من دروفيتي Drovetti إلى باغوص نشره مارو Marro تحت عنوان:

La personalità di Bernardino Droveti, 86 - 87.

(*) التحالف المقدس La Sainte Alliance الذي يشير إليه الكاتب برمز S.A هو ما يعرف باسم «تحالف الملوك ضد الشعوب» وهو محصلة ثلاثة أحداث تاريخية: المعاهدة المؤسسة التي تم توقيعها في باريس في ٢٦ سبتمبر عام ١٨١٥ بين النمسا وروسيا، تعهد فيها الحكام باستلهام مبادئ المسيحية، والتكاتف من أجل المصالح المشتركة. ودعوا فيها بقية الملوك والرؤساء المعنيين للانضمام فلم يستجب أمير إنجلترا وبابا الولايات المتحدة ورئيسها.

ثم جاء التحالف الرباعي الذي وقع في باريس أيضا في ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ وتمثل في معاهدة دفاع تهدف إلى توفير ضمان للمنتصرين عام ١٨١٥ ضد محاولات فرنسا لإنهاء التحالف.

ثم كان المؤتمر الأول الذي عقد في أكتوبر. نوفمبر ١٨١٨ لإعادة دمج فرنسا في المجتمع الأوربي والتصدي للمحاولات الثورية مثل تلك التي اندلعت في إيطاليا.

وفي عام ١٨٢٢، سعت فرنسا للتقارب مع الدول الثلاث المؤسسة الأولى لمؤازرتها في التدخل في أسبانيا، فكانت فرصة لإنجلترا للانفصال بشكل معلن ونهائي عن التحالف الذي سرعان ما انحل عام ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧ حينما تحالفت روسيا مع فرنسا وإنجلترا بشكل مباشر لتقرير مصير اليونان على الرغم من الجهود التي بذلها ملك النمسا لصالح تركيا. (المترجمة).

(٣٠) خطاب ٢٦ فبراير ١٨٢٦ ـ من بوييه إلى بيبار، نشره دوين: une mission militaire, 110

(٣١) انظر Douin : Les Premières frégates de Mohamed Aly (1824 - 1827)

(*) ومعناها المجلة الموسوعية (المترجمة)

(32) Rev. encyclopédique, xxx, 577 - Cf. Jean Dimakis: La guerre de l'indépendance grecque vue par la presse française, de 1821 à 1824 - thèse 3e cycle, Paris, 1962, dactyl.

(٣٣) أفندي: لفظ تركي كان يطلق على طلاب المدارس. انظر:

J. Deny: Quatre lettres de Méhémet - Ali d'Egypte.

(٣٤) علاوة على انطباعات رفاعة، انظر لاحقًا خطاب الطالب مظهر.

(٣٥) خطاب من بيبار إلى بوييه ـ باريس ـ ٤ أغسطس: نشره:

Douin: une mission militaire, 132.

(٣٦) الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٢٦، في مارسيليا قرر «مجلس إدارة عنابر اللاجئين المصريين منح شهرًا إجازة للسادة فرعون (جون) Pharaon Jean، وحلبي (ميشيل) Halabié Michel، وبجالي (عيد) وعوض (جوزيف) ، بهدف التوجه إلى باريس لاصطحاب المصريين الشبان الذين عليهم بلوغها فرقًا برفقة قسم المترجمين الخاص بهم (...) وهو إجراء (...) ذو فائدة كبيرة لشباب نائب مصر».

Arch. du ministère de la Guerre, Vinennes, Réfugiés d'Egypte, dossier de Joanny Pharaon.

(37) Le Moniteur Universel, 13 août 1826.

(38) La Pandore, 22 août 1826.

انظر السابق - عدد ٢٦ أغسطس ١٨٢٦، مقال تحت عنوان «من الكلية المصرية» وفيه يعتذر المحرر عن اللهجة غير المحترمة في الخطاب المذكور.

(39) Barthélemy et Méry: La Bacriade , 43 - 45.

(٤٠) انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ٣: رحلة زرافة محمد علي إلى فرنسا.

(٤١) انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ٤: مسرحية هزلية فرنسية عن الطلاب المصريين في باريس (١٨٢٧).

(42) Gisquet: L'Egypte. Les Turcs et Les Arabes.

(43) Arch. du Palais de la République, Le Caire: Section turque, regi XVII,n 235 (20 Dhu - 1 hijja, 1239), registre XXIX, n 105 (19 Jumada 11, 1242). Clot - Bey: Aperçu, II, 334, Amin Sami: Taqwim an Nil, 11,32.

(44) Arch. du Palais de la République, le Caire: Section turque, reg. XXII, n 47 (13 (Rabi' 11 1242), reg. XXX1, n. 276 (18 Dhu - L - qa' da. 1243).

(45) R. Cattaoui, Le règne de Mohamed Aly d'après les archives russes en Egypte, I, 425 - 426.

(46) Prisse d'Avennes: Politiqueet administration de L'Egypte moderne, f.32.

(٤٧) خطاب ٢٧ فبراير ١٨٢٦ ـ نشره:

Douin: Une mission militaire française, 110.

(٤٨) الشيخ: رفاعة؛ وأحمد العطار الذي كان عليه دراسة الميكانيكا؛ ومحمد الدشطوطي الذي بُعث لدراسة الطب.

(49) Rev. encyclopédique, XXXII, décembre 1826, 837.

(٥٠) السابق. نشر المونيتور Moniteur في عدد ٧ ديسمبر ١٨٢٦ هذا الخبر تقريبًا بالعبارات نفسها.

(٥١) تخليص الإبريز، صـ ١٤٧.

(٥٢) السابق ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٥٣) السابق ص ٢٠ ـ ٢١.

(٥٤) عام ١٨٣٠ ـ انظر:

Arch. du Palais de la République, le Caire: Section turque, reg. XL no 673 (20 Dhu - l - qua, da, 1246).

(٥٥) يورد رفاعة ذكر أحد هذه الخطابات في تخليص الإبريز ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(56) Arch. du Palais de la République. Le Caire: Section Turque, reg. XXXI, n 60 (28 Jumad II, 1243).

(57) Le Moniteur universel, 12 mars 1828, et la Rev - encyclopédique. XXXVII, mars 1828, 843 - 845.

(58) Jomard: Ecole Egyptienne de Paris, Nouveau Journal asiatique, août 1828, 102 - 103.

(٥٩) السابق.

(٦٠) المفارقة هي أن المفاوضات التي جرت بين ميزون Maison وإبراهيم باشا عام ١٨٢٨ بشأن الجلاء عن موريه La Morée، أفضت إلى تبادلات اتسمت بالمجاملة تأكدت من خلالها أواصر الصداقة الفرنسية المصرية. انظر:

Charles - Roux: France et chrétiens d' Orient, 142 - 144.

(61) Clot - Bey: Apercu général sur L'Egypte, II, 335.

(٦٢) انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ٥:

Une mission d'élèves noirs (1829)

(٦٣) هذا المشروع الذي قدمه كلوت بك لمحمد علي في الحادي عشر من يوليو عام ١٨٣٢ نشر في مذكراته: Mémoires, 174 - 175.

(٦٤) كان لسفري هدف أكبر أهمية لقضية محمد علي من مجرد توصيل طلاب، وقد زادت أهميته خاصة مع الأنباء التي تسري حالياً بشأن تدخل القوى العظمى في شئون الشرق.

انظر Clot Bey: Mémoires. 230 السابق ٢٤٢ ـ ٢٤٤) وقد دافع كلوت بك عن قضية محمد علي أمام لويس فيليب.

(65) Le Garde National, Marseille, 23 oct. 1832.

(٦٦) ارجع في هذا الصدد خاصة إلى :

Le Sémaphore de Marseille, du 3 oct. 1832. Le Garde National du 3 oct, Le Messager de Marseille du 24 oct.

(٦٧) ارجع إلى تقرير مكتوب عن دراستهم عام ١٨٣٤ بقلم جومار: Jomard, Bull. de Soc. de géogr., Paris, 1834, I , 417 - 418.

(٦٨) أورد نص الخطاب حفيد جومار الكونت جول بوزيللي Jules Boselli في : . Revue .d'Egypte, 4, année, t. iv, Janv - avril 1897

(٦٩) كان هناك في ذلك الحين تحالفٌ دعت إليه الظروف بين فرنسا وإنجلترا فقد كان الباب العالي يفكر في احتلال تونس مثلما فعل في طرابلس؛ فما كان من فرنسا التي تخوفت من الأمر إلا انها أرادت أن تتفق مع إنجلترا من أجل حماية تركيا من تعديات روسيا، بل ومصر، حتى تصرف عنها باب شمالي أفريقيا، وتبعد الخطر الروسي عن قسطنطينية. انظر:

Sabry: L' Empire égyptien sous Mohamed - Ali, 317 - 318 .

G Weil: L'Eveil des natianalités 148.

F. Charles - Roux: Thiers et Méhémet - Ali.

(70) Bull de la Soc. de géogr, Paris 1836, I, 135 - 137.

وقد استمر جومار - مع هذا - في الاهتمام بمصير طلابه السابقين الذين عادوا إلى مصر. انظر خطابه المؤرخ بتاريخ ١٠ أغسطس ١٨٣٦ والمرسل إلى جاياردو Gaillardot، والذي قام على نشره جيمار. Guémard: Les réformes en Egypte, 441 - 443.

(71) Le Moniteur Universel, 12 mars 1828 et la - Rev - encyclopédique XXXVII, mars 1828, 845.

(72) Hamont, II, 194 - 195, Guisquet, II, 84, Merruau: L'Egypte contemporaine de Méhémet Ali à Saïd Pacha, 88.

(73) Souvenirs Littéraires, I, 545 - 546.

كان هناك بالفعل طالب اسمه خليل محمد ولكنه كان يدرس الزراعة في مدينة روفيل Roville.

وبصفة عامة، كان يتم تعيين الموظفين بصورة عشوائية. ففي إحدى الصفحات التي خطها بريس دافين كتب يقول : «تلك هي الطريقة التي كان يتم بها نقل موظف سريعًا من وظيفة إلى أخرى: عابدين باشا أبو أحد المرتدين وكان يعمل في النقد، وصل إلى رتبة كولونيل وهو في السابعة عشر من عمره، ثم أصبح سكرتيرًا خاصًا لعباس باشا، ثم غضب عليه فأرسل ليقود موسيقى المفرزة أو الحرس المختار. وبما أنه لم يكن له أي جدوى في هذه الوظيفة، فقد تم تعيينه حاكمًا لمحافظة الجيزة، حيث كان يرى في المساء غالبًا محاطًا بحراسه وهو يلهو بالقفز في الماء».

Prisse d'Avennes, Politique et administration, f. 72.

والحقيقة أن استقلالية الكاتب وواقعيته قد أعطت لشهادته قيمة خاصة. وقد خصص جان ماري كاريه الفصل الأخير من الجزء الأول من كتابه عن الرحالة لهذا الأثري والصحفي الذي عاش طويلاً في القاهرة والذي وقف في وجه الحكام بقوة وشراسة. ويحمل الفصل هذا العنوان : بريس دافين عن المجهول العظيم Un grand méconnu: Prisse d'Avennes

(74) Bull. de La Soc. de géogr. Paris, mai 1835, 355.

(75) Charles - Roux: Edme - François Jomard et la réforme de l'Egypte en 1839, 41- 42.

(76) Prisse d'Avennes: Moeurs et Coutumes, f. 370.

فقد حاول علي الكرجي، الجورجي الأصل، الهرب، وتم القبض عليه عام ١٨٣٤، وأعاده محمد علي للبلاد وعاقبه (انظر: طوسون، ص ٤١).

(77) Clot - Bey: Aperçu II, 335.

(78) Prisse d'Avennes: Politique et Administration f. 84.

عن إبراهيم الدسوقي الذي تعلم الفرنسية وصناعة الساعات في مدينة ليون من عام ١٨٣٠ وحتى عام ١٨٣٦، انظر طوسون ص ٧٥.

(٧٩) خطاب جومار الموجه إلى وزير الخارجية المصري (أرتين بك)، في أكتوبر ١٨٤٤، نشره جاستون فييت G. Wiet Rev. du Caire, oct. 1944.

(80) Deny: Sommaire des Archives turques du Caire , 108.

(٨١) عرف فلوبير Flaubert وماكسيم دي كان Maxime Du Camp أرتين بك معرفة وثيقة في مصر. انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ٦.

(82) Arch. du Palais de La Répubique, Le Caire: Section Turque reg. L, p. 43, n. 252, (19 Sha'ban, 1248).

(83) Chateaubriand: Mémoires d'Outre - Tombe, cité par J. - M Carré: Voyageurs, I, 286.

(84) Eusèbe de Salle: Lettre écrite du Caire Le 10 avril 1838, publ. par Henri Cordier: Notes sur Eusèbe de Salle, Paris, Libr H. Leclerc, 1917, 46.

(85) Paton, II, 257 - 258.

(٨٦) أرسل الباشا لرؤساء بعثة ١٨٢٦ الثلاثة، ثلاثة جياد عربية تبلغ تكلفة الاعتناء بها ٤٧٥ فرنكًا شهريًا. واشترى مختار لنفسه آلة موسيقية بـ ١٨٤ فرنكًا. أما ابن أخيه أحمد، الذي كان يدرس التاريخ الطبيعي وسباكة المعادن وكان أمين خزانة البعثة، فقد أعيد إلى مصر بعد ٨ سنوات دون أن يتم دراسته، بسبب تراكم ديونه (طوسون: البعثات، مذكور في أكثر من موضع).

(87) Flaubert: Voyageurs, II, 106.

ويحكي أونفونتان Enfantin كيف أن «مختار بك» وبعض الطلاب السابقين بمدرسة باريس المصرية يحتفون بالنبيذ الفرنسي في عيد القديس سيمون الذي كان يقام عند القناطر في الخامس عشر من أغسطس عام ١٨٣٤.

انظر œuvres de Saint - Simon et d'Enfantin,X, 18 - 19

(٨٨) أحد السويسريين، ويدعى هيلار جي Hilaire Gay التحق عام ١٨٨٢ بخدمة الشرطة في الاسكندرية، ودعاه أحد الأطباء المصريين ممن تلقوا تعليمهم في فرنسا ليكون محل ضيافته الشرقية، وقدم إليه مربى الورد التي أطرى عليها وكانت من صنع نسوة المنزل المحتجبات عن الأعين. فقال له الطبيب المصري : «سيكون من دواعي سروري أن أقدم لك أمي وشقيقاتي؛ ولكننا ـ للأسف – لسنا في أوربا، ولابد أن تعلم شيئًا عن عادات ديننا». واستخلص الضيف من الموقف ما كتبه في مؤلفه: «نستطيع أن نتبين من هذا الكلام أن طالب الجامعات الفرنسية السابق كان ما زال مفتقدًا هذا البلد الذي عاش فيه ذات يوم». انظر:

HiLaire Gay: La garde européenne en Egypte. Genève, libr. Stapelmohr, 1884, 59.

****

الفصل الثاني

رفاعة الطهطاوي

(١٨٠١ ـ ١٨٧٣)

في نهاية القرن الثامن عشر، كانت طهطا إحدى المدن المزدهرة في صعيد مصر. وفي ظل جوامعها الزاهرة كان يقام سوق كبير للحبوب صنعت مجده عائلتان موسرتان: عائلة «أبو القاسم» التي يرجع أصلها إلى الحسين بن فاطمة بنت النبي، وعائلة «الأنصاري»، وهي فرع مزدهر من قبيلة الخزرج العربية، وقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت حامية لمحمد في بداية رسالته. ومن زواج تم بين سليل عائلة «أبو القاسم» وسليلة عائلة «الأنصاري»، ولد وحيدهما عام ١٨٠١، وأسموه رفاعة، على شرف أحد جدوده من أمه، ولايزال ضريحه قائمًا حتى الآن على أطراف طهطا، يزوره كثير من الناس.

كان الأب، بدوي رافع، ملتزمًا[1] ثريًا، وكريمًا، ومضيافًا، وورعًا. وقد أدى إلغاء نظام الالتزام عام ١٨١٣ ـ إلى التعجيل بوقوعه في براثن البؤس. فرحل عن طهطا، ونزح إلى الجنوب ناقلاً معه تجارة بسيطة من قرية إلى أخرى. وبعد أن أنهكه العمل والترحال وصرعه البؤس، عاد إلى بلدته حيث توفي.

ومنذ أن حل به هذا المصاب الذي لا سبيل إلى إصلاحه، تضرع الأب الشجاع إلى السماء كي تدخر لابنه مستقبلاً يثأر للعائلة جمعاء من عوادي الدهر. فكرسه «للعلم»[2]، وجعله يحفظ القرآن عن ظهر قلب خلال فترة إقامتهم في قنا وفرشوط. وبعد عودته إلى طهطا، بدأ الولد في تعلم أشهر نصوص النحو العربي، كان يلقنه إياها أخواله الذين تلقوا جميعًا تعليمهم في الأزهر. وفي عام ١٨١٧، ذهب لاستكمال تعليمه في هذه الجامعة العتيقة.

ومن بين الأساتذة الأجلاء الذين كان لهم عمود في الجامع الأزهر، ويدرسون من الكتب التي نالتها صفرة الزمن بين أيديهم، لتفاسير لا نهاية لها، اكتشف رفاعة معلمًا ربما كان أقل تفقهًا في علوم الدين، ولكنه أكثر روحانية ودقة، إذ كان رجلا مثقفًا بحق. إنه الشيخ حسن العطار الذي اكتشف فورًا قيمة هذا الدارس الشاب وجعل منه تلميذًا مقربًا ومريدًا أثيرًا. فكان كثيرًا ما يدعوه إليه وينصت بإعجاب إلى قصائده وكتاباته ويعطيه دواوين شعر تنتمي لثقافة أعم غائبة عن مناهج الأزهر التقليدية ليقرأها.

كان حسن العطار (٣) وجهًا متفردًا وسط هيئة علماء هذا الزمن، يتمتع بعقلية ثاقبة وسابقة على عصره، ولأنه معروف بثراء معارفه فقد اختير لتدريس العربية لبعض ضباط بونابرت، فكان اتصاله بهؤلاء الأشخاص اكتشافًا حقيقيًا. إذ اندهش حسن العطار لتنوع كتبهم، وبساطة أساليبهم التعبيرية ومناهجهم، فأخذ يدعو إلى ضرورة إحداث تغيير كامل في الشرق، وإجراء تجديد خصب خاصة في المجال الفكري، وتكهن لأمته بقرب قدوم مستقبل لامع. وقد قام برحلات طويلة إلى سوريا وتركيا، ثم عين بعد هذا شيخًا للأزهر.

وتحت توجيه هذا العبقري المحسن، تلقى رفاعة دروسًا متينة في اللغة العربية وعلوم الدين واللغة، وفي القانون والتاريخ والأدب. وحوّل دروس الدين التي تلقاها على يد الشيخ الفضالي إلى أبيات شعرية، وألف كتابًا عن البلاغة وقصائد شعرية عديدة.

ولم يكن قد أتم الخامسة والعشرين من عمره بعد حينما لفت أنظار معلميه بذكائه وبلاغته وتفقهه، فعهدوا إليه في الأزهر بتفسير بعض النصوص الواردة في المنهج، فكان كثير من المستمعين يتركون دوائر الشيوخ المسنين لكي يحضروا دروس المعلم الشاب. فإلى هذا الحد كان يبرع في عرض الموضوعات، وتوضيح الأفكار المعقدة الموجودة في الشروح، وفصلها عن بعضها.

ومع هذا، لم يكن يكسب شيئًا تقريبًا، إذ كان التدريس بالنسبة لحالته عبارة عن مجرد تضحية (٤) فلم يكن المعلمون يتقاضون رواتبهم بانتظام من مديري الأوقاف(٥). ولكي

يستطيع رفاعة أن يعيش، استمر فترة في إعطاء دروس خاصة لـ«بك» شاب، وفي عام ١٨٢٣ كان عليه أن يتجند ويصبح واعظًا وإمامًا (٦) في إحدى فرق الجيش(٧).

كان رفاعة سيمضي حياته الهادئة الساكنة المنتظمة على إيقاع الصلوات في شغل هذه الوظيفة المتواضعة حينما عرض حسن العطار على محمد علي أن يصطحب الأفندية المتوجهين عام ١٨٢٦ إلى باريس هذا الشاب الذي سيكون مرشدهم الروحي في بلد أجنبي، وها هو رفاعة الطهطاوي، في الخامسة والعشرين من عمره، ملتحيًا وواضعًا عمامة، مرتلاً آيات من القرآن، جاهلاً كلمة فرنسية، يصعد على متن السفينة لاترويت La Truite، بميناء الاسكندرية.

وبناء على نصيحة معلمه، حرص رفاعة على كتابة يوميات لرحلته (٨)، وتسجيل مسارها بدقة: إذ أمضى أربعة أيام على ظهر النيل المبارك، وثلاثة وعشرين يومًا في الاسكندرية، تلك المدينة بسكانها العديدين القادمين من أوربا، وبلغتها المحلية المختلطة بالإيطالية، إنما تمهد بالفعل، «لبلد الفرنجة». وحتى يتقي رفاعة شر الإصابة بدوار البحر، فقد نفذ وصفة أعطاه معلمه إياها، وتتمثل في شرب بضع جرعات كبيرة من الماء المالح والنهل منها.

كانت السفينة النظيفة المجهزة بصورة تثير الإعجاب، تدعو إلى الاطمئنان. ولكن بعد أربعة أيام من الملاحة بدأت الأمواج الهائجة تعصف بها فجأة بعنف، فقبع الجميع في قاع السفينة يبتهلون إلى الرسول ليغيثهم ويشفع لهم عند الله. وحينما تحسن الجو، كان يمكن مشاهدة جزيرة كريت ثم صقلية وإتنا Etna.

وخلال فترة رسو في ميناء ميسين Messine امتدت خمسة أيام، راح رفاعة يتأمل باستمتاع المدينة التي كانت تضيء بمجرد غروب الشمس. كان ينصت من بعيد إلى الصلصلة البهيجة لأجراس الكنائس، وأمضى على الجسر ليلة ممتعة مع رفيقيه الأزهريين الاثنين. وألف قصيدة فيها الحب العفيف الذي يصبو إليه، والنظرة الجميلة التي يمكن أن

تسكره بدلاً من النبيذ، والإحساس الذي يثيره رن الأجراس في نفسه. فالحب، والنبيذ، والموسيقى تمثل - بلا شك - صورة أوربا على النحو الذي يشعر بأنها تقترب منه، وكما تسكن أحلامه، وحتى رؤية تدل على رغبة في التحور، وانطلاقة تصبو إلى مباهج الحياة. هذا التفاعل غير المتوقع من جانب رجل دين مسلم قادم من مناخ القرون الوسطى، جاء وكأنه وعد، وضمان لقدرته على دفع المعتقدات الخاطئة بعيدًا لصالح الفن والقيم الإنسانية.

وقد حملت الرياح السفينة إلى نابولي حيث أقام يومين. وبدت كورسيكا في الأفق قبل الوصول إلى مارسيليا بعد ٣٢ يومًا من الملاحة، والنزول بها.

هل الحجر الصحي هو وسيلة مخالفة للدين تهدف إلى الفرار من القدر؟ يعرض رفاعة لهذا الجدل الديني دون أن يبدي رأيه. وقد أعجب بالعمارة وبحديقة لازاريه Lazaret. كل شيء أدهشه في اليوم الأول، بداية من الخدم الذين يتحدثون باللغة الفرنسية وحتى الأسرَّة المرتفعة التي يحظى فيها المرء بنوم مريح. ولكن أي اكتشاف على المائدة! أدوات يؤكل بها: شوكة، وسكينة ! وأطباق جميلة من البورسلين، يتم تغييرها بصورة متتابعة بإيقاع ما يقدم من طعام! كما أن المنزل الذي نزلوا فيه في مارسيليا انتظارًا للرحيل إلى باريس يلمع وكأنه قصر.

أما مقاهي المدينة فهي صالونات فاخرة تضاعف المرايا في جانبيها من عدد الأشخاص، حتى لتشعر كأنك في شارع كبير. ويعد المقهى هيئة بكاملها ففيه: محصلّة نقود، وطاولة للشراب، ونُدُل، وزبائن. ويمكن قراءة أوراق يومية تحمل أنباء، بينما يحتسي المرء فناجين من القهوة تفوق في حجمها مثيلتها في مصر بأربعة أضعاف. أما المحال التجارية فهي منشآت رائعة تعج بالجمال، فالنساء الفرنسيات غير المحجبات اللاتي يرتدين ثيابًا مكشوفة الصدر والذراعين، يذهبن إلى العمل مثلهن مثل الرجال. كما أن هناك في مارسيليا عددًا من المهاجرين المصريين الذين تفرنسوا مع الأسف - بصورة مبالغ فيها!

ولا ينتاب المرء دوار البحر وهو مستقل العربة التي تجرها الخيول. وتتسم الاستراحات والنُزل بالجاذبية والنظافة الشديدة. وفي كل تلك القرى المتلاصقة التي تقع بمحاذاة الطريق الجميل الذي تحده الأشجار، يمتلئ المكان بالأزهار ويسود الأمان.

وقد توقفت عربتهم التي تجرها الخيول لمدة يوم في مدينة ليون. ولكن رفاعة لم يعرف من تلك المدينة سوى ما رآه من خلال نافذة الفندق. وفي نهاية الأسبوع وصل الركب إلى باريس.

وفي باريس، وبعد دراسة مبادئ اللغة الفرنسية، والألفاظ والنحو، وخلال إقامته لدى المهندس العسكري السيد شوفالييه Chevalier، الطالب السابق بمدرسة الفنية العسكرية، وأحيانًا من خلال دروس خاصة تلقاها على يد مدرسه لوموزي[٩] Lemonry أو حتى وحده، استطاع رفاعة استيعاب كتب دراسية في التاريخ والجغرافيا والرياضيات والهندسة. وهيّأ كتاب «المنطق» الخاص ببور رويال Port Royal، وفلسفة كونديّاك Con- dillac عقلية رفاعة للانفتاح على أطر الفكر الغربي. وقد قرأ باهتمام «عناصر القانون الطبيعي Les Eléments du droit naturel لبورلاماكي Burlamoqui، وفهم كيف أن القوانين لا تتأسس على مبادئ دينية أو سُنّية وإنما على أسس عقلانية خالصة [١٠]. وقد أثارت بعض مقاطع كتابي «روح القانون» و «العقد الاجتماعي» عميق إعجابه. واكتشف من خلال أنطولوجية نويل Noël ولابلاس La Place شعر راسين Racine وفولتير وجعلته يتصل على نحو ما بأدب القرنين السابع عشر والثامن عشر [١١]. وكانت الجرائد والمجلات اكتشافًا غاية في الأهمية. وبدأ يقيس حجم الخدمة التي تؤديها الصحافة اليومية والعلمية للعدالة الاجتماعية وتعليم الشعب. كما أنه أخذ يطوف بنهم بين مختلف الدوريات، في «قاعات القراءة» وامتد فضوله الحاد عبر الزمان والمكان، ونهل من مجموعة من الكتب التعليمية، وخاصة من كتاب «ديبنج Depping لمحة تاريخية حول عادات الأمم وتقاليدها» معرفة موسوعية [١٢]. هذا الفهم للتعلم والتزود بالمعارف، وهذه الانطلاقة صوب آفاق جديدة هي ما يميز بشكل أساسي كل تلك الفترة التي شهدت النهضة. ولعلنا نتذكر

البرنامج الدسم الذي رسمه رابليه Rabelais لشخصية مؤلفه جارجونتوا Gargantua. وعلاوة على هذا، كان رفاعة يشعر بمسؤليته إزاء توصيل كل تلك التجليات لمواطنيه.

كان من الصعب عليه إذن أن يتخلص من تبحره العلمي الغض وهو يكتب عن رحلته. فحتى يكون كتابه كاملاً كان ينقل بتوسع من كتب الجغرافيا التي كان يدرسها عن موقع باريس أو مناخها، ويقتبس من دليل ما أو من تقويم ما شيئًا عن المجتمعات العلمية، والمؤسسات الخيرية أو استهلاك اللحوم في العاصمة. حتى إنه رأى من المفيد أن يتيح لقرائه ضمن كتابه دراسة عن الصحة العامة. ولم يكتف بأن يشرح لهم كيف تسير الحكومة الفرنسية ولكنه وضع بين أيديهم ترجمة كاملة للميثاق التأسيسي وللتعديلات التي دخلت عليه بعد الإصلاح. وفي نهاية كتابه، عرض بأمانة للمواد التي درسها. وربما كان يستعد على هذا النحو لأداء امتحانه الأخير، لأنه قدم كتابه عن رحلته على سبيل الأطروحة التكميلية إلى جانب الترجمات الاثنتي عشرة التي كانت تمثل أطروحته الأساسية (١٣).

وعلى الرغم من الترجمات الواردة في غير محلها، والتوثيق البدائي الذي يزدحم به النص، فإن صفحات عديدة من تخليص الإبريز ما زالت تحمل الطابع الشخصي. كان رفاعة يجيد التأمل والملاحظة. ولكن، بعد تأثره بكل هذه القراءات، تراجعت دهشة الأيام الأولى لتفسح المجال للموضوعية التي لا تتأثر بشيء، بل وللحس النقدي. حتى إن شارل ديدييه Charles Didier الذي عرف هذا المسافر لاحقًا قال عنه: «إن مزاجه تهكمي أكثر منه تأملي، والباريسيون يدفعونه غالبًا للضحك منهم، رغم أنهم باريسيون» (١٤).

وبالفعل، يؤكد رفاعة - كما فعل مونتسكيو - فضول الباريسيين، وسطحيتهم، وتوترهم، وعشقهم لكل ما هو جديد وللصيحات العابرة، ولكنه في المقابل، يجدهم أذكياء وروحانيين، ومثقفين، ونشطاء، وجادين بمجرد أن يتعلق الأمر بأداء واجب. وهم يتميزون بالبشاشة، ويحركهم حب المجد، كما أنهم يفون بوعودهم. ومع هذا فإنه يأخذ عليهم عقلانية مبالغًا فيها، ترفض الغيبيات، وتضع العلماء في مرتبة أعلى من الأنبياء، وتنكر

المقدر مما يدفعهم للانتحار بسهولة. وهم على اختلاف أعمارهم، منشغلون بالكسب، ولكنهم يبدون أميل إلى البخل حينما يتعلق الأمر بالأعمال الخيرية، وإلى السخاء في الملذات. والرجال عبيد للنساء، تلك النساء الجميلات المتاحات للنظر واللاتي يحظين بالاحترام في كل مكان، ويُجدن في كسب الإعجاب، ويبرعن في إبراز مفاتنهن مع أنهن لا يتزينّ بمجوهرات كثيرة. كما أن صحبتهن ممتعة في البيت أو خلال النزهات على حد سواء، ولكنهن، خاصة في الطبقة الأرستقراطية والطبقة المتدنية، كثيرًا ما يَخُنّ أزواجًا لايشعرون كثيرًا بالغيرة، ومستعدون للجوء للمحاكم العامة. ولكن ميزة هؤلاء الرجال أنهم ينفرون من الشهوة غير السوية إزاء الغلمان. كما أنهم لايسرفون في تناول النبيذ، ولا يستلهمونه في آدابهم على الإطلاق على عكس العرب. كما أن طعامهم متنوع، وحينما يشاءون فإن مطاعمهم توفر عليهم عناء إعداده في بيوتهم. أما منازلهم من الداخل وحتى بيوت الملوك فتنم عن الذوق وليس عن البذخ. وكذلك، تتميز ثيابهم بالنظافة والأناقة وبشرتهم فاتحة اللون، لحفاظهم على نقاء عنصرهم من أي اختلاط بالزنوج.

كما تتميز وسائلهم الترفيهية بالرقي والذوق السليم وهم لايمضون أوقات فراغهم في الصلاة. وفي الحفلات الراقصة والاجتماعية، تجد النساء والرجال يرقصون برشاقة معًا دون أن يشوب هذا أية نزعة جنسية مثل تلك التي تسم الرقص الشرقي الذي تؤديه العوالم. أما العروض الباريسية فهي عالم كامل انكب رفاعة عليه يصفه بدقة، من الأوبرا إلى السيرك، دون أن يغفل الرؤية الشاملة للعرض وفضائه المسرحي وجماليات مشاهده، وغيرها من نواحٍ فنية.

وأي مؤسسة جديرة بالإعجاب مثل المسرح، لأنه لعب جاد. فذلك «بيت» واسع له قبة كبيرة تتدلى منها ثريًا رائعة، وهو معد بصورة يستطيع من خلالها استقبال عدد كبير من المشاهدين في «غرف» صغيرة تطل كلها على الجزء المركزي الذي يخفيه ستار في بداية الجلسة، ولكن سرعان ما يتم إزاحة الستار، وإنارة المكان، ليبدأ رجال ونساء مثقفون ثقافة عالية، وعلماء مهرة، في أداء حركاتهم. ثم إن حواراتهم بليغة، ويمكنهم أن يقلدوا

حتى شاه إيران، وهم يتحركون دائمًا في ديكور خاص بمسرحيتهم حتى لو كان الأمر يتعلق بمياه البحر التي يشقها بمعجزة النبي موسى. وباختصار فإن المسرح هو مدرسة حقيقية للحكمة، وهو مجهز تجهيزًا مدهشًا. ورغم اصطدام رفاعة بعائق عدم وجود ألفاظ عربية تصف المسرح إلا أنه لم يتراجع عن مهمة وضع كل هذه التفاصيل الجديدة نصب أعين مواطنيه. وقد أوقعه هذا في أخطاء طريفة أضفت سحرًا لاينسى على هذه الصفحات الأولى من الكتابة المصرية الحديثة التي خصصت للحديث عن الفن المسرحي.

وبتوجيه من جومار وأجوب ومن خلال اتصاله بالمستشرقين سيلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وكوسين دي بارسيفال Caussin de Perceval وجوزيف رينو Joseph Reinaud تابع رفاعة في باريس حياة فكرية مثقفة. وهو يتحدث طويلاً عن التقدم العلمي في فرنسا ويعدد، المعامل، والمتاحف، والمدارس العليا، والكليات والمكتبات، والأكاديميات، والمجتمعات العلمية والأدبية. ويقدر اللغة الفرنسية باعتبارها أداة بسيطة ومقتصدة، ودقيقة ومكرسة في خدمة المعرفة - وقد رأى كيف أن الفارق شاسع بين العلماء الأوربيين، المعترف لهم بهذه الصفة - بعد دراسات متخصصة، ومن خلال ألقاب أكاديمية حصلوا عليها، والعلماء المسلمين الذين تفقهوا فقط في علوم الدين.

وإذا كان الفرنسيون يعكفون على العلوم، ويفرغون لمتع الحياة، وينعمون بحياة اقتصادية مزدهرة وينمون عادات وتقاليد يتزايد رقيها، فإن الفضل يعود في ذلك إلى وجود نظام سياسي مواتٍ. فالشعب هنا ممثلاً في نوابه، هو الحاكم الفعلي. ويصل رفاعة بهذا إلى قلب مبدأ الديمقراطية، والعدالة التي تتيح لكل واحد الوصول إلى الوظيفة التي يستحقها فتخلق جواً من المنافسة، وتشجع الجهود والإنتاج في جميع الميادين، بحيث يصبح من حق أقل المواطنين شأنًا أن يرفع قضية ضد الملك شخصياً إذا استدعى الأمر. كما أن حرية الرأي، خاصة في الصحف، تسمح بالكشف عن الممارسات الخاطئة، وتفضح المخطئين في حق الممتلكات العامة. وهكذا لا يكون هناك تدليس أو عنف في تحصيل الضرائب. فإن تعدى الملك على حقوق الشعب، فسوف يفقد عرشه سريعًا. وقد

كانت ثلاثة أيام كافية لتغيير شارل الخامس، وتنصيب لويس فيليب مكانه. وبما أن رفاعة شهد هذا فقد حرص على أن يذكره ليتعلم منه مواطنوه.

وطبقًا لرفاعة الطهطاوي تنحصر صورة فرنسا في تلك الأشياء. ونلمح فيها فورًا الثغرات، مثل غياب المحافظات الأخرى والريف، وغياب «السفر» بمعنى التنقل واللقطات المتنوعة، وأيضا غياب الفنون الجميلة. فالعربة التي كان يستقلها تتوقف بالكاد في طريق العودة في ميلون Melun حيث يوجد مهاجرون مصريون، وفي فونتانوبلو Fontaine-bleau، حيث لا يستحق منه القصر هناك سوى تأملات أخلاقية عن تقلب الزمن، ثم نجد روان Roanne، وليون Lyon وأورجون Orgon، وهي مدن يعددها بشكل عابر. ونستطيع القول إن الطالب يتفوق على المسافر في كتاب تخليص الإبريز. كذلك، يعيب سلفستر دي ساسي عليه أنه يحكم على الفرنسيين من خلال الباريسيين. وحتى باريس التي أمضى بها الكاتب خمس سنوات، لم تتبدَّ له بصورتها الحقيقية، وبأماكنها، وأحيائها، وحياتها الحقيقية. فالمدينة الكبرى لا تخترق إلا لحظياً حجب المعلومات المستمدة من الكتب وذكر الكتابات الغربية عن الموضوع. فالمصطلحات والاعتبارات الكوزموغرافية، والدروس المستفادة كلها لا تترك كل المكانة الواجبة للانطباعات الطازجة التي يمكن أن تنبع من رجل الأدب. وفي المجمل، فإن الصورة التي يعطيها لنا رفاعة عن فرنسا صورة الحضارة الغربية بشكل عام، من وجهة نظر مصري من الجيل الأول للقرن التاسع عشر. فالفرنسيون ـ بالنسبة لرفاعة ـ كانوا يمثلون «الفرنجة»، أي الأوربيين. إذن، علينا ألا نطالبه بصورة لفرنسا محددة، وألا نبحث في لوحته لا عن لون، أو طيف، أو عن ترف وجود رؤية فردية، وإنما عن مجرد خطوط عريضة مرسومة بشكل صحيح.

تعلق الأمر إذن بمجتمع يختلف كل الاختلاف عن مصر، إلى حد أنه وجد من الضروري توجيه هذا التنبيه إلى القارئ: «احذر أن تجد ما أحكيه غريبًا عن عاداتك لدرجة أن يشق عليك تصديقه، حتى لتعتبره نوعًا من الهذيان، أو الأساطير أو الشطط أو المبالغة».

كانت المسافة التي تفصل الغرب عن الشرق لا تقل عن تلك التي تفصل عالمًا خيالياً عن عالم واقعي. ومع اكتشاف الحياة الأوربية، يمكن للشعب الذي طالما غفا داخل عاداته، أن يلوذ بالشك المطلق. أبدًا لم تحدث أوهام تبدد صدمة مثل هذه قط. فنحن نشهد هنا لحظة تمثل علامة فارقة في التاريخ المصري إنها لحظة الالتقاء مع منابع الحضارة الحديثة.

وقد أصبح دور رفاعة في هذا رئيسيّاً وقاطعًا. ولكن كيف فهم مكتشف الحضارة الغربية هذا مثل هذا النمط من الوجود؟ وما الذي قبله منه وما الذي رفضه؟ وكيف كانت ردود أفعاله، وكيف كانت وجهة نظره؟

كان من المتوقع أن تكون ردود أفعال مسلم، منحدر من سلالة النبي، عنيفة، خاصة وقد نشأ هو نفسه في الجامع الأزهر، والتحق بالبعثة التعليمية بصفته إمامًا. غير أن شيخنا الشاب أقبل على «بلد الكفار» هذا بكل حماس، مهدئًا هواجسه الخاصة بحديث قدسي : «اطلبوا العلم ولو في الصين!». ولم تكن أحكامه المسبقة على فرنسا سوى أحكام مسبقة ضد المجهول، وما لبثت تلك الأحكام أن راحت تتبدد كلما تقدم إلى الأمام في هذا العالم الجديد، ومنذ البداية، وبعد أن أدخل على طريقة الكتّاب العرب، اعتبارات دينية في الجغرافية، إلى حد تفضيل آسيا - مهد الأنبياء والإسلام - على أوربا المسيحية، لم يلبث رفاعة أن اعترف بأن المزايا المأثورة الخاصة بالإسلام لا تجعل للشعوب الشرقية الغلبة علي «الفرنجة» المتبحرة في جميع العلوم (١٥). ويلاحظ رفاعة من خلال رؤية ثاقبة أن المفكرين الفرنسيين يلغون ما لا يقبله العقل» (١٦). وقد تملكته هذه العقلانية حتى إنه ألغى من مخطوط كتابه الفقرة المطبوعة الخاصة بالتنجيم الساذج، التي يحكي فيها أحلام رفيقه الورع حسن (١٧). وقد أشاد أكثر من مرة بالعلوم الدنيوية. واكتسب معنى النسبية، واعترف بأن لكل لغة عبقريتها(١٨)، وحارب «ذلك الوهم الذي يجعل البعض يعتقد أن الأجانب لا يفهمون اللغة العربية».(١٩) وعلى الرغم من أن الدستور الفرنسي غير مستمد من القرآن أو السنة المحمدية، إلا أن إعجابه به دفعه إلى ترجمته النظام الديمقراطي وامتداحه.

ومع هذا، فليس كل ما رآه رفاعة أثار إعجابه. فقد أبدى تحفظاته إزاء بعض جوانب الحياة الأوربية، بل وانتقدها فهو وإن أحب الراحة التي يتميز بها البيت الباريسي إلا أنه لم يحب المطبخ الفرنسي [٢٠]، وهو يفضل مياه النيل علي مياه السين. كما أن منظر جزيرة السيتيه Cité بأرصفتها التي تزينها أشجار «صلعاء» في الشتاء يوقظ حنينه لنزهة ساحرة عند مقياس النيل وجزيرة الروضة. وهو يقر بحرية المرأة ولكنه لا يقبل تهتكها. وقد كون فكرة عظيمة عن المسرح مع إدانته «الملذات الشيطانية». وحكمه على طباع الفرنسيين مواتٍ، لذلك يضفي عليهم أفضل خصال العرب ممثلة في العزة والشرف، ويأخذ عليهم غياب إحدى خصال العرب الكبرى وهو «الكرم». وهو يرى آدابهم «مقبولة» لأنه ظل مرتبطًا بعذوبة اللغة العربية. وهو إن أثارت حياتهم الفكرية حماسه إلا أنه كان يتوخى الحذر من كتبهم الفلسفية المليئة بالشكوك التي تثير الاضطراب والتي يحذّر منها بشدة شركاءه في الدين.

وقد اقتنع هو نفسه بأدلة الغربيين الذين أكدوا على كروية الأرض ودورانها حول الشمس. ولكنه مع هذا لا يجرؤ على قول رأيه، ومحا من مخطوطه أية إشارة للموضوع يمكن أن تبدو كأنها بدعة [٢١]. لم يجتز رفاعة إذن ذلك الصراع بين فكر العصور الوسطى والفكر الحديث دون تردد أو تعب. ولعل شهادته التي جاءت في بداية كتابه [٢٢] تبين لنا إلى أي حد أصبح مناصرًا للغرب وإلى أي حد أيضًا ظل محافظًا: «وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على ألا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق، وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم على استحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال. ومن المعلوم أني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية». تحري الموضعية مع البقاء وفيًا للتقاليد الإسلامية هو ذا التوازن الذي كان رفاعة ينشده. وهو وضع حساس، كان يقتضي منه النضال دائمًا ضد «الإفراط والمبالغات».

وبعد وفاة رفاعة بعشرة أعوام كانت أوروبا تنصر العقل على الدين. فحتى يبرهن رينون Renan على عدم توافق الفكر الإسلامي مع العلم، استشهد، على نحو خاطئ بإمام البعثة المصرية بباريس، يقول:

«إن ما يميز المسلم أساسًا هو كرهه للعلم، واقتناعه بأن البحث العلمي أمر تافه وغير مجدٍ بل ويكاد يقترب من الكفر، فهذا هو حال العلوم الطبيعية لأنها تنطوي على منافسة للرب، وحال علم التاريخ لأن تطبيقه علي أزمنة سابقة على الإسلام من شأنه إحياء أخطاء، وأكبر دليل على هذا هو الشهادة الغربية للشيخ رفاعة الذي أقام عدة سنوات في باريس بصفته إمامًا للبعثة المصرية، والذي ألف بعد عودته إلى مصر كتابًا مليئًا بأغرب الملاحظات على المجتمع الفرنسي. ومن أفكاره الثابتة كون العلم الأوروبي - خاصة من خلال مبدئه القائم على دوام قوانين الطبيعة - ما هو إلا بدعة من أوله إلى آخره؛ وعلينا أن نقول إنه من وجهة نظر الإسلام لم يخالف الصواب تمامًا.(٢٣)

كلا، لقد آمن رفاعة بأن الدين يذهب إلى حد الحث على «طلب العلم» وبذل في باريس جمَّ جهده لتعلم مبادئ العلوم الطبيعية، وترجم - من بين ما ترجم - دراسة عن علم المعادن، وأظهر اهتمامًا بالغًا بالجغرافيا والتاريخ. وهو وإن تردد في لحظة ما في أن يكون جاليليو جديدًا إلا أنه انتهى إلى صيغة لايفقد فيها علم الفلك أياً من حقوقه. ولاشك أن وضع هذا الشيخ الشاب الذي وجد نفسه فجأة في قلب الفكر الوضعي لم يكن مريحًا وكان من حقه أن يتساءل عن جدوى إشعال معركة كبيرة حول قضية غير ملحة مثل دوران الأرض حول الشمس. لقد أخذ على عاتقه أساسًا تعليم مواطنيه المصريين أفكارًا أساسية كثيرة حتى إنه لم يشأ أن يجازف بكل هذا بداية بإعطاء قول فصل في هذا الموضوع. وكي لا يخل بأي شيء، حرص على إيجاد نوع من التعايش بين المعطيات التجريبية وعقائده الراسخة. وكان أميل لتأويل «الكتابة» من خلال المعطيات التجريبية. ومن ناحية أخرى، وبعيدًا عن إدانة الفلسفة العقلانية باسم عقيدة غير متبصرة فقد فضل قياس نسبيتها لقاعدة منطقية (٢٤) هذا الحكم المطلق الذي أصدره عن رفاعة رسول أسطورة العلم، دينون Denon (٢٥) يزيد من إحساسنا أنه مبالغ فيه لأنه يستهدف مناصرًا مخلصًا للتقدم.

لنعترف بالأحرى لرفاعة بسيطرته على أحكامه المسبقة على الأشياء. فالرؤية التي استخلصها لفرنسا لم تتشكل بصورة كبيرة من خلال فكره الديني فإزاء مطران باريس

الذي ينتمي فكره للقرون الوسطى والذي يرى في احتلال الجزائر العاصمة «انتصارًا للمسيحية على الإسلام» يرد رفاعة بوعي العصر الحديث: «مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالي الجزائر إنما هي مجرد أمور سياسية ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات منشأها التكبر والتعاظم»(٢٦) لقد تضافر ذكاء رفاعة وفضوله مع مفاهيم التجديد التي كانت بعد مبهمة والتي نادى بها أستاذه حسن العطار، إلى جانب مناهج الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين التي استوعبها، ليساعده كل هذا على وضوح الرؤية والتبصر والمقارنة، وعلى أن يكون أكثر عقلانية مما كان يعتقد.

عاد رفاعة إلى مصر عام ١٨٣١ تملؤه إرادة قوية للتبشير بالأفكار الجديدة ونشرها بين مواطنيه. وفي الإسكندرية، كلفه إبراهيم باشا بتأليف قاموس عربي فرنسي. غير أن كلوت بك طلب من محمد علي أن يلحق الشيخ بمدرسة الطب بصفته أستاذًا للترجمة (٢٧). وبما أن رفاعة كان شغوفًا بالتاريخ والجغرافيا فقد راح يعلم هذه المواد لطلبة أبي زعبل.

تزوج رفاعة من إحدى بنات أخواله، وكانت بنت «المفتي» وقد أسهم هذا النسب نوعًا ما في تحسين صورته في نظر الشيوخ المتشددين. كتب رفاعة إلى جومار يقول: «بما أن خالي، والذي أصبح حمَاه أيضًا، هو نفسه مفتي شيخ الإسلام فقد استقبلني علماء الأزهر بشكل جيد في أغلب الأحيان؛ وما يعزز مظهر الحضارة المصرية، هو أن كثيرًا منهم سعوا بأنفسهم إليَّ راجين أن أعلمهم اللغة الفرنسية»(٢٨).

ومن خلال تمثيله باريس لدى الأزهر، وتوفيقه بين هذين القطبين استطاع رفاعة - فيما يبدو - أن يحرز انتصارًا لصالح الحداثة.

ولما رأى حسن العطار نبوءاته تتحقق، اغتبط لنمو قدرات تلميذه وراح يشجعه ويحميه ويبارك خطاه. وحتى يجعل جومار على دراية بما يجري، كتب رفاعة في خطابه إليه مضيفًا: «شيخ الإسلام نفسه الذي قرأ كتابي عن رحلة باريس كان راضيًا عنه، ووعدني بالكتابة إلى وليِّ النعم لحثه على طباعته، إذ يرى أن هذا النشر هو أكثر السبل

فـاعليـة لحث المسلمين على السـعي لطلب العلم والتنوير من الخـارج، ثم العـودة لنشـره وتطويعه في بلادهم (٢٩).

ولم يلبث محمد علي الذي راقه إطراء المؤلف الشاب أن أمر بطباعة تخليص الإبريز وتوزيع الكتاب على الموظفين والطلاب وترجمته إلى اللغة التركية. وقد صدر الكتاب عام ١٨٣٤، وكتب مقدمته الشيخ حسن العطار. ولنا أن نتصور هذا الجمهور الواسع الذي يخـرج عن نطاق الصـفوة البـصـيرة، وبعض رجـال الدين، ممن رغـبـوا في تعلم اللغـة الفرنسية. ونستطيع أن نكوّن فكره عن التأثير البالغ الذي أحدثه الكتاب على الرأي العام من خلال هذا المشـهد المستمد من مذكرات رحلة إدوارد وليم لين(٣٠) Edward William Lane والمؤرخ بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٨٣٤:

يقع المشـهد أمام بائع كتب في أحد شوارع القاهرة الرئيسـية الواقع في مواجـهة مدخل خان الخليلي. جاء رجل يعاني من المياه البيضـاء التي تكاد تمنعه من الرؤية، لشراء نسخة من كتاب رحلة رفاعة إلى فرنسا. وحينما سأل عن محتوى الكتاب أجابه فورًا رجل آخر جالس أمام الدكان أن المؤلف يحكي رحلته من الإسكندرية إلى مارسيليا، وكيف أنه انغمس في الشـرب على السـفينة، وأنه جـزاء هذا تم ربطه إلى السـاري الكبـير وضـربه بالسياط، وأنه بعد أن وصل إلى بلد الزندقة والطيش هذا، أكل لحم الخنزير وراح يلهو مع الفرنسيات الجميلات اللاتي يتغلبن على المصريات بسحرهن وبعد أن أعد لنفسه مكانًا محترمًا في جهنم عاد إلى مصر».

وحينمـا نجد أنه حتى من يكاد يكون ضـريرًا سـعى لشـراء كتاب صدر بالكاد منذ وقت قصير ويتكلم عنه المستنيرون بتعاطف في بلد ندر فيه أساسًا من يجيدون القراءة، فمعنى هذا أن هذا الكتاب كانت له شعبية غير مسبوقة. ولكن الجمهور بتأثير ممتد من الأحكام الدينية المسبقة، أوّل العمل تأويلاً خاطئًا، وعزا للكاتب ملامح خيالية. وبنيت حول سفر رفاعة إلى باريس وانتشرت أسطورة كاملة نابعة من رؤية سطحية لفرنسا ملحدة ومتمرغة في الخطيئة، وهو رد فعل طبيعي من جانب شعب جاهل، يواجه ما يريدون له أن

يتعلمه بخلفية شائعة، ويحارب الأفكار الجديدة بأفكار جاهزة لديه. وقد بدا رفاعة في صورة من يرتكب أفظع السلوك وأكثره جرأة لأنه كان سابقًا لعصره بكثير. وكان لابد لالتقاء طرفين على هذه الدرجة من التباعد من أن ينتج عنه حتمًا هذا التعارض. وعلى الرغم من حذر الجمهور وتوجسه إلا أنه كان متعطشًا لهذا الغذاء تحديدًا. ولا شك أن التفاعل ضد رسالة ما هو نوع من الاهتمام أيضًا. وإذا كان الشعب المصري قد جفل من الحضارة الحديثة فذلك أنه لم يكن قد ألفها بعد. هذا الولع غير العادي بمتابعة رفاعة في رحلته إلى باريس ألا ينطوي على نداء عارم موجه بصورة لا إرادية لتلك الحضارة؟ وقد جاءت الطبعة الثانية التي صدرت عام ١٨٤٨ لتؤكد أن مصر كانت بحاجة لهذا الصوت المحفز ولهذا الحضور القادم من عالم أفضل. ولكن في تلك المرة نجد أن المؤلف الذي أشاع على ضفاف النيل مبادئ العدل، والذي منح مواطنيه نموذج الميثاق الدستوري وحدثهم عن ثورة يوليو، كان مصيره ارتياب الطاغية الجاهل عباس الأول في كونه ليبراليًا مُسيئًا. وعلى الرغم من قصائد المدح التي أضيفت إلى الطبعة الثانية، تم نفي رفاعة بإرساله إلى السودان بزعم تأسيس مدرسة ابتدائية بالخرطوم (٣١).

ومع هذا، فقد صمد تخليص الإبريز في وجه الأحكام السيئة، والظلم، والزمن. وبقي كتاب الإصلاحيين المصريين وصدرت طبعته الثالثة عام ١٩٠٥، بعد وفاة المؤلف بثلاثين عامًا. وجاءت الطبعة الرابعة الصادرة عام ١٩٥٨ لتحيي ذكراه بشكل رسمي. وقد كان هذا الرجل، الذي طالما انتظره وطنه ليحرره من الانعزال الفكري، على مستوى المهمة المنوط بها. وما من شك في أن أعماله قد غيرت وجه مصر.

ولكن كيف لنا أن نلخص هنا هذه الأعمال المتنوعة التي كان فيها رفاعة كاتبًا وصحفيًا وأستاذًا ومترجمًا، وأن نقدم هذه التجديدات الأساسية التي أحدثها في الحياة الفكرية والاجتماعية؟ ومع هذا ولحسن الحظ يبقى لنا كتاب تخليص الإبريز مرشدًا أصيلاً وكاملاً فكتاب رحلته هذا ينطوي على بذور جميع المشروعات التي تم إنجازها فيما بعد.

ونستطيع أن نستشف من عمل بهذه الخصوبة إحساسًا نما في روح هذا الإمام السابق بالجيش المصري، خلال إقامته في باريس. فبعد أن ترك شواطئ مصر اتجه فكره

نحو وطنه الذي راحت صورته تصاحبه في كل لحظة، والذي أصبح حضوره أقوى في فكره وأشد كثافة. فخلف اللوحة التي رسمها لباريس نرى دائمًا صورة مصر تتشكل. فرحلته هذه التي خطها في كتابه هي مقارنة دائمة، ووصف مستمر للحياة الفرنسية قياسًا إلى الحياة المصرية. وبرغبته في إنشاء كل هذه المعاهد على ضفاف النيل إنما أراد إعلاء مصر ووضعها في نفس المصاف مع فرنسا.

ولنؤكد هنا على جدّة موضوع الوطن الذي بدأ يدخل إلى الآداب العربية من خلال قلم رفاعة، فالأبيات التي ألهمه إياها الحنين وهو في باريس (٣٢) هي إرهاصة للقصائد الوطنية الخمس التي سوف يؤلفها بعد عودته إلى مصر، إلى جانب ترجمته للنشيد الوطني الفرنسي (٣٣). فحتى عهد رفاعة كانت الخصوصية المصرية تضيع في الكيان المسمى بالمجتمع الإسلامي وعلى رأسه الخليفة العثماني. ولكن رفاعة القادم من صعيد مصر كان واعيًا بأصوله الفرعونية، في خضم المعركة الكبرى التي دارت في أوربا حول حجر من بلاده هو «حجر رشيد». حاول جومار جاهدًا، وانتصر شامبيلون، وفك شفرات الكتابة الهيروغليفية ونظم الجناح المصري باللوفر عام ١٨٢٧ ليتحول بعدها حب الأطلال إلى حماسة علمية.

وقد شهدت هذه الفترة بداية بعث حقيقي لمصر، وأسهم هذا المناخ الوجداني والفكري في أن يستعيد هذا الرحالة ذاته. وبعيدًا عن ركام النصوص العربية القديمة التي قدمت له الآثار القومية القديمة على أنها أوثان قادمة من عالم غريب وعدائي (٣٤)، وبعيدًا عن الخرافات التي كانت تشدهم إلى غياهب الشعوذة في ظل التدهور التركي، استطاع رفاعة أن يستعيد روحه من جديد. لقد صوب من باريس رؤية كتاب التاريخ العربي وذهب في جرأته إلى حد الاحتجاج على ليبرالية محمد علي، الذي كان قد أهدى لتوه مسلة إلى لويس فيليب Louis Philippe، واكتشف في تراث أجداده قيمة جمالية كاملة تزايدت حدة غيرته عليها. ولهذا، وجه إلى الباشا عام ١٨٣٥ مذكرة شجاعة تهدف إلى حماية الآثار المصرية (٣٥).

لقد حرك هذا الرجل الإحساس بحب الوطن، وأملى عليه الإصلاحات الوفيرة التي أصبح عليه أن يقوم بها. وحتى يعجّل من النهضة الاقتصادية في مصر، بدأ يكتب بتوسع في كتابه «مناهج الألباب» (٣٦) ملاحظاته التي دونها في باريس (٣٧) عن الصناعة والتجارة الفرنسية. كما أسهمت الكتب التي ألفها للشباب في إعطاء الجيل الجديد إرشادات مدنية مستهلمة بصورة مباشرة من النظام الديمقراطي ومن الكتب العديدة الصادرة عن حقوق الإنسان، سواء التي درَسَها أو التي ترجمها في باريس. وفي هذا الصدد، يذكر رفاعة فولتير وهو يكتب في إنجلترا كتابه «رسائل فلسفية» وذلك في كتابه «المرشد الأمين» (٣٨) ويتحدث مؤرخ ثورة يوليو بحماس عن حرية المواطن وهو حق لا يجوز التعدي عليه، وعن العدالة التي هي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها التقدم (٣٩). وينادي في كتابه بالعدالة بين جميع مواطنيه بغض النظر عن معتقداتهم الدينية (٤٠). ويذهب أيضًا إلى الحديث عن أهمية مجلس النواب، والذي رأى في إنشائه على يد إسماعيل عام ١٨٦٦ واحدًا من أكبر المفاخر التي أحرزها حاكم لمصر (٤١).

وهل من حاجة إلى التذكير أيضًا بأن عددًا من الكتب التي ترجمها رفاعة وتلامذته في مصر هي من بين الكتب التي عرفها هو نفسه في باريس والتي أوردها في كتابه تخليص الإبريز؟ ويمكن أن نذكر من بينها - علي سبيل المثال - كتاب الجغرافيا للوجاندر Legendre، وكتاب المنطق لدومارسيه Du Marsais، وجغرافية مالت بران _ Malte Brun «ونبذة عن عظمة الرومان وتدهورهم». وبإنشائه عام ١٨٣٥ بالقاهرة وعلى غرار مدرسة اللغات الشرقية في باريس مصنع المترجمين الذي مثلته مدرسة الألسن التي كانت المنشأة الوحيدة الخاصة بالتعليم المدني، ثم قلم الترجمة عام ١٨٤١، كان رفاعة يأمل أن يمنح مصر، خلال بضعة أعوام، ثمرة ما استغرق «الفرنجة» قرونًا في إيجاده وتكوينه (٤٢). وسوف نرى أيضًا عام ١٨٦٨ أنه رغبة من الحكومة الفرنسية في تشجيع القيام بإصلاحات قضائية، فقد عهدت إلى مترجم الدستور بترجمة قانون التجارة، والقانون المدني الفرنسي.

وعلى غرار جومار، لم يلبث رفاعة المعلم أن بدأ الدراسة في المدارس الجديدة وافتتح الاختبارات بخطابات عصماء (٤٣) وقاده إعجابه ببساطة اللغة الفرنسية (٤٤) وبالمناهج التربوية التي يتبعها الفرنسيون في تأليف الكتب المدرسية (٤٥)، إلى تقديم نحو عربي مبسط لتلاميذ المرحلة الابتدائية (٤٦). وبعد أن تبين له مع الأسف - أن العلوم الحديثة غائبة عن مناهج الأزهر التعليمية، سوف يطلب في كتاب مناهج الألباب (٤٧)، وقبل محمد عبده بزمن، إدراجها ضمن مناهج الجامعة الشهيرة.

وبالنسبة لتعليم الفتيات المصريات اللاتي تركن منذ قرون للجهل والعزلة، سوف يبذل رفاعة جهودًا كبيرة، ويسبق قاسم أمين أول مدافع عن المرأة. ولا ينسى قارئ تخليص الإبريز كيف قدر الكاتب وجود المرأة الفرنسية في الأنشطة الحياتية، واشتراكها في العمل اليومي والتريض، والأعياد، والرحلات، والصحبة الاجتماعية الجميلة لربة المنزل المتعلمة.

فها هو في كتابه المعنون «المرشد الأمين للبنات والبنين» ينبه الفتيات إلى الخصال التي من شأنها جذب الرجل، وهي الرقة، ورجاحة العقل، وسحر النظرة واللفتة، وإن كان لايذهب إلى حد الحديث عن التأنق (٤٨). ثم يحدث الشباب عن الحب، وهو يرى أنه يبدأ بالوعي ثم يكون لا إرادياً بعد هذا، وأن الحب بصورتيه الحسية والشعورية حلال من وجهة النظر الدينية، وأن أساسه الوفاء في الحياة الزوجية (٤٩). لقد أراد أن تأخذ المرأة قسطًا من التعليم يجعلها رفيقًا جيدًا للرجل، وأماً جديرة بتنشئة الأطفال. ولكن مشروعات تعليم الفتيات والتي وضعتها لجنة التعليم العام التي كان رفاعة عضوًا بها اصطدمت مع الأسف بالمعتقدات التقليدية السائدة. فلم يتم إنشاء سوى مدرسة للقابلات. وسوف نندهش حينما نقرأ في مذكرات الطبيب كلوت بك أن القابلات الأوائل كن إماءً من الحبشة وأنه هو من قام بشرائهن وتدريبهن، فإلى هذا الحد كانت هناك مخاوف من تعليم الفتيات. ولم تنشأ أول مدرسة رسمية لتعليم الفتيات إلا في عام ١٨٧٣، وهو تاريخ وفاة رفاعة، وكان اسمها مدرسة السيوفية الابتدائية. وكان علينا الانتظار حتى نهاية القرن التاسع

عشر وبداية القرن العشرين لنشهد تحرر المرأة المصرية. ولرفاعة الفضل أيضًا في هذا المجال الذي كان واحدًا من ألمع المبشرين به.

ومنذ وصول رفاعة إلى مارسيليا لفت نظره بصورة خاصة شيء جديد، وهو الصحف والمجلات التي أصبح قارئًا نهمًا لها، وتحدث عنها أكثر من مرة، ووصفها لمواطنيه شارحًا دورها في المجتمع، ومترجمًا بعض فقراتها وخلال فترة إقامته في باريس، صدرت في مصر أول جريدة رسمية لها (٥٠)، وعين رفاعة رئيسًا لتحريرها بمجرد عودته إلى القاهرة، وبعدها أصبح هذا الإصدار مقروءًا: فقد حلت اللغة العربية محل اللغة التركية التي أصبحت مجرد ترجمة واحتلت الهامش الأيسر، وجاءت مقالات مثيرة للاهتمام حول السياسة الداخلية والخارجية والمؤسسات، والحكومات والنظام الديمقراطي، لتحل محل مقالات المدح الثقيلة الموجهة في كل مناسبة لولي النعم. ولأول مرة يتم تعيين محررين صحفيين لدى الإدارات لجمع المعلومات. وبعد أن نجح رفاعة في تطبيق مفهوم الصحافة على «الوقائع المصرية» طبقًا للصحف التي عرفها في فرنسا، أنشأ عام ١٨٧٠ مجلة «روضة المدارس» الشهيرة على غرار الإصدارات العلمية التي كان يفضلها مثل(*) Le Journal asiatique / La revue encyclopédique. ويجد فيها القارئ أرقى نموذج لثقافة العصر، من مقالات أساسية كتبها موظفون أوروبيون كبار، وعرض لموضوعات تخص التاريخ، والزراعة، والتجارة، والطب، إضافة إلى أخبار التعليم وبدايات الشعراء والكتّاب الشباب. لقد أعلن كتاب «تخليص الإبريز» إذن عن قدوم صحفي كبير كان يبشر به رفاعة، ورئيس مدرسة حقيقية نشأ فيها أبو السعود، وعثمان جلال، وصالح مجدي، ومن خلالهم نشأ أيضا إبراهيم المويلحي، ومحمد عبده.

كان رفاعة مبشرًا بهذه الحياة الثقافية الجديدة، وقد رمى حجرًا حرك به مياه الكتابات الأدبية القديمة الراكدة. فموضوع كتابه تخليص الإبريز نفسه الذي يعد وصفًا لتفاصيل يجهلها القارئ، وإشاعة لأفكار جديدة، كان يدفع هذا المسافر دائمًا إلى الملاحظة والتحليل والشرح بدرجة قصوى من الدقة. وبفضل هذا الشكل البسيط، والطبيعي، الذي

له علاقة باحتياجات مجتمع حديث، حرر رفاعة أخيرًا النثر العربي من خضوعه للقافية السائدة والسجع السقيم (٥١).

صحيح أن رفاعة لم يكن شاعرًا كبيرًا، ولكنه من خلال الأبيات التي حاول ترجمة الشعر الفرنسي إليها أدخل كل التنويعات التي يتطلبها الوزن والقافية على القصيدة الكلاسيكية بصورتها التقليدية التي تتخذ الشكل العمودي وتسير على وتيرة واحدة، ومكتوبة على وزن بحر واحد، وبقافية واحدة. هذا التواصل مع الأدب الفرنسي كان لازمًا للعودة إلى أشكال كانت معروفة في الشعر العباسي، خاصة لدى ابن المعتز وفي الموشحات والزجل الأندلسي.

ومن خلال إيثار مؤلف تخليص الإبريز لشعر طيع ونثر طلق، دخلت من خلال قلمه إلى الأدب العربي، موضوعات جديدة مثل الوطنية (٥٢) والاكتشافات العلمية(٥٣) والفكر العقلاني السائد في قرن الأنوار، والأفكار المتفائلة حول المجتمع والتقدم الإنساني وقد أسهمت في نشرها الوضعية المعاصرة آنذاك. ومن خلال التهيئة للنظام الديمقراطي، والعلوم الحديثة، والفن المسرحي وتفاصيل كثيرة لآداب السلوك، والحديث عن موضوعات كثيرة كانت غريبة على لغته، لجأ رفاعة الذي لم يكن يجد في اللغة العربية الألفاظ اللازمة للتعبير عما يصف، إلى نحت كلمات جديدة من خلال ألفاظ فرنسية كما فعل سابقًا في كتابه تخليص الإبريز، ودعا الجيل الجديد إلى العمل بالمثل في جميع الأفرع والمجالات (٥٤).

إننا نشهد هنا صانع النهضة المتحمس يضع أسس مصر الحديثة. فمظاهر التقدم المعاصر في مختلف الميادين مثل التعليم، والصحف، والسياسة، والأدب، تستمد جذورها من أعمال رفاعة الطهطاوي شديدة الثراء كما بشر في تخليص الإبريز. هكذا نستطيع من خلال كتابه رحلة إلى باريس أن نقرأ بين السطور المقدرات الحقيقية التي كانت تنتظر رجلاً و بلدًا.

****

الهوامش

(١) ملتزم: أحد الأعيان الذين يأخذ على عاتقهم تحصيل الضرائب.

(٢) صالح مجدي: حلية الزمن، جـ ٤ .

(٣) حسن العطار (١٧٦٦ ـ ١٨٢٨) مؤلف كتاب رسائل شهير هو «إنشاء العطار» والذي أعيد طبعه في القاهرة عدة مرات. وقصيدة تعليمية عن النحو و «المقدمة الأزهرية في علم العربية» القاهرة. مطبعة بولاق، ١٨٦٧. (١٢٨٤هـ) إلى جانب تعليقات وشروح على بعض كتب البلاغة والمنطق الدراسية. كما امتد فضوله العلمي ليشمل مجالات مثل الجغرافية وعلم الفلك والطب، انظر علي مبارك: الخطط الجديدة، ج٤، ص ٣٨؛ وسليمان الزيات: كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ـ القاهرة ـ ١٩٠٢ (١٣٢٠هـ) ١٨٣ ـ ١٤١،

J. M Ahmed: the intellectual origins of Egyptian nationalism, 5 - 6.

ـ محمد عبدالغني حسن: حسن العطار، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨:

(4) Chabrol: Description de l'Egypte, XVIII, 68.

(٥) الأوقاف: «هي أملاك لمتوفين جمدت ووضعت تحت الحراسة القضائية لصالح مؤسسات انشئت لهدف خيري أو للصالح العام». انظر:

L. Millot: Introduction à L'étude du droit musulman, 537.

وانظر أيضًا : Gibb and Bowen: Islamic Society and West, vol part, 156 - 157.

(٦) واعظ: هو من يعظ الناس؛ والإمام: هو من يؤم الناس في الصلاة الجماعية. وسوف يلتحق رفاعة ببعثة باريس التعليمية فيما بعد بهاتين الصفتين أما كلمة «مرشد» التي استخدمها رينون Renan وكتاب فرنسيون آخرون لوصف دور رفاعة فهي تدعو إلى اللبس. ولابد هنا أن نوضح أن رفاعة لم يكن كاهنًا وإنما مسلم مثل أي مسلم مكلف بتذكيرهم بفروض الإسلام في كل الظروف كما أنه لم يكن مرشدًا للذمم لأن هنا الإرشاد يقوم على علاقة بين فرد وآخر يوجهه ويرشده، بينما الواعظ يخاطب الجماعة.

(٧) بسبب العوز، اضطر رفاعة إلى ترك خدمة طلابه لخدمة الجيش. انظر: مجدي: حلية الزمن. مجلد رقم ٩. الظهر.

(٨) هذا الفصل يتناول بالدراسة رحلة رفاعة باعتباره تجربة معيشة. أما الدراسة النقدية الخاصة بكتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» فهي موضوع أطروحتنا التكميلية (وهي مكونة من مقدمة وترجمة وهوامش).

(٩) نحن ننقل الاسم صوتيًا عن العربية كما ورد في كتاب تخليص الإبريز ص ١٥٨.

(10) Jean - Jacques Burlamaqui: Eléments du droit naturel et devoirs de l'homme et du citoyen tels qu'ils lui sont prescrits par la loi naturelle. Paris, Janet et Cotelle, 1820.

صدر للمرة الأولى باللاتينية في جنيف عام ١٧٥٤.

وبورلاماكي Burlamaqui هو مشرّع سويسري من مدينة جنيف (١٦٩٤ - ١٧٤٨) وهو مؤلف دراسة أخرى شهيرة هي: «مبادئ القانون السياسي Les Principes du droit politique. وهو يقول في هذا العمل، الذي ذكره رفاعة وترجمه، إن المجتمع لا يتعارض مع الوضع الطبيعي كما يزعم هوبز Hobbes. فهو يرى انه يمكن لنظام قانوني أن يصل بالملكية المطلقة والمتوارثة، التي جعل نفسه منظّرا لها، إلى حد الكمال، مع الاعتراف لمجلس الشعب بحقه في استعادة السلطة العليا أو تغيرها عن بورلاماكي وأعماله، انظر:

V. Bernard Gagnebin: Burlamaqui et Le droit naturel, Genève, Ed. de La Frégate, 1944 (أطروحة قانونية).

(11) Jean - François - Michel Noël et Pierre - Antoine de La Place: Cours de Littérature comparée. Leçons françaises de littérature et de morale, ou Recueil en prose et en vers, des plus beaux morceaux de notre langue dans la littérature des deux derniers siècles : avec des Préceptes de genres, et des Modèles d'exercice, par la Harpe, Marmontel, etc. Ouvrage classique adopté par l' Université Royale de France, à l'usage des Collèges et Instutions. Paris, Le Normand Père, 1823, 2 vol.

(١٢) جورج بيرنار ديبنج Georges - Berntard Depping (١٧٨٤ - ١٨٥٣)

هو متفقه فرنسي من أصل ألماني، كتب عدة مؤلفات في الجغرافيا والتاريخ، ومن بينها كتاب دسم عن التجارة بين المشرق وأوربا يحمل عنوان: Commerce entre le Levant et L'Europe (1820, 2 vol)

وكان يشارك في الأعمال الجغرافية الشعبية للصحفي الدانمركي الذي حصل على الجنسية

الفرنسية مالت بران Malte - Brun (١٧٧٥ - ١٨٢٦). وفي مجلة ميلين Millin الموسوعية. والأمر يتعلق هنا بكتابه:

Aperçu historique sur les moeurs et coutumes des nations 15 livraison de l' Encyclopédie portative ou Résumé universel des sciences, des lettres et des arts, par une societé de savants et gens de lettres, sous les auspices de MM Curver, Jomard de Jussieu, Paris, 1826.

ترجم رفاعة هذا الكتاب في باريس عام ١٨٢٩ ونشره بعدها تحت عنوان «قلائد المفاخر في غريب عوائد الأول والآخر» القاهرة - بولاق - ١٨٣٣ (١٢٤٩هـ).

(١٣) انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ٧: الامتحان النهائي لرفاعة في باريس عام (١٨٣١).

(14) 500 Lieues sur le Nil, p. 38.

(١٥) ص ١٩.

(١٦) ص ٦٢.

(١٧) في المخطوط، ينتهي الفصل الرابع من المقدمة على هذه الفقرة:

«وسط مجموعة مكونة من أربعين مسلمًا يوجد عادة رجل ورع. وكان هذا الرجل الورع في مجموعاتنا هو بلا شك حسن أفندي السكندري، فقد كان يتحرى ممارسة الشعائر الدينية قدر الإمكان. كان يؤمن أن العناية الإلهية ستقف إلى جانب السلطان محمود لضمان نصر الأتراك على الروس. كانت أخبار الحرب تصلنا آنذاك منشورة في الصحف اليومية الباريسية. كانت أنباء مشئومة للمسلمين، ومع هذا لم يكن هذا الأفندي يشك على الإطلاق في انتصار الإسلام. وحينما سألته عن السبب أخذ يشرح لي أن النصرة للإسلام وأن الله لا يتخلى عن عباده المقربين ليمنح النصر لأعدائه، وأنه رأى في منامه أكثر من مرة هذا النصر القادم، وأن رؤيا المؤمن حقيقية، ثم أعطاني وصفة لأتبعها، على أن أبلغه ما سوف يتراءى لي بعدها. طبقًا لهذه الوصفة، تتلى سورة «يس» بعد صلاة العشاء مع التوجه نحو القبلة في مكة، ثم ننظر إلى السماء قائلين: «يا رب اكشف لي ما يحدث في هذا الأمر، ونسميه» بعدها، ننام على الجانب الأيمن. نفذت ما قال لي ثم دعوت الله بأن يكشف لي ما سوف يحدث للسلطان خلال هذه المعركة. غفوت، ورأيت في المنام عبدًا يقول لي ما معناه

«محمود أفندي حاكم القصر السابق الذي كان قد عُزل عن رتبة عقيد، أعيد لتوه إلى منصبه، وسوف أبشره بهذا». «قمت أثناء الليل، وكتبت ما كان حتى لا أنساه وصباح الغد، حكيت منامي للحاج حسن، فسعد سعادة بالغة. وبالفعل، بلغتنا الأنباء السعيدة. وبالطبع فإن تأويل الحلم سهل».

(١٨) ص ١٩٠.

(١٩) ص ٦٢.

(٢٠) انـــــظر «تخلـيص الإبـــــريز» ص ٩٢ اضافة إلى الفترة التي أضافها رفاعة إلى ترجمته لكتاب ديبنج Depping ص ١٣.

(٢١) انظر، الهوامش التكميلية، هامش رقم ٨: رفاعة ومشكلة دوران الأرض.

(٢٢) ص ٤.

(23) Ernest Renan: L' Islamisme et La Science - Journal des débats, 30 mars 1883.

(٢٤) جميع كتب الفلسفة محشوة بالبدع. وعلى هذا فإن جميع كتب الفلسفة ينطبق عليها الحكم الثالث المذكور في فصل «عن التناقض» عن مؤلف «السلم»، والمستخدم في «تطبيق المنطق». والمقصود هو كتاب «السلم المنورق في علم المنطق، وهو دراسة عن المنطق نظمت شعرًا وكتب التعليق عليها نثرًا عام ١٥٣٤ م (٩٤١هـ) بقلم عبد الرحمن الأخضري وله قصائد تعليمية أخرى ولكننا نجهل كل شيء عن حياته (انظر بروكلمان Brockelmann ج٢، ص ٣٥٦). ورفاعة، الذي رجع إلى طبعة بولاق الصادرة عام ١٨٢٦ (١٢٤١هـ - انظر بيانكي Bianchi ص ٣٤) يشير إلى النص الذي جاء فيه: «حينما تقيد العبارة بشيء يحدد الكمية فإن التناقض ينشأ نتيجة لعكس الكمية المستخدمة». انظر ترجمة الكتاب من العربية والتي قام بها:

J.D Luciani Alger, Jules Carbonel, 1921, p. 46.

(٢٥) انظر: Barrière: La vie intellectuelle, en France 522 - 523.

(٢٦) ص ١٨٤.

(27) Arch. du Palais de La République, Le Caire: Section turque.

خطاب محمد علي إلى محمد بك وزير الحربية في ١ ذوالحجة ١٢٤٦. Carton, I, document n 4.

(٢٨) «خطاب رفاعة إلى جومار، الصادر من القاهرة بتاريخ ١٦ أغسطس ١٨٣١»
Nouveau Journal asiatique VIII,nov. 1831, 534 - 535.

(٢٩) السابق.

(30) Stanely Lane - Poule: Life of Edward William Lane, 70 - 71.

(٣١) انظر الهوامش التكميلية - هامش رقم ٩:
Témoignage de Charles Didier sur Rifa'a à Khartoum.

(٣٢) ص: ٤٨.

(٣٣) نشرت ترجمة النشيد القومي الفرنسي ونشيد باريس في كتاب «نظم اللآلي» لأبي السعود - مكتب بولاق - ١٨٤١ (١٢٥٧هـ)، ص ٢١٢ - ٢٢٠.

(34) Gaston Wiet : L'Egypte de Murtadi, Paris P . Geuthner 1953.

(٣٥) هذه المذكرة التي نشرت بالعربية في الجريدة الرسمية الصادرة يوم ٢٠ ربيع الثاني عام ١٢٥١، ترجمت ونشرت في Le Moniteur universel. 28 nov. 1835.

Le Bulletin de La Société de géographie, Paris. Janv 1836, 66 - 70.

انظر: J. Tagher: Ordres supérieurs relatifs à La consersation des antiquités et à La création d'un musée au Caire, Cah. d'hist. égyptienne, III, fasc.I (nov.1950), 13 - 26.

وانظر أيضًا بشكل خاص: Antoine Khater: Le régime Juridique des fouilles et des antiquités en Egypte. Le Caire, Impr. de L'Inst fr. d'archéol. orientale. 1960.

(٣٦) طبعة ١٩١٢ (١٣٣٠هـ)، ٥ ,١٨٨،٨٨،وترجع الطبعة الأولى إلى عام ١٨٦٩.

(٣٧) تخليص الإبريز. الفصل الحادي عشر، عن باريس.

(٣٨) طبعة ١٨٧٢ (١٢٨٩هـ)، ص ١٠٣.

(٣٩) السابق ص ١٢٩.

(٤٠) مناهج (طبعة ١٩١٢) ص ٩٨.

(٤١) السابق ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٤٢) رفاعة: مقدمة «بداية القدماء» بولاق، ١٨٣٨، (١٢٥٤هـ) ص٧.

(٤٣) انظر: روضة المدارس، السنة الأولى، رقم ١٠ ونظم اللآلي لأبو السعود، ص ٢٦٩، ٢٧٩.

(٤٤) تخليص الإبريز ص ١٣١.

(٤٥) السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٤٦) التحفة المكتبية لتقريب العربية ـ القاهرة ـ مطبعة المدارس (١٨٦٩ ـ ١٢٨٦هـ).

(٤٧) ص ٣٧٧.

(٤٨) ص ٥٦.

(٤٩) ص ١٩٧ وما بعدها.

(٥٠) صدر أول أعدادها في العشرين من نوفمبر ١٨٢٨ الموافق ١٢ جمادى الأولى ١٢٤٤هـ .

J Reinaud: De la gazette arabe - turque imprimée en Egypte, Nouveau Journal asiatique 2e série, VIII Sep.1831, 238- 249.

(*) أي المجلة الموسوعية ـ والجريدة الآسيوية (المترجمة)

(٥١) راجع مقالنا : «ثورة النثر العربي يقودها رفاعة من باريس». الرسالة الجديدة، القاهرة، أكتوبر ١٩٥٨– ٤٤ ـ ٤٥.

(٥٢) وكانت من الموضوعات الأثيرية فيما بعد لدى شوقي وحافظ إبراهيم ـ ارجع إلى الرافعي: شعراء الوطنية ـ القاهرة ـ النهضة ـ ١٩٥٤.

(٥٣) أبيات رفاعة عن القطار (مناهج الألباب، ص ٢٦) تبشر بالفعل بشعر شوقي انظر:

Baroli : Le train dans la littérature française.

(٥٤) رفاعة: قلائد المفاخر، انظر المصطلحات والمقدمة، وأطروحتنا التكميلية من ص XLII إلى XLVII

****

الفصل الثالث

المدرسة العسكرية المصرية

(١٨٤٤ - ١٨٤٩)

بفعل السن، وبعد تدمير امبراطوريته عام ١٨٤٠، استكان محمد علي، ولكنه ظل محتفظًا بامتنانه لفرنسا [١] التي ساندته ضد أوربا. وبعد وفاة باغوص بك في يناير ١٨٤٤، أصبح سليمان باشا المسئول عن الجيش، والذي تم منعه بالفعل تحت ضغط دولي من متابعة مشروعاته الحربية، من حاشيته. وبدلاً من التحدث عن غزو سوريا أو قسطنطينية، راح رجلا الحرب يتحدثان بصفاء عن تربية أطفالهما. فهذا العقيد السابق الذي لم يكن فقد صلاته بفرنسا، أراد بلا شك أن يرسل ابنه إليها على نفقة «ولي النعم». ولهذا، عرض على الباشا أن يرسل أيضًا إلى باريس للتعليم ابنه الأصغر، الأمير حسين، والابن البكر لإبراهيم، الأمير أحمد، وأن تصحبهما أيضًا مجموعة من الطلاب المصريين.

وتقرر إذن إرسال بعثة تعليمية، من أجلها قام سليمان باشا بجولة في مدارس المدرعات والفرسان والفنية الحربية لاختيار الأعضاء، واختار بالفعل ٣٤ طالبًا. وإذا كان لبعثة ١٨٢٦ طابع نفعي أملته حاجات محمد علي العاجلة، فإن هذه البعثة المماثلة من حيث الأهمية كان لها جانب تشريفي، فقد ذهبت، وعلى رأسها الأميران، لتبدأ مسيرته العسكرية [٢].

وبطبيعة الحال، فإن أرتين بك الطالب السابق بالكلية المصرية التي كانت في شارع كليشي، والذي أصبح وزيرًا للخارجية، لجأ إلى جومار، وكلفه بتكوين مجلس يتولى القيادة العليا المنشأة الجديدة [٣]. فأعد جومار خطة دراسة كاملة ولوائح مماثلة لتلك الخاصة بالمدارس العسكرية الفرنسية، ولكنه اصطدم في النهاية بمشيئة الماريشال سول

Soult وزير الحربية الذي كان مقررًا أن تكون الدراسة تحت إشرافه الرسمي. وبدأ في إعطاء «القيادة العليا» للكولونيل روكانكور [٤] Rocquencourt والقيادة الإدارية لجومار حلاً للصراع، ولكن سرعان ما انسحب جومار من المشروع [٥].

وبعد رحلة سعيدة، وصل الأمراء الشبان وأتباعهم في الخامس والعشرين من أغسطس إلى مدينة ليون التي شهدت مولد سليمان باشا. وقد جعل السلطات والجماهير تحتفي بقدومهم [٦]، وهذا يذكرنا بالطبع باستقبال مارسيليا لطلاب كلوت بك قبل هذا باثني عشر عامًا. وفي باريس، في شارع ريجار Regard ، كانت المدرسة المعدة لاستقبالهم تنقسم إلى فئات ثلاث طبقًا لدرجات الطلاب الاجتماعية: ففضلاً عن الأمراء كان هناك للبكوات - أبناء كبار رجال البلاط والأفندية - إلى جانب أبناء الفلاحين. وكان لكل مجموعة إطارها الخاص، مع تلق الجميع للتعليم نفسه. كان للأمراء بشكل خاص - منازل فاخرة، وخدم، وأطايب الطعام، وثياب شرقية فاخرة، وقد حظوا - حتى بالنسبة للإضاءة - بنوعية من الشموع ذات جودة أفضل. وبناء على شكوى أفلتت من المدير [٧]، تم تبسيط بعض الأشياء :

فتم تخفيض الوجبة المعتادة الخاصة بالأمراء من ١٣ طبقًا في الوجبة إلى أربعة أطباق في الغداء وثلاثة في العشاء.

كان يوم الطلاب يبدأ في الساعة السادسة صباحًا وينتهي في الثامنة مساءً، ويمر كله في تدريبات، ودروس، تتخللها فترات راحة لجدول زمني ملزم ومحدد لا يسمح بإجازة إلا في يوم الأحد وبعد ظهر يوم الخميس. وبالطبع، كان الأمراء يخرجون بحرية أكبر في صحبة مربيهم الأرمني ستيفان بك، حتى إذا تم هذا صباحًا لتلبية دعوة من علية القوم في المجتمع.

وقد وضع برنامج الدراسة بشكل خاص لإعداد هؤلاء الطلاب للمدارس العليا خلال ثلاث سنوات. كان عمر أكبر الطلاب بين ١٨ــ ٢٤ عامًا، ولكن عمر الأغلبية كان أصغر.

وعلي هذا، تم تكوين فصلين دراسيين واحد للمبتدئين وآخر للمتقدمين عنهم. وكان على الاثنين اجتياز امتحان كل ثلاثة أشهر.

وفي العاشر من يونيو عام ١٨٤٥، انضم إلى المجموعة الأمير حليم ابن محمد علي، ومعه اثنان وعشرون طالبًا آخرين. وكان الشاب إسماعيل - الخديوي القادم - قد وصل بالفعل إلى «فيينا» ليفحصه طبيب عيون شهير. وتم وضع أضعف عناصر المجموعة في فصل ثالث لتعلم اللغة الفرنسية والجغرافيا أولاً.

وكان هناك أكثر من أستاذ ضمن أعضاء هيئة التدريس في مدرسة أركان الحرب. كما زودت المنشأة بمستشفى صغير ليقوم فريق مكون من طبيبين، ومختلف العاملين، برعاية صحة الأمراء والبكوات والأفندية الغالية.

أما الإجازات الممتدة طوال شهر سبتمبر فكانت فرصة لممارسة تدريبات لرسم الأماكن رسمًا جغرافيّاً، وأخرى للمدفعية والتحصينات في الهواء الطلق. وفي عام ١٨٤٥، بينما مضى الأمراء الأربعة يستمتعون بمتع البحر على طول نهر المانش بداية من آفر Havre إلى شيربور Cherbourg. وتوجهوا لزيارة فونتينوبلو Fontainebleau، وكومبيانيي Compiègne وذهبوا للصيد في غابة سان جيرمان Sainit - Germain ، راح الآخرون خلال نزهتهم الأسبوعية يزورون متاحف باريس، وقصر التويلوري Tuilleries، ومستشفى فال دو جراس Val - de - Grâce والأنفاليد Les Invalides ، وشاتيون Châtillon وفي العام التالي، ذهب الأمراء يتنزهون في سويسرا، بينما استمر الآخرون في القيام بزياراتهم البسيطة إلى سيفر Sèvres، والكونسرفاتوار الخاص بمدرسة الفنون والمهن، والمطبعة الملكية، ومعهد المكفوفين، ومعهد الصم والبكم، والمرصد، ومونت فاليريان Mont Valérien.

وكثيرًا ما كانت هذه المدرسة مركزًا لاحتفالات رسمية. ففي شهر مايو من عام ١٨٤٥، استقبلت المدرسة الدون دو نومور de Nemours بحفاوة بالغة، وقد أدهشه مرأى هذه

المنشأة الفاخرة. وفي عام ١٨٤٦، وبعد أن أخذ إبراهيم باشا حمامات في سان جيوليانو San Giuliano بإيطاليا وفي فارنيه Vernet بالبيرينيه Pyrénées، التف الأمراء الشبان حوله بمجرد قدومه إلى تور Tours. وخلال الأسابيع التي قضاها في باريس، أدار أحاديث كثيرة عن المدرسة العسكرية المصرية (٨). ويوم استقبله الملك لويس فيليب، كان الطلاب حاضرين في موكب مكون من ثلاث عربات سارت خلفه. وفي صحبة الدون دو مونبونسييه de Montpensier الذي كان قد زار محمد على في السنة السابقة (٩)، حضر إبراهيم احتفالاً لتوزيع الجوائز تم تنظيمه بشكل خاص علي شرف وجوده. ومنح الطالب الحاصل علي المرتبة الأولى من كل فصل كتاب تاريخ وجغرافية أو بوصلة. وجدير بالذكر أن قائمة الجوائز تصدرتها أسماء ثلاثة أفندية هم: حماد عبد العاطي، وعلي مبارك، وعلي إبراهيم، وكان نجاحهم بالفعل مؤكدًا.

وقد التحق ثلاثتهم بالمدرسة التطبيقية التابعة للمدفعية ولسلاح المهندسين في ميتز Metz . وبدءًا من شهر يناير عام ١٨٤٧، التحق ثلاثة آخرون بمدرسة أركان الحرب، وثلاثة بمدرسة الفرسان بسومور Saumur. ورغم تخرجهم برتبة قائمقام ليصبحوا على درجة زملائهم الفرنسيين أنفسهم، إلا أنهم ظلوا محتفظين بزيهم المصري، وقُبل سبعة طلاب آخرون في الفنية العسكرية، بينما تم توجيه تسعة ممن يعانون من قصر النظر إلى الدراسات المدنية، ليصل مجموع الملتحقين بمدرسة شارع ريجار Regard سبعين طالبًا بمن فيهم المصريون الذين كانوا يدرسون الطب أو الصيدلة بعيدًا عن العلوم العسكرية. فهل أدت أحداث عام ١٨٤٨ إلى حلها؟ نعرف أنه في عام ١٨٤٨، عاد خمسة ضباط، ولكن بعد أن أتموا دراستهم بطبيعة الحال(١٠). وطبقًا لما قاله علي مبارك (١١)، ولوثيقة ذكرها طوسون (١٢)، فالأرجح أن الطاغية عباس باشا الذي أحس بمخاوف من التعليم العام، استدعى الطلاب من فرنسا في ربيع عام ١٨٤٩، بعد شهور قليلة من توليه الحكم.

فما الذي جنته مصر من هذه المدرسة الثانية التي فتحت في باريس؟ وماذا أصبح هؤلاء الأمراء والبكوات والأفندية؟ ولنبدأ أولاً في استبعاد بعض النتائج السلبية فقد توفي

أربعة طلاب، من بينهم الأمير حسين (١٣)، ومرض أحد البكوات وعاد إلى مصر (١٤)، وفقد أحد الشراكسة عقله، وأرسل اثنان من الأفندية من باريس إلى سجون الإسكندرية عام ١٨٤٨.(١٥)

أما الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة، فلسوء حظ مصر، انطلقوا في صراع شؤم على العرش، راح ضحيته الأمير أحمد غرقًا في النيل في كفر الزيات (١٦). فهل كانت خصاله أنبل بالفعل من بقية أعضاء الأسرة المالكة؟ وهل كان مقدرًا أن يكون حكمه لمصر أفضل؟ من السهل تمامًا قول هذا. يقول الكاتب الفرنسي لا برويار La Bruyère «نكسب من الموت أن الأحياء يمتدحوننا في أغلب الأحيان دون أن يكون لنا أي فضل كان سوى أننا لم يعد لنا وجود»(١٧)، وقد استطاع حليم بدوره شراء مناصرين له، غير أنّ ذَهَبَ إسماعيل هو الذي كسب في النهاية.

فبفضل مؤرخين لا ينضب معين المدح لديهم، تحول الأمير أحمد إلى أمير متحضر وباعث للحضارة. ومع الأسف، فإن حفلات الاستقبال، والاحتفالات، والبذخ كلها مظاهر تعني البريق والعظمة ولكنها لا تعني الحضارة - خاصة حينما تمنح بلا تعقل على حساب الفلاحين. لم تستطع باريس تخليص إسماعيل من عقله الإقطاعي بما أن فخامته كان يعتبر نفسه في المدرسة المصرية أعلى مكانة من البكوات والأفندية. لقد أعدته باريس للحياة العامة، وزكت اعتداده بنفسه، دون أن تدفعه إلى الدراسة الجادة. فكان يرتاد مدرسة سان سير Saint - Cyr بشكل تشريفي وبغير انتظام. يقول بريس دافين في مذكراته غير المنشورة : «إسماعيل باشا بن إبراهيم أعطى وصف مصر للدكتور بروجيار Bruguières وهو يقول له: خلصني من هذه الكومة!»(١٨).

ومع هذا، فإن تعليم هذا الأمير الشاب (من سن ١٤ وحتى ١٨) في فرنسا عاد على مصر الناهضة بنتائج كبرى: إذ جاءت التنمية بتغذية من الرافد الفرنسي دون أدنى شك . فقد لجأ الخديوي مباشرة إلى الفنانين والفنيين الفرنسيين؛ ويكفي أن نتحدث عن ضيوفه

في حفل افتتاح قناة السويس لنرى في هذا الحدث ذروة وجود الفرنسيين في مصر (١٩). وكانت أسفار إسماعيل إلى أوروبا، وخاصة فرنسا، عام ١٨٦٧و ١٨٦٩ مقدمة نشطة لهذه الاحتفالات (٢٠).

وكان بكوات شارع ريجار Regard، الأتراك في معظمهم، موالين لنائب الملك، يمالقون الأمراء ويحذون حذوهم رغم أن سلوكهم لم يكن أقرب إلى التقوى على الإطلاق. يقول بريس دافين مجددًا : «الغريب أن لا أحد من أبناء الباشا هؤلاء الذين تربوا في أوربا أسفر عن شخصية متميزة. لقد انهكوا جميعًا أجسادهم بفسقهم، وأخذوا عنا جميع عيوبنا وأهملوا جميع خصالنا الحميدة وفضائلنا» (٢١). وعلى الرغم من قسوة هذا الحكم إلا أن تقارير المدرسة تؤكده.

ولنأخذ مثلاً أولاد شريف باشا الثلاثة، وكان الحاكم السابق لسوريا ووزير مالية محمد علي (٢٢). «لم يكونوا صالحين إلا للعب الورق والجري وراء البنات» (٢٣). وقد هرب عثمان بك من المدرسة (٢٤). أما أخوه علي الذي ألحق بصف أقل بسبب عدم تمتعه بالذكاء، فقد تم تعيينه في القاهرة ضمن أركان حرب سليمان باشا، ولكنه ترك منصبه ليستمتع بميراث ضخم. وحتى بعد أن أصبح رئيس المجلس التشريعي بفضل حماية الخديوي توفيق، بلغت به الوقاحة أن أسلم نفسه لتجارة العبيد، وهي الفضيحة التي وضعت حدّاً لنشاطه العام عام ١٨٩٤ (٢٥). وأشهر الإخوة الثلاثة كان خليل بك الذي عاد ليقيم في باريس بعد أن اختير وزيرًا مفوضًا للسلطان في أثينا وسان بطرسبورج وعلى الرغم من دمامته إلا أنه لاقى نجاحًا مدويًا في الأوساط الإجتماعية، وكان مقامرًا جامحًا، أنيقًا ومرحًا، ومن هواة الاقتناء. يقول سانت بوف Sainte Beuve معلقًا عليه : «لا يوجد صاحب سعادة أكثر ذكاءً وفخامة منه». وبعد أن بدد ثروة طائلة على هذا النحو، وكان عليه سداد ديونه، مرت باريس كلها - والإمبراطورة نفسها - أمام اللوحات الثمينة التي يقتنيها، والتي قال عنها الخبير بها الأديب تيوفيل جوتييه Théophile Gautier إن «متحفًا كان يمكن بكل ثقة أن يستعير قطعًا من بينها دون أن يخشى أية منافسة» (٢٦).

كذلك، كان فتاح بك الزميل المشاغب لعلي بك على الدرجة نفسها من قلة الذكاء، وقد ألحق معه بفصل أقل، ثم أعيد إلى مصر بعد أن بلغت ديونه ٧ آلاف فرنك (٢٧).

وقد عاد العديد من البكوات الآخرين الأقل كسلاً إلى تركيا، ومن بينهم أحمد نجيب بك، وعثمان نوري بك، ومحمود رشيد بك الذي أصبح وزيرًا لخارجية بلاده، ولم يخدم على الإطلاق مصر التي كان لها الفضل في تعليمهم جميعًا.

ومع هذا، فقد تميز أحد البكوات عنهم وبذل ـ فيما يبدو ـ مساعيَ حميدة في السياسة العاصفة لمصر الخديوية. وهو محمد شريف الذي أصبح فيما بعد باشا. وهو وإن كان ابن قاضٍ كبير من أصل شركسي إلا أن ميلاده في القاهرة جعله مصريّاً نوعًا. وبعد أن أصبح وزيرًا في نهاية مشواره العسكري، حاول أن ينقذ النظام الدستوري من براثن تجاوزات الخديوي ومن حنق الضباط العُرابيين. وقد أطلق عليه اسم «شريف باشا الفرنسي» بمجرد أن تزوج من واحدة من بنات سليمان باشا. وقد وصفه أحد الدبلوماسيين الذين عرفوه أثناء الأزمة، على هذا النحو «كان رجلاً وسيمًا يحمل عاليًا رأسًا فارغة بشدة، كان لا يفقه شيئًا في حقيقة الأمر» (٢٨)». فهل تعزى رغبته في تجنب اتخاذ قرارات كبرى إلى بلادة طبعه؟ على أية حال فإن عدم الاكتراث هذا زاد من قيمته عند إسماعيل قياسًا إلى نوبار الماكر ورياض العنيد. فقد منح الطغيان «درعًا» واقيًا و«مسندًا» مريحًا على حد تعبير جون نينيه John Ninet الذي كان شاهد عيان على دوره المتخاذل (٢٩).

أما بالنسبة لإسكندر بك، ابن سليمان باشا، فقد بقي طويلاً في فرنسا تحت وصاية الدوق دو لوين De Luynes (٣٠) ولكن هذا لم يخرجه من ضعف مستواه الذي يدعو إلى الرثاء. وقد كتب والده من القاهرة القديمة عام ١٨٥١ إلى مراسله في باريس يقول: «إذا عاد إسكندر بك إلى مصر دون أن ينهي على الأقل ما تراه مناسبًا أن يتعلمه، فسوف يلقى مصير كل من عادوا من فرنسا قبل الأوان، سوف ينسى كل شيء، وكل ما تعلمه سيتحول

إلى جـهـد ووقت ضـائعين.. أعـتـرف سـيدي الدوق أنني مـتـألم أن إسكندر بك لا يبـدي استعدادًا للعمل وأن ذكاءه لاينمو.كما كان يُنبئ بهذا وهو صـغير . وأنني متـفـهم لكل الامتعاض الذي سيبديه للوالي الذي يعتقد انه أكثر تقدمًا بكثير على كل من عادوا من فرنسا باستثناء البعض، والذين اكتسبوا قليلاً من العلم وإن اكتسبوا الأشياء السيئة من فرنسا دون أن يتعلموا الجيد منها (٣١) ».

أما الأفندية، وكان اغلبهم من الفلاحين، فقد استطاعوا ان يتميزوا بفضل عملهم وإرادتهم. أصبح بعضهم ضباطًا في الجيش وأساتذة في المدارس العسكرية (٣٢) ومهندسين شارك عدد منهم في حفر قناة السويس (٣٣) وإداريين أو مدراء استطاعوا على الرغم من إحساسهم بالغربة (٣٤) في أعماق الريف بعد فترة إقامة جميلة في باريس - أن يبذلوا أقصى ما في طاقتهم من جهود في خدمة الشعب. وحينما حلت المحاكم المختلطة محل المحاكم القنصلية عام ١٨٧٦، تم تعيين قضاة من بين هؤلاء الرجال الذين تلقوا تعليمًا عسكريًا أو تقنيًا، والذين انتصرت كفاءتهم على معرفتهم باللغة الفرنسية إلى جانب خبرتهم الإدارية الشخصية (٣٥).

كما تميز افندية آخرون في العلوم مثل احمد ندا، وهو بعد ان عين أستاذًا في مدرسة الطب ألف، وجمع، وترجم أكثر من كتاب في التاريخ الطبيعي والكيمياء، إلى جانب عبد العزيز الهواري صاحب أطروحة مبتكرة عن الألوان التي يمكن استخلاصها من الحِنَّة. ولنذكر أيضًا اسم اثنين من المثقفين درسا الحقوق في باريس وهما أحمد راسخ الذي أصبح مديرًا للجريدة الرسمية بفضل جمال أسلوبه في اللغة التركية والفرنسية، وهاوي الكتب محمد عارف مؤسس مطبعة المعارف لنشر النصوص التراثية العربية، ورئيس جمعية أدبية تحمل الاسم نفسه والتي وضعت بأمر من إسماعيل باشا الذي كان يتوجس منها تحت رعاية ابنه توفيق. وقد فر عارف إلى قسطنطينية بعد أن اتهم بمناصرته للأمير حليم.

ويبقى أميز رجال هذه البعثة دون أدنى شك رفقاء مدرسة ميتز Metz الثلاثة: علي إبراهيم، وحمّاد عبد العاطي، وعلي مبارك، وثلاثتهم ينتمي إلى الطبقة الشعبية، وقد حظوا بلقب «باشا». وبعد أن أصبحوا في معية عباس الأول، تبعوه إلى صعيد مصر على النيل، ووضعوا تصورًا لخطة ملاحية في منطقة الشلالات وساعدوا موجل بك في أعمال بناء السدود.

وبعد أن اختير علي إبراهيم معلمًا للأمير إلهامي ابن عباس، حدثت وقيعة بينه وبين سعيد. وامتدت أنشطته التربوية، والادارية، والقضائية والهندسية ليشغل من خلالها عدة مناصب أثناء حكم إسماعيل. وقد خطط لشق بعض الشوارع الجديدة في القاهرة، من بينها شارع محمد علي الشهير. وبعد أن أصبح وزيرًا للتعليم العام منذ أن تولى توفيق الحكم، ضاعف عدد المدارس في البلاد، وأسس في مدرسة المكفوفين فصلاً للصم والبكم، وقرر منح الطلبة دبلومًا عند إتمام الدراسة، وكلها إصلاحات استحق عنها أوسمة كثيرة منحتها له أيضًا الحكومة الفرنسية. وحينما قامت ثورة عرابي كان وقتها وزيرًا للحقانية، ولكنه فضل الانسحاب من الحكومة.

أما حمّاد، فهو وإن لم يصل إلى درجة وزير إلا إنه كلف بإدارة الأشغال العامة إلى أن غُضب عليه تحت حكم سعيد. ولكن هذا الأخير رضي عليه من جديد بعدها بعدة سنوات وجعله يصحبه في أسفاره إلى المدينة، وقسطنطينية وباريس. وبعد أن أصبح معلمًا لأبناء إسماعيل مثل عبدالله فكري باشا، وصل إلى الهيئة القضائية. وقد أرسل عام ١٩٠٢ ابنه محمود إلى باريس ليتابع دراسته في المدرسة المركزية. ولو كنا تحصلنا على مذكراته التي جمعها ابنه صالح حمدي لكانت شكلت بالنسبة لنا أهمية تاريخية وأدبية مزدوجة (٣٦).

ويُعد علي مبارك أهم شخص في هذه الفرقة بأكملها ولا شك أن شخصيته وأعماله تستقطبان اهتمام كل من يدرس تطور مصر الفكري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهو يستحق أن نكرس له في عرضنا هذا مكانة خاصة، لا سيما وهو مؤلف لقصة طويلة تحكي رحلة إلى فرنسا.

****

الهوامش

(١) بشأن أزمة ـ ١٨٣٩ ـ ١٨٤١، انظر:
Ed. Driault, L' Egypte et L'Europe, 5 vol., G. Weill : L' Eveil des nationalités, 154 - 155, P. Renouvin: Hist. des relations internationales V, 120 - 126.

في عام ١٨٤٢، ولشكر الملك لويس فيليب، كلف محمد علي سكرتيره الخاص وترجمانه الأول أرتين بك أن يقدم له ستة شالات من الكاشمير، وثمانية خيول عربية من بينها ذلك الذي كان يمتطيه إبراهيم باشا في معركة نصيبين. وقد استقل جيرار دي نيرفال Gérad de Nerval من مارسيليا المركب نفسه الذي استقله سُياس الخيول العائدين، وحاول أن يتحدث بالعربية معهم. انظر:
Gérad de Nerval: Voyage en Orient, éd. Gilbert Rouger, Paris, Impr. Nationale. 1950. I, 25. P - N. Hamont: Des races chevalines orientales. présent du vice - roi d'Egypte au roi des Français, Paris, 1843. (Extrait de La Rev. de L' Orient, I, 452-457).

(٢) انظر في La Rev. égyptienne اكتوبر ١٩٢٢ ص ٣٢٣ جزء من مذكرات حماد عبد العاطي عضو هذه البعثة.

(٣) خطاب جومار إلى أرتين بك، أكتوبر ١٨٤٤ نشره جاستون فييت G. Wiet في Rev. du Caire ـ أكتوبر ١٩٤٤.

(٤) كان الكولونيل روكانكور Rocquencourt رئيس أركان حرب للفرقة العسكرية الخارجية لباريس. انظر: L'Illustration, Paris, 12 août 1845.

(٥) بعد شهور فقط من إنشاء المدرسة العسكرية المصرية في باريس، اختفى اسم جومار من المراسلات الخاصة بالقاهرة بأرشيف قصر الجمهورية.

(6) Vingtrinier: Soliman Pacha, 450 - 451.

(٧) خطاب السابع والعشرين من أكتوبر ١٨٤٤ إلى وزير الحربية، والذي نشره طوسون باللغة العربية، ص ١٨٤ـ ١٨٦.

(٨) عن رحلة إبراهيم باشا، انظر:

Vingtrinier, Soliman Pacha, 457- 501, 510- 512,
Antoine de Latour, Voyage de S. A. R. Monseigneur Le Duc de Montpensier à Tunis, en Egypte, en Turquie et en Grèce, Paris, 1847, 245 - 256.
Gouin, L'Egypte au XIXe siècle, 463, 465, 468,
Paton, II. 299 - 302.
Sabry, L'Empire égyptien sous Mohamed - Ali, 551 - 553,
Guémard, Les réformes en Egypte, 375 - 376.

مقالات جريدة الوقائع المصرية: ٨ رمضان ١٢٦١هـ (١٠ سبتمبر ١٨٤٥) و ٧ جمادى الآخرة ١٢٦٢هـ (يونيو ١٨٤٦)، و ٥ رجب (٢٩ يونيو ١٨٤٦).

L'Illustration 2 mai - 1846.
Wiet, Le Voyage d'Ibrahim Pacha en France et en Angleterre.
(9) J-M Carré - Voyageurs, I, 285.

وقد سافر إبراهيم من تريبور Tréport إلى إنجلترا في الرابع من يونيو على متن السفينة الحربية جروميه Gromer التي أقلت الدوق مونت بونسييه Montpensier إلى مصر.

(١٠) الوقائع المصرية - ٧ رمضان ١٢٦٤هـ (١٧ اغسطس ١٨٤٨).

(١١) الخطط - ج ٥ - ص ٤٩.

(١٢) ص ٣٧١.

(١٣) مرض منصور عطية أفندي وتوفي في باريس طبقًا لطوسون (ص ٢٦٥)، وفي الاسكندرية طبقًا لعبد الكريم في Histoire de L'enseignement sous Méhémet Ali, p 446, note: ومات محمد شاطر افندي في مارس عام ١٨٤٢ وراح مصطفى خورشيد بك عام ١٨٤٥ ضحية سقوطه من فوق ظهر خيل وهو يتنزه مع الأمراء. أما الأمير حسين فقد توفي في باريس عام ١٨٤٧ عن ٢٢ عامًا ودفن في الاسكندرية.

(١٤) ماهوس Mahus بك - انظر طوسون ص ٣٤١.

(١٥) بسبب ما اقترفوه من أفعال سيئة، كما جاءت في الوقائع المصرية الصادرة يوم ١٦ شعبان ١٢٦٤هـ (١٨ يوليو ١٨٤٨).

(١٦) عن حادث كوبري كفر الزيات هذا (١٨٥٨) انظر التقرير الدقيق الذي كتبه بريس دافين. مخطوط محفوظ في المكتبة القومية بباريس تحت رقم ٢٠٤٢٢، في سجل ٦٣.

(17) Les Caractères "Des Jugements", n 78.

(١٨) السابق ـ سجل رقم ٨٦.

(١٩) انظر الفصل المعنون: «الفرنسيون في السويس»
Les Français au Suez (1869) - dans Les voyageurs et écrivains français en Egypte de Jean - Marie Carré, II, 289 et suiv: et "L'inauguration du canal de Suez" dans L'Histoire du règne du Khédive Ismail, II,431- 475, par G. Douin.

(20) Douin, ibid, II, chap. I, L'Egypte à L'Exposition universelle de 1867. Premier voyage du vice -roi en Europe et chap.x. "Deuxième voyage du vice - roi en Europe" (mai - Juillet 1869) cf. Chevalier de La Teillais: Le voyage de Son Altesse Le Vice - roi d' Egypte et La presse européenne. Paris, Kugelmann, 1870, Penfield: Present day in Egypt, 220,231.

(٢١) السابق ـ سجل رقم ٨٤.

(٢٢) «كان معروفًا في كل مكان بصفته إداريًا يعنى بنقوده أكثر مما يعنى بنقود الدولة»
Benedetti: Méhémet- Ali durant ses dernières années. Rev. des deux mondes, Juin 1895, p.522.

(23) Prisse d'Avennes. op.cit.p.84.

(٢٤) طوسون ص ٢٨٦.

(٢٥) السابق ص ٣٢١.

(26) Collection des tableaux anciens et modernes de S. E Khalil Bey. Préface de Théophile Gautier, Paris, Panckoucke, 1867 - Cf Auriant: un amateur, Courbets Khalil Bey, Le Manuscrit autographe - n . 33 mai - Juin 1931.

(٢٧) طوسون ٢٨٧ ـ ٢٨٩.

(28) Des Michels : Souvenirs de Carrière 122.

(29) Ninet: Arabi Pacha, 52, Wallace, 158 - 159, Biovés 29.

طوسون ٢٤٧؛ الرافعي: الثورة ـ الطبعة الثالثة ـ ٣١.

(٣٠) في عام ١٨٤٣، كان الدوق دو لوين، المدير الشرفي المساعد لمتحف الآثار المصرية واليونانية الذي أنشأه شارل الخامس، قد قام برحلة إلى مصر، وأنقذ من مرض أصيب به بفضل عناية سليمان باشا . وعرفانًا بالجميل، عُني هو بابن مضيفه حينما قدم إلى باريس.

(٣١) خطاب نشره رينيه كاتافوي René Cattafui في:

Bull. de l' Inst . d' Egypte, xx, 227 - 30.

(٣٢) نذكر من بين أساتذة المدارس العسكرية شحاتة عيسى، وإسماعيل الطويجي ومحمد خفاجي..

(٣٣) ومن بينهم شفيع رحمي وأحمد السبكي.

(٣٤) قالها مدير أنيق شاب تعلم في فرنسا، عرفه د. ماكنزي والاس D. Mackenzie Walace، السابق ١٥٤.

(٣٥) عُين قاضيًا كل من حمّاد، وعلي إبراهيم، ونجاتي راسخ، وسيد نصر.

(٣٦) ورد ذكر هذه المذكرات في المجلة المصرية La Revue égyptienne عدد أكتوبر ١٩١٢ ص ٣٢٣ وما بعدها. وقد ترجمت المجلة بعض الصفحات المتفرقة من الفصل السابع، عن اختيار أعضاء بعثة ١٨٤٤ الدراسية، وعن استعدادات السفر والرحيل من القاهرة إلى الإسكندرية، وقد نشر صالح حمد حمّاد بالفعل هذه المذكرات في منشورات غير معروفة تصدرها جمعية خيرية في الاسكندرية اسمها الملاجئ العباسية، ونشرت في صورة ملحق ابتدأ من العدد رقم ١١، مجلد ١٢ بتاريخ الأول من ذي القعدة عام ١٣٣٠، تحت اسم «روايات من السلف إلى الخلف». وتغطي هذه السيرة الذاتية تاريخ مصر الناهضة حتى عام ١٩٠٤، وهو تاريخ موت البطل. ومع الأسف فإن الغياب الدائم للأعداد التالية من هذا الإصدار عن دار الكتب بالقاهرة حرمنا في الوقت الحالي من هذه الشهادة.

****

الفصل الرابع
علـــي مبـــارك
(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

من السهل والمشروع بالفعل ربط اسم رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك - صانعي النهضة المصرية الحديثة - في كتب التاريخ. فالاثنان من أبناء مصر، تعلما في فرنسا، وقاما بالتأليف والترجمة، وكانا تربويين متحمسين. ومع هذا، تقف تلك المقاربة تلك عند هذا الحد لنتبين بعدها الفروق العديدة التي تفصل بين شخصيتين وتكوينين، وجيلين مختلفين.

فالوسط الذي نشأ فيه علي مبارك وفترة شبابه تختلف كل الاختلاف عما شهده رفاعة. فلدينا ـ من ناحية ـ مصر العليا بشموخها وطابعها المحافظ، ولدينا ـ من ناحية أخرى ـ مصر الدنيا المنفتحة على الفتوحات والمغامرات. هنا، أصل نبيل وأهل عاشوا في سعة وعلو، وابن واحد محاط بحب ذويه واهتمامهم؛ وهناك، أسرة كبيرة العدد، مكافحة، زعيمها متزوج من عدة نساء، يجد صعوبة في الرزق من خلال ممارسة وظائف الشيخ الموروثة، والتي يؤديها أحيانًا في مسجد قريته - برنبال الجديدة - وأحيانًا أخرى وسط البدو الذين كانوا يستقبلونه لديهم. وقد كرس ابنه الثاني «علي» لممارسة المهام الدينية نفسها، وعهد به إلى معلم صارم في الكتّاب ليحفظه القرآن. ولد علي مبارك عام ١٨٢٤ بعد رفاعة بثلاثة وعشرين عامًا وكانت طفولته شديدة التقلب، مليئة بالضرب بالعصي، وبالمكر للتحايل على قسوة المعلم، وبالهرب بعيدًا عن المنزل، أو بالأحرى بعيدًا عن خيمة الأسرة. كان طفلاً متمردًا، مضطرًا منذ نعومة أظافره إلى كسب لقمة عيشه، فكان يساعد مهندسي المساحة أو يعمل كاتبًا عامًا، وعرف المرض بل والسجن أيضًا، وقد جعله حارس السجن يعمل عند أحد نظار الباشا، لم يكن ناظرًا تركيًا، ولكنه كان حبشيًا وأمن الشاب «علي» ذو البشرة الأقل سوادًا أنه جدير بأن يحظى بالمنصب نفسه، وسأل عن السبيل إليه وعرف أنه يكمن

في الالتحاق بمدرسة القصر العيني مرورًا أولاً بالمدرسة الابتدائية الحكومية، وشرع في تنفيذ خططه بشجاعة، وكان بحاجة إليها ليتحمل الحبس في القسم الداخلي المنفرد، والانصياع لنظام مدارس محمد علي الذي لايرحم. وبحلول عام ١٨٣٩، التحق بالفنية العسكرية وكان ضمن الطلاب الذين اختارهم سليمان باشا عام ١٨٤٤. لا وجه إذن للمقارنة بين حياته والتنشئة الورعة الهادئة التي حظي بها رفاعة في الأزهر.

وفي المدرسة العسكرية المصرية بباريس، وخلال الثلاثة أشهر الأولى، حضر علي مبارك الدروس دون أن يفهم كلمة واحدة، بما أنه كان يجهل اللغة الفرنسية. ومن كانوا يفكون شفرات تلك اللغة، وكلفتهم المدرسة بإعادة شرح هذه الدروس لزملائهم المبتدئين، فضلوا الإبقاء على المعلومات لأنفسهم حتى يحافظوا على تفوقهم. ولم تفلح الشكاوى والاحتجاجات وأخيرًا الإضراب الذي قام به علي مبارك وأصدقاؤه، ولم يجلب كل هذا لهم سوى الحجز، وتهديدات عليا بإعادتهم إلى مصر مكبلين بالقيود. وبدافع الخوف، بحث علي الفطن عن كتاب لمبادئ اللغة الفرنسية، وراح يحفظه عن ظهر قلب، وكذلك فعل مع جزء من كتاب التاريخ، مضحيًا براحته وبنومه. وسرعان ما رفعه هذا الدأب إلى رتبة عرّيف. وحاز على رأس الفصل الأول عدة جوائز منها أطلس جغرافي، وكتب تاريخ جميلة. وبعد أن جاء ترتيبه الثالث في الامتحان النهائي تابع - وقد أصبح برتبة قائمقام - دروسًا في مدرسة ميتز Metz خلال عامي ١٨٤٧ و ١٨٤٨، وحظي بتدريب امتد عدة أشهر بالجيش الفرنسي قبل أن يُستدعى إلى مصر.

قضى إذن علي مبارك خمسة أعوام في فرنسا مثل رفاعة، ولكنه لم يحظ بما حظي به هذا الأخير من اهتمام شخصي من جومار، وبرعاية فائقة مثل رعايته، ولا كان له التقرير الذي كان لإمام متخرج في الأزهر. وإنما تدرج تحت ستار الزي الموحد الذي لم يكن يميز بين أحد، وتحت اللوائح العسكرية. ورغم مواهبه التي كانت تفوق زملاءه الأمراء والبكوات إلا أنه كان مضطرًا إلى تقبل امتيازاتهم بل ومداعبة غرورهم. ولم يلق القدر الذي كان

لرفاعة من حرية وكرامة وإحساس بالأمان، لو أنه أدرك فقط وهو في باريس أهمية المهمة التي كان سيكلف بها في وطنه، إذ كان علي مبارك يسعى بالأحرى إلى تلبية طموح شخصي، ورغبة في الوصول والتساوي بالبكوات والبشوات. وهو على كلٍّ - لم يكن يحظى بأفضل الدرجات في «السلوك» (١). وأدرك يوم رحيله أن دَينه قد بلغ ستة آلاف فرنك.

أما مصر التي عاد إليها فلم تعد مصر محمد علي. فبانتقالها من يد إلى أخرى افتقدت الحكومة الاستقرار والخطط التي بها استمرارية، علاوة أن الدولة كانت قد أنشأت كوادرها، وعددًا كبيرًا من المدارس والمعلمين والمترجمين خاصة بفضل جهود رفاعة الطهطاوي الذي أرسى أول قواعد التعليم العام فعند عودة رفاعة كانت المراكز الشاغرة بحاجة إلى رجال، ولكن عند عودة علي مبارك كانت المراكز قليلة وكان لابد من التحايل لبلوغ أعلاها.

اشتغل رفاعة في هدوء بالتعليم، بينما بدا كل شيء صالحًا للظفر به بالنسبة لعلي مبارك، سواء في الجيش والأشغال العامة أو في مجال التجارة أو في مجال التعليم العام. أراد عباس باشا تقليص التعليم العام إلى حده الأدنى، تقدم علي مبارك وكثف جميع المدارس في منشأة واحدة عين - بطبيعة الحال - مديرًا لها. تلك التغيرات ذاتها - كما نعلم - هي التي أدت إلى إبعاد رفاعة الطيب إلى الخرطوم. وحينما تقلد سعيد الحكم كان علي مبارك في هذه المرة هو الذي غضب عليه. وأرسل مع الفرق المصرية في جيميه Gumée لنجدة الجيش العثماني الذي يحارب الروس. وعاد منشغلاً وفقد تباعًا وظائف عسكرية غير معروفة تحديدًا. ولم يلمع نجمه هو إلا بوصول أحد زملاء باريس إلى الحكم: إسماعيل. فبعد أن حصل على لقب باشا، أصبح علي وزيرًا أكثر من مرة، ولم يتم ذلك من دون أن ينغمس بعمق في وحل الأوساط الخديوية (٢).

كان بالفعل مديرًا للقناطر الخيرية ووكيلاً لوزارة التعليم العام حينما أرسله إسماعيل إلى باريس عام ١٨٦٧ لإنجاز مهمة دقيقة تتعلق بالشئون المالية. وعلى الرغم من أن هذه

الرحلة الثانية إلى فرنسا لم تستغرق سوى خمسة وأربعين يومًا بما فيها الرحلة نفسها، إلا أنها آتت ثمارها. فقد زار رجل الدولة المصري مدارس عديدة، واستعلم عن مختلف المناهج الدراسية وأحدث الكتب المدرسية. كما نزل أيضًا إلى مجاري باريس المدهشة في زيارة لهذا النموذج الممتاز لنمو المدن. وكان لتوه قد اختير من قبل الحكومة الفرنسية ضابطًا للفيلق الشرفي، بعد أن مثّل مصر في لجنة تحديد الأراضي الممنوحة لشركة قناة السويس. ويرجع إليه الفضل أيضًا في التحضير للاستعدادات الضخمة للحفل الذي أقيم بمناسبة افتتاح القناة.

صحيح أن علي مبارك كان عليه في أغلب الأحيان التعاون مع الفرنسيين، ولكن أهم مجالات نشاطه تظل بالنسبة لنا ما أنجزه في التعليم العام. فهنا تتبدى بعض تأثيرات أسفاره إلى فرنسا. ونحن نعرف أن علي مبارك أنشأ المكتبة الخديوية بالقاهرة «دار الكتب» وبناها على نموذج المكتبة القومية في باريس. وقد دفعه إعجابه بالأوساط العلمية التي ارتادها في باريس إلى تأسيس قاعة مؤتمرات عامة للقاهريين كان يدعى للحديث فيها بانتظام أساتذة مصريون وأجانب (٣). ولأن الفرصة سنحت له لمقارنة حالة الكتّاب المزرية التي مثلت كابوس طفولته بتنظيم المدارس الفرنسية، فقد حرص على الارتقاء بهذه الأماكن القديمة إلى مستوى المدارس الابتدائية (٤). وحذا حذو فرنسا في توحيد المناهج الدراسية بمقتضى قانون ١٨٦٧، وأقر مستويات التعليم الثلاثة: الإبتدائي والثانوي والعالي. ثم التفت إلى الأزهر وهو الذي درس العلوم الحديثة. ومع أنه كان مقتنعًا باستحالة إدخال مواد دنيوية في مناهج تلك الجامعة الجليلة، إلا أنه نجح في توجيه الطلاب أنفسهم نحو أفكار جديدة، ولكن في دار العلوم التي أسسها باعتبارها مدرسة للمعلمين. وكانت ذكرى دراسته المباشرة للغة الفرنسية في كتب التاريخ والجغرافيا هي التي أملته عام ١٨٨٠ القرار بأن تدرس بالفرنسية أو الإنجليزية مواد كانت تعطى حتى ذلك التاريخ بالعربية في المدارس الحكومية، وعلى يد مدرسي اللغة الأجنبية أنفسهم؛

ويوضح تقريره بأنه «بهذه الطريقة، فإن دروس التاريخ، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، إضافة إلى تعليم فقه اللغة في حد ذاته ستكمله مانحة إياه موضوعات تدريبية متنوعة ممتازة» (٥).

ولأنه فكر أيضًا في إتاحة كتب سهلة ومفيدة ووضعها في متناول يد الطلاب الشبان، فقد ترجم علي مبارك، وأمر أيضًا بترجمة كتب تعليمية في الهندسة (٦)، والأحياء (٧)، وعلم القياس والموازين (٨) نقلاً عن اللغة الفرنسية. ومع كونه وزيرًا ألف كتاب قواعد مبسط، موازيًا لذلك الذي قاد خطواته الأولى في الخفاء إلى اللغة الفرنسية، وكان رفاعة قد أشار بالفعل إلى الأهمية التربوية لهذه النوعية من الكتب (٩). أما الجزء الثاني من كتاب تعليم التهجي الذي ألفه فهو عبارة عن سلسلة من النصوص للقراءة، ويعود الفضل فيها إلى صالح مجدي تلميذ رفاعة وكاتب تاريخ حياته، والذي تغذى على فكره في تخليص الإبريز وفي مناهج الألباب (١٠). ومثل رفاعة من قبله، كان علي مبارك، قد اكتسب في باريس تذوقًا كبيرًا للتاريخ؛ وتشهد على هذا ترجمته «تاريخ العرب» لسيديو Sédillot (١١) والعمل الهائل عن المسح الجغرافي التاريخي للقاهرة وضواحيها الممثل في كتاب «الخطط التوفيقية» (١٢).

ويعد كتاب «علم الدين» من الأعمال الكبرى أيضًا مثل كتاب الخطط. وهو وإن لم يكن عملاً مهمًا إلا أنه يحق له مع هذا أن يأخذ مكانه في كتب التاريخ الأدبي المنسي فيها عن غير حق - باعتباره أول رواية ظهرت في مصر في القرن التاسع عشر. وسواء من حيث الشكل أو المضمون فإن لكتاب «علم الدين» أهمية وثائقية. فهذا العمل الذي جاء ثمرة رحلة إلى فرنسا يمكننا من متابعة رحلة الكاتب. أيّ روائي فقده - مع هذا - الأدب العربي ! ذلك الشاب علي مبارك الذي كان برتبة قائمقام، والذي كان – بَعْدُ – طالبًا في مدرسة ميتز Metz، كان قارئًا نهمًا. للروايات «في القاعات»، وكان يعاقب بصرامة على هذا (١٣). ولكن هذا الكاتب بتكوينه العسكري وحياته السياسية التي استغرقته، كان بلا شك من الرواد.

يقع كتاب «علم الدين» في أربعة أجزاء، مجموعها ألف وخمسمائة صفحة، ويعد هدف الكتاب تعليميّاً وهو مكتوب على هيئة حكاية (١٤). وعنوان الكتاب على اسم شيخ مصري هو «علم الدين» وهو لفظ نجد فيه الأحرف الأولى من اسم الكاتب ولقبه.

يقوم هذا الشخص وابنه «برهان الدين» برحلة إلى فرنسا وكان دليلَهُمْ مستشرقٌ إنجليزيٌّ. ولاشك أن وضع مثل هذا الموضوع في إطار رمز من رموز الدين كان أفضل ضمان لكسب رضا الجمهور والظهور بمظهر التربوي الذي لا غبار عليه.

يتكون الكتاب من مائة وخمسة وعشرين فصلاً أو هي نوع من «الحكايات» التي لا تشكل فيها الشخصيات أو الرحلة إلا مجرد حجة لعرض مختلف مظاهر المجتمع، والأنشطة الصناعية والتجارية، والفكرية الخاصة بالإنسان، إلى جانب المعارف العامة المتعلقة بالتاريخ العالمي وبجغرافية العالم. أي أنه باختصار يعد موسوعة بدائية موجهة إلى الشباب ومن خلال هذه الدروس الطويلة، نلمح من حين لآخر - تأملات حول الحياة الفرنسية . ولكن لنرى العمل بداية كما هو مقدم، مع إبراز الصفحات التي تمس الكاتب أكثر من غيرها، قبل أن نتناول أصل الكتاب ومصدره ونحدد مكانته في أدب الرحلات.

تحكي الحواديت الخمس الأولى بدايات علم الدين: التعليم الذي وفره له والده الذي كان معلم كتّاب وإمام القرية، ثم انتقاله إلى القاهرة ليتابع تعليمه في الأزهر، وعودته إلى بلدته بعد وفاة والديه المسنين ليصطحب معه شقيقاته الثلاث إلى القاهرة، حيث قرر مواصلة تعليمه بدلاً من أخذ مكان أبيه فيما كان يمارس من أعمال، وقضى علم الدين أربع سنوات في غاية القسوة؛ لم يكن لديه أي مورد رزق سوى الحسنة التي كان يحصل عليها من بعض علية القوم حيث كان يتلو عليهم كل ليلة آيات من القرآن. ثم كان زواجه، والحِمل الأكبر المتمثل في تربية أربعة أطفال.

ولحسن الحظ، مع «الحكاية» السادسة، يأتي مستشرق إنجليزي إلى القاهرة يبحث عن متخصص في اللغة يمكن أن يصحح له نسخة من لسان العرب يريد أن يطبعها (١٥).

وفي الأزهر، أشاروا عليه بالاستعانة بشيخنا. وسرعان ما نشأ وفاق وإعجاب بين الرجلين، حتى إن الشيخ رحب بالسفر إلى أوربا مع الرجل الإنجليزي. ويحكي إخوانه في الدين عن الصعاب التي لقوها، وهي تتمثل في السفر مع غير مسلمين، والرحيل بعيدًا عن الأهل والتعرض لمخاطر عدة ـ ولكن الشيخ الشجاع تجاوز هذه الصعاب وهو يردد قول النبي محمد، الذي ردده رفاعة بدوره: «اطلبوا العلم ولو في الصين» وأبيات شاعر عربي يقول فيها:

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش في النُّصب
الأسد لولا فراق الغاب ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يُصِب

غادر الشيخ وابنه والإنجليزي القاهرة ـ إذن ـ إلى الإسكندرية. وكانت هذه فرصة سانحة للحديث بتوسع عن السكك الحديدية في مدينة طنطا، وعن وليِّها السيد البدوي، والموالد التي تحتفي بعيده، وكلها شطحات خارج الموضوع، وفقرات مطولة عن قصد. وبما أنه نزل في فندق في الإسكندرية انتظارًا لرحيل المركب، فقد كرس فصلاً كاملاً لمدح هذه المنشآت المريحة، وهجاء النزل الموبوءة التي عرفها الجيل السابق، ونحن نذكر الملاحظة التي قالها رفاعة، كما أننا نجدها وقد تغلفت بمدح كبير بقلم عبد الله فكري.

وبمجرد أن تم الإبحار كان هذا هو اللقاء الأول مع المجتمع الأوربي: على المائدة، كانت فتاة إيطالية شابة، جميلة ولطيفة، وفطنة، تتحدث بدون خجل مع رجال يبجلونها، ويضعون انفسهم رهن إشارتها، كما أنها كانت ذات ثقافة رفيعة وطبع رقيق. ولكن شيخنا يفضل المرأة الشرقية، المتواضعة، المنعزلة بعيدًا عن الإغراءات وقد جعل «النساء» موضوع الفصل التالي؛ غير أن النقاش الذي قاده نصير الحجاب ضد الإنجليزي الذي يدافع عن حرية الجنس اللطيف لا يفضي في النهاية إلا إلى خلاصة ضعيفة تلقي باللوم على الشرقيين الموثرين ـ بصفة خاصة ـ ممن يتفننون في استغلال وضع المرأة وسط حريمهم.

وتشغل سلسلة من الفصول التعليمية بقية مساحة هذا المجلد، يتناول فيها «البريد» الذي يصف الإنجليزي آلياته وسط إعجاب الشيخ الذي كان قد أرسل لتوه خطابًا إلى زوجته. ويتبع هذا الوصف حوار حول تاريخ «الملاحة» والبوصلة.

وفي الوقت نفسه، يشرع الشيخ وابنه في تعلم اللغة الإنجليزية؛ ويشيد المؤلف باستخدام كتب تهجٍّ بسيطة في البداية، ثم كتب القواعد التي يتم تقديمها من خلال قراءات جميلة. ويمضي والوقت مقسم بين الدراسة والوجبات ووقت الاستراحات. وقد سأل الرجلان الغلام عن نوع التعليم الذي اختاره، وأيدا إيثاره المدارس الحكومية التي ستفتح أمامه مجال مستقبل مهني جميل غير متاح لطلبة الأزهر السابقين.

وتأتي بعد هذا حكاية عن «البحر وعجائبه» لتفسر الظواهر الطبيعية، ممثلة في المطر والأمواج وتيارات الهواء ولوصف الكائنات البحرية. وبخصوص بركان الاتنا Etna الذي رأوه ينبعث منه الدخان، فنجد الدرس يتناول «البراكين» ويدور حول بعض مفاهيم الجيولوجية وتاريخ الثورات البركانية الكبرى.

وتحت عنوان «بصورة متقطعة» تقودنا حكاية أخرى لنرى الشاب برهان الدين مهتمًا بمصير ملاح إنجليزي فقير دأب علي السفر اسمه جيمس أو يعقوب فيوصي به المستشرق الذي يحدث الشيخ عن عقلية العرب ثم يقدم له مقالاً - كان قد كتبه لتوه - حول فضائل هذا الشعب في مجال العلوم. هذا النص جاء بطبيعة الحال في الفصل التالي، كما عاد للحديث عن وضع المرأة المسلمة.

وعلى القارئ أن يخمن الميناء الذي نزل به، إذ يبدو أن المؤلف كان منشغلاً تمامًا بإعداد دروسه العامة حتى إنه نسي تحديد المكان ! ثم هذه رسالة لا تبدو واقعية أرسلها برهان الدين إلى والدته، وهي بالفعل رسالة طويلة تمتد ستة فصول متخمة بالمعلومات. الصفحات الأولى مطولة ومليئة بالعبارات المفخمة وتدور حول موضوع الحب البنوي،

والمفروض منها بالطبع إعطاء مثل للتلاميذ في الكتابة والأسلوب. وحتى يبرر الكتابة المتتالية عن «الجغرافيا والتاريخ» و«الأديان»، «والإنسان والجسد الاجتماعي»، يحكي الشاب لوالدته كيف تعرّف على يعقوب الذي ينصحه بتعلم العلوم الحديثة، وقد حرص المؤلف على إهدائنا بكل هذه المادة قبل أن ينهي الجزء الأول.

ويبدأ الجزء الثاني بفصل شائق عن «المسارح» ويقارن الشيخ الممثلين بـ أولاد «رابيا»، وهم على الرغم من عدم رقيهم إلا أنهم يسعون في شوارع القاهرة ويحاكون بمهارة مشاهد الحياة اليومية، وينتقد التسالي التافهة التي يمارسها الشعب في مصر، خاصة الأغاني الخالية من المعاني. وبمجرد وصوله إلى فرنسا، يحضر عرضًا ميلودرامياً، يمسه ويدفعه إلى التأكيد على المهمة الأخلاقية للفن المسرحي. وبعد أن انتبه إلى شكوى ابنه الذي تأثر تأثرًا بالغًا بفتنة المشاهدات بأثوابهن ذات الصدور المكشوفة، نصح الشيخ بتجنب الفتنة بغض البصر عن النساء لعدم إمكانية تغيير عاداتهم. ويحدثنا الفصل التالي عن العدسات، ذلك أن المستشرق قد أهدى برهان الدين زوجًا منها شارحًا له كيف تعمل ومختلف استخداماتها.

ودعونا لا نبحث عن المكان الذي نحن فيه ! إنه ميناء كبير، فيه كل الألوان، وجميع اللغات، وأنشطة وفيرة، وتجارة في أرجائه كافة، إننا في مارسيليا، لا شك. ومع هذا، فهناك انضباط في المكان، وضوضاء وصراخ أقل مما هو موجود في الإسكندرية والقاهرة حيث لا تعرف الاحتفاليات الشرقية نهاية. تتكون العمارات في مارسيليا من أربعة إلى سبعة طوابق، وليس من طابقين فقط كما هو حال منازل مصر. وهي تعطي نموذجًا يدعو إلى الإعجاب في فن العمارة الموائمة للمناخ: فأسطحها مائلة حتى تصرف ماء المطر، كما أن الأدوار متقاربة لتخفيض تكلفة التدفئة. أما «المقاهي» التي يصفها لنا الكاتب بأناقة أثاثها وما فيها من الغدو والرواح. كما أنه لا ينسى وصف الصورة الغريبة التي تعكسها المرايا مضاعفة. إن كل هذا الوصف إنما يدين به لرفاعة. بل إننا للأسف نجده أقل منه

تلقائية وجاذبية وهو يصف. ويبدأ الكاتب فصلاً جديدًا يتناول فيه «الحشيش». ألم يورد من قبله رفاعة ذكره وهو يتحدث عن المقاهي؟ والكاتب يمدنا من خلال هذا الموضوع بكتابة مطولة، مستمدة من الحكايات العربية. ولكننا نجد بعدها مسافرينا في المدينة. إنه يوم احد. ولعل وجود كثير من المتريضين ممن التقى بهم الشيخ في الطرق قد أعطى له الفرصة لمدح نظام «يوم العطلة» الأسبوعية. وتقودنا حكاية «مارسيليا» إلى حكاية أكاديمية جديدة، ومن خلال مقاربة مبهمة بين مارسيليا وتاريخ الإسكندرية، وكلها مليئة بالأحداث الغريبة، يبدأ الفصل التالي الذي يحكي ـ كما القصص المليئة بالحكايات الثانوية ـ وقائع من «تاريخ القاهرة والاسكندرية، ومراسلات الإسكندر مع دايوس وأرسطو».

وقد كتب علم الدين خطابًا إلى زوجته. يحكي لها فيه عن الأنشطة الصناعية والتجارية للميناء وعن الملامح التي أدهشته في طباع الفرنسيين، فهم - فيما يراهم - غير متدينين ، يعشقون جميع الملذات وجميع الصيحات الزائلة. ويقول لها إنه أمضى «ليلة مؤرقًا، قضاها في الصلاة» وهو يفكر في عائلته. ويتحدث عن «السُكْر»الذي أدين في سور قرآنية عديدة يتلوها بمجرد مروره على أية حانة. هذا الدرس في الآداب الدينية يمتد أيضًا إلى فصل آخر، ضد الممارسات الجاهلية. وفي أحد المقاهي يحكي لاجئ مصري عجوز لمسافرينا حكايته، خاصة ظروف مقتل أولاده على يد La terreur Blanche ودعاهم لديه، وتناولوا طعامًا شرقيًا، ولكن الشيخ لم يأكل المحار الذي لا يحبه على الإطلاق. ويمتد الحديث عن المأكولات البحرية بدوره طوال فصلين يحملان عنوان «الغوري» و«الآلىء»(*) . وبعد استطراد علمي حول العملات في العالم تعود دروس التاريخ الطبيعي لتحتل مائة صفحة، يتحدث فيها تباعًا عن الدودة القارضة، ودودة القز، والفراشات، والنحل، والحشرات والنمل، وتري الخاتمة التي تدور حول «الإنسان والحيوان» إننا ندين إلى العنكبوت بفكرة صناعة شباكنا، وإلى النمل بطريقة رفع أسلحتنا، وإلى القرود بفن المحاكاة والمسرح!

ثم نقضي سهرة ساحرة عند أحد أصدقاء المستشرق. فالسيدات الحاضرات جعلن الحديث ممتعًا للغاية. وهن لايخفين إعجابهن بجمال الشاب برهان الدين. ولكن كل هذا الهم شيخنا في اليوم التالي أفكارًا أميل إلى التشاؤم عن تفاهة العالم. وقد لاذ بأحاديث الأنبياء القدسية، وبحكمة الفلاسفة القدماء. وعند هذا الحد، بدأ يعقوب يحكي قصة حياته وإنه من أصل شديد الفقر. فقد بدأ أولاً بممارسة التجارة ثم ركب سفينة، وبدأ يحكي عن مغامراته المنغمسة في تفسيرات تعليمية ومقارنات لا نهاية لها شكلت موضوعات ملأت فصولاً عديدة: البحار ـ العاصفة وغرق السفينة ـ الوحدة ـ الزنوج ـ الفيل ـ الخلاص ـ الذهب ومستخرجه ـ قصة زنوبيا ـ جذيمة الأبرش وقصير (والتي يذكرها الشيخ بمناسبة حديثه عن زنجية ثأرت لزوجها الذي قتل) نخاسة العبيد ـ السودانيون في أفريقيا ـ ساحل الذهب ـ وعودة إلى قصة يعقوب ـ الحيوانات المفترسة ـ ابن آوى ـ النمر ـ القرود ـ الزباد.

ونصل إلى الجزء الثالث، وفيه: وصول القطار إلى باريس حال دون استكمال قصة يعقوب. عربة حملت مسافرينا، وقادتهم إلى فندقهم عبر شوارع جميلة أكثر ازدحامًا من شوارع مارسيليا. وقد أفصح الشيخ عن اعتزامه كتابة مذكرات عن رحلته وإقامته في باريس (١٦) ولتجنب تجمع الفضوليين الذين يجتذبهم ظهور الثوب الشرقي، اقترح الإنجليزي على أصحابه المصريين أن يرتدوا ثيابًا على الطريقة الأوربية، ولكنهم آثروا الاحتفاظ بثيابهم القومية. فسوف يعطيهم هذا إحساسًا بعدم انقطاع كل صلة لهم بوطنهم، كما أنهم سيلقون ـ من ناحية أخرى ـ الاحترام الواجب للأجانب.

أما «الانطباع الأول عن باريس» فجاء مبهرًا: الشوارع العريضة، العربات والسيارات، حشد أمام الواجهات الزجاجية للمحلات البديعة، حركة دؤوب بدلاً من أن تهدأ مع غروب الشمس فإنها تزداد وتتألق تحت أضواء مصابيح الجاز، فكأنه عيد بهيج. وقد تاه برهان

الدين ويعقوب في أحد المحلات الكبرى المقامة علي نحو فاخر والمليئة ببائعات حسناوات، واستقبلهم مدير المحل وأحسن وفادتهم في قسم الكاشمير.

وفي الفندق، عاد يعقوب لاستكمال حكايته، فتحدث عن الوحش البحري - ثعبان البحر - وحوت العنبر والعنبر. ووصل في حكايته إلى عودته لإنجلترا.

وفي اليوم التالي زاروا الأسواق، وهي منشأة مفيدة للمنتجين والمستهلكين والتجّار. وجاء الوصف موضوعياً، مليئًا بالأرقام وبالإحصاءات دون أية انطباعات شخصية. ولا يوجد عند الكاتب أي ميل هنا لوصف المناظر. وقل أكثر وجود الانطباعات الشخصية في الحكاية التالية التي كتبها تحت عنوان «باريس» - فقد كتب فيها عن موقع المدينة، والأحداث التي وقعت فيها منذ سالف الزمان - منذ بداية تاريخ فرنسا وحتى قبيل الثورة الفرنسية دون حديث مفصل عنها.

وعلى العكس من هذا، جاء وصف «الحفل الراقص» في حكاية مختصرة مليئة بالحيوية. فبعد صلاة الفجر، استقبل الشيخ ابنه الذي راح يصف له هذا الجنون الذي لا يحترم فيه الشيخ الكبير سنه، ولا الأمير مرتبته، وحيث يتنازل خلاله الجميع عن كرامتهم فيرقصون في مساحة كبيرة، وهم واضعون أقنعة ومتنكرون بألف طريقة تدعو للسخرية. والخلاصة - بطبيعة الحال - تأتي لتعيب على الجنسين اختلاطهم بهذه الحرية المفرطة.

وبينما يتنزه الشاب في باريس بصحبة يعقوب، يتحدث الشيخ والإنجليزي في محل إقامتهم حول موضوعات قديمة وحديثة، ثم يأتي مستشرق صديق يرغب في زيارة مصر - أم الحضارات - فيكون الحديث عن الأهرامات التي تشهد على معرفة المصريين معرفة تامة بعلم الفلك والرياضيات . ويستغل المؤلف الموقف لإثراء عمله بعرض لدراساته الخاصة بالمقاييس والموازين. وفي فصل آخر ممل وثقيل بدأ يستعرض معلومات نهلها من مصادر علمية ودينية - متناقضة في أغلب الأحيان - حاول من خلالها توضيح أصل علوم قدماء المصريين وطقوسهم الدينية وتحديدها زمنياً قياسًا إلى الطوفان.

ولحسن الحظ، لاينسى المؤلف أن علىٰ شخصياته أن تزور «بعض الأحياء الباريسية». وفي ساحة فاندوم Vendôme، بعد أن عُرِف أن تمثال نابليون حل محل تماثيل لويس الرابع عشر، رأى علم الدين أن في هذا عدم اتزان من الفرنسيين وعدم ثبات في تقديرهم للأشياء (١٧). وبعد الظهر، وبينما هم يتنزهون في حديقة الباليه رويال Palais Royal، فإن مرأى الأطفال وهم يلعبون ويجرون بمرح وذكاء، مطيعين مربياتهم، ملأ قلب الشيخ الطيب بالسعادة، وجعله يفكر بتحسر في أطفال القاهرة المهملين منهم والمدللين الذين لا ينفكون يبكون. واستحالة أن تفرق بين الفقير والغني من هؤلاء المتنزهين، فكلهم يلبسون ملابس أنيقة. ولايسمع سوى حفيف الأثواب، وصوت العربات التي تجرها الخيول، وهذر الأطفال وكلمات الجميلات المنغمة. ومن فرط انبهار الشيخ، كان سيفوته ملاحظة وجود المسلة أمامه في ساحة الكونكورد Concorde لولا أن نبهه الإنجليزي. ثم اندس فرنسي عجوز بينهما وراح يلقي خطبة حول مجد قدماء المصريين! ولكن الإنجليزي هو الذي أخذ على عاتقه قص تاريخ اللوفر والتويلوري، ثم حضر مسافرونا اجتماع بعض أعضاء الرابطة الآسيوية، وقد امتلأ الشيخ إعجابًا بهؤلاء المستشرقين الذين يعرفون البلاد كما يعرفون الكتب الشرقية معرفة وثيقة على الرغم من اللكنة الأجنبية التي ينطقون بها اللغة العربية. ومع هذا، فقد دار الحديث بين النساء وبرهان الدين عن «تعدد الزوجات» وقد قال الشاب إن الغيرة إذا أحالت الحياة بين الزوج وزوجاته جحيمًا فإن الطلاق مباح لوضع حد لأي ارتباط تعس. وأضاف الإنجليزي أنه نظرًا لأن عدد النساء في الشرق يفوق عدد الرجال فإن هذا فرض تعدد الزوجات. وعلى الرغم من جهد عقلاني - غير كاف - بذله المؤلف للدفاع عن هذا الأمر، فقد خضع في النهاية للشريعة الدينية كما يفهمها. ثم تبع هذا الحديث بفصل مطول مليء بـ «الإحصاءات» والقوائم والأرقام، الخاصة بعدد السكان وبالأراضي المصرية عبر الأزمان.

وفي الضواحي الباريسية، زاروا مزرعة نموذجية، وتحديدًا حديقة تجريبية تنمو فيها أكثر الأشجار والزهور تنوعًا.. وكانت هذه ذريعة جيدة للحديث عن «الزراعة» وتربية الحيوانات. والخلاصة التي فوجئنا بها تخرج من فم الضيف، والتي تؤكد على العون

والعدالة التي ندين بها لطبقة الفلاحين، ما هي في الحقيقة إلا أشارة وجلة إلى الوضع البائس الذي يعاني منه الفلاح (١٨). بعد هذا لم تلهم زيارة «ڤرساي» شيخنا إلا الإعجاب العادي. وتأملات غير ذات قيمة حول خيلاء الإنسان وتقلبات الزمن.

ويتناقض الفصل المضجر الذي يحمل عنوان «الجيولوجية» مع الفصل التالي الذي جاء تحت عنوان «حكاية طريفة» وبالفعل، خارج حدود المدينة، حيث يقام أحد الأسواق، دخل برهان الدين إلى كوخ ليرى أسمن امرأة، وأصغر رجل في العالم، وسط حشد أخذه الفضول، وأدهشه عند خروجه هجوم كل هؤلاء الفرنسيين عليه ليروا ثوبه ويلمسوه ويتفحصوه كما لو كانوا سيشترونه. وشرح له يعقوب أن ما هم إلا قرويون أفظاظ ينقصهم الذكاء. فقال له برهان الدين إن القرويين في مصر لا يهتمون إلا بشئونهم الخاصة ولا ينظرون للأجانب إلا باحتشام.

ثم ذهبوا إلى رئيس «الجمعية الشرقية». وبعد تناول العشاء، أخذ أحد المدعوين الذين شاركوا في حملة بونابرت على مصر في قص تاريخها. وعند العودة طلب برهان الدين من أبيه مزيدًا من التفاصيل حول «الفرنسيين في مصر». فأبرز له روح المقاومة التي أظهرها الشعب، وحكى له ثورة القاهرة بالكلمات نفسها التي استخدمها الجبرتي.

وسنحت الفرصة للشيخ وللإنجليزي لمناقشة موضوع «العقائد» فحظينا بمقارنة بين الأديان عقدها أحد علماء الدين الإسلامي، ثم بعرض تقليدي لمبادئ الإسلام. ثم جاءت «النوادر» أو بالأحرى اللعب التي تمارس للتسلية في المجتمعات والتي يشرحها الشاب لأبيه، فكأنها قطعت لوهلة الحكاية السابقة، فتحت عنوان «التقوى» يبرز برهان الدين مجددًا الأهمية التي توليها الكنائس إلى التفاصيل الخارجية وللاعتبارات الاجتماعية ويقارن بين هذا وبين بساطة الصلاة في المسجد.

ويقودنا المجلد الرابع بداية إلى «الجمعية الشرقية». فيعطي فيها الشيخ محاضرة حول العرب ولغتهم وآدابهم. ـ وبمناسبة نزهة تمت سيرًا على الأقدام وليس بالعربة، جاء المثل المصري الذي يقول «في الحركة بركة» ليشغل الحديث عنه فقرة مطولة مطعمة بأبيات

شعرية، وتماست مع مجال الفلك وكواكبه، والجيولوجيا والطبقات الأرضية التي جلبتها الأنهار ووضعتها طباقًا، واللقاءات الإنسانية والرحلات وهجرة الطيور وأقلمة الزراعات وغيرها ـ ويدعو الإنجليزي أصدقاءه إلى المسرح، ويشرح لهم الحوارات، ويأخذ الشيخ الإعجاب بهذا الشعب الخالي من الهموم الذي تنقسم حياته الميسرة والمنظمة ما بين عمل جاد ومتع. وقد كتب برهان الدين إلى والدته أنه بدأ في تعلم الفرنسية وأنهم خلال شهر سيغادرون باريس إلى إنجلترا. وقبل القيام بـ «نزهة في باريس»، وباستخدام نموذج للكرة الأرضية، أعطى يعقوب للشاب درسًا في «الجغرافيا» ليس له فائدة أصلية.

غير أن النزهة تمت ـ تحديدًا ـ خارج باريس. وللشيخ الحق في الهروب من ازدحام العاصمة، والضوضاء الصادرة عن المركبات التي تهتز ليلاً نهارًا فوق أحجار الشارع المرصوف. وصوت الدلف التي ما تنفك تفتح وتغلق، وجلبة صادرة عن حشد لا يكل، يبدي مرحه بعد أن شرب. واعتقد الشيخ أن الطبقة الفقيرة الموجودة في مدينة على هذه الدرجة من الازدحام لا تجد ما يعينها على المعايش؛ ولكن يعقوب أوضح له أن هذا غير صحيح، وذكر له مثلاً حارس البيت هذا الذي يعمل إسكافيًا في الوقت نفسه، بينما تعمل زوجته حائكة، وتغني ابنته في مقهى موسيقي، وعدد له ماسحي الأحذية، وحلاقي الكلاب، وباعة الملابس المستعملة، وموزعي المطبوعات، دون الحديث عن عدد الذين يكسبون حياتهم بصورة غير شريفة في كافة أرجاء المدينة الكبيرة. وليست باريس مجرد ملتقى للاستمتاع، ولكنها أيضًا مركز نشاط تجاري ضخم يمتد إلى العالم بأكمله من خلال الاستيراد والتصدير، لا سيما أن جميع الدول تعترف بجودة البضائع الفرنسية وتسعى للحصول عليها. وحينما بلغوا حيًا جميلاً مليئًا بالحدائق والفيلات، توقفوا على حافة نبع وراحوا وهم يتناولون طعام الغذاء ـ يستمعون إلى «نهاية حكاية يعقوب»: بعد ملحمته، بدأ رحلة بحثه عن شقيقته، ووجدها ليفقدها نهائيًا بعد أن التحقت بدير، فرّت إليه من العالم حتى توفيت.

ثم كانت زيارة «البورصة» التي فتحت المجال لإدانة التسليف بالربا كما يمارسه اليهود مع الفلاحين المصريين الذين تلاحقهم الضرائب والنفقات. ألا يعكس إعجاب علم الدين بـ«مكتبة» أحد أفراد الجمعية الشرقية اهتمامًا خاصًا لمؤسس المكتبة الخديوية؟ وحتى يكون هناك تنوع، أورد «حكاية» هي في الواقع عن حدث عام، فقد حضر برهان الدين ويعقوب تنفيذ حكم إعدام في أحد المجرمين، وعرفوا حكايته البائسة من الجرائد. فهذا الرجل الدميم حتى ليصيب النساء بالذعر، ما كان يسرق إلا ليغمر معشوقته بالهدايا. وبعد أن سجن، فقد الإحساس بالشرف، لا سيما بعد أن وجد نظرة المجتمع مليئة بالتخوف منه، فانغمس في الشر حتى بدأ ينفر منه، فقرر التكفير عن جرائمه بالانخراط في صفوف القوميين الإيطاليين، ولكن تم القبض عليه حينئذٍ.

ثم نجد أنفسنا من جديد وسط سلسلة دروس عن «البنوك وتذاكرها»، و«الحشرات» الضارة للنباتات، و«الجراد» و«الإنارة بالغاز»، و«المسلمون الأوائل ومن تعاقبوا بعدهم»، و«القطران»، و«المستشفي»، و«التبغ»، و«القهوة»، و«الأنهار»، و«الأحجار الكريمة» و «الهواء والماء».

وفي الفصل رقم ١١٨ المعنون «نزهة خارج باريس» عاد الاهتمام الروائي للظهور المفاجئ. واستقر مسافرونا في فونتانبلو (التي يترجمها المؤلف «النافورة الزرقاء»)، عند أحد المستشرقين من أهل مارسيليا كان قد أمضى عشرة أعوام في انجلترا، وزوجته التي ولدت في الإسكندرية ونشأت في مصر - تتحدث العربية بصورة جيدة. كانوا يعملون في الصباح، ويخرجون بعد الظهر. وكان برهان الدين يرافق الأم والأطفال خلال ذهابهم، وانجذب بشكل خاص لجمال ماري الشابة التي انسته باريس، وأنجذبت إليه بدورها. فأي مصير كان ينتظر هذين العاشقين في فونتانبلو؟ لن نعرف هذا أبدًا، بما أن الحكاية الأخيرة تظل تحدثنا بإصرار عن موضوعات زراعية أو كيميائية مثل: «القطن»، و«الفواكه»، و«الأعناب»، و«شراب التفاح المخمر، ونبيذ الإجاص»، و«الكحول» و«البيرة»، و«الأشجار والأزهار».

وهكـذا نرى أنــه على الرغم من طـول الكتـاب الشـديد، إلا أنه يظل غيـر مكتـمل، فقصـة الحب التي جمعت الشاب المصري بالفتاة الفرنسية كانت قد بدأت لتوها. كما أن هؤلاء الرحالة الذين سـافروا أساسًا في اتجاه إنجلترا لم يصلوا إلى مقصدهم. وما ينقص أيضًا الكتـاب بشكل خاص هو رجـوع علم الدين وابنه إلى مـصـر، ورد فـعلهم النهائي. والحقيقة أن تقريرًا طموحًا على هذا النحو كان يمكن أن يمتد إلى ما لا نهاية دون أن يستنفد أغراضه. كما أن هناك تباينًا ضخمًا في نسب الحكايات أثر بشكل أخرق على إطار الخيال القصصي، لا سيما إذا أضفنا له كل رواية يعقوب بدروسها المدرسية التي لا تنتهي.

فالكاتب الذي أراد إثراء كتابه بكتابة عدة معاونين له، لا يذكر من بينهم إلا عبدالله فكري، لم يستطع أن يعتدل في انتقائه أشياء من بين جميع المواد التي تم إمداده بها. ولاشك أنه كانت لديه في البداية فكرة شخصية، وسيرة ذاتية، قام فيها علم الدين ابن شيخ في قرية بالسفر إلى فرنسا، مثل الكاتب، الذي أرسل بدوره ابنه يوسف إلى مونبلييه ليستكمل دراسته في عام ١٨٧٩ (١٩).

في ذلك الوقت، كان تأليف كتاب للقراءة الشائعة في صورة أدب الرحلات أمرًا رائجًا. وكانت فرنسا تشهد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدهار أدب تعليمي ذي صبغة شائقة. فأساتذة وتربويون مثل شارتون Charton، وبوون Bouant، وبلجراف Pal-grave، ولانوج Lanoge، وكاستيون Castillon، كتبوا على هيئة قصص حوارية وصفهم الجغرافي أو عرضهم العلمي(٢٠) دون الفكاك دائمًا من جفاف الأسلوب التعليمي. ولاشك أن علي مبارك اطلع – من بين ما اطلع – على كتاب «الرحلات الحديثة تقصها على الشباب لور بيرنار» (١٨٤٤)، وكتب ج برونو الشهيرة – وهو الاسم الذي كانت السيدة الفريد فوييه Alfred Fouillée تستخدمه في الكتابة - مثل «فرانسينيه» Francinet (١٨٦٩) «وسباق فرنسا من خلال طفلين» (١٨٧٧).(*) أما عن الصفحات المكتوبة عن العرب وحضاراتهم، فقد استمدها من سيديو Sédillot.

وهل نحن بحاجة إلى التأكيد على أن أكبر مصادر علم الدين ليس إلا تخليص الإبريز؟ كان علي مبارك ينافس رفاعة ويأخذ مكانه لدى الخديوي، لذلك أراد أن يكتب كتابًا كاسحًا في أدب الرحلات. فهل رأى إذن أفضل من سابقه؟ لقد تأملنا معًا للتوّ وصفه لمارسيليا، وباريس، وملحوظاته عن طباع الفرنسيين، وعن وضع المرأة وعن التسالي والمسرح وكلها صفحات تتحدث عن نفس موضوعات تخليص الإبريز مع الاستفاضة في بعضها أحيانًا دون تعديل في محتواها أو تقديم جديد. ووسط هذه الصفحات غير المباشرة، والتي لا تحمل أية بصمات شخصية والتي تتوه وسط ثقافة مضجرة، فإننا نظل نبحث عن نضارة رحّالنا الأول ونبرته المخلصة التي تملؤها الدهشة. كذلك تظهر ثغرة على درجة من الأهمية، على الرغم من هذه الغزارة في الكتابة، بمجرد أن ننتظر من علم الدين أن يتحدث عن الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٨٤٨، على غرار ما يقدمه لنا تخليص الإبريز عن ثورة ١٨٣٠. إذ كان علي مبارك - الذي يتعاون مع الأسرة الحاكمة - يحذر حتى أن يتحدث عن أحداث ١٧٨٩.

وتباغتنا أيضًا إشارة غير حميدة، وردت على لسان المستشرق الإنجليزي ضد رفاعة، هذا الشيخ الذي ينتمي للزمن البائد والذي وصف نساء باريس دون أن يرتاد مجالسهن وتحدث عن النبيذ دون أن يذوقه (٢١) ! إن فرنسا التي تنتمي لزمن رفاعة تغيرت تمامًا - كما يزعم المستشرق - بفضل التقدم التقني. وفي رأينا أن هذا أدعى كي نلوم علي مبارك على معرفة بفرنسا لم تتخط على الإطلاق حدود معرفة رفاعة بها. وفي هذا يقول لابروبير La Bruyère «يظل الواحد ينهل من الأقدمين ومن المحدثين المهرة، ويعصرهم ويستفيد منهم بأقصى ما تكون الاستفادة، ويكبر من حجم أعمالهم حتى يصبح كاتبًا، ويعتقد أنه يسير بالدفع الذاتي فينقلب عليهم، ويسيء معاملتهم، كما هؤلاء الأطفال الذين اكتنزوا وأصبحوا أقوياء من فرط رضاعتهم لبنًا جيدًا ثم نجدهم يضربون مرضعاتهم» (٢٢).

ومع هذا، يعترف علي مبارك بحدود تجربته الفرنسية فحينما عاد إلى فترة شبابه، أفلتت منه لحظة ندم، حينما تذكر أن إبراهيم باشا أراد لطلاب مدرسة باريس أن يسافروا إلى أوربا بعد إنهاء دراستهم ليتيح لهم فرصة اكتشاف حقيقة ظروف الحياة في هذه الدول، وأوضاعها، وعاداتها (٢٣). ولكن للأسف لم يحقق الله أمنية الباشا الذي وافته المنية في ذلك الحين.

وباختصار، فإن «علم الدين» هو كتاب ضخم، وهو خليط، فلا هو بالرواية ولا هو بأدب رحلات، وإنما هو تجميع شائق - رغم كل شيء لما قدمه من موضوعات عن الثقافة في مصر. ففي فصوله المكتظة والمتشابكة، تختمر مفاهيم بداية شديدة التنوع تنهمر دون نظام بفعل تلاقي الماضي والمستقبل، والشرق والحضارة الغربية. وهي خاصية من خصائص عصر النهضة، لا تبعد كثيرًا عن الغزارة التعليمية مثل رابليه Rabelais، والذي كان يسعى إلى التعليم متذرعًا بالقص، والذي تذكرنا أعماله بفذلكة حكايات القرون الوسطى. ولكن فن علي مبارك لم يسيطر على المادة التي قدمها. فهذا العمل عسير الهضم، وتلك المسودة الهائلة، ستظل شاهدًا ملموسًا على الفوضى التي غلفت عقلية أصبحت موسوعية، والتي أخذ فضولها المتنامي ذلك النضج الذي من شأنه مساعدتها على تبني أطر حديثة[٢٤].

واليوم، يعد «علم الدين» كتابًا عسير القراءة، إذ يغرق - عن طيب خاطر - الأحداث والشخصيات، بل وصورة فرنسا نفسها في فيض من الموضوعات العامة التافهة، وفي أسلوب مستفيض شديد الإطناب، صحيح أنه لم يلق رواج كتاب تخليص الإبريز، ولكنه مع هذا يعد علامة على مرحلة انتقالية في حياة الأدب المصري الناشئ، والتي بدأت في القرن التاسع عشر بكتاب في أدب الرحلات والتي حاولت أن تشهد طريقًا نحو الرواية، متخذة أيضًا فرنسا خلفية لها، ونستطيع أن نعتبره خطوة على طريق ميلاد أول تحفة روائية كان لقلم محمد المويلحي الفضل في كتاباتها، وسوف نلتقي به في باريس عام ١٩٠٠.

****

هوامش

(١) في أحد تقارير المدرسة التطبيقية للمدفعية والسلاح الهندسي والذي يرجع إلى ٢٠ أكتوبر ١٨٤٧ ويحيط علمًا بعمل الطلاب المصريين المقبولين للدراسة في هذه المدرسة وبسلوكهم، ونقرأ أمام أسماء حمّاد وعلي إبراهيم «سلوك جيد جدًا» بينما نجد أمام اسم علي مبارك «سلوك جيد» بعد ستة أيام حبس، وهو نص أعاد نشره عزت عبد الكريم في: تاريخ التعليم في عصر محمد علي ـ الملحق ـ اللوح رقم ٧.

(2) K. Vollers, Enc. de L'Islam, 1er éd. I, 298.

(٣) بعد افتتاحه في يوليو عام ١٨٧١، أصبح اسم مدرج درب الجماميز «دار العلوم»، وهو الاسم الذي سميت به في العام التالي مدرسة المعلمين الجديدة.

(4) Journal officiel égyptien, 23 Muharram 1298 h. (13 avril 1871) et 7 déc. 1880.

(5) Ministère de l'Instruction publique: Rapport officiel. Le Caire , Bulaq, 1880. P. 22 de L'édition française.

(٦) تاريخ الهندسة ـ القاهرة ـ ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢).

(٧) تنوير الأجهام في تغذي الأجسام. القاهرة، ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢).

(٨) الميزان في الأقيسة والأوزان ـ القاهرة، ١٣٠٩ هـ (١٨٦٨).

(٩) تخليص الإبريز، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(١٠) كتاب طريق الهجاء، والتمرين على القراءة، القاهرة، ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م).

(11) Sédillot: Histoire générale des Arabes, leur empire leur civilisation, leurs écoles philosophiques, scientifiques et litteraires, Ière édition, Paris, Hachette, 1877, 2 vol.

وقد نشرت ترجمته المختصرة إلى العربية في القاهرة عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١).

(١٢) مكون من عشرين جزءًا ويقع في خمسة مجلدات. القاهرة ـ ١٣٠٦هـ (١٨٨٩).

(١٣) علاوة على «يومي الحبس لتركه موقعه قبل الساعة المحددة» فإن التقرير المذكور يوضح أيضا أنه عوقب «بأربعة أيام حبس لقراءته روايات في القاعات».

(١٤) علم الدين، الجزء الأول ص ٦.

(١٥) لسان العرب هو قاموس ابن منظور الشهير، ٦٣٠ ـ ٧١١هـ (= ١٢٣٢ ـ ١٣١١). انظر طبعة بولاق ١٢٩٩ ـ ١٣٠٨هـ (= ١٨٨١ ـ ١٨٩٠) مجلد ٢، وعن سيرته الذاتية: انظر:

Brockelmann: Geschichte der arabischen Literatur, II, 21.

(*) نقود مصنوعة من الصدف كانت رائجة في الهند وأفريقيا السوداء (المترجمة).

(١٦) الجزء الثالث ص ٨١٢.

(١٧) الجزء الثالث ص ٩٦١ ـ ٩٦٢.

(١٨) الجزء الثالث صـ ١٠٣٦ ـ ١٠٣٧.

(١٩) عبد الكريم: تاريخ التعليم في مصر، الجزء الثاني، ص ٧٣٩.

(*) Les voyages modernes racontés à La Jeunesse. Par Mme Laure Bernard - G Bruno.. Francinet. Le Tour de France par deux enfants.

(20) Marie - Thérèse Latzarus: La littérature enfantine en France dans La seconde moitié du XIXe - Paris, Presses universitaires, 1924.

Paul Hazard: Les livres, les enfants et les hommes, Paris. Flammarion, 1932.

Victor Toursch: L'enfant français à la fin du XIX siècle d'après ses principaux romanciers. Paris, Presses modernes, 1939.

(٢١) الفصل الخامس ص ١٣٣٤.

(22) Les caractères, chap. 1. n. 15.

(٢٣) الخطط ص ٤٩.

(٢٤) انظر دراسة :

Maurice de Gandillac: Encyclopédies pré-médiévales et médiévales. La Pensée encyclopédique au moyen âge, Neuchâtel, La Baconnière, 1966. (Unesco, Commission internationale pour une histoire du développement scientifique et culturel de l'humanité).

****

الفصل الخامس

البعثات التعليمية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بعد حل المدرسة العسكرية المصرية في عام ١٨٤٩، بقي بعض المبعوثين في باريس لاستكمال دراساتهم في الطب والصيدلة والقانون. أما عباس باشا الذي نعلم تخوفه من تعليم الشعب، فلم يرسل إلى فرنسا إلا ثلاثة طلاب في عام ١٨٥٠، بناء على اقتراح من علي مبارك، لدراسة علم الفلك. وبرز في هذا المجال بأبحاث علمية مهمة بالفعل كل من إسماعيل الفلكي «وهو فلكي عن حق» كما يقول أستاذه لوفيرييه Leverrier، مدير مرصد باريس، ومحمد الفلكي الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للتعليم العام. عهد بإدارة البعثة إلى جول لوميرسييه Jules Lemercier الذي كان سكرتيرًا لجومار، ثم محاسبًا في المدرسة العسكرية.

ونحو عام ١٨٥٥، أرسل سعيد باشا نحو عشرين تلميذًا شابًا ليتعلموا في فرنسا ما شاءت لهم أسرهم، هكذا بدون تحديد واضح للمعالم. لم يكن الدافع سياسة عليا، مخططًا لها للتعليم في مصر، ولا كانت هناك حاجة محددة تريد الإدارة أن تملأ فراغها من خلال الكفاءات اللازمة، وإنما كان الأمر مجرد «نوبة كرم» دفعت معاليه إلى منح بعض من عطايا الدولة إلى أكثر المحابين المحيطين به، بغض النظر عن جنسية المبعوثين الذين تم تفضيل اختيار عدد من غير المصريين من بينهم. فنجد مثلا فيجاري Figgary وسوماريبا Sumarippa، ويازيس، Yaxis، وحتى مارجوزوف Margosoff، وهيرمانوفيتش Hermanovich. لم يكن هذا - في الواقع - يتم إلا عن إفراط اللطف بدت واضحة أيضا في عهد محمد علي (١).

وبما أن الانضباط لم يكن من خصال هؤلاء الطلاب المفضلين، فقد شُكلت لجنة للدراسات والمراقبة عام ١٨٥٧، برئاسة جومار، وباختيار كل من برتيليمي سان إيلان Barthélemy - Saint - Hilaire نائبًا له، وإيفون فيلارسو Yvon Villarceaux، وباربيه Barbet ولومارسييه Lemercier أعضاء (٢). كانت هذه اللجنة تجتمع بشكل شهري للاستماع إلى تقرير المفتش المكلف بمراقبة سلوك الطلاب. واتخاذ إجراءات تكفل النظام، وتحديد الجزاءات، واختيار المدرسين.

وفي عام ١٨٦٢، وصلت إلى فرنسا بعثة جديدة مكونة من ١٤ تلميذًا للتخصص في الطب والصيدلة. وبعد وصول إسماعيل إلى الحكم (٣)، نقلت في العام التالي بعثة أخرى أقل عددًا إلى باريس من ميونخ حيث أرسلت في البداية. وحتى عام ١٨٦٨ يمكننا حصر حوالي عشرين طالبًا جديدًا تم إرسالهم في بعثات إلى فرنسا. أقام الأصغر عمرًا من بينهم لدى مختلف المعلمين إقامة داخلية، بينما أقام الآخرون بشكل حر بالقرب من مدارسهم.

توفي جومار عام ١٨٦٢ قبل تسلم وسام المجد الذي ناله (٤). وبعد أن أصبح بارتليمي سان إيلار رئيسًا للجنة قدم إلى الحكومة الفرنسية في عام ١٨٦٣ مشروعًا لإقامة مدرسة جديدة في ڤرساي تتسع لنحو مائة طالب (٥). فقط بعد ست سنوات وفي النصف الثاني من عام ١٨٦٩، عهد إلى ميرشير Mircher بك مدير المدارس العسكرية بالقاهرة عملية إعادة تنظيم البعثة في باريس. وقد وقع اختياره على منشأة خاصة كائنة في (٩٧) طريق سان ميشيل لتكون مقرًا يستقبل فيه - تحت قيادته - فئتين من الطلاب: فئة المبتدئين الذين كان عليهم متابعة برامج التعليم الثانوي الفرنسي بالكامل، وفئة الطلاب الذين كانوا يرتادون الكليات أو المدارس العليا، وتواجدهم في هذه الإقامة الداخلية كان سيتيح لهم أساتذة متخصصين لمساعدتهم (٦). وقد رافق الشباب الثلاثين الذين أرسلوا في العام نفسه إلى باريس أحد مدرسي اللغة العربية وهو الشيخ علي نايل. وبلغ عدد الطلاب

المصريين المقيمين بالسان ميشيل ستين طالبًا. ومع الأسف، فإن حرب ١٨٧٠ التي استدعت تحت لوائها ضباط المدرسة وضعت حداً باكرًا لوجود تلك المنشأة. وفي شهر سبتمبر أعاد المفتش ماتونيه Mattenet الطلاب إلى مصر. وقد كان هناك تفكير في نقل المدرسة إلى بروكسل، ولكن هذا المشروع لم يتم بدوره (٧).

وبعد انتهاء الحرب، عاد ستة وعشرون طالبًا متخصصًا في القانون والطب إلى فرنسا(٨). تركز الأوائل ممن سافروا في منطقة آكس Aix ثم أقام من جاءوا بعدهم في مونبلييه ونظرًا لإقامة المحاسب السابق لومارسييه Lemercier ـ الذي كان أساسًا غير مؤهلٍ لإدارة الدراسات العليا ـ في باريس، وبحكم كبر سنه وتساهله، فإنه لم يمارس على هؤلاء الطلاب سوى إشراف وهمي. وبعد وفاته في عام ١٨٧٥ عهد بإعادة تنظيم البعثة إلى شارل ميميه Charles Mismer(٩)، وهو من ألزاس Alsace، وهو محارب سابق في معارك كريميه Crimée والمكسيك، وصحفي مناصر للأتراك، ومراسل للخديوي إسماعيل وصديق حميم له. وقد أعاد بنشاط النظام للبعثة بالفعل (١٠)، وجاءت النتائج مرضية. يقول : «في خلال عشر سنين، لم يتعرض لجزاء الإعادة إلى الوطن سوى ثمانية طلاب فقط، وكان من بينهم ابن وزير التعليم العام (...). وتوفي طالب واحد. وفي الفترة نفسها استقبلت مصر ستة وثمانين طالبًا حاصلاً على الدبلوم: بعضهم مهندسون تخرجوا في مدرسة الطرق والكباري، وفي المدرسة المركزية، وطلاب حاصلون على درجة الدكتوراه في العلوم والطب والحقوق، من بينهم سبعة عشر طالبًا حصلوا على المراكز الأولى في كلياتهم، إلى جانب بعض المتخصصين في الميكانيكا ممن تلقوا تعليمهم في مدرسة الفنون والصنائع، وبعض البيطريين، وغيرهم (١١)».

في عام ١٨٧٣، ومن مجموعة خمسين مصريًا كانوا يتابعون دراستهم في أوربا، كان أربعة وعشرون طالبًا من بينهم يعيشون في فرنسا، وفي عام ١٨٨٢، وعشية الاحتلال

الإنجليزي، ارتفع هذا العدد إلى ثمانية وثلاثين طالبا (١٢). لم يكن الاحتلال البريطاني ـ بطبيعة الحال ـ مؤيدًا لتنمية تعليم يتم تلقيه في صفوف المدارس والجامعات في فرنسا(١٣)، ولجأ ميميه Mismer إلى فريسينيه Freycinet الذي كان وزيرًا للخارجية في ذلك الوقت لمنع تحويل ما تبقى من التأثير الفرنسي في القاهرة إلى الخارج (١٤). وأضاف انه قد عهد إلى فريسينيه على اثرها بـ «بعض بقايا بعثة القاهرة التي تضاءلت أكثر مع الزمن».

هذه «البقايا» تناقصت في عام ١٨٨٥ ليصل عددها إلى ثمانية عشر طالبًا في الحقوق والطب، موزعة على باريس ومونبلييه، حينما أجرت الحكومة تجربة متواضعة (١٥). فقد تم إرسال سبعة صبية تتراوح أعمارهم ما بين ١٠ إلى١٢ عامًا، تخرجوا من الفصول الإبتدائية، إلى مدرسة فرساي الثانوية، ولما كانوا صغارًا وطيعين فقد تلقوا التعليم نفسه الذي يتلقاه رفاقهم الفرنسيون. وكان الشيخ أحمد عمران خريج الأزهر ودار العلوم هو من يعلمهم اللغة العربية والقرآن. وكان هو نفسه يستكمل دراساته مع زميله خليل رياض في مدرسة المعلمين بفرساي. وقد الحق شيخ ثالث ـ هو إسماعيل حسنين ـ بسان كلو Saint - Cloud.

هذه البشائر السعيدة للتجربة شجعت الحكومة عام ١٨٨٨ على إرسال اربعة صبية آخرين إلى مدرسة ميلون Melun الإعدادية برفقة الشيخ محمد شريف سليم. وكان مدير البعثة موجل Maugel بك يقوم كل خمسة عشر يومًا باصطحاب هؤلاء الطلاب للتنزه في باريس او في الضواحي.

أما طلاب فرساي السبعة الذين أمضوا عام ١٨٨٦ صيفًا رائعًا في دييب Dieppe، فقد عبروا المانش في العام التالي. فبعد إقامة قصيرة في لندن حيث زاروا أهم الآثار، ذهبوا إلى بريتون Brighton حيث كان جدول أعمالهم موزعًا بين دراسة اللغة الإنجليزية، والعربية والألعاب على الشاطئ.

هذا الانجذاب للضفاف البريطانية بدأ يتضح أكثر فأكثر. فقد بدأ المبعوثون يتوافدون على إنجلترا ليس فقط من أجل تعلم التلغراف في دربي Derby، أو بناء المكينات في برمنجهام Birmingham وإنما لتعلم الحقوق أيضًا في كمبردج Cambridge. ومع هذا فإن نهاية القرن التي شهدت انخفاض عدد الطلاب في فرنسا إلى نحو عشرة مبعوثين من الحكومة (١٦)، تتميز بشكل خاص بالعدد المتزايد من الطلاب الذين سافروا على نفقة أسرهم لتلقي العلم في المدارس والجامعات الفرنسية.

وخلال العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر، حملت لنا البعثة كتابًا جديدًا في أدب الرحلات . ومع هذا فإن نص محمد شريف سليم - الذي بقي جزء منه مخطوطًا - لا يصل إلى أهمية تخليص الإبريز، ولا حتى علم الدين فهو وإن تكوّن من سبع ملازم إلا أنه كان يمكن أن يمتد بصورة أوسع، لا سيما أنه كان منذ الملزمة الأولى تأليفا جماعياً للطلاب المصريين الموجودين في ميلان Melun. والعمل عبارة عن مجلة أدبية حقيقية أعدت للطلبة وصدرت بمعاونتهم.

والمؤلف، خريج الأزهر ودار العلوم - التي سيصبح مديرًا لها في أواخر حياته المهنية - يحكي لنا في «المقدمة» بعد مدح الله والثناء على الرسول والخديوي توفيق، عن سعادته بتكليفه عام ١٨٨٨ باللحاق بالطلاب الشبان في فرنسا ليدّرس لهم اللغة العربية، وليكون مرشدهم الأخلاقي، مع دراسة المناهج التربوية المعمول بها في المدارس الفرنسية. وبرفقة صديقه حسن توفيق الذي سافر باعتباره مدرسًا للغة العربية للحلقة البحثية الخاصة باللغات الشرقية في برلين، والذي سيكون سفره إلى ألمانيا وسويسرا موضوع كتاب شائق في أدب الرحلات (١٧)، استقبله عشية سفره وكيل وزارة التعليم العام، يعقوب أرتين باشا، وجعلهم يتأملون بإعجاب نموذج رفاعة(١٨).

ويعبر سليم عن تأثره بابتعاده عن وطنه من خلال موال شعبي رائع. أما حكاية الرحلة التي تبدأ ببعض صفحات علمية عن الإسكندرية، ومعها صورة لمجرد خريطة لها، فهي تقدم بعد هذا عرضًا لمحادثة نصفها عربي ونصفها فرنسي بدأها على متن السفينة

بوردونيه Bourdonnais، مع طبيب بالبحرية الفرنسية، كان موضوعها مصر، والعرب، والأنبياء، والفلك.

وبعد وصوله إلى مارسيليا، لاحظ المؤلف وجود الترام، والإضاءة الكهربائية التي تنير الشوارع النظيفة والطرق الأنيقة، وكما لاحظ راحة الفندق والاستخدام البديع للمصعد ثم يعطينا عرضًا مطولاً لتاريخ هذا الميناء الكبير، ويمدنا بخريطة عامة للمدينة.

سافر سليم من القاهرة في ٢٩ مارس عام ١٨٨٨، واستقل من مارسيليا القطار إلى باريس في الثامن من إبريل ووصل إلى ميلون Melun في الثالث عشر من إبريل ولكنه يعد نفسه بالعودة إلى العاصمة كلما تيسر.

وفي الملزمة الثالثة نجد المحاور الثلاثة التي ينتظم حولها العمل وهي : ١ ـ «الصفحات التي يستخدم فيها أسلوبًا مفخمًا ويحكي فيها عن الطقس»، ٢ ـ الأهمية العلمية»، ٣ ـ «الحكايات والطرائف الأدبية». ويستلهم المحور الأول إقامته في فرنسا، ويعرض الثاني لأفكار تربوية، أما الثالث ـ وهو مكتوب في أغلب الأحيان بقلم الطلاب ـ فقد نشر فيه بشكل خاص خرافات لافونتين La Fontaine مترجمة نثرًا أحيانًا أو شعرًا أحيانًا أخرى إضافة إلى سير قصيرة عن كبار رجال العصور الوسطى.

وإذا كان المحور الثاني والثالث يمدنا بمعلومات عن الأنشطة المدرسية الخاصة بالمعلم وبطلابه، فالمحور الأول هو الذي نصحب فيه المسافر في رحلته. وعلى الرغم من رغبته في التردد على فرنسيين والتعامل معهم ليصف لنا عاداتهم، فإنه ينقاد لاهتماماته التعليمية ويكتب خطبة مطولة عن التربية القومية طبقًا لمشاهير الفلاسفة اليونانيين، وعن الخصال العربية الجديرة بالإعجاب. ولايكاد يحكي إلا لمامًا عن تربية الطفل الفرنسي، الذي يعهد به أولا إلى مربية، ثم ينشأ وسط العائلة ويبدي فضولاً حميدًا حينما يبدأ الذهاب إلى المدرسة، حيث يستفيد من التربية البدنية وينمي دائمًا معارفه العامة (١٩).

ولكننا في العدد التالي، نقرأ مقالاً حول «الحرية» والمساواة، والإخاء ونتائجها في فرنسا»، بمناسبة مرور الرئيس كارنو Carnot على ميليون وعن فخامة الموكب والحفاوة التي تبديها الجماهير إلى من يعد رمزًا للدولة، ويستخلص سليم درسًا جيدًا في الوطنية. وتعد أكثر خصوصية تلك القصيدة الموجودة بالملزمة الخامسة، والتي ظلت مخطوطة(٢٠)، وفيها يحتفي بالمعرض العالمي الذي أقيم عام ١٨٨٩، ويقر الكاتب بقوة أوربا ويذكّر بتفوق العرب في الماضي، ويتغنى بحب التقدم في مصر الناهضة. ومع هذا، يبقى وصفه لمصر من خلال وصف مقهى أو من خلال وصف الحمّارين والمهرجين والعوالم فيه تشويه لها وفيه إجحاف بأصحاب الشأن فيها. ويمتد وصف مختلف أقسام المعرض نثرًا في الملزمة السادسة. ويستمد الإحصاءات والأرقام التي يقدمها في هذا الصدد من مراجع موثقة. أما الملزمة السابعة ففيها عودة إلى موضوع الحرية في فرنسا، كما تحكي عن الثورة الفرنسية.

هذا الكتاب الذي لم يستكمل شأنه في هذا شأن «علم الدين» يضم - على غرار كتاب رفاعة وعلي مبارك - حصادًا مدرسيًا كاملا. وهذه خاصية مضجرة نجدها في النصوص التي كتبها أعضاء البعثة.

وعلى الرغم من زيادة عدد أفراد البعثة في حد ذاتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أنها تبدو لنا أقل أهمية عن ذي قبل فكل هؤلاء الرحالة الرسميين - دون الحديث عن غير المصريين منهم، ولا عن صغار السن أكثر من اللازم - لا يأتوننا بأي جديد. فلقاؤهم بفرنسا لم يعد بطزاجة زمن رفاعة، ذلك أنهم بلغوها بعد أن هُيئوا بالفعل لها، وتعلموا إلى حد ما لغتها، وألفوا نوعًا وجوه البلد وعاداتها بفضل أستاذ فرنسي، أو موظف، أو طالب سابق في البعثة، أو بفضل إحدى الكتابات عن باريس، أي أن الأمر لم يعد رحلة لاكتشاف المجهول. ومن ناحية أخرى، كانت مصر بدأت تتزود سريعًا بمنشآت حديثة، قربتها من الحياة الغربية، تمثلت في المدارس، والإدارات، والجرائد، والمصانع،

والسكك الحديدية وغيرها. وأصبحت الرحلة مغامرة أقل خطورة، وخفتت الهالة التي كانت تميزها، وتحولت إلى رحلة سريعة ومريحة.

هي الموضوعات نفسها التي نجدها في هذه الكتابات إلى جانب الانطباعات الأقل قوة وردود الأفعال الأقل تلقائية. ويذكر محمد شريف سليم بشكل أساسي موضوعين هما - فرنسا بؤرة الحرية، وباريس مركز للمعارض - سوف نجدهما على التوالي بقلم صحفيين تم نفيهم وسياح مثقفين، خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.

وكان شريف متأخرًا في كتابته «رحلة مدرسية» عام ١٨٩٠ فالرحالة المصري - الذي كان بعد هنا في طور الطالب - سيكون له شأن فيما بعد من خلال كل ما يجعله متجاوزًا لمرحلة التلمذة العادية، ومن خلال تفرده الواضح الذي سيجعله ينسلخ من الكتلة المجهولة التي تشكل «بعثة» لنجده شاعرًا كما في حالة صبري أو شوقي، ومصلحًا اجتماعياً حينما يكون اسمه قاسم أمين، ومناضلاً سياسياً حينما يكون اسمه مصطفى كامل.

ومع هذا سيتشكل في إطار البعثة التعليمية، العديد من أساتذة الرأي والأدب المرموقين.

****

الهوامش

(١) بالاضافة إلى الأتراك، والشراكسة، والأرمن، كان من بين مبعوثي محمد علي بعض الأوربيين، مثل ابن سليمان باشا، وابن روسين Roussin مدير مدبغة رشيد.

(Arch. du Palais de la République, le Caire: Section turque, reg. XL n. 667, 8 Dhu - 1 - Ra' da 12463 (= 1881).

انظر الفصل السابق.

(2) Merruau: L' Egypte contemporaine, 91.

(3) Arch. du Palais de la République. Le Caire Section européenne, dossier n. 35/ 2, Pièce 22. 351.

(4) Comte J. Boselli: Edme - Français Jomard.

(5) Arch. du Palais de la République, Le Caire: Section européenne, deux ;Lettres de Barthélemy - Saint Hilaire à Shérif Pacha , 17 Juillet 1864 et 10 sept 1864, ars le dossier 35/2.

(٦) السابق:

Mircher à Nubar Pacha , 2o Juillet 1869.

(٧) السابق:

Dossier 35/5, Pièce n 12. 775.

(٨) الوقائع المصرية، ٢٧ رجب ١٢٨٨هـ (١٢ أكتوبر ١٨٧١).

(9) J. Tagher: Charles Mismer, La Rev. du Caire, août 1945.

(10) Mismer: Souvenirs du monde muslman 291.

(١١) السابق، ٢٩٢.

(12) B. Girard: L' Egypte en 1882, 127. et. le Journal officiel égyptien, 10 février 1878.

(13) E. Chesnel: Plaies d' Egypte. Les Anglais dans La vallée du Nil, 141 - 142, fraser Rae; Egypt to - day, 187 - 190.

(14) Souvenir du monde musulman, 301.

(15) Y Arthin: L' Instruction publique en Egypte, 87.V. Le rapport de yacoub Artin, présenté au conseil des ministres en 1885, in Chonski: Cropuis égyptiens, 32 et suiv.

(16) Notovitch: L'Europe et l'Egypte, 50.

في عام ١٨٩٥، وتحت ضغط بريطاني، حاول يعقوب أرتين إلغاء البعثة. وأذاعت الصحافة المصرية نبأ هذا المشروع. حكى هذا:

Henri Pensa : L'Egypte et L'Europe, 63 - 64.

(١٧) حسن توفيق : «رسائل البُشْري في السياحة بألمانيا وسويسرا سنة ١٨٨٩»، والذي أنهاه في برلين عام ١٨٩٠ ونشر في القاهرة - بولاق - ١٣٠٨هـ (١٨٩١) وعن حسن توفيق - انظر:

Salama: L' Enseignement islamique en Egypte, 244 .

وعن بعثته إلى برلين انظر:

Troisième Rapport à S.A. Le khédive sur L'enseignement public en Egypte, Le Caire, Impr. Nationale, 1888, 73 - 74.

(18) M. Sh. Salim: Relation de voyage, I, 17.

(19) Fasc. III, 33 et suiv.

(20) P. 517 du Récit sur la 5, partie du voyage de M. Shérif professeur d'arabe a la mission égyptienne, France, Melun, S - et -O., 1890. Ms. à la B. N du Caire, n 31 Géogaphie.

****

الفصل السادس
النتائـــج

لا حاجة بنا للجوء إلى الإحصاءات لنبرهن على أن البعثات التعليمية المصرية كانت كلها خلال القرن التاسع عشر متجهة إلى فرنسا، دونًا عن الدول الأوربية الأخرى تقريبًا، التي كان يتم السفر إليها بصورة متقطعة وبأعداد محدودة جداً بحثًا عن تقنيات خاصة، وليس بحثًا عن تعليم أساسي شبه كامل.

ومع هذا، فإن عمل محصلة للبعثات التعليمية، ما هو - في حقيقة الأمر - إلا بيان لعملية تنظيم، أوبالأحرى لنظام مختل. فهذه المؤسسة ـ ولاشك ـ ملأت الكوادر المدنية والعسكرية بمصر بالموظفين، وهي نتيجة ضعيفة قياسًا إلى حجم النفقات والتوقعات المشروعة للبلد. وكصدى للرأي العام، جاء إدموند أبوت Edmond About بهذه العبارة على لسان أحمد الفلاح: «إنني أرى زملاء البعثة (...) وقد أصبح أحدهم وزيرًا، أو مهندسًا مسئولاً، أو أميرالايًا، أو محافظًا، وهناك اثنان أو ثلاثة على أقصى تقدير أصبحوا مترجمين بمقابل في فنادق القاهرة والإسكندرية[1] ثم يعلق على كلامه : «وما أهمية هذا؟ طالما تنتج البعثة على أحسن تقدير كل عام نصف دستة من الأشداء مثلك، أعتقد أن الوظائف العامة سيتم شغلها كلها بحلول نهاية القرن [1]». هكذا نجد أن دور البعثة انحسر في الإمداد بالموظفين بل إنها لم تنجح تمامًا في هذا. وقدمت أسباب عديدة لتفسير كل هذه الإخفاقات، فعزا ميمييه Mismer ـ دون وجه حق ـ هذا الفشل للذكاء المصري، رغم أنه كان ليتفاخر بذكر «مخترع» حقيقي من بين طلابه، أو بالاستماع إلى

الفلكي لوفيرييه Leverrier يتحدث عن إسماعيل الفلكي[٢]. أما دور Dor بك مساعد علي مبارك في التعليم العام، فهو يستنكر – ولكن بصورة أقل حدة - أن الشرقيين، حتى بعد أن ألفوا التعرف على الحياة الأوربية وأصبحوا يقدرونها، نجدهم يقعون حتمًا في حبائل التراخي والبلادة المحببة التي يسهم المناخ الحارق في أن ينقاد أبناؤهم إليها [٣]. ولكنه لم يضع في الاعتبار كل الإخفاقات التي كانت تقف بالمرصاد لأفضل هؤلاء الشباب عند عودتهم. وقد أثار بعض المؤلفين مسألة سن هؤلاء الطلاب، حيث كانوا إما كبارًا أكثر مما يجب أو صغارًا أكثر من المقبول [٤]. وآخرون بداية من آمون Hamon وبريس دافين وحتى دور بك استنكروا استخدام الحكومة للمتخصصين استخدامًا عشوائيًا حتى إنها «تستدعي للخدمة في سلاح المدفعية الطلاب الذين تخصصوا في البحرية، وأخذت في الإدارة من تخرجوا من الهندسة العسكرية» كما يقول دور بك. ولم يكن هذا في الحقيقة سوى أحد أعراض داء مستحكم.

وهو داء خلقي بما أنه موجود أساسًا في مفهوم المؤسسة ذاتها وفي عملية تصورها، وفي التوجهات المحددة لاختيار الطلاب والمقلصة للأهداف التي عليهم التطلع إليها. لقد أنشأ محمد علي «البعثة» لسد الاحتياجات العاجلة لجيشه وحكومته. ولم يكن يفكر - كما نتبين من قراءة تقرير وجهه من القاهرة عام ١٨٤٨ الأستاذ بيلسييه Pellissier إلى وزارة التعليم العام بفرنسا - «في تحرير هؤلاء العبيد، وفي الحرية المدنية السياسية، وفي تنمية مبدأ الديمقراطية. كان محمد علي يعتبر مصر إمبراطوريته الخاصة وملكه الخاص. لقد أراد أن يجعل إمبراطوريته الأقوى، وملكه منتجًا إلى أقصى حد ممكن. وكانت وسيلته لبلوغ هذا الهدف هي إنشاء ورعاية منشآت تعليمية غير عامة، وقد تم تطبيق عبارة «غير عامة» بشكل خاطئ، فقد كانت منشآت خاصة، تعمل لفائدتها الخاصة فقط»[٥] وقد أرسل إلى باريس - كما رأينا أتراكًا، وشراكسة وأرمن لتعلم القانون أو القيادة العسكرية، ثم عهد إليهم لاحقًا بأعماله. كان مطمئنًا لوفائهم، ولم يكن مهمًا عمرهم، أو ذكاؤهم، أو

سلوكهم. أما زملاؤهم المصريون وهم أقل عددًا فيحظون بثقة أقل من جانبه، فكان عليهم اكتساب بعض المهن الأقل مرتبة بداية من الطب وحتى الدباغة (٦). وبعد محمد علي، بقيت البعثة من المزايا التي تمنح لأصفياء الباشا، حتى مع كونهم أوروبيين.

فإذا كانت هذه المؤسسة قد اتخذت صورة هيئة تعليمية وحضارية، فكان هذا بفضل جومار. ولكن عناية هذا المدير ومثابرته لم تنجح مع هذا في إعطاء هذه الهيئة روح المواصلة، لأنها كانت تعتمد على مشيئة «ولي النعم». كما أنها لم تكن موجودة بشكل منتظم ولم يكن يميزها اتساق داخلي وهذا ما نراه جليّاً في النموذج الرمزي المتمثل في أحمد الفلاح. يقول الشاب للروائي «الوسطاء يفرضون علينا أحيانًا نزعة ما، وأخرى في أحيان مغايرة حسب الرياح التي تهب على شاطئ النيل: لقد فرضوا عليَّ تباعًا الكيمياء، والميكانيكا - وليغفر لي الله - التحصينات (٧).

لم يكن ثمّة برنامج معد لتعليم الشعب بشكل منهجي منتظم، بل على العكس، ففي ظل نظام عسكري ضيق الأفق، كانت مدارس باشوات مصر تحيل الطالب إلى مجرد أداة خانعة، طائعة، وكانت تنزع بالأحرى إلى أن تدمر فيه أية استقلالية وفردية وحتى في أوربا، بدلا من أن يتحرك الطلاب بحرية وينفتحوا على عالم جديد، ظلوا بلا مبادرة. ويقر دور بك أنهم «أتوا بهم إلى الحدود، وأطعموهم، وأسكنوهم أحيانًا، وراقبوهم دائمًا عن كثب، ولم يتركوا - أو يكادوا - شيئًا تقرره إرادتهم الخاصة» (٨).

وبعد أن نشأ هؤلاء المبعوثون في فرنسا وصل أغلبهم إلى حد «اعتبار هذا الوقت الذي أمضوه في الدراسة مجرد سنوات خدمة» (٩)، ولم يكن لهم من هدف إلا أن تتعهدهم الحكومة عند عودتهم. وأما من حاول منهم الا يخضع لهذا الانصياع الرسمي في مصر فقد كان يجد نفسه منعزلاً، ومهملاً ومستبعدًا يقول ادموند أبوت عن بطله: «لقد اعترف لي أنه ليس نبيّاً في وطنه، وأن المساعدة المعنوية لا تأتيه في أغلب الأحيان (١٠)». ومن جانبه، يشفق جان جاك أمبير Jean Jacque Ampère على من تجعلهم اعتباطية السلطة

يضطرون إلى البطالة والعوز. ومن بين الأمثلة التي يوردها يذكر تلميذًا سابقًا بمدرسة باريس، فبعد أن عاد إلى مصر محملاً بالعلوم الأوربية، اضطر أن يعمل طباخًا ليعيش(١١)، ومع هذا فإنه يخلص إلى أن ما قام به محمد علي هو بالتأكيد عمل غير تام، بل معيب، ولكنه مع هذا لم يكن عقيمًا».

وقد استطعنا أن نتبين بالفعل، وخاصة بين الأفنديات الشرفاء من أبناء الفلاحين(١٢)، أكثر من رجل له شأن. وهم من أوتوا ثمار البذرة الطيبة. وعلى الرغم من أن بطل كتاب ادموند آبوت هو «شخصية غير حقيقية ومتخيلة»(١٣)، إلا أنه يمثل هذه الفئة التي يتميز من بينها ليبرز بصورة أوضح لأعيننا وجه كل من رفاعة وعلي مبارك.

ولكن من يستطيع أن ينكر أن رفاعة كان مبعوث الشيخ حسن العطار، أي بعيدًا عن اختيار محمد علي؟ وبناء على نصيحة الشيخ العطار كتب رفاعة مؤلفه المهم عن رحلته لينقل انطباعاته الخاصة لمواطنيه، بصفته مصريًا. ولو أنه اكتفى بتنفيذ أوامر «ولي النعم» لكان اقتصر على جمع مادة لكتب دراسية في التعدين والتدريبات العسكرية.

كان رفاعة وهو يترجم، في باريس والقاهرة، يتدخل في النص (١٤)، شارحًا الأفكار، ومبديًا رأيه، وكان محمد علي يضيق بهذا، وقد حاول غير مرّة أن يجعل من هذا الكاتب الليبرالي مجرد مترجم طائع. وهناك خطاب غير منشور، محفوظ في الأرشيف التركي بالقاهرة، يدين «هذا السلوك» الذي تبناه رفاعة، ويحظر عليه «خلط الحكايات التي عليه ترجمتها بسلسلة من الأشياء التي يعتقدها هو»، وإلا سيتم إعفاؤه من هذه الأعمال.(١٥).. وبعد حين، كان عليه أن يكفر عن فكره الليبرالي في السودان. وقد سبق أن لاحظنا أن الترجمة التي قدمها للجنة ممتحنيه الباريسية لكتاب «عناصر القانون الطبيعي» لبورلا ماكي Burlamaqui لم تنشر أبدًا. ولعل العرائض التي لم يكل من تقديمها للباشا حتى يتمكن من إنشاء مدارس (١٦)، يكذب على نحو جلي المؤرخين الذين ينسبون لحاشية الحاكم الجاهلة هذا العمل الواعي الذي قام به معلم الشعب هذا. ألم يقم محمد علي ـ من جانبه ـ عام ١٨٤٧ بإلغاء بعثة خمسة طلاب من الأزهر كانوا سيدرسون الحقوق بسبب هواجسه.(١٧)

وكـان يمكن لعلي مـبـارك بدوره – أن يكون له دور مـؤثر على جـيله لو أنه ترفـع عن اشتـهاء المكارم وقاوم بـصـورة أفضـل عدوى سلوك البكوات والباشـوات. وقد كان للمدرسة العسكرية – بلا شك – تأثير سلبي على مواهبه الروائية وحرمت الأدب الناهض من مؤلف كبير. وفي ظل سياق اجتماعي مغاير ـ كان يمكن لشخصيته الطموحة ولموهبته الكتابية أن تنمـو بشكل أصـيل وتجـعله يرتفع إلـى المرتبة التي تؤهـله لهـا مـوهـبتـه ومـسئوليـاته. ولكن زمالته لإسماعيل جعلته يقع في براثن الفساد الخديوي.

ومع هذا، فمن المؤكد أن نهضـة مصـر في القرن التاسع عشر قامت على يد الشعب ـ وضـد رغبـة الحكام في أغلب الأحيان، وبدفعة من بعض أعضـاء البعثـات التعليـمية [١٨] وهناك شـباب آخرون ظلوا في دائرة الظل ولم يسلط عليهم الضـوء مثلما سلط على رفاعة وعلي مبارك، فقد اسـتبعدهم البلاط التركي من الوظائف المهمة، فراحـوا ينشرون أفكارهم وآراءهم النقدية في الأقاليم وحتى قلب الريف، كانوا مقتنعين بتفوقهم قياسًا إلى أسيادهم الجاهلين، فراحوا يبوحون بشكواهم المسـتترة، فأيقظوا بها لدى مواطنيهم الوجلين الوعي بحـقـوق الإنسان الضـائعـة تمامًا في الشـرق – وقد رأى فـيـهم جـون نينت john Ninet صـديق عـرابي الشـجـاع – وهو من جنيف – أنهم منذ حكم مـحـمـد علي بالـفـعل، كـانوا أنصارًا للحرية، وأصل الحركة القومية التي تابع تطورها [١٩].

ولم تدخر الأسرة الحاكمة وسعًا – من جانبها – لاستغلال المؤسسة للترويج لنفسـها فنظرًا لعدم إمكانية وجود تمثيل دبلوماسي لها في أوربا، كانت تقوم بحشد المدراء المتتالين للمدرسة المصرية لخدمة مصالحها السياسية. فكان جومار بالتعاون مع أجوب يغذي الصـحـف الفرنسـية بمقالات مدح في الحكومـة المصـرية، بل كـان يحرص أيضًا على أن تصل الأصـداء مـدوية إلى الصـحـف الأجنبـية. كـذلك فـإن كلوت بك الذي قـاد طلبـتـه عـام ١٨٣٢، كان المتحدث باسم محمد علي لدى لويس فيليب . وفي عام ١٨٥١، كان ثمة مكتب إعلامي مكون من لومارسييه Lemercier وجول دافينسك دي جواني Jules Rafinesque

de Joigny (صهر ستيفان بك)، والفيكونت دي سان برييه Saint - Priest قد أنشئ ليكفل من خلال بعض التضحيات المالية، إدراج سلسلة من المقالات في الجرائد تهدف إلى تكذيب هجوم جاك دي فالسير Jacques de Valserre مفتش البعثة التعليمية لعام ١٨٤٩، الذي أصابته خيبة أمل قاسية بعد تسريحه دون منحه أي تعويض(٢٠). وكانت هناك محاولات للرد آنذاك من خلال بعض الجرائد مثل لاديموكراسي باسيفيك La, Démocra-tie Pacifique ومن خلال الأوراق الملكية التي كانت تصل إلى جوانيي Joigny، وفي الكونستيتو سيونيل Constitutionnel، ولوجورنال دي ديباه Le Jaurnal;des délats، ولابريس La Presse، بفضل المعاونين الآخرين وبعد لومارسيه Lemercier عهد إسماعيل باشا بإدارة البعثة إلى مراسله الوفي شارل ميميه Charles Mismer، ولم يكن الخديوي في ذلك الحين يريد أن ينشر في أوربا سوى معلومات رسمية. وما كان منه إلا أن أعاد الطالب عبد الله صادق - صديق ادموند آبوت - إلى الوطن، بزعم منعه من أن ينهل من مصادر غير مؤكدة على هذا النحو. مع إصدار أوامره لرئيس وزرائه نوبار باشا بتزويد الروائي بمراجع ملائمة(٢١).

وقد رأى الطلاب دورهم - باعتبارهم ممثلين لمصر - ينحصر في هذه الحدود. كانوا يجمعون، وتتم مراقبتهم بشكل صارم نوعًا ما، وكان ممنوعًا عليهم بث معلومات تسيء إلى الأسرة الحاكمة. وكان يمكن لمجرد وجودهم أن يعكس الملامح المصرية لولا أنهم كانوا في أغلب الأحيان من العثمانيين. ولم يخطئ الفرنسيون على الإطلاق - وقت تحمسهم لليونان الحديثة - حينما كانوا يحسبونهم من الأتراك. في بعض الأحيان، حينما كانت الظروف تضع مصر في صدارة الأحداث السياسية الجارية، كان يرد ذكر هؤلاء الطلاب الشبان. وحينما أتى إبراهيم باشا إلى باريس كان يراعي دائمًا استعراض موكب مشرف. وفي عام ١٨٦٧، تم تجميع طلاب البعثة الاثنين والخمسين في المحطة للهتاف لإسماعيل باشا(٢٢). ولكن إذا كان الطلاب افتقدوا الاستقلالية، وإذا لم يكن بإمكانهم الكشف عن الوجه الحقيقي للبلد والنظام دون أن يطالهم عقاب، فإن الصحفيين المبعدين لم يلبثوا أن قاموا بهذا الواجب.

كان هؤلاء الطلاب مبتدئين على درب المعرفة قليلي الخبرة لكي يتمكنوا من التعبير عن انفسهم، وقد أمضوا فترة إقامة قصيرة على هامش المجتمع الفرنسي في ظل نظام لم يكن يضع أي اعتبار لتفتحهم الشخصي، فأي أثر ـ إذن ـ كان من شأنهم أن يتركوه في فرنسا؟ لا شيء سوى بالكاد موضوع لرواية متوسطة المستوى في أدب الإمبراطورية الثانية، استلهمها – على كلٍّ – ادمون أبوت من مبلغ ٢٥ ألف فرنك منحه إياه الخديوي(٢٣) ومن ناحية أخرى، ودون الخروج عن الإطار الرسمي، فقد اسهموا بقدر ما في تعليم اللغة العربية بعد مهاجري عام ١٨٠١ الذين أسسوا كراسي العامية العربية في جامعات مارسيليا، وباريس، والجزائر. ونعرف أن المستشرق الألماني فلايشر Fleischer، كان يتردد على طلاب البعثة الأولى (٢٤) أثناء متابعته دروس سلفستر دي ساسي S.de Sacy. وما بين عامي ١٨٧٧و١٩٠٢ تتابع شيوخ من دار العلوم على التدريس في مدرسة اللغات الشرقية (٢٥). ومع هذا فلا مجال لمقارنة أشخاص مثل أحمد عمران، وعبد الرحيم أحمد ـ الذي أصبح بعدها مديرًا لدار العلوم ـ وزميله محمد شريف سليم، بواحد مثل إلياس بقطر.

أما الذي أخذوه معهم، فقد تم تلخيصه في هذه المزحة: «أغلب (الطلاب) لم يتعلموا في باريس سوى أشياء ثلاثة: التحدث بالفرنسية بشكل جيد نوعًا، وشرب النبيذ، والضحك من محمد» (٢٦). كانت باريس ـ ولا شك ـ بالنسبة لهؤلاء الشباب مرقبًا خطرًا، وطبقًا لرجل قضاء أوروبي كان يندد في مصر بهذا الاتصال الضار بأوربا، يقول «إن فساد العادات الحديثة، وإيثار الملذات الحسية، والمتع التافهة، والبريق الزائف، والمظاهر الفارغة، والرفاهية السفيهة التي لاحدود لها، كلها مظاهر لا نجدها بهذا الوضوح إلا في باريس»(٢٧). فيها فسدت الأرستقراطية المستهترة التي كان يرعاها الباشا. لم يشعر آبوت About بالغربة في القاهرة في مجتمع أحباء الحياة وملذاتها هؤلاء «الرفقاء الفرحون» الذين كانوا يدندنون ألحان أوفنباخ Offenback، ويعلقون على آخر كاريكاتير لشام Cham، ويناقشون عن معرفة مزايا الخيل والآنسات اللاتي يسايرن أحدث صيحات

الموضة (٢٨). ولكن رفاعة، وعلي مبارك، وشريف سليم - الذين يمثلون مراحل البعثات المدرسية الثلاث لم يُعْمِهم بريق هذه الباريس العابثة. فعلاوة على الشوارع الجميلة والمحلات الرائعة، والمقاهي المضيئة، والمطاعم، والمسارح، والحفلات الراقصة، والنساء الأنيقات الودودات، مكشوفات الوجه، تأملوا أيضًا بانتباه مختلف مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية. وأحسوا أنهم متعلقون بشدة أكثر بوطنهم الأم الذي أرادوا له الرفعة بمجرد أن بدا لهم عالم أفضل (٢٩).

كان هؤلاء الرجال يعتبرون فرنسا مدرسة الحضارة، وإقامتهم في باريس تأهيلاً وتعلمًا. وبمجرد عودتهم إلى بلدهم شكلوا همزة الوصل بين مصر وأوروبا - التي كانت تتماهى تمامًا مع أوربا، كانوا - من ناحية - يستقبلون ويمدون المسافرين الفرنسيين بالمعلومات، فكل من جان جاك أمبيرJean Jacques Ampère (٣٠)، وشارل ديدييه Charles Didier (٣١) وباتون Paton (٣٢) والصحفي لوي دولاتر(٣٢) Louis Delatre نزلوا ضيوفًا على رفاعة، كما أن جون نينيه John Ninet(٣٣) القادم من جنيف، والذي كان يزرع القطن في المنصورة، اتخذ منذ عام ١٨٣٩ مترجمًا ومساعدًا له الفلاح الشاب محمد أفندي الطالب السابق في باريس(٣٤). وقد فرغ فلوبير Flaubert نفسه من جزء من عمله ورماه على عاتق خليل أفندي الذي كان يعلم ماكسيم دي كان اللغة العربية، ويشرح لكليهما عادات البلد (٣٥)، وقد استقبل علي مبارك أبوت About في الإسماعيلية واستقبله شافعي في دمياط (٣٦)، كما استقبل المهندس حسن أفندي بارتليمي سان إيلار Barthélemy - Saint - Hilaire في الاسكندرية(٣٧). ومن ناحية أخرى تمثل دورهم الأكبر في السعي إلى أن يصل إلى ضفاف النيل كل ما تعلموه من المؤسسات ومن الأفكار الحديثة(٣٨). فبدأوا بالتعاون مع خبراء فرنسيين يعملون في خدمة الباشا، وخاصة مع السان سيمونيان (٣٩)، في مجال التعليم، والزراعة وفي الأشغال العامة، قبل أن يتم استبدالهم والاستعانة بالعمالة المصرية تمامًا. أما أوجست كونت Auguste Comte الذي

درب ثلاثة خبراء في الرياضة، فقد أهدى نسخة من كتابه خطاب عن مجموع الوضعية Discours sur L'ensemble du Positivisme إلى تلميذه السابق «مصطفى محرمجي»(٤٠). وكتب إلى جون ستيوارت ميل John Stuart Mill عام ١٨٤٣ بخصوص مظهر أفندي:«لقد جعلني أشعر برضى جميل حينما بين لي أن جهودي الجادة من أجل الارتقاء بالمستوى الفكري لهؤلاء الشبان آتت بالفعل ثمارها، وأن باستطاعتي أن أعوّل على بعض العلاقات الفردية الجيدة مع طليعة الشرق الممثلة فيهم (٤١).

لم تكن مهمتهم سهلة، كان عليهم محاربة عقلية عنيدة ما زالت تنتمي للقرون الوسطى، كان على رفاعة بدء النضال. وقد كتب لوي دولاتر Louis Delatre عام ١٨٥٨ يقول : «لو أن مصر كان لديها خمسة أو ستة رجال مثل رفاعة بك لكنا كسبنا قضية التحضر. ولكن رفاعه وحده، وزملاؤه من علماء الأزهر يبغضونه، ولن يحل أحد محله» (٤٢). ولكن كلا، فالأفكار التي بذرها ستؤتي ثمارها، وكثير من طلابه سيتكفلون باستكمال عمله.

لقد طرحت القضايا الكبرى، في البداية كان هناك لحظة وعي، وشعور بالنقص إزاء أوربا القوية، وفي المقابل، قناعة بتبوّء الصدارة في التاريخ، ولعل هذه العبارة التي جاءت على لسان أحمد الفلاح لإدمون أبوت تلخص صفحات كثيرة أملتها الرحلة على رفاعة ومن أتوا بعده. يقول: «لقد أنشأ آباؤنا من كل شيء حضارة تامة وقتما كان كل شيء موحشًا وبربريًا في بلادكم»(٤٣). وقد وجد التطلع إلى الحرية والعدالة تعبيره الأصدق في ذلك الإعجاب بالديمقراطية الفرنسية، وبترجمته الدستور الفرنسي وبتعليقه عليه وبتوضيحه أبعاد ثورة يوليو، فإن رفاعة بشر بصراخ الصحفيين المبعدين، وبخطابات مصطفى كامل الوطنية أمام الرأي العام الأوربي(٤٤). وفي الوقت نفسه نما احتياج لتطهير المجتمع المصري، وللتخلص من أخلاق التدهور التركي كما تنامى فكر يهدف إلى تحرير المرأة وتعليمها. لقد كان رفاعة هو المبشر بقاسم أمين الذي سيدرس بدوره في فرنسا. وقد شغلت المرأة الفرنسية مكانة مهمة في جميع كتب الرحلات. وجسدت زينب شقيقة

احمد الفلاح كما يصفها هو، هذه النزعة الجديدة «هي تجيد الفرنسية، علمتها إياها بنفسي. كما تجيد العزف طبقا للموضة الرائجة في فرنسا. وهي متعلمة، ولها حضور وشخصية أي أن لديها باختصار كل ما يجعل الرجل الشريف يلتزم بالزواج من امرأة واحدة، هذا المبدأ الذي سيكون فيه خلاص الشرق(٤٥).

أما بالنسبة للنثر والشعر، فقد بدأ إحياؤهما من جديد بفضل الاتصال باللغة الفرنسية وآدابها. وقد ظهرت الأشكال الجديدة في تخليص الإبريز. وجرب علي مبارك نفسه في مجال الرواية. وبدأ اكتشاف المسرح. ومع هذا، لا بد من انتظار رحلة شوقي لنشهد بروز شعر أكثر ثراء، وانطلاقة المسرح المصري.

وباختصار، فإن لدينا هنا المنابع الرئيسية لتحول عام، وكل عناصر الجدل الذي سيضع «الأصالة» في مواجهة مع «المعاصرة» المسلحة بالعقلانية والأفكار الموضوعية الخاصة بالتقدم والحضارة والتي تدافع عن معتقداتها (٤٦). ومن خلال مختلف ردود الأفعال التي أحدثها هذا الصراع، بدأت مصر تجد نفسها مجددًا، وسعت إلى أن تأخذ عدتها دون أن ترتدي قناعًا (٤٧). وخلف هذه الحركة الخصبة، نلمح وجه فرنسا، مكللاً بالهالة التي وضعها حول هؤلاء المسافرون الأوائل؛ جاعلين منه بلد العلم، والصناعة، والحرية، والوفرة، والسعادة، وكلها دوافع سوف تجتذب إلى ضفاف السين - إلى جانب الطلاب - صحفيين منفيين، وسائحين، ورجال أدب. ولكن هذه الصورة التي ارتسمت لفرنسا نموذجية هل ستصمد طويلاً.

****

الهوامش

(1) Le Fellah, 15 V. infra, 26.

(2) Souvenir du monde musulman, 292 - 296.

يقول محمد لآبوت About «يقولون إننا غير صالحين للصناعة، والفنون، والآداب، والعلوم وإننا على أفضل تقدير نصلح للفلاحة، مثل رفقائنا البقرة والحمار والبغل» أيه ! وأي فائدة في مفارقات بعض السياح في ساعة مرح ولمَ يريد أن يناقش معك بجدية قابلية كمال سلالتك، عرف نفسك ياعزيزي، وسوف يقتنع مثلي تمامًا» الفلاح ص ٣٠.

(3) Dor: L' Instruction Publique en Egypte, 261.

ولاشك أن دور استلهم كتاب

Merruau: L'Egypte contemporaine 89 - 90.

(٤) انظر: Salama: L' Enseignement islamique en Egypte, 177, 178, 184, About: le Fellah 197.

(5) Archives des missions scientifiques et littéraires, Paris, Imprimerie Nationale, 1850, I, 231, cf. Shœlcher: L' Egypte en 1845, ch.x, De la Nationalité arabe ou égyptienne.

(٦) هؤلاء الشباب الذين تم ارسالهم للدراسة في أوربا، استبعدوا من الوظائف العامة العليا إلا إذا كانوا من الأرمن أو الأتراك، وتم تنحيتهم إلى وظائف أدنى. وبفعل الإحباط، والتقتير المهين، وأحيانًا بسبب الإبعاد، اضطر أكثر من واحد من هؤلاء الشباب، بدافع البؤس، إلى العمل تابعًا للمسافرين أي خادمًا لهم. فالتعليم الذي تلقوه ضاع على الآخرين كما ضاع عليهم». Schœlcher, 129.

(7) Le Fellah, 14.

(8) L' Instruction publique en Egypte, 263 - 264.

(٩) السابق: ٢٦٤.

(10) Le Fellah. 70.

(11) J. J. Ampère: Voyage en Egypte et en Nubie, éd. de 1881, 262.

(12) Arch. du Palais de la République le Caire: Section turque, carton 239, pièce n, 103, 11 Jumada II, 1248.

(13) J. - M. Carré: Voyageurs et écrivains français en Egypte, II, 267.

(١٤) انظر تخليص الإبريز، ص ٨٠ ـ ٨١.

(15) Arch. du Palais de la République, le Caire: Section turque, registre 2109 madaris, p. 136, n. 131, 9 Rajab, 1261.

(16) J. Tagher: La création d' écoles populaires en Egypte selon un projet de Rifa'a.

(17)Arch. du Palais de la République, Le Caire: Section turque, registre 2120, madaris, p 199, 6 Dhu - 1 - Hijja 1263.

(١٨) لم يكن بريس دافين الحاد وإنما إدمون أبوت المالق لإسماعيل هو من كتب في عمل كوفي؛ عنه بسخاء يقول : واحد مثل محمد علي (...) متعجل لإبراز كامل نفوذه وصلابة إرادته، أشد حرصًا على ترك بصمته علي البلد من تخليد آثار الماضي بعملية ترميم دؤوب، كان لابد أن ينحي جميع أعمال الحفاظ إلى المرتبة الثانية كماأن هذا النمط من التعاقب على الحكم المتبع لدى العثمانيين، وانتقال العرش من خلال الأنساب، ذلك القانون الخصب بالمؤامرات، والدسائس، والجرائم (...) كان يمنع التقاليد واحترام الماضي وروح التتابع في الحكم» الفلاح ص ٢١٩.

(19) J. Ninet: Origin of the National party, 118 - 119.

(٢٠) خطاب ستيفان بك إلى لومارسييه المؤرخ في مارس ١٨٥١ انظر:

J. Tagher: Jacques de Valserre et la créataion du premier bureau égyptien d' information à Paris.

(21) Arch. du Palais de la République. le Caire: Section européenne, carton Enseignement, dossier 35/2.

تلغراف مرسل في الثاني من مارس عام ١٨٦٩ من إسماعيل إلى نوبار. انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ١٠.

(22) G. Douin: Histoire du règne du Khédive Ismail, II,6.

(23) J. - M. Carré: Voyageurs et écrivains français en Egypte II, 263-264.

(24) G. Dugat: L'Histoire des orientalistes de L' Europe, II, 75.

(25) Cent cinquantenaire de L'Ecole des langues Orientales,III.

(26) Dor, 343.

(27) Bemmelen: L' Egypte et L' Europe, I, 149.

(28) Le Fellah, 30.

(29) Abel Chevalley: La jeune Egypte, Rev. de Paris, 5 nov. 1896, 441 - 442.

(30) J.J. Ampère: Voyage en Egypte et en Nubie, 258 - 259.

(31) Ch. Didier: Cinq cents lieues sur le Nil, 37 - 38.

(32) Paton: History of the Egyptian revolution, II, 271.

(33) L. Delatre: L'Egypte en 1858, 132 - 135.

(34) J. Ninet: Origin of the National party in Egypt, 118.

(٣٥) خطاب من فلوبير إلى والدته، مرسل من القاهرة في ١٨ يناير ١٨٥٠ - وأوراق م. دوكون المحفوظة في مكتبة المعهد، تحتوي (ملف رقم ٣٧٢١) على:

des conférences avec Khalil Mahmoud Effendi 1850.

A. Naaman: les lettres de Gustave Flaubert, 200 - 203.

(36) Le Fellah, 210 - 211.

(37) J. Barthélemy - Saint - Hilaire: Lettres sur L' Egypte. Paris, Michel Lévy, 1856, 55.

(38) Arch. du Palais de la République le Caire: Section arabe, Le n.4, p . 1404, 5 Safar 1266 (22 déc. 1849)

حول العلاقات المباشرة مع فرنسا للإحاطة بالإصدارات الجديدة التي تهم مصر.

(39) Lettre d' Artin effendi à Jomard, Bull . de la Soc. de géographie, Paris mai 1835, 356. Œuvres de Saint - Simon et d'Enfantin, X, 17 - 24 - 35, 209 - 212 - 237 - 238, XI , 94, XII, 8 - 10.

(40) A.Hourani: Arabic Thought, 138.

(٤١) انظر الهوامش التكميلية - هامش رقم ١١.

Auguste Comte et ses élèves égyptiens.

(42) L'Egypte en 1858, 135.

(43) Le Fellah, 17 - 18.

(٤٤) انظر الهوامش التكميلية، هامش رقم ١٢:

Un Précurseur de Mustafa Kamil.

(45) Le Fellah, 85.

(٤٦) هذا ما يتمناه الناقد رينون Renan منذ تجربة رفاعة. وقد كتب عام ١٨٤٨ تلك السطور التي نشرت فيما بعد في:

L' Avenir de La Science, Paris, 1890, p. 50.

«حينما جاء شباب الشرق إلى مدارس الغرب لنهل العلم الأوربي فقد حمل معه ما يعد من النتائج الملازمة له وهو المنهج العقلاني، والعقلية التجريبية، والإحساس بالواقع، واستحالة الاعتقاد في تراث ديني ثم تصوره بالطبع خارج أي فكر نقدي.

(٤٧) انظر دراسة عن «أزمة الضمير العربي» من خلال الجيل الأول في القرن العشرين بقلم غالي شكري تحت عنوان : «سلامة موسى وأزمة الضمير العربي» - القاهرة، الخانجي، ١٩٦٢. (ارجع إلى بنت الشاطئ، الأهرام، ١٩ ابريل ١٩٦٣، ورد غالي شكري - السابق - ٢٦ ابريل ١٩٦٣).

****

الجزء الثاني
صحفيون ليبراليون

الفصل الأول
مصر الخديوية والصحفيون المستبعدون

ما بين عامي ١٨٦٣ و ١٨٧٩ حكم مصر إسماعيل حفيد محمد علي، والطالب السابق بالمدرسة العسكرية بباريس. وقد تبنى نموذج الإمبراطورية الثانية مع الاستمرار في تبني طغيان جده، في بلد كان في قمة جيشانه. ونشهد في ذلك الحين، على خلفية ملبدة بالغيوم حدوث نسخة حديثة محرّفة من ألف ليلة وليلة حيث لا تنفك نزوات هذا الحاكم المحب للبذخ تضاعف عدد الضحايا الذين تزايدت درجة وعيهم بمصائرهم.

تغير شكل القاهرة، وأصبحت كأنها باريس مصغرّة، تحولت إلى مدينة مليئة بالشوارع الواسعة الممتدة وبالمسارح التي تقدم عليها عروض الباليه، وبالكازينوهات والمقاهي الغنائية (١) وملئت الاسكندرية بالمضاربين ورجال البنوك من مختلف الدول. وعلى إيقاع انقضاضهم على الذهب الأبيض - أي القطن المصري - خلال الحرب الانفصالية (٢)، بدأت الأرض العتيقة تزدان بالمدن والموانئ الشابة، وبالقصور الفخيمة. وشهدت شبكة القنوات الجديدة والسكك الحديدية نشاطًا متزايدًا. وبدأ الناس يستمتعون باستخدام المياه الجارية والجاز والخدمات البريدية والمواصلات الميسرة السريعة، بينما عاشت الطبقة المترفة حياة النعيم ما تخيلتها.

أما الخديوي وبلاطه - ذلك البلاط - الذي يشبه في اضطراباته ومكائده بلاط رواية دير بارم(*)، غير أن شخصيات الرواية الرائعة سانسيفرينا Sanseverina ودي موسكا de Mosca تم استبدالهم بجماعة من المغامرين المنتمين للبحر المتوسط، فقد أطلقوا العنان لنزعتهم الوقحة للبذخ والأبهة. وأصبحت الولائم، والحفلات الراقصة، وسباقات الخيل، وحفلات الأوبرا والأنوار المتلألئة تتوالى وكأنها ألعاب نارية مبهرة.

كان رجال البنوك الدخلاء يؤججون قدر استطاعتهم رغبات الخديوي الملك المحب للملذات (٣). فراحوا يسهّلون له السفر إلى أوربا وقسطنطينية ويقدمون له ما به يدعو مولاه السلطان عبد العزيز إلى القاهرة، ويبهره ويقنعه بإلغاء نظام السيادة ليحتفظ بالعرش للشاب توفيق، وليستطيع أن ينتزع أيضًا من الباب العالي لقب الخديوي وبالإذن في الاستدانة من الخارج (٤) ثم تحول الأمر إلى جنون جامح. فقد بدأ إلحاق كل الجميلات المنشودات بالحرملك، وتم إرسال الجيش إلى المكسيك لنيل رضا نابليون الثالث، وإلى كريت لصالح تركيا، وإلى أفريقيا الوسطى والشرقية للتفاخر بتشييد امبراطورية. ثم إثارة دهشة حكام أوربا وافتتانهم يوم افتتاح قناة السويس، ذلك اليوم الذي مولته الحكومة بسخاء. وكان لابد أيضًا كما هي العادة - من إفساد كبير الوزراء، ولا مانع أيضًا من شراء ذمة كبار المسئولين والصحافة. وخلال ستة عشر عامًا من الحكم، بدد إسماعيل ما يقرب من خمسة مليارات فرنك ونصف، وبلغ مجموع ديونه، ومعظمها كان لفرنسا وإنجلترا، حوالي ملياري فرنك ونصف عام ١٨٧٨ (٥). ومن هنا وجدت القوتان العظميان الصديقتان - المتنافستان فيما بينهما - ذريعة نزيهة للتدخل، في انتظار أن تدفع إنجلترا بالمخاوف إلى حد وجوب احتلال مصر بالجيوش.

ويشكو الخديوي من البؤس، فيكون على الفلاحين المسارعة بملء خزانة الدولة! وهل تفرض عليهم الضرائب الباهظة لمدة عامين قادمين؟ لا بأس، فليتم ابتزازهم لسنة ثالثة مسبقًا! أما البؤساء الذين استطاعوا أن يصمدوا أمام هذه السخرة العاتية (٦)، فلم يجدوا أمامهم من سبيل من فرط الفزع غير اللجوء إلى المرابين الذين لا قلب لهم، فما كان منهم إلا امتصاص ثروة الفلاحين، وراحو يشيدون الأحياء الجديدة في القاهرة والإسكندرية(٧). أما في صعيد مصر الذي أعيته المجاعة، فقد بدأت قرى بأكملها تهوي أمام ما كان يمارس على أهلها من ابتزاز وإجبار على التجنيد، ونهب رسمي.

ولم تكن طبقة الشعب الكادحة هي التي تعرضت وحدها للمهانة، والعبودية، والسحق، فقد عم طبقات الشعب كافة إحساس بعدم الأمان، وبدأت عمليات قتل غادرة في استبعاد

غيـر المرغـوب فـيـهـم ممن كـان يـجـرؤون علـي الوقـوف ضـد الفسـاد الأخـلاقـي والمالي، والتـصـدي لرجـحـان كـفـة المتـآمـرين الأرمـن والأوربيين في الحـكومـة، أو كـفـة الأتراك الشراكسة في الجيش. وإذا كان محمد علي قد أبقى البلد في حالة من الاستعباد خلال النصف الأول من القرن، فقد انتهى هذا الزمن، إذ تسللت مفاهيم الحق والعدل والحرية إلى الأذهان بفضل التعليم والاتصال بأوربا [٨] وبفضل المواقف المتعارضة التي أجبرت الخديوي على الشكوى بعد أن رهن استقلالية مصر، وعلى الاحتماء برأي عام متمسك بالقومية ضد السلطان وضد التدخل الأجنبي.

كانت القومية التي اتخذت شكل سخط صامت هي التي تحرك البورجوازية الجديدة متمثلة في الطلاب السابقين بالمدارس المدنية والعسكرية في فرنسا ومصر. هؤلاء الشباب الذين أخذ عددهم يتزايد، وأصبحوا معلمين وضباطًا، ومهندسين، وموظفين، وحكام أقاليم وأحيانًا وزراء. وقد أخذ إسماعيل يحارب صعود هذه الطبقة التي استشعر بلوغهم الوشيك للسلطة ومثلما حدث قرب نهاية النظام القديم في فرنسا، مرت الطبقة البورجوازية في مصر بأزمة نمو خطيرة. فرغم أنها كانت متفوقة فكرياً، إلا أنها بلغت حداً مهينًا من تدني المستوى الاجتماعي ـ كتب مدرس فرنسي في القاهرة عام ١٨٦٨ يقول: «إنني أتساءل عن جدوى وجود خمسة طلاب من بين شباب المصريين الذين عهد بهم لرعاية مجلس الدراسات والمراقبة الخاص بالبعثة العلمية في باريس أرسلوا إليها لدراسة القانون الروماني والقانون الفرنسي وعادوا إلى القاهرة بعد أن أصبحوا محامين؟ لتتأكد أنهم عند عودتهم سيكونون أول من سيتم إرسالهم إلى فزقل[٩] فمحمد س . بك، وهو والد أحدهم وكان معروفًا بشجاعته وامتيازه، حبس بعض الوقت بالفعل تحت حكم سعيد»[١٠].

هذه البورجوازية الشابة المجهولة والغاضبة بدأت تعي شخصيتها، ومكانتها في الماضي والمستقبل. وفي مقدمة ترجمته لكتاب ماربيت Mariette عن تاريخ مصر، عبر أبو السعود، وهو أحد طلاب رفاعة اللامعين، عن الرغبة في الإفاقة من هذا السبات من خلال دراسة تاريخ أجدادنا حتى نستطيع استعادة فضائلهم المجيدة، وأن نحذو حذوهم في العمل معًا باعتبارنا مصريين بحق، ووطنيين بحق من أجل رفعة مصر.

وهناك كتيب محزن يحمل عنوان «صرخة ضيق» ويحمل إمضاء «مصر» يضع تحت أعين العالم المتحضر صورة الجماهير التي تعيش منذ بداية حكم الخديوي، وعلى الرغم من مظاهر الحرية، تحت نير أشد ما سجله التاريخ من طغيان وهمجية»(١١).

وفي غياب أية سلطة لغرفة النواب التي أنشئت عام ١٨٦٦ على غرار مجلس الأعيان الذي كان قائمًا في ظل الملكية الفرنسية السابقة، وفي غياب مؤسسات ليبرالية، بدأت القومية تختمر في سرية وسط المجتمعات العلمية أو الدينية، بما فيها الماسونية (١٢). وبدأت تظهر لافتات مجهولة عدائية للخديوي على حوائط القاهرة والاسكندرية (١٣)، وأخذت المؤامرات والاعتداءات تتضاعف (١٤). وبداية من عام ١٨٧١، أخذت حركة فكرية كاملة تنمو حول المحرّض الثوري جمال الدين الأفغاني الذي كان يدعو بشدة إلى الإصلاحات السياسية والاجتماعية والدينية.

ووسط الأزمات العاتية التي أنهكت البلاد وجعلتها نهبًا لعناصر وقوى شتى، بدءًا من الأزمات المالية والقانونية وحتى أزمة التمسك بقيم الأصالة أمام الحضارة الحديثة، وهو هم عميق ومركب نستطيع أن نسميه بدورنا «أزمة الوعي المصري»(*)، تعين وسط هذا كله على العقول أن تفكر، وتتحول ، وتعبر عن نفسها. وفي ظل هذا المناخ نشأ وكأنه انفجار لا فكاك منه. مسرح ساخر، سرعان ما تم إخماده، وكذلك صحافة شعبية، تم ردعها بصرامة في مهدها.

فأي دوريات كانت تقرأ في ذلك الحين؟ كانت تقرأ الصحيفة الرسمية وزميلاتها: المجلة الطبية يعسوب الطب، ومجلة الجيش، ومجلة المدارس، إلى جانب جريدة وادي النيل غير الرسمية التي واكبت إنشاء مجلس النواب. غير أن كل هذه الأوراق لم تكن ترضي القراء المحبطين والكتّاب الأحرار.

وفي عام ١٨٦٩ قام اثنان من طلاب رفاعة السابقين، وهما عثمان جلال وإبراهيم المويلحي بإصدار جريدة أسبوعية سياسية مستقلة تحت اسم : **نزهة الأفكار**. لكن الحكومة قامت بإلغائها بعد صدور عددها الثاني. وبعد ذلك بسنوات، وبدفعة من جمال

الدين الأفغاني ظهرت وتوثقت سلسلة من الصحف غير الرسمية كان همها الأكبر هو إمداد الجمهور بأخبار عن الحرب التركية الروسية التي دارت عام ١٨٧٧، ومن بين تلك الصحف: الوطن، والأهرام، ومصر، والتجارة، ومرآة الشرق، وأبو نضارة، ولما كانت تلك الجرائد في أغلب الأحيان معارضة للسلطة، فقد ظلت دائمًا معرضة لرقابة مرتابة.

وبمجرد اعتلاء توفيق العرش عام ١٨٧٩ قدم له اتحاد الشباب المصري مشروعًا إصلاحياً طالب فيه بحرية الصحافة ، في فصل استهل بهذه الكلمات:

«إن الإصلاحات التي يتطلبها الوضع في البلاد لا تكون فعالة دون حرية الصحافة. ولعل أحد المبادئ الأساسية التي لا بد للقانون المصري أن يحفظها هو مبدأ الحرية الفردية. ويطيب لنا الاعتقاد أن حكوماتنا لن ترفض لنا الاعتراف بهذا المبدأ الذي تم إغفاله حتى الآن مما يتعارض مع طبيعة الإنسان الذي ولد حراً».

إنها وثيقة يبدو أن المؤرخين يغفلونها. ويأتي التعليق الطويل الذي واكب نشرها ليختم بعنف:

«دأبت الحكومات المستبدة على أن تستمد من ردع الفكر القوة التي لم يكن العقل والعدالة باستطاعتها منحها لها. إن نور الذكاء الغامر يصيبها بالضيق ويجبرها على التخفي في الظل. فهو يضيء لها فعالها ويسلمها إلى أنظار الإنسانية. وتحسب هذه الحكومات أنها حينما تجعل الليل يعم حولها فإنها تفلت من حكم التاريخ ويا له من وهم زائف! فهل يمكن حجب الضياء؟ (...) وحدهم يعملون في الظل، أصحاب الأفعال الشائنة والسلوك الذميم. النسر ينظر إلى وجه الشمس، أما البومة فتهرب من ألقها (...) إن حرية الصحافة هي ركيزة الحكام، وكلما كبرت ازدادوا قوة. وهي أشد وسائل التقدم نجاعة؛ فمن خلالها ينمو الذكاء الإنساني ويزداد اكتمالاً؛ فبئس من لايحترمها وعار عليه !» (١٥)

وهناك صحف تشبه البشر: فبعضها «ينأى بنفسه عن الفساد الذي يمكن لذهب الخديوي أن يجعله يتسلل لأوساط الشعب العليا» (١٦)، بينما يقاوم آخرون، ويتعذبون، ويتراءى لهم الموت إن لم يفضلوا عنه المنفى. وفي هذه الفترة، نتابع مشهدًا مؤثرًا في

تاريخ مصر. فقد ابتعدت الصحافة الحرة المعاصرة الخاصة بثورة عرابي، وغادرت البلاد ولجأت إلى باريس، حيث اجتذبها النموذج الديمقراطي الذي طالما تحدث عنه رفاعة الطهطاوي ومن جاءوا بعده بحنين جارف. أما باريس التي أوت بين جنباتها منذ عام ١٨٣٠ القوميين الأوربيين الذين استلهموا نموذجها الخاص (١٧)، فلم يدهشها ظهور مجلات ضئيلة الصفحات مكتوبة بعربية فصحى أحيانًا، وعامية أحيانًا أخرى، ولكنها في كل الأحوال ذات أسلوب متقد، وثائر، ومشتغل بوطنية لا تعرف الكلل، موجهة إلى مصر مكبلة بالأغلال، وإلى سجانيها الوقحين.

وسوف نتتبع في فرنسا هؤلاء الصحفيين المبعدين بداية بالثائر الشاب أديب اسحاق رئيس تحرير صحيفة مصر القاهرة، ثم الشيخ محمد عبده رئيس تحرير العروة الوثقى، ثم المفكر يعقوب صنوع رئيس تحرير أبو نضارة. وهم رجال ثلاثة طباعهم شديدة الاختلاف وكذلك ثقافتهم وتعليمهم: فالأول مسيحي، نشأ على الأدب الفرنسي، والثاني أزهري من مريدي الفقهاء المسلمين؛ والثالث يهودي متأثر بالثقافة الإيطالية، وهي عناصر متكاملة رغم تنوعها. كما أنها تعطينا صورة مكتملة للوطنية المصرية.

****

الهوامش

(1) Jeannette Tagher: "Les cabarets du Caire dans La seconde Moitié du XIXe scièclc", Cah. hist. égyptienne VII, 3 (Juin 1955), 186 - 195.

(٢) انظر مقالات زارع قطن:

John Ninet, - dans la Rev. des deux mondes, 1 mars 1861, 15 Juillet 1866, 15 nov. 1869, le déc. 1857.

(*) La Chartreuse de Parme (١٨٣٩) رواية الكاتب الفرنسي ستاندال Stendhal المعروف برواية الأحمر والأسود Le rouge et Le noir تدور أحداث «دير بارم» في البلاط الإيطالي ويدفع الدوق دي موسكا de Mosca عشيقته جينا Jina للزواج من الكونت سانسفرينا San-severina للحفاظ على الشكليات (المترجمة).

(3) Bravay, Lavison Oppenheim, etc. cf. Landes: Bankers and Pashas: Ninet: Finances et menus plaisirs. Episodes de La civilisation occidentale en Egypte, 1871 - 1873, Au Pays des Khédives, 277 - 314.

(٤) كلمة خديوي، الفارسية الأصل، والتي تعني «سيد» هي لقب شرفي منحه السلطان العثماني عبد العزيز لإسماعيل باشا عام ١٨٦٧ بعد مفاوضات شاقة. (انظر:

Douin: Hist. du règne du Khédive Ismaïl, I, chap.XIV le firman du 8 Juin 1867, 421 - 453).

وعلى الرغم من أن منصب «باشا مصر» أصبح وراثياً في أسرة محمد علي منذ عام ١٨٤١، إلا أن إسماعيل أراد أن يتميز عن الحكام الآخرين الذين يحلمون اللقب نفسه. وارتبطت بلقب الباشا فكرة السيادة والاستقلالية. وسيظل اللقب يتناقل بين نسل إسماعيل حتى عام ١٩١٤.

(٥) انظر منشورات نينيه J. Ninet عن الحالة المالية في ظل الخديوي.

(6) Danglar: Lettres sur L' Egypte contempotaine, 65 - 67.

وعن السخرة في حفر قناة السويس انظر: عبد العزيز محمد الشناوي: السخرة في حفر قناة السويس، الاسكندرية منشأة المعارف الحديثة، ١٩٥٨.

(7) J. Ninet: Origin of the Natinal Party.

(8) Muhammad Abduh: L' erreur des intellectuels.

(٩) مكان على النيل الأبيض كان إسماعيل ينفي إليه الأشخاص الذين كان يخشاهم.

(10) Danglar: Lettres, 133 - 134.

(11) Egypte: un cri de détresse, Paris, Imp. P Dupont 1877, 4.

(12) Sabry: La genèse de l' esprit national égyptien, 142 - 143.

(13) Le Progrès égyptien, Alexandrie, 15 sept. 1869.

(14) Douin: Histoire du régime du Khédive Ismaïl, II, chap 3.

(*) يشير المؤلف هنا إلى كتاب «أزمة الوعي الأوربي»

La crise de la Conscience européenne للكاتب بول Paul Hasard (المترجمة) .

(15) Union de la Jeunesse Egyptienne : La liberté de La Presse.

(16) J. Ninet: Au Pays des Khédives, 31.

(17) G. Weil: L'Europe du XIXe siècle et L'idée de nationalité.

****

الفصل الثاني

أديـــب اسحـــاق

(١٨٥٦ - ١٨٨٥)

كان أديب إسحاق طفلاً معجزة. فهو لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره عام ١٨٦٧، حينما ترك بالفعل مقعده بمدرسة العازري(*) في دمشق للخدمة في ديوان الجمارك ليساعد عائلته مادياً. وبدأت أول أسفاره عندما لحق بأبيه ببيروت وعمل معه في مكتب البريد العثماني. جاء هذا الإحساس بالمسئولية ليدعم في نفس هذا الصبي عزيمة العصامي الذي علم نفسه بنفسه وكان نهمًا للثقافة، ذلك الصراع الذي تنازعه منذ نعومة أظافره، بين الكدح اليومي البائس والحنين إلى عالم مثالي، أنضجه وجعله يثور ضد الظلم الاجتماعي.

وفي بيروت بدأ أديب يلتقي بالمثقفين. واستغل فصاحة الكاتب التي بداخله في تحرير جريدة التقدم، والمتحدث التي ميزته في مجموعة زهرة الآداب. وجميع المقارنات التي عقدها بين «التعصب والتسامح»، وبين «اليونانيين والرومان»، والجدل الذي أقامه حول «مزايا نابليون» موردًا كلمات شاتوبريان Chateaubriand ومدام دي ستال Madame de Staël، أو امتداحه «الحرية» طبقًا لما قاله مونتاني Montaigne ومونتسكيو Montesquieu، وروسو Rousseau، كل هذه الموضوعات تشهد على معرفة جادة بالتاريخ الأوربي. وبالأدب الفرنسي، وتبرز اهتمامًا كبيرًا بالإيديولوجية السياسية بشكل خاص. أما مسرحية أندروماك للكاتب راسين التي ترجمها بناء على اقتراح قنصل فرنسا والتي عرضها خلال حفلة خيرية، فلم تكن إلا ذريعة للذهاب إلى الاسكندرية ليساعد فرقة صديقه سليم النقاش المسرحية - في بداية الأمر ثم التوجه إلى القاهرة ليحضر دروس جمال الدين الأفغاني وليبرز ضمن الطليعة المجتمعة حول المعلم الأفغاني.

وفي عام ١٨٧٧، أسس جريدة مصر، وأخذ يردد فيها تارة مذاهب القرن الثامن عشر الفرنسي، كأن يكتب عن «الملك ورعاياه» على سبيل المثال - مطالبًا بأن يكون لكل بلد حاكم خاص بها - كما قال مونتسكيو ويبرز تارة أخرى آراء لجمال الدين الأفغاني، خاصة في مقال يحمل عنوان «حركة الأفكار» حيث يعرض حركة مد الثورة الفرنسية لتبلغ روسيا وفارس، وبلغاريا وتركيا. ونقل أديب جريدته إلى الإسكندرية، إما لتجنب اتصال مباشر أكثر من اللازم مع السلطات، وإما ليضمن معونة سليم النقاش. وبعدها مباشرة حوّل جريدة مصر إلى جريدة أسبوعية، وبدأ في نشر جريدة يومية أخرى تحت اسم «التجارة» وكانت هذه هي وسيلته الناجعة لإبطال مرسوم الرقابة التي راحت تلغي تباعًا جريدة من الاثنتين.

ولكن نتيجة للموقف التعسفي الذي اتخذه الوزير رياض، لم تستمر جريدة التجارة بعد إيقاف جريدة مصر، وفي عام ١٨٩٠، قرر أديب - لاشك - بالاتفاق مع الحزب الوطني الذي كان يجتمع بحذر في حلوان، أن يستأنف النضال من باريس[1].

وبينما هو يعبر أمواج البحر المتوسط، بدت له كأنها فيالق قوية راحت، وهي في حمى دروع بيضاء تلقي الرعب في القلوب، تهجم بقوة على الجرف البطولي [2]، تقودها الرياح. وبدا أن كل شيء حوله يعيش الملحمة التي تدور في نفسه.

وعلى الرغم من البرد ومن أتعاب السفر بدأ يبحث في باريس عن مكتب ومطبعة لمجلته «مصر القاهرة» وصدر عددها الأول في ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧٩. وطبيعي أن حماسته وحنينه قد أذكاهما مرأى مجتمع سعيد، أملوا عليه صفحات نابضة بالإحساس، وصرخات ممزقة وتحديات قوية، فراح يكتب:

«تحت سماء منصفة، على أرض صافية، وبين رجال أحرار، هنا حيث تُسمع أنغام متجانسة يشدو بها مجتمع قائم على العدالة، تعود إلى ذاكرتي أنات شعبي المقهور الذي

يعيش في سخرة تحت سياط سجانيه، فيشتد بكائي مثل أم فقدت للتو طفلها. وأرى علامات الرفاهية في مكامن العدالة، فأتذكر بؤس جموعي في أماكن الظلام فأذرف دمعًا ممزوجًا بدم فؤادي أغمس فيه ريشتي لأخط لأشقائي «أيها الرجال، إن اضطهادكم لا مبرر له، واستسلامكم هباء، وعملكم لا قيمة له، إنكم تفنون دون أن يأسى عليكم أحد. إنكم تتحملون الظلم إلى حد أن طاغيتكم يراه حقاً من حقوقه، وتبتسمون وأنتم تنظرون إلى أصفادكم وكأنها زينة، وتحنون بكل خنوع رؤوسكم حتى إن من ينظر إليكم ليقول: إنهم ليسوا برجال، ولكنهم آلات كرست لفلاحة الأرض وللزراعة للبشر»[٣] (*).

ويطلق أديب في هذه المقالات العنان للاستنكار الإنساني ولأنين الشاعر الذي بداخله. فالفلاح هنا يملك حقله الخاص وبيته الصغير حيث يأتي ليستمتع وسط ذويه، يقرأ لهم الجريدة ثم ينام هانئًا دون أن يحلم بسياط حاكم لا ترحم ولابسجن كريه ينتظره؛ أما هناك، فلا شيء سوى السخرة اليوم كله، ثم التلهف في المساء على الجلوس أمام آنية طهي سوداء وتناول فتات خبز مصنوع من الشعير وسد العطش بمياه القناة الملوثة، ثم يغلق على نفسه كوخًا معتمًا كأنه القبر مكتظًا بأطفال مرضى وبنساء مكتسيات بثياب رثة قذرة[٤]. هنا الشجاعة تكافأ، وهناك فإن الخوف المستحكم يعلم الرجال الجبن. إن سياسة النهب والإذلال مستنكرة ومفضوحة وكذلك دور نواب القاهرة الذي لا يعدو أن يكون شكلياً.

ومع أن الرجال في الشرق كما في الغرب مصنوعون من طينة واحدة هي تلك التي تشكل منها آدم في البدء. والفرنسيون شعب أنتجت جذوره الصلبة - أخيرًا - أفرعًا جميلة. وانطلاقًا من طبيعة أجدادهم الوحشية، تطوروا، وبفضل عزيمة دؤوب مبنية على ما يجود به العقل، وعزيمة شديدة ترفض الطغيان، بلغوا حضارة مزدهرة تسود فيها قيم الحرية والعدالة والإخاء. وفي المقابل، فإن الشرق الذي تغلفه سماء بهية، وتجري على أرضه الخصبة مياه صافية أسهمت في بناء حضارة ما زالت آثارها صامدة أمام الزمن. فقد

فَقَد في غمرة رغد العيش معنى الاجتهاد والحق والواجب. وها هو الآن قد أصبح جاهلاً، فاقدًا للكرامة وخاضعًا. ولا بد أن نستمد درسًا من التناقض المؤثر الذي يقدمه التاريخ. ففي الثورة الفرنسية يكمن مبدأ القدر الجديد للإنسانية ولحياة جديرة بأن نحياها. وقد كرس أديب للثورة الفرنسية مقالاً دسمًا، يؤكد فيه على دور ممثلي الشعب إزاء الملكية ويردد النسخة الفرنسية للنشيد القومي الفرنسي التي ندين بها لرفاعة (٥).

هذه الرؤية كلها لشعب يكتسب بقوة حقوقه، موجودة بالفعل في كتاب رفاعة ولكنها متوهجة أكثر، فقد تغلب الاهتمام بالترويج لهذا الفكر لدى هذا الصحفي المتحمس على الاهتمام بإعطاء معلومة موضوعية. ولكن هذه النبرة العارمة الساخطة كانت تبشر بالثورة الوشيكة في مصر (٦).

وخلال الأشهر التسعة التي قضاها أديب اسحاق في باريس، كرس جل وقته للمجلة التي كان يقوم على إصدارها بغير انتظام كل أسبوعين وأحيانًا كل أسبوع - دائمًا بخط اليد لعدم وجود أحرف طباعة عربية، هو أو معاونه عبد الله مراش، على صفحات أربع من القطع الكبير، في طبعة حجر صادرة عن بريس راجوسّو Presses Ragusseau، بشارع جاكو ليه Jacquelet (٧). وقد كان أديب كثير التنقل، فبعد أن كان يسكن في ٢ شارع راسين، غير مسكنه في مارس ليكون مقره الجديد في ١٣ شارع جون جاك روسو، ثم بعدها بشهر أقام في ٣٣ شارع شوسيه دانتان Chaussée d' Antin. وبدأ يقابل الشرقيين المقيمين في باريس وأوساط الصحفيين التي قدمها إليه رؤساء تحرير الصحف التركية ماشورات Moshurat و تاسوف Taasuf (٨) . وبدأ يقرأ بدقة مختلف المقالات حول الأحداث المصرية الجارية التي تكتب في الجرائد الفرنسية والإنجليزية (٩) ليحيط القراء بما جاء فيها. وكان غالبًا ما يحضر بكل حماس جلسات غرفة النواب.

وقد أحب أيضًا الكنوز الموجودة في المكتبة القومية الفرنسية وقدرها حق قدرها، وراح يثري ثقافته يومًا بعد يوم منها - لقد انخرط هذا الشاعر الشاب المتعطش للحرية والجمال في حياة باريسية كثيفة وعيشة بوهيمية منهكة. ولم يأت شتاء عام ١٨٧٩ الذي كان قارسًا

بشكل استثنائي، إلا وكان الإرهاق، والشرب، وربما حب أكثر من باريسية جميلة [١٠] قد أودى بصحته الهشة.

عاد أديب إلى بيروت مصابًا بالسل. وعلى متن السفينة ، كتب بعض الأبيات المؤثرة التي تعكس معاناته وألمه، وروحه التي تملكها العشق واستبد بها. وتحولت السفينة التي تهزها الأمواج حتى تكاد تبتلعها بينما لهيب المحرك يدفعها، إلى صورة لهذا القلب الذي يكاد يختنق، ويستبد به الضيق والخوف من الغرق وإن ظل متأججًا[١١].

وبعد سنة أمضاها ببيروت استأنف فيها تحرير مجلة التقدم، عاد أديب إلى القاهرة عام ١٨٨١ ليدير قلم الترجمة الذي كان رفاعة قد أنشأه وألغاه عباس باشا، وأصدر مجلته «مصر» وكانت هذه المرة أدبية بشكل أساسي، ولكن النهضة الثقافية التي نستشرفها من أعماله [١٢]، وهي نهضة يمكن مقارنتها بتلك التي دعا إليها رفاعة، أجهضت للأسف في ظل المناخ غير المستقر الذي تلا ثورة عرابي. وعاد أديب إلى لبنان، حيث توفي عام ١٨٨٥ بعد أيام كان قد قضاها في مصر من جديد.

ويذكرنا مصير أديب إسحاق الذي توفي في التاسعة والعشرين من عمره، بمصير إلياس بقطر ويوسف آجوب. ولايسع أعماله سوى أن تمنحنا مجرد تصورات مبدئية، ووعودًا بأشياء قادمة وتبقى مع هذا رحلته إلى باريس مرحلة مهمة من مراحل هذه الحياة القصيرة. ولو لم يكن المرض قد اختصرها لكانت إقامته في باريس أسفرت عن كتاب جميل وثري من أدب كتب الرحلات. ونحن لا نملك بالفعل من هذا الكتاب إلا صفحة واحدة أصلية ذات صبغة متوترة. وهي صفحة مقدمة، تدل على الشجاعة لأنها مكتوبة قبل تحرير العمل وفي هذا نقيض لعرف متملق في كتابة المقدمات الكمالية دائمًا، فهي تعطي ملمحًا أمينًا وتدل على عقلية منطقية متجردة. وأسلوبها ينم عن رغبة في القطيعة مع نثر مقفّى عتيق، ومضجر وكريه، وإن كان قد صاغ أمنيته بأسلوب نثري مقفّى شديد السلاسة والتلقائية، ورغم هذا يرفض المؤلف تقديم أي اعتذار تقليدي حتى لا يحمّله

بتواضع زائف، ثم أليس في ارتكاب ما لا بد أن نندم عليه دليل على الغباء؟ وهو يعلن في هذه المقدمة عن مادة خصبة، تعد حصاد سنوات عديدة من الملاحظة والدراسة عن «بلاد الأفرنجة» ، من مختلف الأوجه الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية دون ادعاء بأنه سوف يتعمق في واحد من تلك المجالات بعينها. هذا الكتاب الذي ضاع إلى الأبد يعتبر خسارة كبرى لأنه كان ـ بلا شك ـ سوف يحمل كل صفات موهبة شابة قوية، متحمسة، وثائرة على الأشكال الموروثة والأشياء الشائعة، ومأخوذة بالمعرفة والتأنق، وبكل الصفات التي تظهر بوضوح في هذه الصفحة التمهيدية. وباختصار، فإن مثل هذا الكتاب كان من شأنه أن يتفوق على جميع الأعمال التي أنجزها المؤلف: على الترجمات المحدودة التي قام بها في مطلع شبابه وعلى المقالات التي كتبها عن رجال معروفين ومعاصرين خلال إقامته في باريس مثل جامبيتا Gambetta (*). وليتريه Littré، واميل دوجيراردان Emile de Girardin.

إن تلك الموهبة الشابة لم تتفتح كاملة إلا في باريس. فلم يكن هناك أي عائق أمام انطلاقتها الإنسانية أو الفكرية أو السياسية. بل لقد اكسبت كتابته الكثير في جوهرها وحجمها وعنفوانها. لقد كان يعمل مثل قناص دون أن يجفل، ثم ازدادت أفكاره وأسلوبه التعبيري قوة بفضل بعده عن الشرق وما يخصه، فأصبح يرى حدوده بشكل أوضح، وبفضل اتصاله المباشر مع الصحفيين والكتب والمناقشات البرلمانية.

ولابد أن نؤكد على أن جودة تعليمه العربي والفرنسي وبفضل طبيعته المؤثرة السخية، كان يمكن لأديب إسحاق، الذي كان يملك بشكل خاص قدرة على التلقي والفهم والنقل، أن يقوم على أكمل وجه بدور الوسيط. ومن خلال تعامله مع المسرح احتفظ بالقدرة على إسالة التيار المعاش، وصبه في كلمات منطوقة يوصل من خلالها إلى الجمهور أدق خلجاته. وأي مروِّج للفكر كان ! ففي عباراته الكبرى الساخنة والمتنوعة نشعر بكل نفاذ الصبر الذي يتميز به خيال خصب، وكل وهج المناضل الذي كانت الكتابة هي متنفسه

الأوحد. كان هذا المناضل الذي ينشد الكمال يثير بموضوعاته وبإسلوبه التعبيري قلقًا أخلاقيًا واجتماعيًا لدى قرائه.

وإذا كان قصر حياته من ناحية، وتميز أسلوبه وبلاغته من ناحية أخرى، قد حدّا من تلقي أعماله، فسوف نرى في المقابل صحفيًا آخر مستبعدًا، له في مصر تأثير شديد الاتساع. فمحمد عبده الذي ليست لديه القدرات الفنية نفسها، سوف يصل مع هذا بعد خبرة نفسية وإيديولوجية كبيرة، هيأت لها أسفاره إلى فرنسا، إلى بث الحياة الحديثة لتحل في الأزهر محل الفكر التقليدي الخاص بالعصور الوسطى. ولا يمكن للمسيرة الروحانية لهذا المصري الذي أصبح أبًا «للإصلاح» المعاصر إلا أن تستقطب اهتمامنا بشكل خاص.

****

الهوامش

(*) Lagarite - لعازري : كاهن من جمعية القديس فنسان دو بول . (المترجم).

(١) يعقوب صنوع: النظارات المصرية - باريس - ١٨٧٩، العدد الثالث، ص ٤ – ٥.

J.Ninet: Arabi Pacha. 37 - 38.

(٢) أديب إسحاق: الدرر، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٠٩، ٨٨.

(٣) سلسلة من أربعة مقالات (من رقم ٦ إلى ١٠). جمعت في «الدرر» . ص ١٥٥ وما بعدها.

(*) هي ترجمة لما كتبه المؤلف نظرًا لعدم توافر النص العربي الأصلي. (المترجمة).

(٤) السابق.

(٥) السابق صـ ١٦٣.

(٦) انظر: La cri de La souffrance المقالة الافتتاحية للعدد رقم ١٧.

(٧) لم نستطع أن نطلع إلا على مجموعة غير كاملة من المجلة بمدرسة اللغات الشرقية وهي الأعداد" ٣ الصادر في ٢٠ يناير ١٨٨٠، ٤ الصادر في ٦ فبراير، ٦ في ٢٧ فبراير ٧ في ٥ مارس، ٨ في ٩ مارس، ٩ في ١٧ مارس، ١٠ في ٢٤ مارس، ١١ في ٧ إبريل، ١٢ في ٨ إبريل، ١٦ في ٦ مايو، ١٨ في ١٩ مايو.

(٨) انظر: رقم ٩، ١٠.

(٩) يذكر من هذه الصحف:

Le Goulois, La France, Le National, Paris - Journal. the Times, the Daily news, the Daily Telegraph, the Standard, the Observer, et les Journaux alexandrins, La Gazette des tribunaux, Le phare d'Alexandrie.

(١٠) نشر أديب في بيروت عام ١٨٨٤ ترجمته العربية لرواية الكونتيسة داش Dash (١٨٠٥ - ١٨٩٢):

La Belle Parisienne, Paris, Michel Lévy, 1864.

(١١) الدرر، ص ٤٩٧.

(١٢) جريدة المفيد - القاهرة - ١٢ أكتوبر ١٨٨١.

(*) ليون جامبيتا (١٨٣٨ - ١٨٨٢) هو أحد مؤسسي الجمهورية الفرنسية الثالثة. (المترجمة)

****

الفصل الثالث

محمـــد عبــده

(١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩، لأب مزارع في محلة نصر بالدلتا، وسوف يكون أيضًا نموذجًا يصور عبقرية «الفلاح» في الجيل التالي على كل من رفاعة وعلي مبارك. وكانت دراساته الأولى التي تلقاها في جامع الأحمدي قد جعلته يتعامل مع كتب دراسية عتيقة نفرته منها. ولكن تديُّن عم أكبر له جذبه وآثار حماسته عوضًا عن هذا. فبدأ يرتاد الأزهر منذ عام ١٨٦٦، ليزداد إحساسه بعدم الراحة أو الرضا وسط تعليم عقيم ثم انتابته أزمة زهد انتهت به إلى الانعزال.

ولكن المعلم الذي ظل محمد عبده يبحث عنه بلا جدوى ظهر أخيرًا وكان كما تمناه، ثائرًا على بلاده الشرق، ذا حس نقدي، ومتحدثًا ومفكرًا لامعًا. وكان جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) بالفعل رجلاً ثائرًا ومتبحرًا في الدراسات الإسلامية، يتحدث العربية والفارسية والتركية وبعض الإنجليزية، وقد أثار فجأة الرأي العام في بلاده، حيث شارك في الحرب الأهلية، وفي السلطة، وكذلك فعل في جميع الدول التي مر بها مثل الهند وتركيا. وكانت إرادته العاتية المتلهفة على إيقاظ الشعوب تواجه حيثما مر التجاوزات السياسية والاجتماعية والدينية. ولهذا كان يعيش عيشة غير مستقرة بعد أن يُغضب عليه أينما حل، مما جعل صورته تتشكل كمغامر كبير. وكان تدريسه في القاهرة (ما بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٩)[1] هو ما أمد محمد عبده بحب الحرية والذكاء، وبالفضول لمعرفة الأفكار الغربية والرغبة في الإقبال على النصوص القرآنية بشكل مباشر بصرف النظر عن الموروث الجامد.

وبعد أن تخرج هذا التلميذ في الأزهر. عام ١٨٧٧ وأصبح معلمًا بدأ يطبق في محاضراته في دار العلوم والأزهر ومدرسة اللغات وفي بيته بصفة خاصة المنهج الجريء الخاص بمعلمه. وقد ترك جانبًا اللغو الفقهي، وأخذ يبحث عن الأفكار الخصبة التي يمكن أن يطبقها على الأحداث الجارية ويستخلصها من مقدمة ابن خلدون أو مونتسكيو العرب بحسب تعبير رفاعة [٢] أو حتى من كتاب «تاريخ الحضارة في أوروبا وفرنسا لجيزو Guizot الذي كان قد ترجم حديثًا إلى العربية[٣].

وبناء على توصية جمال الدين الأفغاني، بدأ محمد عبده يشق طريقه إلى الصحافة. وكذلك بدأ ينشر مقالات في الأهرام ومصر، ليحيي دور الصحافة ويبرز قيمة العلوم الحديثة، أو ليرثي لحالة الفقر الفكري للأزهر ولموقف تركيا من مصر. لكن في عام ١٨٧٩، وبعد وصول توفيق الإنجليزي النزعة إلى الحكم، تم طرد جمال الدين الأفغاني من مصر، واضطُر تلميذه محمد عبده إلى التزام قريته. ومع هذا تم استدعاء محمد عبده في العام التالي إلى القاهرة، وعهد إليه برئاسة تحرير الجريدة الرسمية. واستغل الموقف لكي ينشر بأسلوب أخذ يزداد بساطة تربية أخلاقية ومدنية مستلهمة من الحياة الشعبية المصرية ومدعمة بوصايا دينية. وكان يرى أن هذه التربية لابد أن تتم بتروٍّ حتى تؤتي ثمارها، وألا تحدث في عجالة كما ترغب الصفوة التي تطورت بالفعل [٤]. لهذا السبب نفسه لم يؤيد محمد عبده عنف عرابي [٥]. ومع هذا، فإن غضب توفيق أدى إلى الحكم عليه بعد الثورة بالنفي ثلاثة أعوام. فأمضى عام ١٨٨٣ في بيروت قبل أن يلحق بمعلمه جمال الدين الأفغاني في باريس.

وفي باريس التي جاء إليها في بداية عام ١٨٨٣، سرعان ما لفت جمال الدين الأفغاني الأنظار في الأوساط الصحفية المهتمة بالشرق وقد أخذ يستنكر مناورات الإنجليز[٦].

وبعد أن تم تقديمه إلى المفكر الفرنسي رينون Renan ترك جمال الدين في نفسه أثرًا بالغاً، حتى قال عنه رينون «إن حريته الفكرية وطبعه النبيل الوفي جعلني أعتقد وأنا

أتحدث إليه أنني في حضرة بعض معارفي من الأقدمين وقد بعثوا إلى الحياة مثل ابن سينا وابن رشد أو أحد آخر من هؤلاء العظام الذين شكلوا تراث الفكر الإنساني خلال خمسة قرون (٧)». هذا الحوار الذي دار بينهما ألهم المفكر الفرنسي محاضرة حول «الإسلامية والعلم» ألقاها يوم ٢٩ مارس عام ١٨٨٣ في المدرج الكبير بالسوربون. وكان من تبعات نشر هذا النص أن بدأ جدل مثير بين الرجلين على صفحات جريدة Journal des débats (٨).

وفي مقالاته سعى رينون إلى إثبات عدم توافق الدين الإسلامي عبر التاريخ مع التفكير العلمي. ورد عليه جمال الدين مبرزًا العداء نفسه للعلم خلال ما شهدته العصور الوسطى الكاثوليكية، ثم موضحًا أن المسيحية سبقت الإسلام زمنياً بكثير وبالتالي كان لها السبق في التقدم. وأضاف أن محاولة استبعاد أي عالم أو فيلسوف غير عربي الأصل عن الحضارة الإسلامية سيشبه تمامًا استبعاد مازاران Mazarin (*) ونابليون وغيرهما من تاريخ فرنسا. ومع هذا، فقد أقر جمال الدين بمسئولية الدين في تدهور الشعوب الإسلامية. واختتم مع هذا بأن «الإنسانية متعطشة للمثل، وأنها تريد أن تحلق في المناطق الغامضة والبعيدة التي لايستطيع الفلاسفة أو العلماء أن يروها أو يستكشفوها ونستطيع من خلال هذا الحديث أن نرى كيف تتضح النزعة الدينية لدى الأفغاني، وأن نلمح كذلك جميع البراهين التي تأتي لتؤيد رينون العقلاني الفرنسي.

وقد حلم جمال الدين بحركة قومية إسلامية، تمتزج فيها السياسة بالدين بحيث يدعم كل منهما الآخر. وألهمته لقاءاته الأخيرة مع الدول الشرقية المسلمة الطموح كي ينشيء فيها جمعية كبرى تضم ثوارًا يقودها من باريس، حيث لا تستطيع مراقبة الإنجليز وتشكك السلطان ممارسة أية ضغوط عليه. أما محمد عبده الذي وصل إلى باريس في بداية عام ١٨٨٤، فكان أكثر تواضعًا في أحلامه، إذ كان يرغب في إنشاء مدرسة خاصة يتم فيها إعداد الشباب بحيث يتلقى تعليمًا يختلف عما يقدم في البعثات الدراسية التي يرسلها

باشوات مصر، وبهذا يتزود بذخيرة جيدة يستطيع من خلالها توجيه الرأي العام في الشرق وتكوين حكومات قوية قائمة على أساس نهضة دينية تستطيع أن تقف في مواجهة الغرب(٩). ولكن المعلم التواق إلى بلوغ هدفه سريعًا استبعد حكمة تلميذه البطيئة. كما استسلم محمد عبده من ناحيته لإغراء الاستفادة السريعة من جماعة واسعة ممتدة بصورة سرية في مراكز وجود الإسلام. فكان أن صدرت مجلة العروة الوثقى (١٠) المتحدثة باسم هذه الجماعة الغامضة بقيادة الأفغاني وكان يحررها المصري، في البداية كانت تصدر أسبوعيًا ثم أصبحت تصدر كل أسبوعين.

وقد أشاد العدد الأول الصادر في ١٣ مارس ١٨٨٤ بالتعاطف الذي جعل العالم الإسلامي يلتف حول مصر التي أدماها الغزو الإنجليزي. وتم الإعلان عن برنامج ضخم يتمثل من لفت نظر الشرقيين نحو واجبهم في محاربة المعتقدات الراسخة (مثل الإحساس بالضعف واليأس)، والعودة إلى المنابع الأخلاقية التراثية بدلاً من تقليد الغرب؛ وكذلك بدأ إعلامهم بالأحداث التي تمس مصيرهم؛ والرد على كل من يتهمهم بأنهم بعيدون عن الحضارة مع الحفاظ على مبادئ أجدادهم، إضافة إلى توثيق الروابط المشتركة بين الشعوب الإسلامية.

وقد طرحت الفكرة الرئيسية منذ العدد الثاني تحت عنوان «القومية والدين الإسلامي» فإذا كانت بعض المصالح الاجتماعية تجمع بين البشر انطلاقًا من أعراقهم ليكونوا شعوبًا خاضعين لسلطة حاكم عادل نوعًا، فإن على المسلمين - أيًا كانت أجناسهم - أن يرفضوا على نطاق طائفتهم الواسعة كل محاولة فصل قومي، وأن يتقبلوا قيادة أتقاهم، وأكثرهم قدرة على تنفيذ وصايا الإسلام، بما أن الإسلام يمتاز على الأديان الأخرى بمعالجته مسألة تنظيم أمور الحياة الدنيا وكذلك الدار الآخرة، وبما أن الحاكم الحق والأوحد والأقوى هو الله.

وقد ظهر التناقض جليًا من خلال قلم المعلم السابق والصحفي محمد عبده، الذي بدأ يغضب على الصحف التي لا طائل من ورائها بما إنها غير صادقة، أو نظرًا لأنها ليست

مقروءة بدرجة كافية، وكذلك بدأ يغضب على المدارس الحديثة التي تعد بدورها غير مجدية بما إنها غير متوافقة والطابع الشرقي، ولأنها مكلفة للغاية وبطيئة أكثر من اللازم في عملية تكوين البشر، وهو يرى أن وحده الإسلام الذي انتشل العرب من البربرية وارتقى بهم إلى الحضارة هو القادر على بعث التجديد فيهم، وأن النموذج المجيد المتمثل في المسلمين الأوائل هو وحده الجدير بأن يقتدى. أما عن الحياة الأوروبية الحديثة فلم تؤخذ منها إلا كلمات مشئومة مثل «الوطنية» و«الحرية» وبعض الرفاهية الزائدة عن الحاجة في المسكن والملبس (١١). وعلى الشعوب الإسلامية التي ينادي دينها باللجوء إلى القوة العسكرية والفتح والتي صنعت المدفع قبل أوربا أن تتفوق بالفنون العسكرية على هذه الشعوب المسيحية. التابعة لدين يدعو إلى السلام وعدم استخدام القوة (١٢).

ويعود ضعف المسلمين، كما يقول محمد عبده، إلى الخلافات السياسية التي نشأت بين الخلفاء المتنافسين؛ ولابد من معالجة الأمر بخلق اتصالات وثيقة بين العلماء المشتتين في أنحاء الدنيا من أتراك وأفغان ومغاربة وهنود ومن الحجاز وغيرهم (١٣)، وهو يرى أنه لا بد من إنماء هذه الاتصالات حتى وإن كان المعجبون بالحضارة الغربية - عملاء أوربا الاستعمارية - يتهموننا بالتعصب ! هذا التعصب الذي يعني في العربية نزعة البشر إلى التجمع، هو شعور حميد وفضيلة ضرورية لوحدة المسلمين. هؤلاء المتعصبون لم يأتوا بتصرفات متطرفة - الأمر الذي يحرمه دينهم على أية حال - إلا خارج حدود الجزيرة العربية حينما ابتعد الإيمان عن نقائه الأصلي (١٤).

وبعد مدح التضامن الموسوم بالتعصب، يأتي مدح الانصياع للأوامر الإلهية وهي أوامر حتمية (١٥)، ويتساءل ألا يجد هذا السلوك تأييدًا له في الحتمية العلمية المعاصرة التي تقود تاريخ الحضارات؟ فالإنسان الذي يعتقد أن مصيره مقدر سلفًا لا يتراجع أمام أية مخاطر، وبما أن هذا الإيمان هو ما كان يحرك المسلمين الأوائل، فقد واتتهم الجرأة على غزو ممالك كثيرة، ولكن حياة مرفهة جاءت بعد هذا فعلمتهم الكسل والخنوع، ولابد

من اتخاذ موقف من هذا الوضع بإيقاظ هذه الآلية في قلوبهم من جديد، وفي النهاية سوف تأتي الفضائل المأخوذة من القرآن ومن سلوك الأقدمين لتعيد إلى الوجود مجتمعًا مسلمًا متسقًا وقويًا، قادرًا على الوقوف أمام أي تدخل أجنبي (١٦).

إن اتحاد المؤمنين، على الرغم من الطموحات التي تفرق بين حكامهم، هو أمر يفرض نفسه بشكل عاجل ويعد واجبًا مقدسًا (١٧). فالتواطؤ المستنكر بين الأمراء والجنود الإنجليز هو الذي أفضى إلى دخولهم إلى أفغانستان والهند (١٨). وفي ظل هذه الظروف سيكون اليأس خطيئة في حق العناية الإلهية (١٩). هؤلاء الأمراء الذين عهدوا بشئون بلادهم إلى الأجانب من ذوي المصالح والذين ليست لهم علاقة بدين الشعب أو أخلاقياته هم مخطئون (٢٠).

ويتابع محمد عبده فيقول إنه لا بد من الإقدام على إنجازات ذات قيمة حتى تضمن صيتًا جيدًا (٢١)، فإيران التي حاولت بعض جرائدها أن تكون صدى للعروة الوثقى مدعوة لتوحيد سياستها مع سياسة أفغانستان على الرغم من الاختلافات العقائدية بين الشيعة والسّنة (٢٢). ويرى أن كل إيمان حق يؤتي ثماره (٢٣). فتاريخ تدهور الدول الإسلامية يندد بالحكام الذين انتهكوا مبادئ التعاليم القرآنية مثل الوحدة واستشارة حكماء الجماعة، والتسلح، والعدل، وهي المبادئ التي لن يكف العلماء عن المناداة بها (٢٤) كما ينادي بالوعي والاحتكام إلى الضمير (٢٥) وبالكف عن الجبن (٢٦) !

وبالنبرة الخطابية والهجومية والتمردية نفسها، كانت المجلة تقدم إلى قرائها تطورات المشكلة المصرية. ومن أجل طرد الإنجليز عن وادي النيل، كانت تؤكد على الطابع الدولي للوضع وتدعو إلى تيقظ فرنسا وروسيا، وتذكر حق السيادة العثمانية وتعزو إلى ثورة المهدي بالسودان أهمية مقاومة لا تكل ضد الاحتلال (٢٧).

وفي بداية صيف عام ١٨٨٤، سافر محمد عبده إلى لندن حيث قام صديقه بلونت Blunt مؤلف «التاريخ السري لاحتلال الإنجليز لمصر (٢٨) بتقديمه لرجال الصحافة

والبرلمان والحكومة للدفاع عن قضية مصر (٢٩). فهل كان من شأن هذه المباحثات أن تسفر عن انسحاب الجيش الإنجليزي من السودان، بفضل وساطة جمال الدين لدى المهدي عشية موت هذا الأخير؟ هذا ما يجعلنا نعتقده رشيد رضا تلميذ محمد عبده والمؤرخ لحياته (٣٠) وهو يؤكد أن المنفي المصري وهو في طريقه إلى الخرطوم بعد أن قام بزيارة إلى بعض أعضاء الجمعية السرية في تونس عاد إلى وطنه متنكرًا في شهر مارس من عام ١٨٨٥ (٣١).

وعلي أية حال، توقفت المجلة عن الصدور بعد العدد رقم ١٨، الصادر في ١٦ أكتوبر ١٨٨٤، ولايعزى هذا الفشل فقط للرقابة الإنجليزية التي كانت تسعى جاهدة لمنع وصول هذه الدورية الضيئلة ذات الصفحات الأربع من القطع الكبير إلى مصر والهند، وإنما لانعدام الخبرة أيضًا كما يتضح من انخفاض المساعدة القادمة من القراء البعيدين (٣٢) وكما كانت ثاوية في نفسية الطرفين المتصارعين وفي مواقفهما المتبادلة. ففي الوقت الذي سقطت فيه العروة الوثقى قاومت مجلة أبو نضارة ضربات الرقابة نفسها.

والعروة الوثقي التي تعد ابنة مجموعة من الأحداث السياسية، ولدت من التقاء عقليتين غاضبتين وفي ظل إحساس بالمرارة ومعاناة من البطالة نتيجة للنفي.

فهل كان لردود أفعالهم المتطابقة المعنى نفسه في البداية؟ إن الاجتماع على البرنامج نفسه والاتحاد من أجله والتطلع. للطموحات نفسها وخلق عروة وثقى بحق كان يستلزم أن يولد نفس الشعور بالإحباطات نفسها أولاً . غير أن إحباط جمال الدين جاء أولاً من فشله في أفغانستان، بينما إحباط محمد عبده جاء من موقف الخديوي توفيق منه.

صحيح أنه كان هناك عدو مشترك ممثلاً في الإنجليز، كما أن الألم المشترك وقلة حيلة القوميين قرّب بينهما، ولكنه تقارب عاطفي بين شخصيتين تتبادلان الإعجاب - بلا شك - وإن بقيتا مختلفتين كل الاختلاف: فأحدهما كان معلمًا متسلطًا، عبقريًا ومستوحشًا طبقًا لعبارة بلونت Blunt (٣٣)، «وعقلية قبلية تجريبية»(٣٤) والآخر مريد له، فلاح، طرد من وطنه

الذي ولد على ترابه وكان يبحث عن الاستقرار والقيم الدائمة. عبثًا حاول محمد عبده في باريس أن يكتسب مواهب جمال الدين الاستثنائية التي شتتها في التعقيدات السياسية(٣٥) لينشئ عليها صفوة شابة. لاشك أن جدله حول القومية الإسلامية كان وراءه رأي شخصي وطموح عنيف لا يملك أن يتحقق. فلكثرة ما عاش مهددًا ومطاردًا، بعد أن حكم أفغانستان بصفته رئيس وزرائها في سن السابعة والعشرين، حاول أن يثأر لنفسه بألا يكون على رأس مجرد دولة صغرى وإنما على رأس الأمة الإسلامية الضخمة التي كان يخاطبها من أعالي سفينته الباريسية. وما بين رجل الدولة هذا الذي وضع الدين بعنف في خدمة خطته الدينية و «فلاحنا» الورع الذي أراد أن يضع سلطته الرسمية في خدمة قيم أخلاقية دينية، كان من الصعب أن يستمر التعاون (٣٦). لهذا نرى المصري منذ مطلع عام ١٨٨٥ يعود إلى بيروت لتدريس علوم الدين، بينما أخذ الأفغاني يتابع حياته الثورية في أوربا، ثم في إنجلترا وحتى روسيا . وبينما كرس محمد عبده نفسه بعد أن عاد إلى وطنه عام ١٨٨٨ (٣٧) لإجراء إصلاحات قانونية واجتماعية وتربوية وفكرية به، أخذ الثوري نافد الصبر يشغل مناصب عُليا في فارس وتركيا(٣٨) ليفقدها تباعًا بعدها. ثم بدأت المراسلات بين الرجلين تفتر. وعند وفاة جمال الدين عام ١٨٩٧ لم يرثه محمد عبده إلا بصورة تقليدية (٣٩). ومع هذا، إذا كان مؤسسا العروة الوثقى قد انصرفا عن حلم القومية الإسلامية الأكبر الذي تكشف استحالته العقائدية والسياسية بالمثل (٤٠)، فإن المجلة كان لها تأثيرٌ مؤكدٌ على تنامي مشاعر العصيان في دول عديدة تحتلها إنجلترا (٤١).

كانت فترة الإقامة التي امتدت ستة أشهر في باريس، وعلى الرغم من أن رحلة لندن قد تخللتها، كفيلة - مع هذا - بتكوين معرفة ما عن فرنسا لدى محمد عبده الذي برهن في مصر على أنه يملك عقلية متفتحة بشكل خاص. ولكنه للأسف لم يسعه الإفلات من سطوة جمال الدين، ولا من هموم التحرير والنشر المتجددة دائمًا. فكان يمضي جل وقته ما بين المطبعة متعددة اللغات الكائنة في ٦ شارع مارتيل Martel، ومكتب المجلة القائم أعلى أحد منازل شارع سيز Sèze.

وقد شهدت هذه الغرفة الصغيرة مرور شخصيات غريبة الأطوار، كانوا فرسانًا هائمين يجرون وراء مثال مبهم، وإن كان مشرقًا نوعًا فقد قابل فيها بلونت يوم ٢٧مارس عام ١٨٨٤ سيدة روسية، ومحسنة أمريكية، واسْتَطْيَبَ اللغة الإنسانية التي كان يتحدث بها اثنان من البنغال من أصحاب نظرية الاتحاد بالرب وقد تأثرا بظهور المهدي تأثُّرا بالغًا. رأى هنودًا، وفرسًا، وأتراكًا وسوريين، وكان الجميع يدور في فلك المعلم الأفغاني الذي بدا كالكاهن المبجل وسط هذا المزيج الشرقي من الوجوه والثياب واللغات. أحيانًا كان الفضولي أبو نضارة يمر على الغرفة الصغيرة، أما الذي نكاد نجده فيها بصفة دائمة فهو رجل فارسي غريب الأطوار اسمه ميرزا بكير يكاد أن يكون ناسكًا وصاحب رؤى، وهو بعد أن كان مسيحيّاً، ثم شيعيّاً، ثم ملحدًا يهوديّاً، انتهى به الحال باختراع عقيدة جديدة إسلامية مسيحية احتفى بها بأبيات فارسية وبمنشورات فرنسية (٤٢) وقد تمثلت مهمة هذا الرجل بطبيعة الحال في القيام بالترجمة، مما جعل محمد عبده، ذلك الكنز الذي لا ينضب معين بلاغته في اللغة العربية، يستغني عن تعلم اللغة الفرنسية. ومع هذا، وعلى الرغم من هذه الصحبة التي حجبت عنه الحياة الباريسية، فقد تحرر الشيخ على طريقته. فقد اندهش بلونت من رؤيته وقد أصبح «أوروبيّاً بعض الشيء» خلال شهرين أمضاهما في باريس. إذ حلق لحيته، وتخلّى عن عمامته وارتدى طربوشًا عوضًا عنها. ونستطيع أن نلمس تحرره كذلك من خلال الصراحة اللاذعة التي غلفت آراءه ضد السلطان (٤٣).

ولكن هذه الرحلة إلى باريس لم تستمر طويلاً بلا ثمار، ذلك أن محمد عبده الذي أصبح قاضيًا ثم مستشارًا، في محكمة الاستئناف في لحظة كانت هناك حاجة جلية إلى إجراء إصلاح في الإجراءات القانونية في المحاكم الشرعية، أحس بالحاجة إلى اتصال أوثق بالأفكار الفرنسية، لا سيما وأنه كان على صلة بقضاة ضليعين في القانون الفرنسي الذي وضع التشريع المصري على نهجه. لقد عرف في باريس أن حمى العروة الوثقى أبعدته طويلاً عن المنابع. وقرر أن يعوض الوقت الضائع، (٤٤) كان في الرابعة والأربعين

من عمره حينما انكب على تعلم اللغة الفرنسية التي استطاع ذات يوم أن يفك حروف هجائها تحت إشراف أبي نضارة قبل أن يتم نفيه. ولم يقف الشيخ طويلاً عند القواعد وإنما شرع مباشرة في قواعد رواية لألكسندر دوما، مع الحرص على أن يتم تصحيح المنطق له وأن تشرح له المفردات. وبقي أمامه أن يجيد التحدث باللغة الفرنسية خلال إجازاته سواء في فرنسا أو في جنيف.(٤٥) ويمكننا القول إن تجربته الأوروبية في عام ١٨٨٤ حتى وإن كانت قد انحصرت في معرفة جغرافية بالأماكن، إلا إنها شجعته على القيام بمزيد من التنقل، وأصبحت ذكريات الرحلة دعوة إلى السفر.

ومع هذا، فإن المعلومات تنقصنا عن أسفاره إلى فرنسا قبل عام ١٩٠١ . ولا شك أنه أمضى بعض إجازات الصيف بها. ويبدو أن اهتمامه بالقانون هو الذي جعله يختار حوذيًا متخرجًا من الحقوق للحديث معه خلال نزهاته بالضواحي الباريسية(٤٦). وكان يزور المنشآت التعليمية خاصة الكليات والمدارس العُليا حتى ينشئ جامعة في مصر(٤٧). ويوم ذهب للقاء جوستاف لوبون Gustave Le Bon وهو مؤلف عمل جميل حول الحضارة العربية، ترك له الكاتب بطاقة بياناته الشخصية نظرًا لذهابه إلى الريف، وبدأت بعدها مراسلة بسيطة ودية تنمو بين الرجلين.

ولكن في عام ١٩٠١ لم يستطع محمد عبده الذهاب إلى فرنسا. إذ إن حادثة طويلة بدأت في قسطنطينية بصحبة الشيخ علي يوسف رئيس تحرير «المؤيد» قد استغرقت إجازاته. وانتهت ملاحظاته بأن برهنت له على تدهور تركيا(٤٨). وبعد أن تملكه النفور من الشئون العثمانية، انكب على الإسلام من خلال بعض كتابات «الفرنجة» (٤٩) وفي «فيينا» وبرلين، بدأ يطلع على المراجع العربية الموجودة بالمكتبات قبل أن يخلو خلال بضعة أسابيع إلى دراسة اللغة الفرنسية في جامعة جنيف.

ولم تعد فرنسا ـ وقد أصبحت مألوفة لديه ـ وجهته الوحيدة في صيف عام ١٩٠٣. فقد عاد إلى إنجلترا ، ونزل بالطبع ضيفًا علي سير ولفريد سكيفين بلونت Wilfrid Scawen

Blunt في ضيعته بكريبيت Crabbet. وأقام كل من البروفسير كوكيريل Cockerell، وبويل Boil حفل تكريم في جامعة أوكسفورد حيث استطاع أن يقيِّم بنفسه تقييمًا دقيقًا عددًا من المخطوطات العربية المعروفة اسمًا فقط بالأزهر(٥٠). وقد أفاد إدوار براون Edward Browne وزملاؤه المستشرقون الذين استقبلوه في جامعة كمبريدج من تمكنه في فقه اللغة العربية. ولعل أهم لقاء أجراه هو الذي تم في بريتون Brighton مع هربرت سبنسر Herbert Spencer الذي أعجب به إلى حد أن ترجم له - نقلاً عن نسخة فرنسية - دراسته عن «التعليم» (٥١). فقد رثى الفيلسوف المتوفى سيادة القوة على حساب القانون في السياسة الأوربية، ووصف حرب منطقة الترانسفال بجنوب أفريقيا بأنها انتهاك للإنسانية وتنبأ بحرب عالمية مروعة، ثم ارتقى الحوار بينهما إلى الميتافيزيقا (٥٢). وتلك هي خلاصة هذا الحوار كما أوردها الشيخ في دفتره.

«هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين اكتشفوا الكثير من الأشياء المفيدة لتنمية العقل ولرفاهية الجسد، هل سيقدرون على الكشف عن طبيعة الإنسان ليكشفوها له؟ ألن ينجحوا في إزالة طبقة الصدأ التي تخفي هذه الطبيعة حتى يعود للنفس ألقها الروحي؟ لقد أعرب الفيلسوف عن قلقه إزاء العقلية الأوربية. وكشف العجز إزاء معالجة هذا الوضع رغم فاعلية العلم. فكيف السبيل إذن لمعالجة الأمر، الحل يكمن ببساطة في العودة إلى الدين. فالدين هو الذي كشف دومًا للإنسان طبيعته الخاصة(٥٣).

أراد محمد عبده أن يذهب إلى أسبانيا بدلاً من فرنسا حتى يتأمل - كما كان رائجًا في هذا الوقت - آثار العرب المجيدة، ومع هذا قرر زيارة تونس والجزائر . وعلى الرغم من بعض الشائعات التي كانت تعزو إليه نوايا ثورية فإن السلطات الفرنسية بشمالي أفريقيا استقبلته استقبالاً حسنًا . ولم يلقِ بالفعل في الجزائر سوى محاضرة واحدة عن نشأة القرآن. وفي تونس حيث لم يستطع أن يحظى بلقاء منفرد مع الباي فقد عدل عن جلسة كان مقررًا أن تقام في حضور إداري فرنسي، واكتفى بأن يلقي على الجمهور محاضرة حول

«المعرفة والتعليم». كان مقتنعًا بأنه من الأجدى لشركائه في الدين أن يكتبوا العلوم الدينية والعلمانية وأن يعملوا بحماس وإتقان في جميع المجالات دون الانشغال بالسياسة ـ ذلك أن أي توتر بين الشعب والحاكم من شأنه إيقاف التقدم. وأخيرًا، وبعد جولة في صقلية عاد إلى مصر في شهر أكتوبر ١٩٠٣.

وكل مسارات محمد عبده توضح لنا أنه يتأرجح بين قطبي جذب: الحضارة الأوربية وأرض الإسلام. فمع عودته إلى الحياة الطلابية في جنيف، وجهوده بصفته صحفياً لاجئًا في باريس، ورجل سياسة ـ لبعض الوقت ـ في لندن، وباحثًا للنصوص العربية في كل مرحلة ومحاضرًا في شمال أفريقيا، فقد شارك في الأنشطة الرئيسية التي قام بها الرحالة المصريون في القرن التاسع عشر.

ولم تترك له مشاغله المتعددة الوقت للكتابة عن أسفاره. ولم ينشر في المنار إلا مقالين عن رحلته إلى صقلية(٥٤).

هذه الصفحات القليلة التي تعد شديدة الضآلة لتأخذ مكانة مهمة في الدراسات الجادة التي كتبت عن محمد عبده، لها ـ مع هذا ـ أهمية كبرى في هذا المقام. إذ إنها تكشف لنا عن الرحالة النشط، الحذر. الذي يجري وراء المجهول. فمن أثر إلى آخر كان يجول على إيقاع خطواته الرشيقة بصره النافذ الذي ينم عن إعجاب أو سخرية. ولعل هذه النضارة تتضاد دائمًا مع الصرامة العتيقة التي اتسمت بها مجلة العروة الوثقى. ومن خلال هذه الصفحات نستطيع أن نقيس أيضا التطور الذي أنجزه الكاتب وهو تطور للفكر والشكل معًا. فمن خلال أسلوب نثري طيع وتلقائي مليء باللمحات اللاذعة، استطاع هذا المصلح أن يدرج في النص وجهات نظره وآراءه المفرطة في الجرأة أحيانًا .

فقد امتنع عن وصف قصر باليرمو الملكي الذي يماثل من حيث الكبر والفخامة والزينة والأثاث قصورًا ملكية أخرى في أوربا والشرق، حيث يبذر الأمراء بجنون ثروات اكتسبوها

بغير حق بما أنها تنتمي لعمال مستعبدين، تستحق أجسادهم العارية ولو واحدًا على مليون من المبالغ المنصرفة على تزيين بعض الحوائط. ولكنه في المقابل يتوقف بعض الوقت أمام الوثائق والذخائر العربية. ويقف عند الكاتدرائية التي يلمح من خلال معمارها الشكل المعماري الخاص بجامع عتيق، وعند كنيسة ترجع إلى القرن السادس الميلادي حافظ عليها المسلمون القدماء الطيبون بنبل أخلاقهم كذلك وعند المكتبة التي اطلع فيها على المخطوطات العربية.

ويشبه أرشيف الدولة أرشيف القاهرة، مع فارق وحيد أنه تم حفظ الأوراق فيه بعناية دون التفكير في بيعها بالقنطار أو بالجنيه! وفي متحف التاريخ الطبيعي وفي حديقة النباتات، كان لمرأى أدق العينات وأصغرها وهي معرّفة ومرسومة ومصنفة علميًا لخدمة الباحثين أثر في نفسه جعله يستنكر عدم الدقة، وهي الخاصية الملازمة للمعجميين العرب الذين يبجلهم الأزهريون غير المهتمين هم أنفسهم بتأمل ما يتعلق بحياتهم اليومية. ويرى محمد عبده أنه علاوة على معرفة المصري بلغته فإنه يتعين عليه قبل السفر أن يتعلم لغة البلد التي يسافر إليها حتى يوفر على نفسه خسارة مادية كبيرة متمثلة في تكاليف الدروس الخصوصية، وهو هنا يتحدث عن تجربة خاصة مؤسفة.

ويتوسع محمد عبده في كلامه الموجه إلى قرائه المسلمين فيتحدث عن قيمة الأعمال الفنية والحفاظ عليها وليس فقط عند الصقليين، وإنما عند الشعوب الأوربية الكبرى بشكل خاص. وهو يقارن المتاحف بديوان الشعر العربي الجاهلي الذي يعد محل عناية جميع الرواة (٥٥) والناشرين. فقد كان يريد أن يصل إلى التخلص من الإدانة المشئومة للأعمال الفنية التشكيلية وهو ما كان يتمسك به المتشددون، مرددين قولاً للنبي مؤداه أن من يصنعون أعمالاً تجسيدية سيكونون في الدرك الأسفل من النار. وهي كلمة لا بد أن تؤخذ في سياقها التاريخي قياسًا إلى الوثنيين المعاصرين لهذا الزمن وقت الدعوة الإسلامية. وبسخرية لاذعة يهاجم محمد عبده الإهمال الذي يعيبه على أبناء بلده، ولايقصد فقط

إهمـال التصـــوير والنحت، وإنما يقصد إهمال التراث الفكري كله: «فإن أردت أن أعدّد لك مـخطـوطاتنا التي حـفظـهـا الأوربيـون والتي ضـاعت علينا فـسـوف أكـتب في هذا الموضوع كتابًا سوف نفقده كما فقدنا غيره، وسوف تجده بعدها في يد أوربي في فرنسا أو في بلد أخرى».

أما الصفحة الأخيرة التي تحكي عن العودة فهي في مدح الأميرة خديجة (شقيقة الخديوي عباس الثاني، وزوجة عباس حلمي، فهي وإن كانت تتمتع بصحة جيدة فإنها لا تغادر جناحها، وتحتفظ بحجابها خلال جميع أسفارها إلى أوربا.

ويتبين لنا من خلال ما كتب أن الأمر يتعلق دائمًا بالحياة المصرية. أما السخرية التي زخر بها النص عن صقلية فكان من الممكن تمامًا لمحمد عبده أن يوردها تطبيقًا على فرنسا. ولا شك أنه كان سيتحول إلى وجه ليبرالي في نظر المتزمتين الذين كانوا يعيبون عليه أنه يحج إلى باريس بدلاً من مكة. وربما امتنع عن قصد زيادة عدد كتب الرحلات إلى فـرنسـا، وهو عـدد كبـيـر بالفـعل، ليـتـرك هذا النوع الأدبي - ترفـعًـا منه للصـحـفـيين والسياح(٥٦). وهذا لا يمنع أن موضوع صقلية كان بالنسبة له أقل إثارة للمشاكل وأكثر جدة. كما أن صقلية الواقعة في منتصف الطريق بين مصر وأوروبا - على الصعيدين الجغرافي والاجتماعي - منحته فرصة إبداء ملاحظات أكثر قابلية للاستيعاب وإمكانية للتطبيق على ضفاف النيل. فحتى قياسًا إلى المكان، كان هذا المصري يفضل القرب من بلاده التي ظل في كل خطوة من خطواته مُصلحًا وفيًا لها.

وقد اعترف أنه كان يسافر ليستعلم عن الظروف المعيشية لدى مختلف الشعوب ليستمد منها القوة من أجل نضاله . وقد كشفت له أسفاره أن مفاسد البلاد العثمانية تنبع من دائين هما: طغيان الأمراء والحياد عن العقيدة ، والاتجاه إلى ممارسات ليست لها أصول كتابية. ولكنه في كل مرة كان يذهب فيها إلى أوربا كانت تولد فيه من جديد آمال

إصـلاحيـة. يقـول : «رغم تضـاؤل هذه الآمـال بداخلي بمجرد عودتي بسبب الصـعـوبات العنيفة والمبالغ فيها التي كنت أواجهها، وبسبب عدم مبالاة المسلمين بمصـالحهم، وبغضـهم المفرط لأنفسهم، ورغبتهم العارمة في ترك طغاتهم يطبقون على أعناقهم، وحبهم في أن يتم استعبادهم من دون سبب مجدٍ؛ وحينما أعود إلى أوربا وأبقى فيها شهرًا أو اثنين، تعود هذه الآمـال لتراودني، واستعيد بسـهولة ما كنت أظنه غير ممكن ولا تسـألني عن السـبب، فلن أستطيع أن أفصله ولكن هذا هو ما تفعله بي الأسفار (٥٧).

وفوق الصحفي والسـائح، كان هناك بصفة خاصة المصلح الذي كان يسافر إلى أوروبا ـ طبقًا لما يقوله ـ لمجرد ذاته. كانت تلك الأسفار طلبًا للراحة النفسية بـلا شك ـ بعيدًا عن معارضة عاصفة، ولكنها كانت أيضًا استلهامًا محفزًا وعودة ضرورية للمنابع.

هذا الانطبـاع بحدوث نهضـة، هل من سـبيل إلى إعـادة الحـديث عنه بمزيد من الدقة؟ سيكون من الصـعب أن نبحث في أعمال محـمد عبده عن تأثيرات محـددة مسـتمدة من سفره إلى فرنسا لا سيما أن فرنسـا تتماهى لديه مع أوربا، وأن العقلية الفرنسية كانت لا تتضح له فقط من خـلال أسـفاره، وإنما من خـلال قراءاته، بل ومن خـلال المناخ الثـقافي للتعليم المصري بقيادة طلاب باريس السابقين. ونحن نعرف أن مكتبته كانت تحتوي ـ إلى جانب الكتابات العربية ـ على أعمال لروسو وفولتير وسولي برودوم Sully Prudhomme والفونس دوديه Alphonse Daudet وفيكتور هـوجو ولامـارتين ومـوسيه ورنون وتين Taine وجـول سيمـون Jules Simon إلى جانب أعمـال بعض علمـاء الإجتمـاع الإنجليز، خـاصـة هربرت سـبنسـر Herbert Spencer، وأيضًـا ترجـمـات فـرنسـيـة لروايات ودراسـات لتولسـتـوي(٥٨). ومن الأبهى أنه كان يهتم أيضًا ـ وبصـفة خـاصـة ـ بالكتابات الصـادرة باللغة الفـرنسية عـن الإسلام (٥٩). وإذا كانت علاقته بالفكر الأوربي قد بقيت سطحية نظرًا لتأخر تعلمه اللغة الفرنسية (٦٠) إلا إنه تأثر بالتيارات المعاصـرة مثل الوضـعـية، والعقلانية، والليبرالية.

ونحن نشعر أن هذه السطور العامة تكوّن الصورة التي صنعها لفرنسا، والتي لا نجدها على الإطلاق معروضة صراحة في كتاباته. وهو لا يذكر ملمحًا يمكن القول بأنه فرنسي بشكل خاص لهذا الشعب الذي يرى أنه يتميز بالذكاء (٦١)، وإن كان يبتعد عن النموذج المسيحي (٦٢) مثله في ذلك مثل جميع القوى الاستعمارية الأوربية. كما أن هذا الشعب - من وجهة نظره - يتبع مفكرين لا بد من تنبيه الشباب المصري - الذي يفرط في حب فرنسا إلى أخطائهم (٦٣)، رغم أنه - هو نفسه ودون أن يشعر - يدين لتجربته الفرنسية بنضجه الفكري وانطلاقته الإصلاحية.

وجدير بالذكر أن فترة إقامته الأولى في باريس، والتي وضعته في قلب الحياة الحديثة، جعلته ممثلاً للإسلام أمام الحضارة الغربية. وقد أخذ على عاتقه من خلال العروة الوثقى تصحيح صورة دينه، بالرد على رينون الذي فتح باب الجدل، مستخدمًا براهين لها وزنها، وبالتصفيق لرينون أيضًا حينما هاجم ببراعة الدين المنافس(٦٤). ومع بقاء محمد عبده راسخًا في عقيدته بدأ يتعاطف بشدة مع العقلانية التي حاول أن يكيفها في أرض الإسلام (٦٥). وكان عليه أن يتأمل معتقداته من خلال نظرة خارجية.

ولم يعد يدخل في نزاعات محلية حول تفاصيل تخص التفسير مع الأزهريين الذين هم مسلمون مخلصون مثله تمامًا، ولكنه أصبح يطرح قضايا أساسية من شأنها إقناع غير المسلمين بإعادة التفكير في الإسلام خاصة بالنسبة لمن يتحدثون وهم لايعرفونه، أو معرفتهم به قاصرة. ومع هذا، فإن دفاعه هذا، حتى الموجه لجبرييل أنوتو Gabriel Hanotaux (٦٦) منشور باللغة العربية وينهل من الأصول التقليدية للعقيدة (٦٧).

ونستطيع القول بالفعل إن علوم الدين لدى محمد عبده كانت مجرد توقف خاص بدلاً من أن تنتظم في إطار نظام متسق (٦٨)، وهي علوم براجماتية أكثر منها فلسفية أو عقائدية، وتستخدم كمدخل إلى أخلاق مدنية. لقد كان على هذا الرجل قبل التحرك والعمل أن يحطم القيود القديمة التي تمنع شركاءه في الدين من التقدم.

لقد كتم حنينه إلى وطنه خلال فترة نفيه في باريس تحت ضغط ترويج جمال الدين للقومية الإسلامية . كما أن تجربة العروة الوثقى ومن بعدها أسفاره إلى الدول العثمانية وضعته أمام حدود المشروع. لقد أسهمت محن كثيرة ـ نفسية وسياسية ـ في صياغة وطنيته المصرية. كما نادى بأن «ينبع حب الوطن من «الإيمان» وترك الوضع في مصر يملي عليه تحركه ودون أن يتوه في جدل حول طموحات الخلافة (٦٩) الكبيرة، حرص على التخفيف من حدة الطغيان . وعلى عكس الدعوات التي كانت تطلقها العروة الوثقى، فقد ذهب إلى حد أنه فسر الجهاد ـ أو الحرب المقدسة ـ بأنها لصالح التآخي: فهي جهاد داخلي وصراع ضد المشاعر السيئة من أجل الانتصار الأخلاقي على الذات (٧٠). وقد دعا إلى التسامح ليس فقط بين الطوائف الإسلامية(٧١) وإنما إزاء الديانات الأخرى أيضًا(٧٢) كذلك حمله إعجابه بالديمقراطية الأوروبية على أن يستخلص من العقيدة الإسلامية مبادئ حرية الذمة والعبادة والرأي بل وما يعادل فكرة فصل السلطات(٧٣). وفي عام ١٨٨٩، عين الشيخ محمد عبده عضوًا بالمجلس التشريعي. وسار على نهج رفاعة الطهطاوي في استخدام الألفاظ المستحدثة، وعبر عن مفاهيم مثل البرلمان والمنفعة والرأي العام باستخدام ألفاظ قانونية قديمة مثل «الشورى» والمصلحة، والإجماع (٧٤)، فقد رأى أن نشر النموذج السياسي الغربي باسم الإسلام سوف يرسخه بسهولة. وبهذا أصبح النضال ضد الطغيان نوعًا من التوفيق مع المؤسسات الحديثة.

من غير المجدي إثارة إنقلاب خارجي في حياة الأمة.. ألم يدفع المصريون غاليًا ثمن فشل عرابي؟ لا يمكن تحقيق العدالة إلا في مجتمع قد تطهر وانصلح حاله من خلال رجال مقتنعين بما يفعلون. وحتى تتم التغيرات المطلوبة في العادات الاجتماعية والعقلية للشعب فلا بد من إجراء إصلاحات تدريجية.

ولاشك أن وراء هذا الموقف بعض الأصداء، وأنه جاء بنتيجة ولو بعيدة لنظرية التطور بداروين وسبنسر (٧٥). وليس علينا ـ مع هذا ـ أن نبحث عن فكر فلسفي صريح وراء

العمل الاجتماعي لمحمد عبده، ذلك العمل المستلهم بالأحرى من حس عملي جيد (٧٦). وقد لفت نظر الحكومة وقت الإصلاحات القانونية إلى أن تطوير الكوادر التقنية ستظل حبرًا على ورق طالما أن القضاة المعينين لهذا الغرض لم يتلقوا تعليمًا فكريًا وأخلاقيًا أفضل، وطالما لم يتم تحسين ظروفهم المادية. هكذا صاحب إدخال بعض المفاهيم القانونية الحديثة في محاكم الأحوال الشخصية المصرية إنشاء مدارس للقضاة (٧٧). وأما بخصوص موضوع تعدد الزوجات، فقد أبدى محمد عبده منذ عام ١٨٨١ (٧٨) تحفظات قاسية مستمدة من مبحث الذمة نفسه الذي يرى أنه يطالب بعدالة نفسية أعمق من أي تقسيم مادي إزاء زوجاته الأربع المحتملة وقد أضاف حجة أخرى مستقلة عن الدين إلى براهينه، بعد أسفاره، وهي أن هذا النظام الخاص بالزواج والذي ليس له ما يبرره إلا في الزمن الماضي «يلغي النظام الأسري، ويجعل من الأزواج والأبناء أعداء بعضهم في مواجهة بعض لتمتد هذه المفسدة بعد هذا من الأفراد والجماهير إلى الأمة نفسها»(٧٩). وتعليقًا على القرآن، يؤكد محمد عبده على وجوب العمل، فالحسنة لا بد أن تحرم على العاطل(٨٠) وإذا كان الشيخ ينصح مواطنيه بأن يكون جهدهم معادلاً لجهود الأوربيين الذين تعرف على نشاطهم، فقد انكب في الوقت نفسه على معالجة مسائل تتعلق بالطبقات الفقيرة. فأسس «الجمعية الخيرية الإسلامية» ليكفل لهم مستوى من التعليم، إضافة إلى مساعدة نفسية ومادية. في هذا المقام أيضا نجح محمد عبده في استخلاص أفكار مرجوة بإدراج الإحسان الإسلامي في إطار هذه المؤسسات الحديثة التي طالما أعجب بها رفاعة من قبله في باريس. وبصفته المفتي الأكبر أي الناطق الرسمي عن القانون الشرعي أصدر محمد عبده ثلاث فتاوى لايمكن أن تنسى (٨١). جاءت الفتوى الأولى لصالح الاقتصاد القومي، إذ أجازت للمسلمين الحصول على فوائد مالية مما سمح بإنشاء بنوك ادخارية (٨٢)، أما الفتوى الثانية فقد أجازت تناول لحوم ذبحها غير المسلمين. وسمحت الفتوى الثالثة بارتداء الزي الأوربي إذا استدعى الأمر (٨٣). هذا الانفتاح على نمط الحياة الغربية صدم المحافظين حتى قالوا إنها بدع وهرطقة.

ومع هذا، عقد محمد عبده على التعليم آماله الكبرى فطالب بتوائم أفضل للمناهج مع العقلية المصرية (٨٤)، وبأن تتوافق اللغة العربية على نحو أفضل مع متطلبات الفكر الحديث. وقد تحمس بشدة للطرق البسيطة التي اتبعها راهب كبوشي في باليرمو في تدريس اللغة العربية لطلبة أجانب (٨٥). فبفضل هذه البساطة يستطيع الأوروبي استساغة الكتب العربية أفضل من المتحدثين باللغة العربية (٨٦). ولا يعد إصلاح اللغة مجرد وسيلة لتحقيق مزيد من العدالة في المحاكم الإسلامية، وإنما هي وسيلة أيضًا لإصلاح القانون وقد أعلن الشيخ أنه «إذا كان المسلمون يتبنون عقائد ومعتقدات فاسدة فذلك أنهم لا يفهمون نصوص دينهم العربية، وهذا مبعثه دون شك جهلهم بلغتهم، وبتراثها العلمي والأدبي» (٨٧). وقد استمر مجمع اللغة العربية الذي أنشئ على نسق الأكاديمية الفرنسية في العمل خمسين عامًا لإنجاز المعاجم الاشتقاقية والتقنية اللازمة، والكتابة عن تاريخ تطور اللغة(٨٨). وقد هجر هو نفسه الأسلوب المقعر والمطول الذي كان يكتب به في مطلع شبابه إلى أسلوب أكثر طبيعية وحيوية ودقة، ولا شك أن هذا يرجع إلى اتصاله باللغة الفرنسية وحاجته إلى توصيل ملاحظاته وأفكاره الجديدة إلى الجمهور.

كان إصلاح الأزهر الذي طالما تمناه كل من رفاعة وعلي مبارك هو أكثر الأشياء قربًا إلى قلبه، وقد أنشأت الحكومة عام ١٨٩٤ بناءً على دعوته لجنة إدارية تم تعيينه عضوًا فيها. فوضع خطة شاملة واسعة (٨٩). ونجح في مضاعفة دخل المؤسسة ثلاثة أضعاف، وفي تأمين توزيع حكيم له، وتحسين الظروف الصحية، وتأسيس مكتبة جامعية. وبدأت تظهر منذ ذلك الحين بعض العلوم الدنيوية في المناهج الدراسية، وتم تحديد تواريخ السنة الدراسية والإجازات. أما شهادة العالمية التي كانت مجرد إجازة فردية فقد أصبحت نتيجة امتحان إجباري. وعلى الرغم من قسوة النكران الذي مني به (٩٠) إلا أن هذا الجهد لم يكن عقيمًا. بل إن إصلاحات أكثر تأثيرًا تم تحقيقها غداة وفاة محمد عبده (٩١)، خاصة تنظيم الدراسة وتصنيفها إلى مستويات ثلاثة : الابتدائي، والثانوي، والعالي، مثلما فعل علي مبارك في التعليم العام نقلاً عن النموذج الفرنسي.

وتعد الإصلاحات التي أدخلها محمد عبده على التعليم الديني بالأزهر امتدادًا مباشرًا لتلك التي قام بها سابقوه الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا مثل رفاعة وعلي مبارك، والتي طبقوها على أرضية ممهدة أكثر هي أرضية الحياة العلمانية. وفي الأزهر عزوا هذا الحديث الذي أجراه المعلم - عن حق - لتأثير أسفاره إلى فرنسا. وكانوا يرددون بمكر أن «من يذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق». و «زنديق» لفظ ديني يعني الشخص المدان بالهرطقة، وهذا يجعله عرضة لإقامة الحد عليه (٩٢). هذا المقت الذي جاء نتيجة ظلم نابع من عصبة متدينة وتابعة للخديوي(٩٣) ليزايد به على الأحكام السيئة المسبقة التي واجهها رفاعة بعد عودته من باريس.

كان عرابي يقول إن رأس محمد عبده يعلوها القبعة أكثر من العِمّة(٩٤). وهي مزحة مبالغ فيها فحتى أثناء إقامة الشيخ في باريس فإنه لم يترك العمة إلا ليرتدي الطربوش، وهو غطاء رأس له دلالته التي يمكن أن نقول عنها إنها رمزية، إذ تجسد وضعًا وسطًا بين التقاليد الموروثة والتشبه بالشكل الأوروبي. فحداثة محمد عبده ليست تحولاً متلفًا للشخصية المصرية، ذلك أن هذا الفلاح الأزهري الذي دعاه حسه الجديد إلى محاولة التوفيق بين الدين الإسلامي وأشكال الفكر المعاصر، إنما أراد تجديد الحياة الروحية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية لشركائه في الدين دون أن يتم هذا بانتزاع الجذور، وإنما بتكييف الثقافة السياسية والليبرالية الخاصة بالغرب لتتلاءم مع الأرض القومية بعد تحريرها وتطهيرها. وقد وصل العديد من أفكاره بالفعل إلى المجال العام : فأخذ جيلان يتحدثان كثيرًا عن الاتفاق الواجب تحقيقه بين العقل والإيمان، والنضال ضد الجماعات الدينية، والحرية إزاء المذاهب، وضرورة الحد من تعدد الزوجات والطلاق، ووجوب التسامح، والديمقراطية الإسلامية، وتحديث الأزهر واللغة العربية (٩٥). وبعد مضي خمسين عامًا على وفاته، ظلت الحلول الجذرية أو الجزئية التي جاء بها لهذه المشكلات في قلب ما يشغل مصر التي تحررت.

صحيح أن ألقابًا مثل «صحفي» و «رحالة» لا تكفي للتعريف بهذا المصلح الكبير الذي مثّله محمد عبده، ومع هذا، فإن أسفاره التي قام بها - خاصة إلى فرنسا - كانت أصل

أفكاره الحديثة. تلك الأفكار قام بنشرها على الرغم من ذلك في مقالات مختصرة، وقوية وليس في دراسات مطولة. ولا شك أن اتصاله باللغة الفرنسية من ناحية وإيقاع الصحافة الحماسي من ناحية أخرى كان لهما الفضل في أن أسلوبه ذا الرنة الكلاسيكية التامة اكتسب مزيدًا من السلاسة والدقة.

أما الصحفي بامتياز فهو أبو نضارة، المراقب الحاذق والرجل الساخر الذي تحرر تمامًا من قواعد اللغة العربية الفصحى. وقد بقي خلال سنواته الأولى في باريس متعلقًا تعلقًا وثيقًا بالشعب المصري من خلال بساطة اللغة العامية وتأجج دعاية مناهضة للخديوي ولبريطانيا.

****

الهوامش

(١) تعرف محمد عبده على جمال الدين الأفغاني بالفعل في عام ١٨٦٩، حينما توقف الأخير في القاهرة وهو في طريقه إلى قسطنطينية.

(٢) تخليص الإبريز صـ ١٦٠.

(٣) هي ترجمة عربية صدرت باسم «التحفة الأدبية» بقلم يونان نعمة الله خوري (١٨٧٧). ارجع لمقال محمد عبده عن «التحفة الأدبية»، الأهرام السنة الأولى، العدد رقم ٤١، والمقال مستلهم من جمال الدين الأفغاني. ارجع إلى: Hourani: Arabic thought in the Liberal age, 114.

(٤) «خطأ العقلاء» وهي سلسلة مكونة من ثلاثة مقالات، صدرت في الجريدة الرسمية يوم ٤، ١١ و ١٩ إبريل ١٨٨١.

(٥) لم يأخذ جانب عرابي إلا في مارس أو في إبريل عام ١٨٨٢، حينما مس الإنجليز بالتواطؤ مع الخديوي الاستقلال القومي، حينئذ بدت له أن قضية الثوار هي قضية الوطن.

(٦) نشر في جريدة La Justice (العدالة) مقال تحت عنوان «الإنجليز في مصر» قدمت له جريدة Le Journal des débats (جريدة المناقشات) عرضًا يوم ٦ إبريل ١٨٨٣ - انظر:
H. Pakdaman: Notes sur Le Sédoare de Djamal al - din al - Afghani en France.

(7) Le Journal des débats, 19 mai 1883.

(٨) انظر : الاعداد رقم ٣٠ مارس ـ ١٨ و ١٩ مايو ١٨٨٣.

(*) Jules Mazarin جول مازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١) وزير فرنسي إيطالي الأصل يحتل مكانة مهمة في تاريخ فرنسا وأوربا نظرًا لإنجازاته الواسعة. (المترجمة).

(٩) انظر محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام - الجزء الأول ٨٩٤؛ والرافعي - الثورة العرابية - ص ٥٨٢ - ٥٨٦؛ والعقاد: محمد عبده ١٤٦ - ١٥٧.

(١٠) Le lien indissoluble هو العنوان الفرنسي الذي اتخذته المجلة، أما الترجمة الصحيحة للعروة الوثقى فهي: L' anse La Plus solide طبقًا لترجمة بلاشير للآية رقم ٢٥٧ من سورة البقرة.

(١١) العروة الوثقى، العدد رقم ٣.

(١٢) السابق - العدد رقم ٤.

(١٣) السابق - العدد رقم ٥.

(١٤) السابق - العدد رقم ٦.

(١٥) السابق - العدد رقم ٧.

(١٦) السابق - العدد رقم ٨.

(١٧) السابق - العدد رقم ٩.

(١٨) السابق - العدد رقم ١٠.

(١٩) السابق - العدد رقم ١١.

(٢٠) السابق - العدد رقم ١٢.

(٢١) السابق - الأعداد رقم ١٢ - ١٣.

(٢٢) السابق - العدد رقم ١٤.

(٢٣) السابق - العدد رقم ١٥.

(٢٤) السابق - العدد رقم ١٦.

(٢٥) السابق - العدد رقم ١٧.

(٢٦) السابق - العدد رقم ١٨.

(٢٧) طبقًا لبعض الأحاديث السّنية يتنبأ الرسول بقدوم «مهدي» وهو رجل يرشده الله ليخلص العالم من السوء، ولينصر المؤمنين ويحقق السعادة الدائمة للمسلمين، وبهذه الصفة قام محمد أحمد المولود في عام ١٨٤٣ في دنقلة بالتمرد على الإحتلال الإنجليزي. وتوفي في ٢٢ يونيو عام ١٨٨٥ بعد أن استولى علي الخرطوم، «كلما أحست الجماهير المسلمة بالاضطهاد والذل من حكامهم أو من أسياد غير المسلمين اشتعلت رغبتهم في ظهور هذا المصلح الأخير الذي سيعيد الإسلام الحق وسيغزو العالم أجمع بالإسلام».

Macdonald, Enc. de L' Islam, 1re éd., III, 120)

(٢٨) عن بلونت Blunt ودوره، ارجع إلى Hourani: Arabic thought, 110 - 111

(29) Blunt: Gordan al Khartoum, 274 - Pall Mall Gazette, 17 août 1884.

في العدد رقم ١٤ من العروة الوثقى، يذكر محمد عبده حواره مع وزير الحربية البريطاني.

(٣٠) محمد رشيد رضا: تاريخ ـ الجزء الأول ـ ص ٢٨٠.

(٣١) السابق.

(٣٢) السابق، الجزء الأول، ص ٤١٦.

(33) Wild man of genius . Blunt: Secret history, 100.

(34) Bennabi: Vocation de L' Islam, 48.

انظر : محمد رشيد رضا ـ تاريخ، ج١، ص ٩٧٦ ـ ٩٧٧؛ العقاد: محمد عبده ص ١٢٢ ـ ١٤٥.

(٣٥) محمد رشيد رضا ـ تاريخ ـ ج١ ـ ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٣٦) من خلال تعريف للوطن جاء في مقال مهم لمحمد عبده نشر في جريدة «الوقائع المصرية» الصادرة يوم ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ يتضح مفهوم حديث للقومية المصرية التي تخلو من فكرة القومية الإسلامية. وقد تأكدت هذه النزعة من خلال ما أنجزه لطفي السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) الذي ترك بأعماله بصمة على الحياة السياسية والفكرية والمصرية. فقد ابتعد عن فكرة القومية الإسلامية الخاصة بمعلمه جمال الدين الأفغاني ليسير على النهج القومي الذي انتهجه محمد عبده، بل وطالب بتمصير اللغة العربية. انظر:

Gilbert Delanoue: Ahmed Lutfi al Sayyid, Rev. des études islamiques, XXXI, 1963, 89 - 103.

(٣٧) «في عام ١٨٨٨، كانت سنوات المنفى الثلاث قد انتهت منذ حوالي ثلاث سنوات أخرى، ومع هذا فإن ضغينة الخديوي توفيق لم تكن قد تبددت بعد وكان لابد من حدوث ظروف مواتية وفرتها عودة رياض باشا إلى السلطة وتدخل بعض الأصدقاء المخلصين حتى يتم العفو عن المغضوب عليه. انظر: Jomier, Le Commentaire coranique 9.

(38) E. G. Browne: the Persian revolution. Cambridge, 1910, 30, 82, 83.

(39) J. M. Ahmed: The intellectual origins of Egyptian nationalism, 36.

(40) Louis Massignon, La Situation actuelle de L' Islam, Annuaire du Monde Musulman 1927, V. id: Le Problème islamique, Paris, Comité National d' Etudes sociales et Politiques. 19 21, 7; Louis Gardet; La musulmane, 215 - 218.

(41) Golsziher: Enc. de L'Islam, 1er èd. 1,1038.

(42) Edward Granville Browne: A year amongst the Persians, London, Adam and Ch. Black 1950 (3è éd.)

عبد القادر المغربي: جمال الدين الأفغاني ـ القاهرة – دار المعارف – ١٩٤٨ – ٥٤ – ٥٦.

(43) W. S. Blunt: Gordon at Khartoum, 207 - 208.

(٤٤) محمد رشيد رضا: تاريخ - ج١ - ١٠٤.

(٤٥) السابق، ج١، ص ١٠٥.

(٤٦) السابق - ج١ - ص ٨٦٦ - هامش ١.

(٤٧) السابق - ج ١ - ٨٨٥ - ٨٨٦، ص ٩٤٦.

(٤٨) السابق - ج١ - ص ٨٥٨.

(٤٩) السابق - ج١ - ص ٨٥٩.

(50) Blunt: My Diaries, II, 79.

(٥١) عثمان أمين: محمد عبده - ص ٣٣، هامش ٤ و ص ٢٧٠.

(52) Blunt: My Diaries, II, 69 - 70.

(٥٣) محمد رشيد رضا: تاريخ - ج١ - ص ٨٦٩.

(٥٤) ورد في كتاب محمد رشيد، رضا: تاريخ - ج٢ - ص ٤٧٣ - ٥٠٤.

(٥٥) لطالما ترجمة كلمة راوي بكلمة rhapsode. غير أن هذه الكلمة الأخيرة لا تغطي سوى جزء من معنى اللفظ العربي». هذا ما يقوله بلاشير في Hist. de La littérature arabe. I. 92.

ويوضح «أن الشاعر القديم كان يبقي معه راويًا، ونادرًا إثنين، وكان دوره كبيرًا، فمن خلاله كان يتم التحول من مجرد نشر فوضوي للشعر إلى مفهوم الجمع المنهجي للأعمال.

(٥٦) محمد رشيد رضا - تاريخ - ج٢ - ص ٤٧٤.

(٥٧) السابق - ج١ - ص ٨٤٦ - ٨٤٧.

(٥٨) بعد حرمان تولستوي من الكنيسة، أرسل له محمد عبده رسالة في ٨ إبريل ١٩٠٤، أعرب له فيها عن تعاطفه، ونشرها محمد رشيد رضا في تاريخ الأستاذ الإمام - ج٢ - ص ٦٢٣ - ٦٢٤، وترجمها بلونت Blunt إلى الإنجليزية في My Diaries «ج٢ - ص ٤٥٥ - ٤٥٦، وترجمها عثمان أمين إلى الفرنسية في كتابه «محمد عبده» ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٥٩) عثمان أمين - محمد عبده - ٢٨ - ٣٩.

(60) Jomier: Le commentaire coranique, 11 - 12.

(٦١) محمد رشيد رضا : تاريخ - ج٢ - ص ٤١٧.

(٦٢) السابق - ج٢ – ص ٤١٨.

(٦٣) السابق - ج٢ - ص ٤١٥.

(٦٤) السابق - ج٢ - ص ٤١٧.

(65) Jomier: Le commentaire coranique, chap. 3, Gardet et Anawati: Introduction à La théologie musulmane 83.

(٦٦) نشر آنوتو Hanotaux في الجريدة الباريسية لوجورنال Le Journal في عام ١٩٠٠ مقالاً تحت عنوان «في مواجهة الإسلام والمسألة الإسلامية» ونشرته جريدة المؤيد المصرية باللغة العربية، ورد عليه محمد عبده بمقالين ترجمهما طلعت حرب إلى الفرنسية ونشرا في القاهرة عام ١٩٠٥ مع مقدمة لهما تحت عنوان «أوربا والإسلام» وقد أخذ محمد عبده على آنوتو معرفة تاريخية جزئية وأثرها على فكر الفرنسيين الذين لايعلمون سوى القليل عن الإسلام، ثم اعترض على الاختلافات التي يذكرها آنوتو بين الآريين والساميين، وبين المسيحية والإسلام في مسألة طبيعة الله والقدر. وحول هذا الجدل انظر:

م. ر. رضا : تاريخ - ج١ - ص ٧٩٩ - ٨٠٤، ج٢ - ص ٤٠١ - ٤٦٨.

Carra de Vaux, Les Penseurs de L' Islam v, 263 - 265 -

Ch. Adams : Islam and modernism in Egypt, 86 - 89.

(67) Cardet et Anawati: Introduction à La théologie musulmane, 172.

(68) Jomier: Le Commentaire coranique, 80, 71, 98.

(٦٩) عثمان أمين: محمد عبده - ص ١٩٨.

لاوست Laoust ابن تيميه ص ٥٥٢.

(٧٠) رسالة التاريخ المقدمة - ١٢٩ - ١٣٠ - عن الجهاد انظر:

M. Gaudefroy - Demombynes: Les institutions musulmanes 119 - 120, L. Gardet: La cité musulmane, 95 - 96.

(٧١) محمد عبده - تقرير في إصلاح المحاكم الشرعية - القاهرة - مطبعة المنار - ١٩٠٠ - ص ١٥.

(72) Jomier - chap IX - X - et conclusion - 351.

(73) Laoust: Ibn Taimiya - 553 - El Barkouky rapports entre Le pouvoir judiciaire et le Pouvoir excécitif en Egypte - Poris Dalloz. 1925

(٧٤) انظر: , Gardet: La cité musulmane: Hourani: Arabic thought in the liberal age
144, 344.

(٧٥) محمد رشيد رضا : تاريخ - ج١ - ٤٢٤.

(٧٦) انظر عثمان أمين - محمد عبده ص ١٠٠ - ١١٢.

(٧٧) في تقريره (المذكور سابقا) طالب محمد عبده باستقلال القضاة (ص ١٨) وإعادة تنظيم الكوادر وتحديد الصلاحيات، والتعلق بروح القوانين وليس بكلماتها انظر:
Wadie M. Farag: Le rôle des tribunaux mixtes et indigènes d' Egypte en matière de statut personnel , Paris, Librairie Gén. de Droit et de Jurisprudence, 1926, J. Scha crt: L'évolution moderne du droit musulman en Egypte, Mélanges Maspero.

(٧٨) الجريدة الرسمية، العدد رقم ١٠٥٦ - ٨ ربيع الثاني عام ١٢٩٨ هـ - وقد جاء المقال في كتاب محمد رشيد رضا تاريخ - ج٢ - ص ١١٣.
(79) Jomier: Le commentaire coranique, 181.

طبقًا لمحمد رشيد رضا: تفسير المنار - ص ٣٤٩.
(80) Jomier: Le commentaire coranique - 174.

(٨١) «المفتي هو قاض ديني تعينه الحكومة، وهو مكلف بأن يمنح رأي الدين ممثلاً في فتوى حينما يستشار في أمر ما. ويأتي المفتي الأكبر قبل شيخ الأزهر، وتعد وظيفته هي الأعلى مقامًا من الناحية الدينية في مصر»
Gardet & AnawatiL Jntrod . à La théologie musulmane, 83, note 1 .

(٨٢) عن هذه الفتوى انظر جوميه Jomier ص ٢٢٢ ومايتلوها.
Maxime Rodinson: Islam et capitalisme, Paris, Seuil 1966, 159.

(٨٣) محمد رشيد رضا : تاريخ - ج١ - ص ٦٤٧ وما يتلوها و:
Blunt : My Diaries, II, 87. Ch. Adams: Muhamad Abduh and the Transwaal Fatwa.

(٨٤) محمد رشيد رضا : تاريخ - ج٢ - ص ٥٤٤ - ٥٤٥.

(٨٥) السابق - ج٢ - ص ٤٨١.

(٨٦) السابق ج١ - ص ٩٢٧.

(٨٧) محمد عبده: تفسير سورة العصر ـ مطبعة المنار ـ ١٩٠٣ ـ ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٨٨) محمد رشيد رضا: تاريخ – ج١ – ص ٩٢٦.

(٨٩) السابق ـ ج١ ـ ص ٤٢٥ ـ ٤٨٤.

(٩٠) السابق ـ ج١ ـ ص ٤٨٧ ـ ٥٦٦.

(91) Emmanuel Brunet: La crise de L' Azhar Correspondance d'Orient, 1. Juillet 1909, 618 - 628.

(٩٢) طه حسين: أديب وعن «الزنديق» انظر مقال:

Louis Massignon Enc. de L' Islam, 1 éd. IV, 1298 - 1299.

(٩٣) العقاد: محمد عبده ١٩٦ ـ ٢٢٠.

(94) Braodley: How we defended Arabi, 227.

(95) Jomier : Le commentaire coranique, 348 - 357.

****

الفصل الرابع
أبـو نضـــــارة
(١٨٣٩ - ١٩١٢)

تشكل حياة يعقوب صنوع موضوعاً لرواية جذابة، ولكن لمعرفة هذا الرجل معرفة حقيقية علينا أن نقاوم، من ناحية، التكتم الرسمي لمؤرخي النظام القديم في مصر الذين حرصوا بدورهم على إبعاد ذكرى مخيفة ، ومن ناحية أخرى ضد حميَّة بعض الصحفيين الذين يطورون – في صحف جد نادرة اليوم – سيرة ذاتية تتسم بالمجاملة تمت صياغتها في شكل نثر وشعر وحوارات(١)، ومع ذلك فلا يتعلق الأمر في هذا المقام بدراسة صحفي منفي.

ولد يعقوب صنوع في القاهرة في عام ١٨٣٩، ويعد سفره إلى إيطاليا، على نفقة الأمير أحمد باشا يكن، أهم أحداث مرحلة شبابه؛ فقد كان رافائيل صنوع والد يعقوب والذي يعمل رئيساً لديوان بنظارة المالية على صلة بالأمير أحمد باشا يكن، وعندما سافر يعقوب صنوع إلى إيطاليا كان قد قرأ بالفعل التوراة باللغة العبرية والقرآن بالعربية والإنجيل بالإنجليزية فضلاً عن تعلم بعض مبادئ اللغة الإيطالية، وكانت قد ظهرت عليه العلامات المبكرة التي تعلن عن شاعر جليس للأمراء.

ومن ثم أرسل وهو في الثالثة عشرة من عمره ليستكمل دراسته في ليفورن حيث كان يعيش فرع من عائلة أبيه، وهناك لم يقصر نفسه على دراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ والآداب والفنون الجميلة التي تلقن أصولها بذكاء وذوق، بل اكتشف بصورة خاصة مجتمعاً في حالة غليان وشعباً مفرط الحيوية محبّاً للحرية، وشحذت الصحوة القومية الإيطالية حماسته، وبعد هزيمة كاربو ناري عام ١٨٣١ ونشاط حركة إيطاليا الفتية التي أحياها مازيني شعر صنوع بتآلف شديد مع أفكار هذه الحركة وانضم إلى

المجموعات الطلابية والحرفية التي تكونت هناك، وكان يأخذ أحياناً الكلمة ليشيد بالأفكار الجديدة وهو يفكر بطريقة تلقائية في مصر.

وبعض مضي عامين عاد صنوع إلى مصر عام ١٨٥٥ وفقد والده وعائله، وليتسنى له العيش قدم خدماته بوصفه مترجماً للقنصليات ومكاتب الصرافة والمحاكم والنظارات، وبوصفه مدرساً للعائلات الثرية والجالية الأجنبية والمدارس الداخلية، وكان إنساناً لطيفاً وبشوشاً ومثقفاً؛ مما ساعده على النجاح كفنان وكمثقف، وكان يثير الإعجاب ويعلم من حوله، وأصبح ممتحناً في مدارس الحكومة، وتداخل مع كافة الطبقات الاجتماعية، كما حقق نجاحاً كبيراً في البلاط الملكي ومع العامة، ودرَّس الفرنسية لجمال الدين [الأفغاني] ولمحمد عبده، وغذى الطليعة - من الطلاب والضباط[٢] - بدروس عملية استخلصها من تجربته في إيطاليا.

أراد صنوع أن ينقل إلى مصر ما رآه في أوربا؛ ففي عام ١٨٧٠ بعد بناء دار الأوبرا وتعيين فرق جديدة للمسرحين الفرنسي والإيطالي بالقاهرة أنشأ مسرحاً جد بسيط لا يهدف إلى تقديم التسلية للخديوي وبلاطه وضيوفه فحسب، بل إلى التوجه إلى جمهور عريض جاهل، وقد تحدثنا في مقام آخر عن تاريخ هذا المسرح الذي كان مجهولاً تماماً[٣]. ويتعين علينا أن نستبقي في هذا الصدد ما كان لهذا المسرح من أثر عميق حتى إن الخديوي حيًا في صنوع «موليير المصري» مما شجع صنوع على استبدال المسرحيات الهزلية الساذجة على الفور بمسرحيات واعظة يجسد فيها المصري المتوسط بهمومه ومشكلاته ومعاناته حيث يقوم الممثل بوعظ الجمهور مباشرة قبل التمثيل، ومن ثم تحول المسرح إلى منصة، وكانت المنصة تنتقد بصورة مباشرة مفاسد الباشوات وتعدد الزوجات والأخلاق الفاسدة، وأثمرت الكلمات والحركات، وكان الجمهور يعبر عن نفسه ويعي ما يقدَّم إليه وهو جد متأثر، وذات يوم كان الخديوي حاضراً فتخوف وردَّ على ما يجري، وأدى غضبه إلى حل الفرقة اعتباراً من ١٨٧٢.

وأصبح صنوع منذ ذلك الحين مشبوهاً وحاول العمل في الظل، ونقل إلى المعارضة الشابة أساليب الإيطاليين في الكفاح السري، وأسس عام ١٨٧٣ «دائرة التقدميين» التي سرعان ما حلتها الشرطة.

وفي عام ١٨٧٤، وبناءً على اقتراح الخديوي ـ الذي كان يريد تجنب المشكلات ـ شرع صنوع – عن طيب خاطر – في رحلة إلى أوربا، والمؤكد أنه عاد مرة أخرى إلى إيطاليا وزار «فيينا» ولكن هل جاء إلى فرنسا ؟ الحق أن المعلومات غير كافية فيما يتعلق بهدف هذه الرحلة وخط سيرها، وعند عودة هذا «التقدمي» إلى مصر قدَّم لإسماعيل تقريراً في شكل نثر شعري عن رحلاته متوسلاً إليه إدخال إصلاحات جادة في مصر، مما فجر غضب الطاغية(٤)، ولكن كان صنوع لا يُقهر؛ فأنشأ في عام ١٨٧٥ جمعية «أصدقاء المعرفة»، وعندما ألغتها السلطات أوصى إلى زملائه بتأسيس جمعية ماسونية.

وأصدر صنوع في عام ١٨٧٨ ـ بدعم من الطليعة وبتشجيع شخصي من جمال الدين ـ مجلة هجائية عازمة على أن تضطلع في مجال الصحافة المصرية بدور مجلات الفانفولا Fanfolla أو سبيريتو فوليتو Spirito Folito في إيطاليا، أو الشاريفاري Charivari في فرنسا، أو البانش(٥) Punsh في إنجلترا، وكان عنوانها «أبو نضارة زرقاء» وهو اسم يرجع إلى معاناته من داء قصر النظر ولكنه يؤكد في الوقت ذاته على مهامه بوصفه مراقباً(٦)، وبرزت في المجلة مواهبه المستحسنة بوصفه ممثلاً مسرحياً إذ كان يستخدم لغة شعبية وحوارات حارة تُقدَّم على لسان شخصيات مألوفة مختارة من الحياة اليومية كالفلاحين والحرفيين والتجار الذين يقعون تحت سطوة محصلي الجبايات الجشعين(٧)، كما كان يقدم السخرية اللاذعة التي كان يخفيها بالكاد خلف رموز يمكن ببعض الذكاء تخمين(٨) الأسماء والمواقف فيها، وعرفت المجلة نجاحاً كبيراً بعد أن قرأها – ببهجة – عامة الجمهور وتذوقها وروج لها.

وفي الأصل فإن صنوع يعد نصيراً للأمير حليم بن محمد علي ومنافس الخديوي، ومن جانبه حرص إسماعيل – عن طريق المال تارة والتهديد تارة أخرى – أن يقضي على هذه اللغة المخيفة، بيد أن تلك الصفحات المتمردة صارت أكثر جدة وأشد عدوانية. وبعد أن تقطعت الجسور كلها لم يصبح أمام صنوع سوى تصرف حكيم بعينه وهو مغادرة البلاد، وأعلن العدد الخامس عشر للقراء هذا القرار المؤلم.

في ٢٢ يونيو ١٨٧٨ ركب صنوع القطار متجهاً إلى الإسكندرية، وروي أن الناس كانت تتعرف عليه في مختلف المحطات وتصفق له(٩)، وفي ٣٠ يونيو قاده أصدقاؤه السكندريون في موكب إلى الميناء، وهل كان قد تنبأ لهم – مثله مثل المنجمين – لحظة ركوبه على ظهر الباخرة فريسنيت Freycinet بأنه خلال عام «سيغادر الخديوي أيضاً مصر منفيّاً ؟»، وسريعاً ما زالت متعة الرحلة الجميلة برفقة سيدات الدرجتين الأولى والثانية بعد التوقف في مالطة بأيام قليلة بسبب هياج البحر عشية الوصول إلى مارسيليا(١٠).

ووصل صنوع إلى باريس دون أن يكون له أية علاقات هناك، وكان معه مائتا فرنك فقط داخل كيس نقوده، وكان يحمل معه خطابات توصية من القاهرة – من مدرسة الفرير حيث درَّس اللغة الإنجليزية لمدة أربع سنوات، ومن مؤسسة السيدة كاسيتل حيث درَّس الأدب الإيطالي واللغة العربية، ومن مُلاَّك فندق أوريون (الشرق) وفندق النيل – تشهد بأنه أعطى دروسًا نافعة للمسافرين الأوربيين(١١). وكلفته بعض المدارس الداخلية الصغيرة بإعطاء دروس في الرياضيات أو الرسم الهندسي، وفضلاً عن ذلك استطاع تكوين زبائن من الشرقيين الذين يتطلعون إلى تعلم الفرنسية، وبصفة خاصة من الفرنسيين الذين يأملون في تعلم العربية وهم الضباط الذين يتطلعون إلى السفر إلى إفريقيا، وتجار الحبوب الغذائية التي تنتج في المستعمرات والذين كانوا يستعدون للسفر إلى السنغال أو إلى الجابون إلخ(١٢). ولم يتوقف عن عرض خدماته من دروس وترجمات وموضوعات إنشائية بالعربية والتركية والفرنسية واليونانية والإسبانية والإنجليزية بأسعار معتدلة «والتزم دوماً بتعليم» الحديث باللغة العربية وفهمها ـ أيّاً كانت اللهجة ـ في ثلاثين درساً(١٣).

ومع ذلك ظل هدفه صوب عينيه، فبعد وصوله إلى فرنسا بشهر ظهرت مجلته مرة ثانية مطبوعة بطباعة حجرية تحت عنوان «رحلة أبي نضارة زرقاء»، وصدر العدد الأول بتاريخ ٧ أغسطس ١٨٧٨ وكانت أول صفحة فيها تقدم كاريكاتيراً ساذجاً يمثل الكاتب وفي يده عصا وهو يدين بلا رحمة – بناء على رغبة الفلاح الواقف بجانبه – الخديوي وهو راكع تحت قدميه. وتحت هذا الرسم يمكن تصنيف الجزء الأكثر إثارة لأعمال صنوع في باريس.

ولم يتوقف عن توجيه الضربات لإسماعيل ووزرائه، وكان مزهوّاً بنفسه لانتقامه للفلاح وهو يزج بهؤلاء في الوحل. وكشف صنوع لضمير الجمهور النقاب عن الأزمات المالية والإدارية وعن جلسات البرلمان والتدخل الأجنبي وغضب الجيش وسلسلة الأحداث المأسوية التي أدت إلى سقوط إسماعيل وعن أخطاء الاحتلال الإنجليزي وتوفيق، وكل ذلك في لغة ساخرة ولاذعة ومستفزة، وأصبحت الحوارات التي تقدم أحداث الساعة السياسية مصحوبة بكاريكاتيرات عليها تعليقات تنطق بالتهكم العنيف والمسلي، وكان رجال السلطة يقومون وكأنهم دمى في مسرح العرائس، وكان «موليير المصري» يرسم بدهاء شكلهم الخارجي وحالتهم النفسية ويقدمهم وهم يجيئون ويروحون وهم يتشقلبون ويقفزون صانعاً منهم مادة لتسلية الجمهور تسلية رائعة. ومع توالي صدور الأعداد تكوَّن رأي القراء الذين كانوا يرون في المسرحيات الجديدة ذات الأبطال بأسمائهم المستعارة ذاتها، ونقائصهم ذاتها، وحركاتهم المعروفة تمام المعرفة.

وكان هذا هو السبب الذي دفع البوليس المصري إلى متابعة بائعي جريدة أبي نضارة وقرائها بطريقة متشددة، وأدى هذا الإجراء في زيادة تعلق الوطنيين بالمجلة المحظورة(١٤). أما كاتبها فقد استطاع بدهاء أن يخادع يقظة الرقابة، وتمثلت أبسط صور الدهاء في تغيير عنوان المجلة تارة وشكلها تارة أخرى، فتغير عنوانها على سبيل المثال إلى النظارة المصرية، وأبو صُفَّارة، وأبو زُمَّارة، والحاوي، والوطني المصري، ومع ذلك ظلت تصدر تحت عنوان أبو نضارة من ١٨٨١ إلى ١٩١٠، وحافظت المجلة على روحها وأساليبها ولغتها حيث كانت اللهجة المصرية تغلب على اللغة العربية الفصحى.

بيد أن اللهجة المصرية لم تبق حتى النهاية اللهجة الوحيدة لأبي نضارة؛ فاعتباراً من يناير ١٨٨٥ ـ بداية عامها التاسع ـ خصصت المجلة بعض صفحاتها لتلخيص مادة أعداد المجلة باللغة الفرنسية، وبعد أن حاول المؤلف عام ١٨٨٣ أن يسمع المحتلين البريطانيين صوت مصر في اصدارين وهما الوطني المصري والإجيبشيان باتريوت (Egyptian Patriot) الصادرين باللغتين الإنجليزية والعربية، وموجهين نحو الجمهور الفرنسي الذي بدا أكثر قرباً وأكثر تعاطفاً، ومنذ ذلك الحين احتلت فرنسا مكانة أكبر في أعمال صنوع.

توسعت بالفعل علاقات صنوع في باريس، وأعجب الصحفيون الباريسيون بتفرد هذا الزميل الذي أراد طواعية أن يكون غريباً، وثمنوا عالياً طريقته وأسلوبه المصريَّيْن وبساطته في الحديث وارتجالاته المليئة بالصور، والجريدة الغريبة التي يكتب سطورها من اليمين إلى اليسار في قلب العاصمة الفرنسية بالدور الرابع بالمبنى رقم (٤) الواقع بشارع جوفروي ماري؛ أي على بعد خطوتين من ملهى الفولي برجير Folies-Bergère. وكان زملاء صنوع الفرنسيون يطلبون منه الحديث عن مصر وعن الانتفاضة الوطنية وكانوا يحيون فيه مواقفه ومواهبه.

وإذا كان قد حقق بعض الشهرة في الأوساط السياسية والفكرية إلا أننا لا نعتقد أنه كان يتردد على فيكتور هوجو أو ألكسندر دوماس أو الرئيس كارنو - وهي الأسماء التي عادةً ما تقترن باسمه في ترجماته - والحق أنه كان يجد مكانه بطريقة طبيعية في عالم الصحافة بين سكان فودفيل والمنشدين وصغار الشعراء وذلك في إطاره المتواضع بمونمارتر وبحسه الهزلي.

والمؤكد أنه كان يعشق فيكتور هوجو، ولكن هل أعطى بالفعل محاضرات عدة في القاهرة عن الشاعر الكبير الذي - كما نشرت صحيفة باريسية[١٥] «- كان يكن له الكثير من الود وعبر له عدة مرات عن أمله في أن يرى مصر يوماً تتمتع بنفس قدر الحرية الذي تتمتع به فرنسا»؟ لقد حرص أبو نضارة بصورة أكبر - بمناسبة جنازة فيكتور هوجو المهيبة - أن يعكس المجد على شخصه عندما نشر في مجلته قائلاً: «لقد استطاع هو (هوجو) - الذي عانى من المنفى - بكلماته العطوفة والرقيقة أن يخفف من أساي وأنا منفي ومبعد، وفتح قلبي للأمل»[١٦].

أما اتصاله بألكسندر دوماس الابن – والذي كان مباشراً بصورة أكبر – فلا يبدو أنه تجاوز مرحلة المراسلات، وهناك خطاب مكتوب بشعر معيب القافية بتاريخ ٧ يوليو ١٨٩٠ يحفظ بداية الصداقة المنشودة:

متى يتسنى له - أيها السيد المبجل -

ان يشرف ويسعد

برؤيتك والتعرف عليك
تلح عليه رغبة عارمة
للحديث عن أشياء ضاحكة
عن الفكر والنساء والزهر ؟
تلك هي موضوعات خلابة
سطرتها في رسالتك الرقيقة
التي تتكون كلماتها من الماس(١٧)

وفي قصر الإليزيه أيضاً لم يكن الشيخ أبو نضارة يذهب للرقص بطريقة مألوفة كما يحكي أحد كتاب السيرة الذاتية المادحين(١٨). ولنرجع إلى جريدة الفيجارو Figaro على سبيل المثال لتطلعنا على الحدود الرسمية لهذه العلاقة مع سادي كارنو الذي كان صنوع لا يكف عن إطلاق اسم عربي عليه وهو «سعد قرنه»، تقول الفيجارو:

«استقبل رئيس الجمهورية هذا الصباح الشيخ أبا نضارة الذي قدم له تهاني الشرقيين بصفة عامة والمصريين بصفة خاصة».

قال زميلنا الشرقي: «يقول مواطنو بلادي إن فرنسا هي أمهم وإن الفرنسيين هم إخوانهم الأعزاء»، فأجاب السيد كارنو: «أكِّدْ لهم أن هذا الود متبادل».

وسأل الشيخ الله الرحمن الرحيم أن تحل البركة على فرنسا وعلى رئيس دولتها واستأذن بعد ذلك»(١٩).

إن الملوك والوزراء ورجال الدولة - اعتباراً من إمبراطور البرازيل السابق دوم بيدرو دالكانتارا Dom Pedro d'Alcantara، وإمبراطور فارس مظفر الدين شاه، وعبد الحميد سلطان تركيا، ومروراً بالوزراء مثل فيكتور دوري Victor Duruy ودي هيريدياde Heredia وحتى النواب مثل لوكروي Lockroy ولوتالييه Letellier والقس لانوس Lanusse مرشد مدرسة سان سير - لم يمثلوا لصنوع سوى معارف شرفيين يذكرهم في أحاديثه ويرعون محاضراته ويقدمون لكتاباته وقد يدعمونها مادياً أحياناً، أما أصدقاؤه فهم في المقام الأول

من بين كـتـاب الصـحف مـثل تراز Treize، وجـورنال دي لاجـون فـرانس Journal de la Jeune France، وفـولتـيـر Voltaire والبـارتي ناسـيـونال Parti National، وهنري الرابع Henri IVولانتـــرانزيجـــان l'Intransigeant، والســـوار Soir، والجـــولواه Gaulois، والفيجارو Figaro.. إلخ.

وهناك الكثير من النقاط المشتركة التي تربطه بناشري الهجاء، فهو يعرف هنري روشفور Henri Rochefort بالاسم وربما بالشكل، ويلتقي الرجلان في أن صحيفة أبو نضارة نشرت في القاهرة والمنفى وأن صحيفة لا لنترن La Lanterne نشرت في باريس ولمدد طويلة في المنفى، وبالتالي أسهمت الصحيفتان، بفضل حميَّتهما متوقدة النشاط والدويّ الذي أحدثتاه في الرأي العام، في نزع الثقة عن حكومة الخديوي في مصر وفي سقوط الإمبراطورية في فرنسا.

وحرص صنوع كل الحرص على أن يتخذ موقفاً سياسياً بعينه، فكان جمهورياً وماسونيّاً ولكن بصورة غير واضحة، ويقول بينيير Baignières بذكاء: «لكونه قصير النظر يصعب عليه التعرف على الفروق الدقيقة، وهذا الأمر في صالحه إذ سمح له قصر نظره أن يكوِّن عدداً هائلاً من الأصدقاء دون أن يكون له عدو واحد، ففي حقول الديمقراطية الفرنسية شديدة التعدد والتباين أُعجب به كل من السيد فريسينيه Freycinet والسيد كليمونصو Clemenceau كما تعاطف معه بالقدر نفسه كل من السيد ناكيه Naquet نصير الفصل بين السلطات والسيد جول سيمون Jules Simon مناهض هذه الفكرة ذاتها»[٢٠].

وكان يتقابل مع كلوفيس هوج Clovis Hugues ويراسله، وكان لا يتعاطف فحسب مع المناضل الاشتراكي والصحفي والغائب العنيف بل ومع الشاعر ومترجم النفس الشعبية المتحمس بصورة أساسية[٢١].

وكان ذوقه الأدبي يقربه من شباب الشعراء الذين انفتحوا على الحياة اليومية - كرد فعل مضاد للتبجيل الموقر لحركة البارناس Parnasse - وزعموا الاستلهام من الواقع البسيط وتسابقوا على التعبير عن المشاعر الإنسانية دون تجميلها. كما كان هناك -

اعتباراً من حوالي عام ١٨٧٠ – تيار من «الشعر الباريسي» يمثله شعراء من الصف الثاني مثل ليون فالادا Léon Falada وألبير ميرا Albert Mérat وبول أرمان سيلفستر Paul-Armand Silvester وغيرهم من أتباع فرانسوا كوبيه François Coppé وسولي برودوم[٢٢] Sully Prudhomme، وكان صنوع «الثرثار» - لنقتبس تعبير موليير الذي كان عزيزاً على نفسه - يقدر نظراً لخبرته الطاقة اللاذعة للعامية في أبيات شعر الفيلونيين الجدد.

وخلال مأدبة نظمتها لا ريفو مودرن La Revue moderne شرب نخباً على شرف جان ريشبان Jean Richepin وقال:

دون أن تفقد مقطعاً واحداً
تترجم قريباً
قصائدك إلى العربية،
بعناية أبو نضارة
أريد أن يتذوق الناس رحيق
شعرك العذب.

وبدوره أعرب مؤلف أغنية الصعاليك La Chanson des gueux عن «أمله في تعلم العربية ليتسنى له أن يتعرف ويتذوق أصول هذا الشعر الشرقي الذي يعطي رحيقاً خاصاً لأبيات شعر أبو نضارة الفرنسية»[٢٣]، ولم تتوقف حدود العلاقة بين الرجلين عند تذوقهما للشعر الشعبي؛ إذ كان موليير المصري يتقاسم العشق الوطني الذي يحرك مسرح ريشبان، فقد حيا في نانا – صهيب Nana-Sahib (١٨٨٣) - غداة الاستعمار البريطاني لمصر – كفاح الشعب الهندي في مواجهة الغزاة الإنجليز، وفي «عن طريق الحسام» Par le glaive (١٨٩٤) أبطال الاتحاد والاستقلال الذين دبروا مؤامرة كاملة ضد الطاغية[٢٤].

وفي ملهى ليلي بشارع كوجاس Cujas كانت جيهان ريكتوس Jehan Rictus تنشد مقاطع شعرية حزينة من شعره في مناجاة الفقراء لأنفسهم، حيث تحكي الأنفس الجريحة

لساكن ضاحية بائس آلامها وثوراتها[٢٥]، وكانت هذه النبرة تتفق مع الذكرى التي يحملها أبو نضارة عن آلام الفلاح الشديدة.

بيد أن صور الكآبة تلك لم تكن لتمنعه عن أن يجد سعادته في مملكة البوهيميين، فكان يقضي سهراته المحترمة بالدعابة والنبيذ الطيب بصحبة سكان فودفيل والمنشدين، وتحدث أثناء عشاء في بون بوك Bon Bock عن سعادته قائلاً:

عبقرية حقيقية وموهبة،
إنه اللقاء الممتع حيث تكون
أبيات الشعر، والموسيقى والغناء
مجموعة رائعة الجمال[٢٦]

وعندما أهدى له جوستاف نادو Gustave Nadaud مؤلفه «الحقول الأخيرة» Derniers Champs، استطاع صنوع أن يجامله بمحاكاته[٢٧]:

الله ! يا للسعادة
النادو الكبير
هدية
أرسلها إلى
إنك تصنع سعادتي
يا هديتي التي تغني لي
وتسحر قلبي
جمال وسحر وذكاء
في نشيدك
الذي تداعب أصواته

المنبوذ
التي تقوم إنجلترا

شعباً وأرضاً

بقتله

إليك أنت إذن، أيها الشاعر

ابن النيل

في المنفى

يتمنى

أياماً مديدة دون رجعة

حتى تستمع

إلى أغنيتك شديدة الرقة.

وفي عام ١٨٨٣ خلال إقامة في القاهرة كتب نادو أغنية عن الإنجليز في مصر، وهو موضوع لا ينضب لأبو نضارة[٢٨].

ولم يكفّ هو نفسه عن نظم الشعر، فكتب للممثلة روزالي روسيل Rosalie Rousseil عند عودتها من جولة في ضيافة الخديوي (١٨٨٨ ـ ١٨٩٠)، كتب لها شاكراً إياها لإرسالها ديوانها «الله والوطن» Dieu et Patrie[٢٩]:

بزيارة شرقي أخ

سيحبك كأخت له

ستتحدثين عن قاهرته العظيمة

للشيخ أبو نضارة[٣٠].

ووصل اسمه للضاحية، فمن مدينة تور حيث شدت الشابة فرانس دارجيه France Darget ـ التي قدمها سولي برودوم Sully Prudhomme للجمهور وهي في الثالثة عشرة من عمرها «ـ سميراميس» و«الشرق التركي»[٣١] توجهت إلى سلطة «الشيخ الباريسي»[٣٢].

بيد أن هذا الشيخ لم يكن يأخذ الشعر مأخذ الجد، فكان يرتجل قليلاً ويتلاعب بالقافية. وفضلاً عن شعر المناسبات الوطني بصورة طوعية والذي يتفق مع أسلوب تعبير ديروليد Déroulède وريشبان Richepin وكلوفيس هوج Clovis Hugues[٣٣] ترك أبو نضارة قصيدة صغيرة عائلية - إذا جاز التعبير - غير مطبوعة يتحدث فيها عن سعادته ومشاغله الزوجية، وتتفق هذه القصيدة مع العلاقات الحميمة التي روج لها فرانسوا كوبيه François Coppé، ويكتب الشيخ وهو يفكر في زوجته عازفة البيانو:

كم من مرة خففتِ عني آلامي
بنشيدك الرقيق أثناء أحزاني !
كنت أتوجه إليكِ حزيناً
واتركِكِ وأنا جد مستبشر[٣٤].

ومع ذلك كان الشيخ يدرك تماماً قدراته ومهاراته، فكان يمزج في كتاباته بين الشعر والنثر، وبدا كمن يمارس بالفرنسية النثر الشعري العربي الذي أدخله في اللهجة المصرية، وأرسل إلى أحد المشتركين في صحيفته هذه المذكرة الشعرية:

بما يتعين طلب السداد
بالنثر أم بالشعر
اشتراككم عن السنوات الثلاث
في جريدتي البيضاء والصفراء والوردية ؟
أعرف أنك تحب الشعر ،
ليس شعري ولكن شعر راسين
وكورني ولامارتين
المشهورين في العالم أجمع
بينما نشيد مصري
مسطور بالفرنسية يكون بشعاً
لا سيما بالنسبة للأذن الحساسة
للبحاثة الباريسي[٣٥]

وبعيداً بعض الشيء عن الشعر أي على حدود الأدب والسياسة والسفر أقام صنوع صداقات أخرى مع المؤرخ إيميه فانترينييه Aimé Vingtrinier عضو مجلس أمناء مكتبة ليون والذي ترك لنا «سيرة سليمان باشا»، ومع أوجين شيزنيل Eugène Chesnel رئيس المراسم بالسفارة العثمانية ومؤلف «جراح مصر أو الإنجليز في وادي النيل، وكذلك مع المكتشفين مثل بينجيه Binger وبرازا Brazza وإيزابيل إيبرهارت Isabelle Iberhardt - تلك القارئة المتحمسة للشاعر لوتي Loti ولفرومنتان Fromontin - التي سحرها سراب إفريقيا حيث أصبحت العميلة السرية لليوتي Lyautey ودخلت في الأسطورة وهي في سن صغيرة[٣٦].

وتظهر المواطنية العالمية لأبي نضارة في الرسائل المتنوعة التي يتلقاها سواء من روسيا أو من إسبانيا أو من زنزبار أو من سيلان، وكان أصدقاؤه يكتبون له بلغاتهم المتعددة، وحيثما سافر استقبلته الصحافة وكتبت عن وجوده؛ ففي لندن كتبت عنه: السترداي ريفيو The Saturday Review، والديلي نيوز The Daily News، والتروث The Truth، وفي بلجيكا: الإندبنداس بيلج l'Indépendance belge، وفي أمستردام: الألجيمان هاندلسبلاد Algeman Handelsblad، وفي سويسرا: لو جورنال دي جينيف Le Journal de Genèveوالباسلر ناخريختن Basler Nachrichten، وفي تونس: الحاضرة al-Hadira، إلخ[٣٧]. وتحت العنوان ذي الدلالات: فندق بابل Babel Hôtel؛ كتب سينت (كوميديا إسبانية) مسلية تحكي عن الإنجليزي جونسون الذي وقع في غرام الإيطالية بياتريس والألماني كوفمان الذي وقع في غرام الإسبانية مرسيدس، والفرنسية روزالي التي وقعت في غرام العربي عمر، وذهب الجميع ليتلقوا دروسًا لدى أبونضارة حتى يعترف كل منهم للطرف الآخر بحبه بطريقة مفهومة[٣٨].

وبين عامي ١٨٨٨ و١٩٠٢ نشر صنوع مجلته الشهرية «التودد»، وظهر على الغلاف عرب وفرنسيون مدنيون وعسكريون يتصافحون بالقرب من تمثال الجمهورية، وبعد جملة من الدعاية المنحازة لفرنسا موجهة لمنطقة شمال إفريقيا قدمت المجلة سلسلة من الريبورتاجات عن العواصم الكبرى الشرقية والغربية اعتباراً من سانت بطرسبرج

والآستانة وأثينا حتى مدريد ولشبونة وكذلك صورة لرئيس الدولة الذي يعيش في كل من هذه المدن. وتعد مجلة لونيفير موسولمان l'Univers musulman (العالم الإسلامي) التي نشرها أبو نضارة باللغة الفرنسية بطريقة غير منتظمة بين ١٩٠٧ و١٩٠٨ أداة للمواطنة العالمية على الرغم من اتجاهها شديد الانحياز لتركيا، ونشرت المجلة صفحات طويلة عن التقدم الاجتماعي والاقتصادي والفكري في تركيا مثبتة أن العثمانيين يرحبون بعلوم الغرب ويحبون فرنسا بصفة خاصة التي تشجع طباعة القرآن ودراسته.

وكان صنوع يرتجل بلغات عديدة ولذا كان يشعر بسعادة في اللقاءات الدولية، وكان عضواً في الاتحاد المتوسطي إلى جانب فردينان دليسبس وفانترينييه Vingtrinier وشخصيات إيطالية وبرتغالية وإسبانية أخرى، ويعد هذا الاتحاد «اتحاداً جمركيًا» يسعى إلى توفير الحرية التامة في مجال الاتصال والتبادل بين شعوب البحر المتوسط، وبالرغم من أن هذه الجمعية المؤقتة الاقتصادية قد عكست غداة عام ١٨٧٠ صورة سياسية لفرنسا التي أرادت أن تكون لاتينية فإنها كانت تتطلع بنفس القدر إلى التصوف الإنساني لاتحاد عالمي، وصرخ رئيسها مارك أميديه جروميه Marc-Amédée Gromier قائلاً: «إن هذه الفكرة الحضارية والراقية استشفها موسى ولكن استبعدها ورسم خطوطها هوميروس، وحفرها أفلاطون، ورسمها فيرجيل وطورها مستنير طريق دمشق، ثم استعادت فرنسا هذه الفكرة التقليدية اعتباراً من عصر الحروب الصليبية في زمن أبيلار وبصفة خاصة في زمن القديس لويس، ثم كثفها رانتي وعممها رابليه Rabelais، وقدمها لو كامووان Le Camoens في قصيدة شعر، وصنع منها ثربانتس Cervantès رواية بطولية كوميدية، وأراد هنري الرابع ممارستها، وأخيراً وضع مونتاني وروسو وفولتير وفولني النظرية الخاصة بها ليستخدمها أبناء ثورة ١٧٨٩ وأفضل أبناء إخوانهم من أمثال لامارتين وكافور Cavour ومازيني Mazzini وميشليه Michelet وجمبيته Gambetta وإدجار كينيه Edgar Quinet وليتريه Littré وفيكتور هوجو Victor Hugo، الذي نقل عنه بيتين من الشعر من «رسالة لغاريبالدي» (١٨٦٧) ليكونا الفكرة الأساسية للمنشور.

سنبحث عن اسم الأمل

سنقول: إيطاليا ! وستجيب انت: فرنسا ![٣٩]

ومدفوعاً بذات الإحساس نشر صنوع «الأخوات اللاتينيات» Les Soeurs Latines وهي كتابات مدح وتقريظ نثرية وشعرية لرؤساء كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال.

كما شارك في أنشطة «نقابة النقد الباريسي»، و«معهد التعليم الثانوي بفرنسا»، و«جمعية باريس الشرقية» التي كان أحد مؤسسيها.

وبفضل مواهبه بوصفه ممثلاً ومخرجاً ومحاضراً نجح في إعطاء صورة حية عن الشرق، وكانت أكاديميات صغيرة تدعوه في قاعة شركة المزارعين ومعهد رودي Rudy بشارع رويال، وغالباً في مبني العمودية، للحديث عن «الأدب وتقاليد العرب»، و«الإسلام والحضارة»، و«المرأة المسلمة». وكان حديثه بعيداً عن النظرية فقد كان يؤيده ببعض الرسومات بالأكواريل التي يرسمها له رسامه بيبان Pépin (سوق أو حفل زفاف أو جنازة، إلخ)، وأحياناً كانت تصاحبه بعض النغمات الموسيقية الغربية – مثل «لحن سير السلطان»، و«السلام الخديوي» - التي كانت تعزفها زوجته أو ابنته، ألا نجد في حديثه الذي يصاحبه الصوت والصورة نوعاً من «الفيلم التسجيلي» قبل عصر السينما ؟ وكانت محاضراته تثير فضول الباريسيين الذين لا يكفون عن التساؤل: كيف يمكن للإنسان أن يكون شرقيّاً ؟

ولم يكن الشيخ يريد أبداً ألا يترك أثراً أو أن يكون مجهولاً، وسمحت له حفلات الاستقبال والحفلات والمآدب وحفلات المراسم أن يكون له حضور بارز كما كان الحال في مسرحه القديم، وقد حققت له ملابسه نوعاً من الشعبية والشهرة، وذكرت جريدة لا فرانس:

«خلال جنازة فيكتور هوجو لاحظنا رجلاً شرقيّاً يرتدي ثيابًا فخيمة وعمامة بيضاء وعباءة خضراء وحزامًا أحمر، وحيته الجموع ورحبت به بصرخات متنوعة مثل: «يعيش المهدي ! يعيش الحزب الوطني المصري ! تعيش المغرب ! يعيش باي تونس ! وحتى تعيش

فارس ! ويعيش السلطان ! وهذه الشخصية التي كانت الجموع تنعتها بنعوت جد متنوعة لم تكن سوى زميلنا الشيخ أبو نضارة»[٤٠].

مع ذلك كان الشيخ أبو نضارة يعرف كيف يستخلص وجه مصر من بين الفوضى الشرقية، ويتعين علينا في هذا المقام أن نذكر الإثارة التي كانت تثيرها حياته الخاصة حيث كان تَمْر الفيوم لذيذ الطعم، بالإضافة إلى النارجيلة، والأطباق المصرية، تَلْقَى تقدير الفرنسيين الذين كانوا ينادون أبناءه بأسمائهم؛ حلمي ولولي[٤١]، ووضع الشيخ بصورة خاصة نصب أعين الفرنسيين ـ من خلال مواصلته في فرنسا الدعاية ضد الطاغية الخديوي وضد الاستعمار البريطاني ـ عن طريق كاريكاتيرات معبرة؛ بؤس الفلاح واستياء الطبقة الوسطى، والموقف المحدد لذلك الوزير أو ذاك في القاهرة، والمكائد ودوافع أحداث الحياة السياسية، وباختصار كان يقدم صورة واقعية وجد دقيقة عن المجتمع المصري نحو نهاية القرن التاسع عشر. وبعد عامين من نشر بينيير[٤٢] لألبوم أبي نضارة المكون من سلسلة جديدة من الرسومات مجموعة بترتيب تاريخي، قال شيزنيل Chesnel بحق: «سوف تقدم بهذه الطريقة تاريخاً مصوراً لمصر وذلك للرد على الكاريكاتيرات التي عرضوها لنا عن مصر منذ زمن بعيد». ففي هذه الفترة التي قلبت الفوضى والظلم وادي النيل يتعين الاستماع لهذا الرجل وهو يجيب بنشاط على صحفي جاء يسأله: «إن كان المصريون قادرين على أن يكونوا شعباً»؟:

«إنكم غرباء أنتم الأوربيون ! اثنان أو ثلاثة صحفيين مازحين يصلون إلى القاهرة ويرسلون لكم في الحال مذكرات عن مصر خيالية، مصر كما تقدم في أوبريت تعلموا لغتها وجغرافيتها في تورتوني أو في مقهى الإنجلين، وعلى الفور تصرخون: ها هي ذي مصر وها هم أولاء المصريون؛ أرض النعيم يسكنها للأسف سكان كسالى ومتعصبون وجهلة ! وأنا أقول لكم: الشعب المصري ليس كسلان إنه على العكس من ذلك أكثر الشعوب عملاً وإنتاجية، والشعب المصري ليس متعصباً بل على العكس من ذلك الأكثر تسامحاً ـ إذا لم نبالغ في استثارته ـ كما يشهد بذلك التاريخ، وأخيراً فالمصري ليس بهذا

القدر من الجهل الذي تتخيلونه، فالمدارس المدنية والدينية التابعة للحكومة، والمدارس العسكرية في القاهرة ولا سيما المختصة بأركان الحرب ليست بهذا القدر من البدائية والبربرية الذي يتصوره الباريسيون المازحون.

اعلموا أن الكتب التقليدية المستخدمة في المدارس هي ترجمة حرفية من الدروس الأساسية المستخدمة في المدارس المماثلة في باريس وويلوش وبرلين.

فضلاً عن ذلك فإن الترجمات العربية لروائع الأدب الفرنسي مشهورة في مصر بنفس قدر شهرتها في فرنسا نفسها.

وكل تلاميذ المدارس في القاهرة والإسكندرية يحفظون عن ظهر قلب لا فونتين وتيليماك لفينلون Fénelon والمقرأ Lutrin لبوالو Boileau والتاريخ لدوري، وكما بكى الشباب على قصة الحب المأسوية في «بول وفيرجيني» وكازيمودو، وأخيراً فإن فرسان الملك الثلاثة ليس لهم أتباع متعصبون إلا من بين الشباب المصري. ولتعلموا أيضاً أنني عندما كنت أمتلك مسرحاً في القاهرة كانت تُقدَّم إليَّ في الأسبوع نفسه ترجمات البخيل، والمريض بالوهم، وتارتوف، إلخ لتمثيلها على المسرح»(٤٣).

وتسرد صفحات الجرائد أحاديثه، فهو يقدم الشهادات والمعلومات ويصحح الأخطاء، ويسعى إلى محو الأفكار المسبقة المنتشرة عن المرأة المصرية، وبشأن الحياة الاجتماعية في مصر التي يتحدث عنها بحب وحنين، ويعرِّف بمصر الخديوية بكل ما فيها من أحزان وجمال.

وفي الوقت الذي حاول فيه تقديم الشرق ومصر إلى فرنسا رسم أبو نضارة للشرقيين والمصريين في دورياته وكتيباته ومحاضراته صورة جميلة لفرنسا.

والحق أن ما نشره منذ إقامته عام ١٨٧٨ في باريس تحت عنوان رحلة أبي نضارة زرقاء ليس قصة رحلات ولكن بالأحرى سلسلة جديدة من مجلته المعطَّلة في القاهرة. ويمكننا أن نجمع فيها فصلاً عن قصة رحيله ورحلته البحرية وبعض الأفكار العامة عن

أهمية الرحلات؛ ويقول أبو نضارة لمحادثه الخيالي أبو خليل: «يشبه العالم كتابًا لا نقرأ فيه سوى الصفحة الأولى إذا لم نغادر بلدنا»(٤٤)، ويأسف لأن مواطني بلده يجهلون العدالة التي يوفرها نظام ليبرالي في فرنسا. وبعد المعرض العالمي الذي أقيم عام ١٨٨٩ نشر أبو نضارة محامد الفرنسيس ووصف باريس، والحق أنه طور في هذا العمل مذكرات صديقه النرويجي فيلومب Felumb وهو الصحفي ورجل الأعمال المقيم في باريس منذ حوالي عشرين عاماً، ويهدف العمل إلى «تعريف الشرقيين بهذا البلد الجميل فرنسا وبجغرافيتها وتاريخها وقوتها البحرية والعسكرية ومنتجاتها وتجارتها وصناعتها، ودعوة المسافرين إلى زيارة باريس في ستة أيام».

ويشهد هذا الدليل - المختصر والعام - بصورة كافية بوجود أبي نضارة تحت هذا القلم البسيط الذي يحاول الكتابة بالعربية الفصحى، والاستهلال الذي يمثل في الوقت ذاته مقدمة – وهو مكتوب باللغة الفرنسية – يمتدح صداقة فرنسا مع الشرقيين، وتؤكد المقدمة الجغرافية التاريخية - الموجهة للمصريين - واقعة راعية الغنم جان دارك التي طردت الإنجليز من بلدها بتاريخ ١٧٨٩ وتنتهي بالإشادة بالرئيس كارنو. وفي وسط المعلومات العامة المتعلقة بالآثار ينبهر القارئ – عندما يصل إلى ميدان الباستيل – بتنويه مفخم وملتهب عن ثورة ١٤ يوليو في مقطع طويل من النثر الشعري(٤٥)؛ ونتعرف أيضاً على أثر المؤلف في التعليق على البورصة ذلك المعبد الذي يضم لعبة تؤدي إلى الإفلاس(٤٦)، وكذلك في المعلومات المفصلة عن المكتبة القومية، وأيضًا في شروح النص المتراكمة؛ وذلك لعدم وجود ألفاظ عربية مناسبة لتعريف الأوبرا(٤٧)، وكذلك في التحذير من الجمال الخادع الذي يملأ في الليل ملهى الفولي برجير والحي اللاتيني. وتحتفي الخاتمة بروعة المعرض. وبقي وحده برج إيفل مطلاً على لو شان دي مارس، وتظل باريس معرضاً دائماً، وهناك ثلاثة رسوم تزين الكتيب وهي صورة لكارنو ومنظر للمعرض ورسم لآثار باريس الرئيسية.

واستخدم أبو نضارة هذا النص استخداماً واسع النطاق بمناسبة المعرض الدولي لعام ١٩٠٠، ولذا وضع تحت تصرفه قائمة مؤتمرات القسم الاستعماري(٤٨). وطبعت

محاضراته الأربع في القاهرة عام ١٩١٠ تحت عنوان: «حسن الإشارة في مسامرات أبي نظارة».

وخارج الدعاية الفرنسية التي اجتهد في نشرها في إطار المعارض الدولية، وهي دعاية عادية تخلو من النوعية الأدبية، نشر صنوع في التودد عام ١٨٩٥ قصة رحلة إلى باريس «الرحلة الخالدية إلى مركز المدنية» والتي ترجع إلى محمد روحي الخالدي المفكر الفلسطيني «خريج مدرسة الإدارة بالآستانة»(٤٩)، والأمر يتعلق بوصف مؤثر ودقيق وبسلسلة من الانطباعات الدقيقة والابتسامات الخفيفة على طريقة أحمد زكي الذي قدم لتوه «السفر إلى المؤتمر» والذي صاحبناه أكثر من مرة في باريس(٥٠).

ما هي باريس ؟ عاصمة فرنسا وأوربا والحضارة، عاصمة الأعمال والصناعة والتجارة، ومصدر الأفكار الجديدة: الحرية والمساواة والأخوة، ومركز الفن والذوق الرفيع والرقة والنساء الجميلات والحب والتسلية. وبعد هذا التعريف يقدم المؤلف طبوغرافية المدينة: شوارع خارجية، وأرباضًا، وشوارع داخلية، ونهر السين، والجزيرتين، والتلال اعتباراً من تل القديسة جنفييف Saint Geneviève الذي تعلوه مقبرة العظماء وحتى تل البوت شومون الذي يرتفع فيه بحدة بالرغم من خضرة الحديقة وصخرة المقصلة القديمة. وتشير الإحصاءات إلى أن المدينة تتطور بصورة متناغمة.

ويفسر المقال الثاني وظائف الأحياء: فربض القديس أنطوان يوفر الأثاث، ويهتم ربض القديس مارتان بالتصدير، وحول البورصة والقصر الملكي والأوبرا يتحرك عالم المال، ويضم ربض القديس أونوريه الأنيق والشانزليزيه العائلات الأكثر ثراء، ويقطن الوزراء والسفراء في ربض القديس جيرمان، وتلتقي المدارس والمكتبات والبهجة والشباب في الحي اللاتيني؛ ويسكن على أطراف المدينة العمال والفقراء. ويقطع المدينة شارعان رئيسيان فيقسمانها إلى مجموعات منازل يسير فيها المترجلون والخيل والعجل والحناطير والعربات العامة والترام بسرعة كبيرة بفضل يقظة الشرطي الذي يقف في كل ملتقى طرق، وفي هذه الشوارع النظيفة لا نرى الكلاب الضالة.

ووسيلة المواصلات الأساسية وهي العربات العامة يصفها الكاتب بطريقة مجازية في المقال الثالث، فهذا المنزل المتحرك الحقيقي الذي يحمل خمسين فرداً، يتموج دون توقف فوق بلاط الشوارع فتهتز الحوائط لمروره ويرهقك بضجيج مرتفع كالرعد، ويحلل الضجيج المثير الذي ترتفع أصواته في باريس: فبالإضافة إلى ضجيج العربات العامة والترام هناك صرخات باعة الصحف والنغمات المتنوعة – والتي لا تكون دائماً جميلة – لباعة الفصول الأربعة والعمال المتجولين، وفي المقابل فإن دقات أجراس الكنائس أقل قوة وتستمر لمدة أقل في هذه العاصمة الكاثوليكية عنها في بعض المدن الشرقية مثل القدس، ولا يمكن أن نسمع سائق العربة الحنطور يخطر الراكب عن السعر أو يناقشه معه لأن كل شيء محدد ومنظم ويسير بدقة متناهية. والباريسيون لا يتحدثون همسًا كالإنجليز ومع ذلك لا ينادون بعضهم البعض أو يتوجهون إلى بعضهم البعض بصوت مرتفع.

ويصف لنا المقال الأخير الذي يتسم بالدعابة «الباريسي في الشارع»، فهو ذو أناقة بالغة وقد هذب لحيته في شكل مربع أو مستدير وأحياناً يحلقها تماماً، ويمشي بطريقة محسوبة ويحسب حركاته وآثار نظارته المزدوجة أو أحادية الزجاج، وقبعته ذات الشكل المرتفع والتي تستحق الاسم الشعبي «ماسورة المدفأة» - وهي ليست مريحة كالطربوش - تصطدم بباب العربات العامة أو الترام وسقوفها، وتطير من فوق رأسه بفعل الهواء مما يجبر السيد العاري الرأس أن يجري خلفها، والفرنسيون المولعون بالموضات الجديدة ظلوا مخلصين مع ذلك منذ حكومة المديرين لهذه القبعة العجيبة التي ظل يستخدمها الناس وعاشت بعد عدد كبير من أنظمتهم السياسية، وملابسهم ليست واسعة وفضفاضة وليس لها ذيل كبير مثل ملابس الشرقيين التي تعرقل حركتهم، ويمسك الباريسي في يد قفازه وفي اليد الأخرى عصاه، ويمشي مرفوع الرأس معتدل الصدر ويبدو يقظاً وخفيف الحركة وممشوقاً، ويمشي بخطوات سريعة دون أن يكون له ردود فعل ينقصها التحفظ إزاء ما يراه، ولا يتوقف لمدة ساعة ليحيي أصدقاءه بمجاملة مفرطة وليقسم عند كل كلمة يميناً لا داعي له.

ويبدو أن هذا الشخص الذي تعتقدون أنه قنصل عام أو أمير أو رجل ثري، ليس في أغلب الأحيان سوى شخص عادي وفر ما يرتديه من ملابس مقابل حرمان شديد من أمور كثيرة، وهو تناقض شديد ستفهمونه إذا ما نظرتم إلى نصف البشر وهم يتنزهون في الأماكن ذاتها. إن الباريسي يشعر بفخر أكبر عندما يكسب اهتمام زوجة رجل عظيم وليس عناية الرجل نفسه، ويقول الباريسيون: «إن أمنيات المرأة هي أوامر إلهية». ومن الصعوبة بمكان رسم صورة المرأة الباريسية بما أن ملابسها تتغير وتتحول بطريقة باهرة، وتبدو تحت قبعتها المزينة بالأزهار والريش كقمر في حديقة تغرد فيها العصافير، ومن شدة نحافة خصرها يبدو وكأنه صالح ليلتف حوله خاتم، وثوبها ذو الذيل الطويل، والمنقوش، والمحلى بفيونكات وُشرَّابات وشرائط طائرة يأخذ أشكالاً عدة، وهيئتها الجميلة والمتناسقة تسحرك... وهنا يتوقف هذا النص الجميل واللاذع الذي لم يستكمل للأسف ... وتقدم صورة فرنسا في أعمال صنوع المطبوعة بوصفها بلداً ثرياً.

أيها الأرض حيث أنعم

فيها الله على المزارع

واجزل علي الشعب بالوفرة

والرخاء والسعادة(٥١)

كما أن هذا البلد الغني والمضياف يعد وطناً ثانياً لليبراليين المنفيين:

أشعر بقدر الشعور ذاته

تجاهكم وتجاه أبناء النيل

أي أبناء فرنسا، بالقرب منك أجد

عيش المنفى أقل مرارة(٥٢)

أما موضوع فرنسا أُمّ الحريات وضامنة حقوق الإنسان ورسولة الحضارة في العالم فنجده يتطور ويتردد كثيراً :

إليكِ أنتِ يا فرنسا الكريمة

تدين لكِ أكثر من أمة

بيقظتها واستقلالها

ومدنيتها(٥٣)

وعلى الرغم من سفره في شتى أنحاء فرنسا وإقامته في بوردو وليون وليموج، وعلى الرغم من أنه أمضى صيف سنواته الأخيرة في منزله الريفي بشامبيني ظل صنوع تحت التأثير التام لسحر باريس، ففي هذه «المدينة الأبدية»، «ملتقى العبقريات العظمى» يحتفي صنوع بحياة الشارع وروح سكان حي مونمارتر وينشد جمال النساء ويبجل التطور التقني فيما يتعلق بالمعارض ولا يكف عن تقريظ أبطال ثورة ١٤ يوليو.

وأسهم صنوع إسهاماً كبيراً في أن يجعل من تاريخ ١٤ يوليو ومن صورة برج إيفل بالنسبة للشعب المصري الرمزين المتميزين لفرنسا وباريس، واعتباراً من ١٨٨٨ عندما دعاه المهندس إيفل ومدير المعرض الذي يتم الإعداد له للسنة التالية لزيارة الشان دي مارس تخيل أبو نضارة أنه يرى من قمة البرج ضفاف النيل البعيدة، وتحدث عن رؤيته المثيرة للعواطف لقرائه، والنص الذي تصاحبه مطبوعة حجرية يقتبس إيقاع أسفار التوراة:

ألهث وراءكِ، أي مصري الحبيبة

فكما تلهث اليمامة لتصل إلى حيث تلهو رفيقاتها الرقيقات

أحييكِ، أيا أرض الأجداد ! التي

لرؤيتكِ المستحيلة، دموع الفرح تارة والألم تارة

تفيض من عينيَّ المشتاقتين لنوركِ

أهم فلاحو مصر العليا الذين أراهم مرة أخرى

في السخرة ؟

للأسف ! نعم إنهم يحفرون القنوات ليرووا الأراضي

التي انتزعت منهم ويزرعون الحقول التي

لا يذوقون ثمارها
إني أراكِ مرة أخرى ! آه يا إسكندرية، يا قرينة المتوسط
الجميلة، إن رؤياك تعيد إلى ذاكرتي اليوم الحزين الذي
غادرت فيه أرض ميلادي
مؤسف هو المنظر الذي يقدمه ميناؤكِ لعينيَّ !
فوحدها المراكب البريطانية تمخر البحر،
وبعضها ينقل قاطني الجزر الذين حققوا الثراء، والبعض الآخر
يُنزِل مواطنيهم المتعطشين لرفاتنا
عاجز هو غضبكم المشروع أيها المصريون البؤساء العُزَّل(٥٤).

ويتسم دور أبي نضارة السياسي بالأهمية والتعقيد في الوقت ذاته، فهو دور مهم لأنه يمثل مرحلة في نشأة القومية المصرية؛ فبدلاً من ضياع هذا الصوت المنفي عاد أكثر قوة وأكثر تمرداً، فلم يستطع فساد الخديوي ولا التهديدات البريطانية إخماده، ولم تتأخر «الحكومة الاستعمارية» في فرنسا فقط عن استخدامه(٥٥)، فانتقل صنوع من إدانة الإمبريالية الإنجليزية إلى مدح الاستعمار الفرنسي(٥٦)، فقد كانت فترة عشر سنوات بالكاد كافية لا لفصله عن مصر ولكن لارتباطه بفرنسا. وفي عام ١٨٨٨ خلال الإعداد للمعرض العالمي كان حماسه واضحاً في الأوساط المهتمة(٥٧)، وكرَّس مجلته الجديدة بعنوان «التودد» للدعاية لفرنسا في شمال إفريقيا، وشرع – نظراً لاحتياجات القضية – في رحلة إلى المغرب والجزائر وتونس(٥٨)، ونشر عام ١٨٩١ كتيبه المعنون «صفات الفرنسيين الرائعة».

وكانت ردود فعل صنوع إزاء مصر في معارض باريس ذات دلالة؛ ففي ١٨٧٨ حقر الآثار المصرية لأنها دون شك تجاور صورة الطاغية إسماعيل(٥٩)، الذي اعتاد أن يطلق عليه «فرعون» وذلك وفقاً لمنظور سفر الخروج. ويختلف هذا الموقف عن موقف الشاب رفاعة؛ فبعيداً عن الأساطير العربية التي كانت لا تزال تخفي عنه مصر الفرعونية(٦٠)

تعرف بطريقة غريزية على القيمة الجمالية والقومية لهذه الرفات[٦١]، وفي عامي ١٨٨٩ و١٩٠٠ لم ينفر أبو نضارة من العروض السوقية لـ«شارع القاهرة» المزعوم والوكالة التي انتقدها الزائرون المصريون بالإجماع[٦٢]، وعلى العكس من ذلك احتفى بها وهو يصرخ: «تحيا الحرية»[٦٣]، ووعظ الجموع وهو يرتدي زي الشيخ[٦٤].

وبنفس زي التنكر نادى بحب تركيا؛ ففي ١٨٩١ و١٨٩٩ و١٩٠١ و١٩٠٨ سافر إلى الآستانة، وقد أشرنا من قبل إلى مجلته «العالم الإسلامي» الموجهة لخدمة خطط السلطان الإسلامية، والمؤكد أن الوطنيين من جمال الدين وحتى مصطفى كامل كانوا يستندون إلى الإمبراطورية العثمانية وذلك بغية طرد الإنجليز من مصر، ومع ذلك كان أبو نضارة يوجه مديحه بصورة أكثر مباشرةً نحو شخص عبد الحميد، وكان يسهم بطريقته الخاصة في تحقيق تقارب فرنسي – تركي[٦٥].

ووفقاً لحديث صديقه بلنت فقد زود مارشان Marchand وهو مسافر إلى أعالي النيل بنصوص قرآنية وتوصيات موجهة للمهديين[٦٦]، ولذلك شعر بتحير إزاء الوفاق الفرنسي البريطاني لعام ١٩٠٤؛ وبعد أسابيع عدة من الصمت حاول تبرير هذا الوفاق بطريقة ساذجة[٦٧]، ولم يكن ذلك هو موقف الشاب مصطفى كامل الذي لم يكفَّ عن الاحتجاج على الظلم أمام الرأي العام المصري والعالمي[٦٨].

ولكن أيّاً ما كانت الدوافع لا يتعين التقليل من شأن تأثير أبي نضارة في مصر، فخلال السنوات الأولى ولا سيما في حوالي ١٨٨١ غذت المجلة العقول الساخطة، كما حاربت الانهزامية واستمرت في فضح إسماعيل وتوفيق، ووزعت نسخًا سرية مجانية في جيش عرابي، وظل قواد الثورة ـ حتى بعد نفيهم إلى كولومبو ـ يتلقون هذه الجريدة «الخبيثة» بطريقة دورية ويردون على صاحبها، ويرجع تأثير أبي نضارة إلى أسلوب تعبيره الشعبي، وفي الوقت الذي كان أديب إسحق يخاطب الشرق بأناقة الشاعر، ومحمد عبده يتحدث عن الإسلام باللباقة الخليقة بعالم، كان أبو نضارة يعلن ببساطة نداء الحرب «مصر للمصريين»! وكان يتحدث لغة الفلاحين، وكان ذلك هو الابتكار والجرأة والنفحة التي كان

يطلــق عليـهـا النار تحت الرمـاد، ويتـعين على مؤرخـي الصـحـوة الوطنيـة أن يعطوا لهـذا الرجل - الذي أعطى صــوتاً للفــلاح[٦٩] - المكانة التي تليق به مع الأخـذ في الاعـتـبـار التحفظات المذكورة.

وأثري فن أبي نضـارة الشـعبي في باريس بعنصـر حـيـوي وهو الكاريكاتير، وكـان المخـرج المسـرحي القديم يأمل وهو ينشـر صـحـيـفـتـه في القـاهرة أن يتـسنى له إضـافـة رسومات إلى نصه[٧٠]، ولم يتحقق له هذا الأمل إلا في المنفـى، فظهر في لويحات رحلة أبي نضـارة كل من الخـديوي المـمتلئ، والفـلاح النحـيف، والرجل ذي النظارة. وكـان صنوع يجسد كذلك سذاجات قرائه كافة، ومن عدد إلى آخر تطور قلمه وزادت حركية شخصياته وتعقيد وجـهات نظره ودقتـهـا، وبعد ذلك اسـتـخـدم اللون، وساعده في ذلك رواج الصـحـف الباريسية المصورة[٧١]، ووجد صيغته المثلى مجسدة في «لالون روسيه» (La Lune Roussé) وهي جريدة أسبوعية من أربع صـفـحـات فكرية وتحمل صـفـحـاتها الأولى رسـمـاً كبيراً لأندريه جيل Gill André[٧٢]، وعندمـا ضـعف نظر الشيخ عـهد بتنفيذ رسـومـات الجـريدة لبيـبـان Pépin[٧٣]، وتحـولت الصـفـحـات الخـارجـيـة لأبي نضـارة إلى مـعـرض لوحـات للمـلاحظات بالفنون التـخطيطية، وكانت التعليقات على الصور مقتضبة ومكتوبة باللغتين العربية والفرنسـية مما يشكل اقتصاداً في الإمكانيات بالنسبة لجمـهور القراء المزدوج! وكـان الجـمـيع يتـابع في سلسلة من الرسم الكروكي أحداث السـاعة التي يقدمـهـا الكاتب المسرحي المصري في صورة حوار.

وتجـدر الإشـارة إلـى أنه بعد شـهـرين بالكاد من نشـر «رحلة أبي نضـارة» ظهـرت في باريس جريدة أسبوعية من ذات الطراز وهي جريدة الأب جيرار بعنوان «جازيت ناسيونال دي كومون Gazette Nationale des Communes»، وكـانت الحـوارات المتبـادلة بين أهل القـرية وأهل المدينة يكتبـهـا بالكامـل إيلفيج بوسـان Elphège Bousin ويصـورهـا ليـونس بيتي Léonce Petit، وكان المتحدث الرئيسي في هذه الحـوارات هو الأب جيرار الذي لم يكن يسـتـخـدم لهجة إقليمية بل لغة بسيطة تتواءم مـع الظروف والشخـصيات التي يتحدث

إليها، ومع ذلك لا نجد في صحيفة يعقوب صنوع ما يسمح لنا بإقامة علاقة قرابة بين المجلتين، ولكننا نجد أن الصحيفتين تنتميان إلى طراز نشر الدعاية، ولم يكن نصيب الأب جيرار من الشهرة في فرنسا(٧٤) أقل من نصيب الشهرة التي حظي بها أبو نضارة في مصر.

وفي ٨ مايو عام ١٩٠٥ احتفل أبو نضارة بالعيد الذهبي لمجلته الأدبية وسط مدعوين فرنسيين ومصريين وسوريين وإيطاليين ويونانيين وفرس وأتراك(٧٥). وفي عام ١٩١١ حكم عليه أطباء العيون بالراحة فاختتم حياته العملية بحفل أخير روى فيه لأصدقائه قصة منفاه(٧٦)، وانتهى عمله بالفعل عند هذا الحد.

وبعد أن وصل منحنى نشاطه إلى قمة عالية لم يستطع سوى الهبوط خلال السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وبالإضافة إلى صفاء أيام العمر الأخيرة كان هناك الصفاء الناتج عن السلام المبرم مع الخديوي الجديد عباس حلمي، وكان عباس حلمي متعصبًا ضد الإنجليز وكسب تقدير أبي نضارة. واقترح عليه عباس نفسه في عام ١٩٠١ في ديفون لي بالعودة إلى مصر، بيد أن الصحفي كان قد نذر عدم العودة إلى مصر إلا بعد جلاء العساكر الإنجليز. وانتظاراً لتحقيق هذا الأمل اقام في باريس، ومن ثم داهن الخديوي كما كان يداهن السلطان وفرنسا، وظلت إنجلترا وحدها حتى ١٩٠٤ موضوع هجومه. وعند تصفح آخر ما نشره صنوع - والذي كان على فترات متباعدة - نشعر بنوع من الاستنفاد، وتلك الصفحات المليئة بالتقريظ والمدح بدت باهتة لا سيما وأنها مكتوبة بقلم صنُع للهجاء، فكان أبو نضارة يحتاج إلى عقبات واضطهادات وفضائح حتى تلهم كتاباته، فلم تكن هذه العقلية تبتكر إلا وهي تعيش حالة عداوة.

وعندما أصبحت هذه الصحيفة مسالمة وقبلتها الرقابة قل إقبال الجمهور عليها، وتجاوزتها صحف القاهرة اليومية الكبرى مثل «الأهرام واللواء والمؤيد والمقطم وصحيفة حمارة منيتي ذات الطابع الهزلي» وتنتمي صحيفة أبي نضارة إلى القرن التاسع عشر، أما أبناء القرن العشرين فهم أكثر تعطشاً للمعلومات، فالصحيفة الجديدة لا يصوغها حرفي واحد ولكنها المنتج الجماعي لرجال كثيرين وأجهزة عديدة (٧٧)، ولم يكن أمام

صنوع سوى أن يفسح المجال للتقنية، وفي أحد أعداده الأخيرة حكى حلماً كان قد رآه؛ فقد حلم أنه يستقبل الطيار الشهير بليريو Blériot وبعد أن احتسى القهوة التركي قاده الطيار إلى القاهرة حيث ألقى خطاباً بمناسبة الاحتفال بالميثاق المصري من أعلى قمة أهرام الجيزة المغطاة بمواطنين مصريين وأصدقاء أجانب، واتسم الخطاب بالرقة والحنان ومس المستمعين إلى حد أنهم ذرفوا الدموع، واعترف أبو نضارة هنا بقلب مفتوح أن الزمن قد أصبح زمن الطيارات والأسلوب التلغرافي، وهكذا في ٣٠ سبتمبر ١٩١٢ أعلنت وكالتا رويتر وهافاس للصحافة العالمية وفاة الصحفي العجوز(٧٨).

وأخيراً ما هو المكان الذي يحتله أبو نضارة بين الرحالة المصريين في القرن التاسع عشر؟

يحتل أبو نضارة في المقام الأول مكان ناشر سياسي، فقد وجد في الحرية الباريسية وفي بذاءة الشارع اللاذعة أفضل نبرة لفكره الناقد.

وفي المقام الثاني يحتل أبو نضارة مكان رجل أدب - بالقدر الذي تعتبر فيه الصحافة نوعاً أدبيًا -، وبوصفه مؤرخاً هجائيًاً فقد شرع في استخدام اللهجة المصرية، ومن جهة أخرى كان فنه المتمثل في الوصول إلى هدفه عبر الكلمة الطريفة والتمثيل المضحك للأحداث والشخصيات يقترب بصورة تلقائية من الكاريكاتير. ومن ثم فإن تاريخ الكاريكاتير في مصر الحديثة يبدأ مع نفي أبي نضارة، وقد أشار إلى ذلك رفاعة وهو يصف لوحات الإعلانات التي كانت تصور للناس شارل العاشر بعد خلعه عن العرش(٧٩).

ويحتل أبو نضارة في المقام الثالث مكانة وسيط، فأعماله سمحت بزيادة شهرة فرنسا في مصر، ومصر في فرنسا، ومع ذلك كانت مصر التي قدمها مبتورة الماضي الفرعوني والعربي الكلاسيكي، محصورة في بؤسها الحالي الذي يستغل وفقاً لدعاية المناهضة للخديوي وبريطانيا، وكانت فرنسا التي يقدمها تمثل كاريكاتيرًا لأحداث الساعة مع برج إيفل والشوارع الواسعة، في المقام الأول، التي تبرز على خلفية مبهمة من الليبرالية المطمئنة، بيد أن نصوصه عن باريس والتي تنطوي على هدف «سياحي»؛ تعلن عن قصص رحلات مثيرة لبعض الزوار المثقفين للمعارض الدولية.

****

هوامش

(1) Ma vie en vers et mon théâtre en prose, Paris Impr. Montgeronnaise, s. d.; "Biographie d'Abou-Naddara, en dialogues", Abou-Naddara, Paris, 28 fév. 1887. Sur les exagérations de Sanua. V. Notes complémentaires. no. 13. Dans la même perspective, se situent les écrits récents de J. Landau et I. Gendzier.

(2) Guillon, 27 et Ninet, "Origin of the National Party", 127.

٣- انظر مقالنا عن مسرح صنوع، المجلة - القاهرة - عدد ٥١ - مارس ١٩٦١، ٥١ - ٧١ .

(4) Ma vie en vers, p. 4.

٥- المقالة الافتتاحية للعدد الأول لأبي نضارة زرقاء. القاهرة - ٢١ ربيع الأول ١٢٠٥ هـ.

٦- بالنسبة لعناوين إصدارات صنوع، نحتفظ بالكتابة الصوتية التي قدمها المؤلف نفسه.

٧- أبو نضارة زرقاء - القاهرة - عدد ٣، ٤، ٥، ١٢ .

٨- أبو نضارة زرقاء - القاهرة - عدد ١٠ .

٩- رحلة أبي نظارة - باريس - ١٨٧٨ - عدد ٢ .

١٠- رحلة أبي نظارة - باريس - ١٨٧٨ - عدد ٧ .

١١- أوراق احتفظت بها السيدة ميلود صنوع.

(12) Paul de Baignières: L'Egypte satirique, p. 9.

١٣- إعلان تكرر في مجلته. انظر على سبيل المثال - أبو نضارة - باريس - عدد ٢٨ فبراير ١٨٨٨ .

(14) L'Europe diplomatique, Paris, 8 juin 1879; J. Ninet: "Origin of the National Party", 128; Id.: Au pays des khédives, 32.

(15) La France, 5 juin 1885.

١٦- أبو نضارة - ٢٧ يونيو ١٨٨٥ .

١٧- نسخة خطية سلمتها السيدة ميلود صنوع.

(18) Baignières, 10.

(19) Le Figaro, 10 janvier 1888.

(20) Baignières, 10.

٢١- عن كلوفيس هوج (١٨٥١ - ١٩٠٧) انظر :

v. la préface de Gustave Kahn aux Poésies choisies de Clovis Hugues, Paris, Lemerre, 1935; et la monographie de Marcel Bonnet: Le citoyen Hugues, poète provençal, Saint-Remi-de-provence, 1953.

(22) Antony Valabrègue: "La poésie parisienne", Rev. bleue, XLV, mars 1890.

(23) La France, 5 fév., 1887.

(24) Cf. Jean-Louis Lecomte: Jean Richepin. Thès. de lettres, Paris, 1950, dactyl. - Howard Sutton: The life and work of Jean Richepin, Genéve, Droz., 1961.

(25) Jehan Rictus: Les Soliloques du pauvre, Paris, Eugène Rey, 1921.

(26) J. Sanua: Souhaits d'Orient, p. 20.

٢٧- نسخة خطية سلمتها السيدة ميلود صنوع.

(28) A. Varloy: Gustave Nadaud, sa vie et ses œuvres (1820-1893), Paris, Daragon, 1910, 90-91.

(29) Rosalie Rousseil: Dieu et Patrie, Paris, Lemerre, 1890. Elle est égalament l'auteur d'un médiocre roman autobiographique: La fille d'un proscrit, Paris, Lacroix, 1878.

٣٠- نسخة خطية سلمتها السيدة ميلود صنوع.

(31) France Darget: Poésies nouvelles, Tours, 1903.

(32) Lettre inédite de France Darget, Tours, 23 Janvier 1903.

(33) Albert Thibaudet: Histoire de la littérature française de 1789 à nos jours, Paris, Stock, 1936, 331, 333.

٣٤- نسخة خطية سلمتها السيدة ميلود صنوع.

٣٥- المرجع ذاته.

٣٦- كانت إيزابيل إيبرهاردت (١٨٧٧ - ١٩٠٤) مصدر إلهام عدد كبير من الكتاب من باروكان Barrucand حتى راؤول ستيفان Raoul Stéphan ومن روبير راندو Robert Randau حتى دويون Doyon وحتى الإصدارات الأخيرة لجاستون روجيه Gaston Roger.

"Isabelle Eberhardt et les lettres africaines", Europe, oct. 1954, 67-71; Lesley Blanch: "Isabelle, le Cosaque du désert", Elle, 31 Janvier, 7, 14 février 1955; Cecily Mackworth: Le Destin d'Isabelle Eberhardt, Oran, Fouque, 1956; Françoise d'Eaubonne (Martine Okapi, pseud.): La couronne de sable. Vie d'Isabelle Eberhardt, Paris, Flammarion, 1968.

عن علاقتها بأبي نضارة الذي عرفها بالشرق الإسلامي، انظر:

Barrucand: "Notes sur la vie et les œuvres d'Isabelle Eberhardt" à la fin du livre d'I.E., Dans l'ombre chaude de l'Islam, Paris, Fasquelle, 1921, 323-324; René-Louis Doyon: "La vie tragique de la bonne nomade", introduction à Mes Journaliers d'I.E., Paris, La Connaissance, 1923, p. XXXIV; et surtout G. Roger: "Les prémices d'une vocation: Lettres inédites d'I.E.", Europe, juillet 1956, 21-32.

(37) Baignières, 18 et suiv.; L'Athénée, 18e année, nov. 1912 (numéro consacré à la mémoire d'Abou-Naddara), p. 104.

(38) Les Soupirs du Proscrit.

(39) M.-A. Gromier: L'Union méditerranéenne, 24. - ولرؤية شاملة انظر:

Renée Lelièvre: "L'idée latine à la fin du XIXe siècle, Actes du IVe congrès de l'Association internationale de littérature comparée (Fribourg 1964), publ. Par François Jost, The Hague-Paris, Mouton, 1966, I, 150-157.

(40) La France, 5 juin 1885.

٤١- توفيت السيدة لولي ميلود عام ١٩٦٧، وهي خريجة مدرسة سيفينيه Sévigné بباريس. وقد كرست السيدة لولي ميلود جهودها للحفاظ علي الاستقلال المادي والنفسي للمرأة وذلك عن طريق منحها التعليم الذي يجعلها قادرة علي كسب عيشها ، وبعد أن أنشأت عام ١٩٠٩ جمعية المعلمات المؤهلات ، أسست عام ١٩١٣ مدرسة التعليم العالي التجاري للفتيات، وفي عام ١٩٢٦ بعد رحلة إلى الولايات المتحدة قدمت لغرفة التجارة مشروع مدرسة فنية للمبيعات، وقد تم تعيين السيدة ميلود عام ١٩٢٠ عضوًا بالمجلس الأعلى للتعليم العام ، وحصلت عام ١٩٦٣ على وسام فارس. انظر :

Louli Sanua vivante, biographie par son mari (1969).

(42) Baignières: op. cit., 12.

(43) La Revue de l'Est., Paris, 1er mai 1895, 1097 - 1108.

٤٤- رحلة أبي نظارة. عدد ٧ .

٤٥- ص ١٧ .

٤٦- تناول صنوع هذه التيمة في مسرحيته الكوميدية التي عرضت بالقاهرة بعنوان «بورصة مصر» – انظر دراستنا عن المسرح المذكورة من قبل.

٤٧- ص ٢٢ .

٤٨- «للسماح لكم بتعريف زوارنا بالكثير من الأمور – بكل ما تمتلكون من مهارة – عن التاريخ والأدب الإسلاميين ولتعريف حتى المسلمين الذين سيأتون لباريس التاريخ والأدب الفرنسيين» رسالة غير منشورة بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٠٠ من ج. شارل رو G. Charles-Roux مندوب وزارتي الخارجية والمستعمرات بالمعرض الدولي لعام ١٩٠٠ .

٤٩- التودد – من فبراير : يوليو ١٨٩٥ – عن الخالدي انظر:

Dagher: Eléments de biobibliographie, 334; Chejne: "Travel books", 212-213.

٥٠- السابق – الجزء الثالث – الفصل الثالث.

(51) "Sonnet à la France", L'Union méditerranéenne, 94.

(52) Les Sœurs latines, 21.

(53) Souhaits d'Orient, 18.

٥٤- أبو نضارة – ١٥ أغسطس ١٨٨٨ .

٥٥- نشرت جريدة أبو نضارة في عددها الصادر في ٢٨ فبراير ١٨٨٨ مقالاً لڤولتير يحيّي التودد ويختتم قائلاً : «في هذه الجريدة يتعلق الشيخ بتقديم سلوك الفرنسيين في الجزائر والإنجليز في مصر بطريقة متوازنة، ويبدو لنا أن هذه الجريدة تهدف إلى تقديم خدمات كبيرة لصالح نفوذنا في إفريقيا إذا كانت حكوماتنا الاستعمارية تريد بل وتستطيع الاستفادة منها».

٥٦- عن تطور الحركة الاستعمارية في فرنسا اعتبارًا من ١٨٩٠، انظر:

v. P. Renouvin: Hist. des relations internationales, VI, 167-168.

٥٧- «إن زميلنا الذي يتحدث تقريبًا كافة اللغات يعيش بطريقة جد متواضعة من إعطاء الدروس، ولذا يتسنى لنا – بالنسبة لهذا الزميل المخلص لفرنسا الذي تتمثل جريمته الوحيدة في

رغبته في إعادة مصر للمصريين – أن تنشئ له وظيفة مترجم في وزارة. ويتسنى لنا التأكيد أن أبا نضارة – وهو أجنبي ومنفي ودون أي ضغط وبموارده وحده – قام بالدعاية لبلادنا أكثر بكثير من عدد كبير من موظفينا الذين يتقاضون الأجور الكبيرة»، مقتطف من الريفو ديبلوماتيك in Abou-Naddara, 26 Janvier 1888.

٥٨– أبو نضارة، ٢١ فبراير ١٨٩٠ .

٥٩– رحلة أبي نظارة – ٢٩ أكتوبر ١٨٧٨ .

٦٠– انظر حسين فوزي – سندباد مصري.

٦١– السابق – ٧٠ .

٦٢– السابق ١٩٣ – ١٩٤، ٢٠٠ .

٦٣– أبو نضارة – العام الثالث عشر – عدد ٦ – ٢٥ يونيو ١٨٨٩ .

(64) Les soupirs du proscrit, VIII: "Le grand ami de la France".

(65) Alfred Letellier: Préface des Souhaits d'Orient; - Blunt: My Diaries. I, 71; - Sanua: "L'entente cordiale franco-ottomane", Les Sœurs latines, p. 19-Ci. A. Louca: "Une turquerie genevoise".

(66) Blunt: My Diaries, I, 376.

٦٧– أبو نضارة – ١٩٠٥ – عدد ٨ .

٦٨– وفقًا لما قاله لاندو الذي يحيل إلى وثيقة لوزارة الخارجية بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ – القاهرة ، وكذلك جي نينيه J. Ninet ، عربي باشا – ٢٢٥ ٢٢٦ .

٦٩– كان من الصعب علي اي. ل. جندزير I.L.Gendzier فهم تشابك ميول صنوع وتعقيدها – "J. Sanua and the Egyptian Nationalism" (1961). Nos réserves, ici, serviront à corriger ses exagérations.

٧٠– أبو نضارة زرقاء – القاهرة – المقالة الافتتاحية للعدد الأول.

٧١– عن تاريخ الصحافة المصورة انظر :

G. Weill: Le journal, 198-199; Philippe Jones: La presse satirique illustrée entre 1860 et 1890, Paris, Institut fr. de Presse, 1956 (Etudes de Presse, VIII, no. 14, 1-113); Jacques Lethève: La caricature et la presse sous la IIIe République, Paris, A. Colin, 1961.

(72) Sur La Lune rousse (1876-1879), v. Ph. Jones, 84-85.

(73) Sur Pépin (Edouard Guillaumin, dit), collaborateur de plusieurs journaux satiriques, dont Le Trombinoscope, Le Grelot, Le Fouet, v. John Grand-Carteret: Les mœurs et la caricature en France, Paris, Librairie Illustrée, s. d. (1888), 470-471; J. Lethéve, 53.

(74) E. de Marcère: Histoire de la République (1876-1879), Paris, Plon. 1910, II, 67-68.

(75) Les Sœurs Latines, 30.

٧٦- «يوبيل أدبي وتقاعد عميد الناشرين العرب».

(77) Henri Avenel: La presse française au XXe siècle, Paris, Flammarion, 1901; Louis Latzarus: "Le journal moderne", Rev. de Paris, 1et Janv. 1914, 188-210; 15 janv., 406-426.

٧٨- في فرنسا بدأت مقالات التأبين تظهر في الصحف التالية:

: La Temps - Le Figaro - Le Journal - Le Matin - Le Petit Parisien - La Patrie - La Presse - La Liberté - Gil Blas - Paris-Midi - Paris-journal - La France - L'Autorité - L'Action - Le Siècle - Le Soleil - Le Voltaire - L'Athénée.

٧٩- تخليص الإبريز، ١٨٥ - راجع :

cf. Jean-Pierre Seguin: Nouvelles à sensation, Canards du XIXe siècle, Paris, A. Colin, 1959; Charles Ledré: La presse à l'assaut de la monarchie, 1815-1848, Paris, A. Colin, 1960.

****

الجزء الثالث
سُيّـــاح مثقفــون

الفصل الأول

مصر في معارض باريس الدولية

(١٨٦٧ - ١٨٧٨ - ١٨٨٩ - ١٩٠٠)

وجدت المواطَنة العالمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تجسيداً عظيماً لها في المعارض الدولية، والأمر يتعلق بالمعارض القديمة الممتدة على الصعيد العالمي استجابة لديناميكية الصناعة الحديثة المتعطشة للتوسع. وزاد كل من البخار والكهرباء من سرعة الاتصالات ودفعت الناس - بفوائد الاختراعات التقنية - إلى مضاعفة لقاءاتهم في عواصم القوى الاقتصادية الكبرى.

وعقدت خمسة من هذه اللقاءات الجماعية في باريس في الفترة من ١٨٥٥ وحتى ١٩٠٠، وكان المعرض الأول مستوحى من معرض لندن الذي نظم في قصر كريستال الشهير بالهايدبارك عام ١٨٥١[(١)]؛ ولم تُمثَّل مصر في هذا المعرض إذْ كانت حديثة العهد بالتحرر من نير عباس باشا وذلك في عام ١٨٥٤، ولكنها عوضت ذلك وظهرت في أبهى صورها في معرض ١٨٦٧، ومنذ ذلك الحين شاركت في هذه التظاهرات الدورية مع اختلاف التأثير الذي أحدثته.

ولاستقبال الأمم عام ١٨٦٧ حدثت باريس نفسها بناء على مبادرة هوسمان Hauss-mann، وكانت الشوارع الجديدة تدعو إلى النزهة. وفي الأول من إبريل افتتح المعرض في موقع محاجر بيلفيل Belleville والمعروف باسم حديقة بوت شومون Buttes-Chaumont وتحولت وسائل الانتقال إذ صدر قرار يلغي احتكار عربات الجياد ويعلن حرية العربات العامة، وكانت سكة حديد دائرية تنقل الركاب حتى الشان دي مارس Champ de Mars وكذلك «أسطول صغير من الاتوبيسات البحرية العامة»[(٢)].

وكان المبنى الرئيسي للمعرض هو قصر الشان دي مارس ويسمى الكوليزيه Colisée الجديد والذي بدا لتيوفيل جوتييه Théophile Gautier وكأنه: «أثر شيد في كوكب آخر؛ وربما في عطارد أو في زحل وذلك بذوق لا نعرفه وألوان لم تعتدْهَا أعيننا»(٣). وكان مركز الجذب الكبير هو الحي الشرقي «بمآذنه وقبابه وبواباته الضخمة وحوائطه المدببة الأطراف التي تشبه وفقاً لكلام تيوفيل جوتييه «مدينة شرقية نقلها بعض السحرة من آسيا الصغرى»، وكان الحي الشرقي يضم سراي باي تونس والحمامات التركية والكشك العثماني وبيت الشاي الصيني، وإذا كان الحي الشرقي قد مثل جوهرة المعرض فإن مصر مثلت «جوهرة الحي الشرقي»(٤).

وكانت مصر تقدم ـ في الحديقة التي تبلغ مساحتها ٦٠٠٠م٢ ـ كلا متكاملاً؛ فكان هناك معبد يمثل العصور القديمة وسلاملك(٥) يمثل العصور الوسطى، ووكالة تجمع(٦) الحرفيين وعادات العصر بينما تعلن بانوراما لمشروع قناة السويس عن إنجازات المستقبل.

ولاحت لماربيت الذي كان قد نظم لتوه ـ بعد رفاعة ـ نظارة الآثار المصرية فكرة وضع المجموعة المرسلة من بولاق داخل معبد، وصمم هذا المتحف المؤقت بوصفه «درساً حيّاً للآثار»، ولكنا نعرف أن مصر ماربيت تختلف عن مصر التي عرفناها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ففضلاً عن الطراز الرسمي للكرنك تم إضافة الفن الساذج والمتنوع الذي تم اكتشافه في سقارة وكذلك فن أبيدوس الدقيق، وكان مبنى شان دي مارس المشيد وفقاً لرسم كشك معبد «فيلة» يحقق توليفة من الهندسة المعمارية المصرية تجمع بين الطراز البطلمي والإمبراطوري القديم والجديد، وكان هناك ممر يؤدي إلى الداخل ويضم تماثيل لأبي الهول – «تخفي بصورة جادة طابعها الأثري القديم(٧)، وكانت مجموعة العواميد ذات التيجان التي تحمل رأس هاتور Hator تحمل صور إيزيس وهي تتلقى بمهابة الصلاة من بطليموس، وكانت واجهة الكنيسة الصغيرة المفتوح بها باب من زمن سيتي مرسومًا عليها مشاهد من الحملة التي أمرت بها الملكة حتشبسوت لبلاد بونت، وكانت هناك ثلاثة نُصب تذكارية تم نقلها من أبيدوس تزين الحوائط الأخرى.

وداخل القاعة كنا نعود أيضاً عبر التاريخ حتى ممفيس عند الكاهن كاو Kao والموظفين تي وبتاح حتب وذلك في ظل ديكور مكون من زهور اللوتس المتفتحة، وهنا كنا نشاهد كنزاً أصليّاً وهو شفرن الشهير الذي يحمي رأسه الصقر الباسط جناحيه وشيخ البلد اللطيف والكاهن رع نفر والملكة أمينيريتيس والبقرة هاتور ومذبحان وصناديق مومياوات ومصوغات الملكة آه حتب Aah-Hetep وعدد من التماثيل الصغيرة والآنية وأدوات متعددة(٨)، والمتحف شأنه شأن المعبد نفسه يعرض عينات من الفن المصري في عصوره الرئيسية، وهكذا يعبر الزائر في أربع خطوات - من المدخل وحتى الداخل - أربعين قرناً ممثلة بفنها الهندسي ونحتها ورسمها»(٩).

وعلى يمين المتحف كان هناك جناح مقام على الطراز العربي من تصميم المهندس شميتز Schmitz، وكنا ننتقل فيه من الخشونة الكهنوتية إلى الخفة الأرستقراطية(١٠)، وكان هناك قبة مذهبة من الأرابيسك تعلو برجاً مربعاً مسنناً يرتفع عند تقاطع جناحين ملونين بمقاطع زرقاء وحمراء على خلفية بيضاء، وفي وسط الواجهة كان هناك قوس كامل الاستدارة يرتكز على عمودين من الرخام الأحمر يحيط الباب الصغير عند تجويف مغطى بالأرابيسك، وكان باب الشرف ذاك يؤدي إلى الغرفات الخاصة بالخديوي، وكان هناك بابان جانبيان يؤديان إلى القاعة العامة التي صمم لها الديكور ماربيت.

ولاحظ عالم المصريات: «أنَّ جَعْل السلطان يظهر في شكل مومياء وإحاطة الأرابيسك الذهبي بكؤوس السلطان حسن وجعارين وصولجانات ذات رؤوس تماسيح ينطوي بالنسبة لي على الجرأة، ومن ثم عدلت الطراز القديم في هذه المساحة»(١١)، وكان هناك ستة مصابيح مسجد معلقة في السقف ووضع التمثال النصفي لإسماعيل الذي نحته كوديبه في المدخل، وكان الزوار يتوقفون أمام سلسلة من الخرائط المجسمة، وكانت خريطة مصر السفلى والوسطى التي تم تنفيذها تحت إشراف ميرشيه Mircher رئيس البعثة العسكرية الفرنسية توضح الموارد الزراعية والجيولوجية والصناعية والتجارية للبلاد، أما الخريطتان اللتان تمثلان الإسكندرية واللتان نفذهما محمود الفلكي فكانت إحداهما تمثل المدينة الحديثة والأخرى المدينة في زمن الرومان، وكان فيجاري بك يعرض مجموعته من

«الصخور التي يستخدمها المصريون القدماء» إلى جانب بعض رسومات لقطع جيولوجية في أرض مصر، وكانت خرائط هيدروجرافية للينان دي بيلفون Linant de Bellefonds تجاور الدراسات الطبوغرافية التي قام بها طلبة مدارس القاهرة(١٢)، كما كانت مجموعة مختارة من الكتب تبلغ حوالي ٢٥٠ كتاباً طبعت بالمطبعة الوطنية وكذلك عدد كبير من الصور الفنية للطبيعة المصرية تجذب أنظار الحضور.

وتساءل ماربيت: «إن وجود الآثار المصرية القديمة من ناحية والآثار العربية القديمة من ناحية أخرى لن يسمحا بإعطاء القيمة لمصر الحديثة، فما العمل إذن؟» تم بناء وكالة وهي ذلك المنزل الذي يطلق عليه خان القوافل في تركيا وفارس والذي يجمع في ذات النطاق النزل والمحل والبازار والورشة وذلك لاستخدام التجار والعمال، وكانت الخطوط العامة لهذه الوكالة مقتبسة من وكالة أسوان وبعض التفاصيل من وكالة جرجا وقنا، وكانت المشربيات قد فككت من منزل حسين بك ومن قصر الجمالية بالقاهرة، وكانت هذه الوكالة تسحر تيوفيل جوتييه «بحوائطها المرتفعة الصفراء المخططة بقطاعات حمراء من الطوب الأحمر التي تشكل أجمل الرسومات وكانت مشربياتها المنيفة على جدرانها الخارجية كأقفاص عصافير وكانت تخشيبة سقفها تأخذ شكل شرفة».

ويصف تيوفيل جوتييه: «كان الداخل مكوناً من صحن من طابقين ـ محاطاً بمحلات صغيرة وغرفات تستمد ضوءها من الساحة ـ حيث يتعين أن يجد التجار والمسافرون الرفاهية والهدوء والانتعاش، وكانت المشربيات التي تمثل نوعاً من الصالونات الهوائية مزينة من الداخل بأرائك خفيضة، أما قطعها الخشبية المقطعة التي تشبه نسيج الدانتيلا والتي تسمح لمن يجلس بالداخل أن يرى الخارج دون أن يراه أحد فنطل من خلفها على السماء ـ وكأنها واحدة من الأوراق المطبوعة التي نغلف بها الحلوى ـ فتخفف ضوء النهار وحدة الهواء وتعطي لمسة ساحرة لهذا الملتقى الشرقي. وعلى غرار المشربية كان لدى الإسبان الميرادور (نافذة بارزة) حيث تقضي السيدات اللاتي يرتدين الحجاب – كما يحكي ألفريد دي موسيه Alfred de Musset الجزء الأكبر من وقتهن وهن جالسات على الأرض أو على حصير بذات طريقة النساء العربيات فاطمة وزويد أو سلسلة القلوب

[..]، ولنأمل أن تمتد هذه العادة ليصاب بها أحد الأثرياء المحب للذات والروحاني ليقيم لنفسه قصرًا صيفياً بمشربيات شرقية في وسط حديقة أو على ضفة مجرى مائي، وفي هذه الحالة لن ينقصه سوى الشمس والحرارة والنخيل»[١٣].

وكان أصحاب العمل والعاملون يعملون «بمهارة رائعة بأدواتهم البدائية»[١٤] وهم جالسون خلف درابزين خفيف وخفيض، وكان هناك صاغة وجواهرجية من السودان والقاهرة، وسروجي، وصانع قباطين يطرز الحرير والقطيفة بخيوط الذهب والفضة، وصانع الغليون التركي، وصانع الحصير، وخراط يصنع الأشياء الدقيقة من الخشب والعظام والعاج، وكان هناك أيضاً مقهى في الطابق الأرضي، أما الطابق الذي يخصص عادة للسكن فكان مقسماً هنا إلى قاعة اجتماعات وقاعة أنثروبولوجيا ضخمة.

وعلى بعد خطوات من الوكالة كانت هناك حظيرة تضم جملين وحمارًا أبيض وآخر أسود، وكان الجملان وهما «حيوانان رائعان ذوا فرو أبيض وخفة غير عادية وعنقين طويلين يؤرجحان رأسين صغيرين ذوي عيون غزلان واسعة» يثيران شفقة تيوThéo الطيب، وكان الجملان قد نقلا لعدة أيام إلى حديقة لحيوانات البلاد الحارة، ورأى مؤلف كتاب «حنين المسلات» Nostalgies d'obélisques: «أن الرحلة قد أجهدتهما، فهما ـ سفينتا الصحراء ـ لم يكونا معتادين على الانتقال في سفن بخارية أو عربات قطار»[١٥].

وفي الحديقة الوسطى كانت هناك أروقة مسقوفة مبنية من الخشب ومرسوم عليها وحدات زخرفية فرعونية تحتوي على منتجات زراعية وصناعية، وكان هناك عشرة أشخاص من الرجال والنساء يشكلون أنماطًا من كافة سكان وادي النيل يستقبلون الزوار، وكان فنان هذا العمل المتميز هو كورديبه Cordier.

وكانت آخر تحفة فنية في شكل معبد قديم أيضاً مخصصة لأعمال قناة السويس التي كان من المقرر افتتاحها بعد عامين، وكان فردينان ديليسبس يعطى فيها المحاضرات أمام خريطة للبرزخ، وكان الجمهور يأخذ فكرة عن المشروع الصعب والجهود التي تبذلها آلاف

الأيدي القوية - بواسطة عدد من الماكينات - لحفر ونقل ملايين من أكوام التراب على الجوانب المنحدرة لموقع العمل وذلك بغية الربط بين البحرين(١٦).

ولم يكن وجود مصر مقصوراً على حديقة شان دي مارس، فعلى نهر السين بالقرب من كوبري يينا Yéna كانت ترسو بنت النيل وهي «ذهبية» رائعة بشراع مثلث، وكان قد تم قطرها من الإسكندرية حتى مارسيليا، وسارت في قنوات اللوار والسين حتى باريس. وقد دعا إسماعيل على متنها الإمبراطور وزوجته، وصعدت على ظهرها الأميرة مالتيد لتتوجه إلى سان كلو، ولكن عندما أهدى الخديوي المجامل ذهبيته إلى الإمبراطورة أوجيني، رفضت الإمبراطورة العرض، وآلت بنت النيل أخيراً إلى الأمير نابليون الذي أرسلها إلى ميناء الهافر.

وكتب إدمون أبوت Edmond About - عن حق - في الفلاح: «كان هذا المعرض الرائع يتحدث إلى العقل وكذلك إلى العينين، وكان يعبر عن فكرة سياسية»، ولم يكن المعرض بالنسبة لإسماعيل سوى ذريعة، فقد كان قد حصل لتوه على لقب خديوي وهي كلمة فارسية تعني «سيد» بدلاً من كلمة «والي» التي كانت تنطوي على فكرة التبعية، وخلال رحلة له في باريس وفيشي تحدثت الصحف عن بذخه الكبير، ومع ذلك عشية رحيله إلى لندن طلب منه السلطان الذي وصل إلى فرنسا أن يأتي للقائه، وكان السلطان عبد العزيز يحرص على هذا التصرف الذي يبرهن على الاعتبار الذي يوليه له والذي أقر سيادته(١٧).

وأياً كانت الأمور كان يحتفي بمصر وليس فقط بشخص الخديوي، ولْنُنَحِّ جانباً الصحف والتقويمات التي تحدثت عن مصر بهذه المناسبة لنهتم بأدب أكثر تماسكاً؛ فقد عبر المؤرخ الاجتماعي شارل إدمون Charles Edmond الذي عين مفوضاً عاماً لمصر في كتاب رفاهي وسطحي ورسمي مخصص لمدح الخديوي عن «وصف الحديقة المصرية» البسيط والدقيق والذي نشره ماربيت(١٨). وإذا كان إسهاب جليس الملك من ناحية واختصار العالم من ناحية أخرى قد حطا من مكانة العملين، فلحسن الحظ لدينا الصفحات الجميلة لتيوفيل جوتييه التي استوحاها من مصر المعرض.

وتشكل الصفحات المجموعة في كتاب الشرق l'Orient تحت عنوان «نظرة عامة» فصلاً تقديمياً لقصة رحلات، فقد دُعي تيوفيل جوتييه لحضور افتتاح قناة السويس بوصفه مراسلاً للجورنال أوفيسيال Journal officiel، وللأسف لم يستطع بعد كسر يده على السفينة أن يعرف عن مصر - خلاف فترة راحة إجبارية - سوى حقول الدلتا التي مرت أمام عينيه من خلال نافذة القطار، ثم «ما رآه في فندق شبرد»[١٩]، ومن ثم كانت رحلته الحقيقية لمصر هي زيارته للمعرض، واعترف بنفسه قائلاً: «لا تحتاج أن تأخذ من مارسيليا سفينة إلى الإسكندرية، فيكفي أن تمشي في ممر من الرمال حتى نهايته لتجد نفسك أمام معبد إدفو [...]. وتجد تجويف الجدران وجذوع الأعمدة وخرجة الكورنيش مغطاة بهذه المواكب الطويلة الهيروغليفية التي يسعى الخيال إلى فهم معناها الغامض وهي مزركشة بألوانها الزاهية التي لم تنجح القرون في تغييرها، تلك الأسطح الصلبة للفن المعماري المصري، والحق أن الشخص يشعر بنوع من الدهشة والغربة الشديدة عندما يجد نفسه فجأة أمام أحد هذه الآثار التي نذهب للبحث عنها على امتداد النيل في «سهل من الرمال ذي الحرارة الحارقة»[٢٠].

ولقد لاحظنا السحر الذي مارسه الطابع المحلي للوكالة على حس جوتييه المرهف، فقد وجد فيه نوعاً من الغربة ومن الهروب من الطابع الخانق لإطار الحضارة الحديثة، فقد بحث في ذات الشرق غير الواقعي عن ملجأ هادئ وهو يكتب ألف ليلة وليلتين Mille et deuxième nuit وكذلك لا بيري la Péri والسلام le Sélam، بيد أنه لم يستمر في ذلك طويلاً، فعلى غرار أعماله الأخرى لم تكن مصر العربية إلا رؤية مبهمة لحالم أفسحت مكانها للدقة التصويرية لمصر القديمة، وهنا أيضاً في الشأن دي مارس كان تيوفيل جوتييه أكثر انجذاباً إلى الماضي الفرعوني حيث عاش فيه مرة أخرى من خلال كتابه «رواية المومياء» Roman de la momie، وبكثير من الفضول المستثار حضر جوتييه في قاعة المجموعات الأنثروبولوجية احتفالاً غريباً؛ ففي حضور عدد من الأطباء والعلماء والفنانين ورجال الأدب تم فتح تابوت وشُرِع في فك المومياء التي كانت بداخله من القماط.

وها هو الروائي يرى أمام عينيه المشهد «القديم والجنائزي» الذي كان قد تخيله سلفاً، وتشكلت انطباعاته الحية التي كتبها بذات الدقة التي كتب بها روايته، والتي تتسم أساساً بأنها أيقونية وذات نهاية مفاجئة.

ويصف في البداية مشهد حساب الأرواح الممثلة على تجويف التابوت، وهو يتعاطف مع هذه المومياء التي كانت في الماضي السيدة نسخونس Neskhons، التي تم اكتشافها وجَعْلها في وضع الوقوف. «كان الشيء الأكثر غرابة هو تلك الدمية من الخيش التي يتشكل هيكلها من جثة والتي كانت تكافح وهي متصلبة ومرتبكة بين الأيدي التي كانت تجردها من ثيابها بنوع من المحاكاة الساخرة الرهيبة للحياة، ومع ذلك كانت اللفافات تتكدس من حولها كبقية لا نهائية لثمرة نقوم بتقشيرها دون أن نتمكن من بلوغ نواتها [...] كان هومان أو إدجار بو جديرين أن يجدا في هذا المشهد نقطة بداية أحد أقصوصاتهما الرهيبة، وبالفعل هبت عاصفة مفاجئة وهزت الشبابيك بأمطار ذات نقاط مياه عريضة تعطي صوت البرد: فكانت أضواء من البرق الباهت تنير الرؤوس القديمة الصفراء وذات الملامح الكشرة لستمائة رأس ميت على رفوف الدواليب في المتحف الأنثروبولوجي، وكان الرعد بصوته القوي يشكل نوعاً من المصاحبة الصوتية لرقصة فالس نسخونس ابنة حورس وروا التي كانت تدور بين الأيدي المتعجلة للذين يخلعون عنها قماطها». وكان حجم المومياء يقل كلما تم خلع الأقمشة من حولها وإلقاؤها في القاعة، وأثار ظهور الجسد صورة مؤثرة؛ وتحت كل إبط كانت هناك وردة محفوظة تماماً، ودفع هذا الاكتشاف الشاعر إلى تأمل عميق: «من ذا الذي وضع هناك هاتين الوردتين البائستين كنوع من الوداع الأعلى في الوقت الذي سيختفي فيه الجسد المأسوف عليه تحت أول طبقة من الشرائط ؟ وردتان يبلغ عمرهما أربعة آلاف عام، إن هذه الهشاشة وهذه الأبدية الممتزجتان معاً إنما تعطيان انطباعاً متفرداً».

وأخيراً تم خلع القناع المثبت «بقوة لأعداد غير محددة من القرون». ماذا قالت عيون المومياء لشاعرها؟ «عينان بيضاوان ذواتا حدقتين عريضتين وسوداوين تلمعان بحياة زائفة

بين جفنين بلون سخيم، كانتا عينين من المغناطيس كما كان يتم وضع أعين للمومياوات المعدة بعناية، وكانت هذه النظرة الواضحة والثابتة في هذا الوجه الميت تعطي إحساساً مرعباً، فكانت الجثة تبدو كما لو كانت تنظر بدهشة مستخفة إلى الأحياء الذين يتحركون بصخب من حولها»، وكان الشاعر البارناسي شديد التأثر بالبلاغة الثابتة للعصور القديمة إذ تأمل ورقة ذهبية موضوعة على فم نسخونس «وكأنها ختم الصمت الأبدي»، وعندما تأمل الشعر «الدقيق والحريري والناعم والمفصول في خصلات خفيفة، والمصبوغ بعطور تحنيط بهذا اللون الأحمر» الذي تبحث عنه نساء فينيسيا «والذي جعله الدلال المضجر لبعض المتأنقات في الصدارة مرة أخرى – أدرك مدى عدم جدوى «آخر موضة».

وبعد أن قارن تيوفيل جوتييه بين نسخونس وتاحوسر مومياء الرواية فيما يتعلق بعراء أجسادهن اعتباراً من الرأس ومروراً بالجذع وحتى الأيدي الخجولة إلى الأقدام الرقيقة والأظافر المغطاة بورقات ذهب خفيفة، يختم قائلاً:

«أليس شيئًا مدهشاً يبدو وكأنه حلم أن نرى على المائدة وفي شكل يمكن أن نثني عليه رأساً كانت تمشي تحت الشمس وتحب وتحيا قبل موسى بخمسمائة عام وقبل الميلاد بألفي عام؟ إذ إن هذا هو عمر المومياء والذي شاء القدر إخراجها مع غلاف كرتون لوضعها في وسط المعرض الدولي في وسط كافة الأجهزة الحديثة، يا لها من أحداث غريبة تلك التي يخفيها المستقبل ! إلى أي حد لانهائي من الافتراضات في وجود أحداث مماثلة تبدو جد بسيطة يمكن أن يسمح الخيال لنفسه بها ! وعلى غرار هاملت الذي كان يتحدث مع لحاد، نصل إلى أن نثبت لأنفسنا بطريقة فلسفية أن تراب ألكسندر يستخدم في سد فتحة برميل من البيرة بملاط، ونحن نعتقد أنه خلال معرض دولي في القرون القادمة عندما تحل حضارة جديدة محل الحضارة الحالية، لن يكون هناك ما يثير العجب في أن يقوم أستاذ في علم الأنثروبولوجيا في ذلك الوقت ـ وهو يتحدث عن السلالات المنقرضة ـ باستخدام رؤوسنا ليعرض محاضرة جد ثرية عن نوع من كتاب المقالات من عائلة الأدباء التي ينتمي إليها الشاعر لنلقي إلى المومياء البائسة نظرة وداع تتسم بالصداقة والكآبة المبهمة.

ويظل نص جوتييه شهادة حية، فقد أعطى معرض ١٨٦٧ مجالاً بالفعل لمعرفة ملموسة لمصر، فقد شاركنا في عملية بعث حقيقية، واستعادت المومياء لحمها وخرجت مصر الألفية من لفافاتها، وكانت تماثيل أبي الهول تستقبل المتنزهين الذين يذهبون إلى المعبد المفتوح للجمهور، وهنا كانت الإنسانية تجد مرة أخرى أقدم مصادر حضارتها، ففي بضع خطوات كنا نعود من خلال العصور الوسطى إلى الحاضر لننظر إلى رؤى جديدة، ويتيقن الإنسان من تراثه ومن مجرى حياته المحير، وكانت الفكرة العامة التي يمكن استخلاصها من المجمع المصري في الشان دي مارس تتمثل في استدامة الحضارة كما تنعكس في صورة بلد، وقد عبر مارييت عن هذه الفكرة في بداية «ملخص تاريخ مصر» Aperçu de l'histoire de l'Egypte الذي أعيد طبعه بمناسبة المعرض، إذ يقول:

«إن مصر لا تتألق لبعض الوقت ـ كغيرها من البلدان ـ لتخبو بعد ذلك في ظلمات الليل لفترات طالت أو قصرت؛ فهي على النقيض من ذلك تمتلك الثروة الغريبة المتمثلة في الحفاظ على حركتها وتقدمها خلال سبعين قرناً، وفي أغلب فترات هذه المدة الطويلة نجد لها تأثيراً واضحاً في مجالات بعينها، ففي العصور الفرعونية القديمة كانت مصر أم الدنيا كلها، فبينما كان العالم كله في ثبات ودون أي تاريخ بدأ خوفو في بناء الآثار التي لم يتمكن الفن الحديث من التفوق عليها؛ فقد ربط تحتمس وأمينوفيس ورمسيس الثاني في عجلاتهم الحربية كافة الأجناس الإنسانية المعروفة آنذاك، وفي العصر اليوناني والروماني سادت مصر بأفكارها كما سادت من قبل بأسلحتها، فقد قادت الجماعات الفلسفية السكندرية ـ في زمن الأزمة العليا ـ الحركة الكبيرة التي نتج عنها العالم الحديث؛ وفي العصور الوسطى كان الفن العربي الذي أوجد في القاهرة تلك المعجزات التي لا يمكن محاكاتها، إنها الحروب الصليبية والقديس لويس سجين المنصورة، وفي بداية القرن كان هناك بونابرت وحملته التي اتسمت بروح المغامرة وحققت نتائج عظيمة، وأخيراً في يومنا هذا [...] نجد مصر التي تخطو خطوات كبيرة على طريق التقدم مجتذبة بذلك نحوها انتباه العالم بأسره».

وبعد نجاح مصر في أول معرض دولي اشتركت فيه، اشتركت عام ١٨٧٣ في المعرض الدولي بفيينا(٢١)، وعام ١٨٧٦ في معرض فيلادلفيا(٢٢).

وعكس معرض باريس عام ١٨٧٨ ذات الصورة عن مصر ولكن بطريقة مختصرة وسريعة وبدرجة أقل من المظهرية، ولم يستطع مارييت الذي أراد أن يقدم عن طريق الآثار الحقب الثلاث الفرعونية والعربية والحديثة من الوصول إلى المعرض في الوقت المناسب للمطالبة بجناح يتناسب مع ضخامة هذه الخطة وذلك بسبب الحرب بين تركيا وروسيا، ولم تأت الرياح بما تشتهي السفن، فكانت باريس قد تأثرت لتوها بانقلاب ١٦ مايو ١٨٧٧ وكان ركام التويليري لا يزال ينظر إلى ركام مجلس الدولة، ومع ذلك شيد التروكاديرو، واحتلت مصر فيه جزءاً بين يافطتين كما احتلت في الحديقة جناحاً منفصلاً.

وكان رواق التروكاديرو المسقوف يضم مصر الفرعونية والعربية وجزءاً من مصر الحديثة.

وكانت مصر القديمة ممثلة أولاً في مجموعة من إحدى عشرة لوحة تصور مشاهد من حياة ممفيس، وكان مبدأ وحدة المكان والزمان يتعارض مع تصميم معرض ١٨٦٧، وكان هذا المعرض يقدم التفاصيل الدقيقة لحياة بناة الأهرام، فقد كنا نصاحبهم داخل مزرعة وفي أعمال الزراعة وفي رحلات صيد الحيوانات وصيد الأسماك على ضفاف النيل وفي عمليات جني محصول العنب ثم أثناء تناولهم الطعام وحتى داخل مطابخهم، وكنا نرى النجارين والحدادين والبنائين وهم يعملون وكنا نتعلم مصادر سعادتهم ورقصاتهم وموسيقاهم وكنا نحضر مراسمهم الجنائزية ومراسم أضحياتهم، وفي الصناديق الزجاجية كنا نرى القطع الأصلية - لا المستنسخة - تعبر عن حركة الفن وتاريخه، واختار مارييت - اعتباراً من رأس خفرع وحتى تمثال حقيقي للطاهي نمحتب - نماذج من طراز حي ومعبر وشخصي، وكان بذلك يعترض على الفكرة المسبقة السائدة والتي كان أفلاطون يؤيدها والتي تقول بأن الفن المصري يتسم دوماً بالطابع التقليدي الثابت حبيس القوانين الكهنوتية(٢٣)، وقدم البرهان على ذلك باختيار مجموعة من الشخصيات في حالة حركة،

وعن مجموعة العجانات علق قائلاً: «من خلال رحلة تستغرق بضع دقائق في جزيرة فيلة يلتقي المسافر أمام كل باب تقريباً بسيدات راكعات على رُكَبهنّ وهن جالسات بذات الوضع على حجر من ذات الشكل وليصنعن بذات الطريقة الخبز لبيوتهن»(٢٤).

وكانت مصر القرون الوسطى تحتل قاعة علق على جدرانها الواجهة الأصلية لمنزل بشرفاته المعرشة ومشربياته، وكانت صناديق العرض الزجاجية تمتلئ بمخطوطات مزخرفة وآنية فخارية وخوذات ودروع وسيوف، وصُفَّ أمام الحائط أثاث ثمين من الخزانات والدواليب والرفوف من الأبنوس والأكاجو الملصوق عليه قشرة مزخرفة والموائد الصغيرة المطعمة بفسيفساء من العاج أو من الصَّدف والمناضد الخفيفة معشرة الزوايا وكراسي من العفصية أو الأرو ذات الظهور المقعرة قليلاً، إلخ(٢٥).

وفي قصر التروكاديرو أيضاً عرضت مصر في الوقت ذاته أعمال الحرفيين (ولا سيما المصوغات والسجاجيد والأقمشة المقصبة أو المطرزة بالذهب) والوثائق المتصلة بالأعراق والجغرافية عن المناطق الاستوائية التي ضمتها حديثاً ولا سيما مجموعة من الآنية والأسلحة.

واستمر المعرض عن مصر الحديثة في «الجناح» المبني في الحديقة، وكان يتكون من معبد محصن بين عمودين مربعين ضخمين ومستوحيين من طراز أبيدوس، وكان يمتاز بمظهره الارتسامي وسط حي شرقي نتعرف فيه على امرأة القيصر النمساوية التي تتمتم بالموسيقى الغجرية والجزائر في ظلال مسجد، والبازار التونسي تحت الأقواس التي تأخذ شكل حدوة الحصان، واليابان في منزل صغير من البامبو ذي الشرفات الزجاجية المغطاة بورق الأرز وقصر مرايا شاه فارس الفخيم. وكان الجزء الأكبر من النطاق المستطيل مخصصاً لمنتجات الأرض سواء للمنتجات الزراعية والحبوب الزراعية وقصب السكر والقطن والكتان والمنتجات المعدنية من الكبريت والنطرون والألابستر والحجر الرملي والجرانيت الوردي إلخ، وعلى غرار معرض ١٨٦٧ قدمت إحصاءات عن التعليم في مصر وكان هناك قاعة مخصصة لخرائط وبانوراما قناة السويس، وكان هناك قاعة أخيرة

تحتلها الجمعية الدولية الإفريقية للقضاء على تجارة الرقيق الأبيض والعبيد تضم لوحات وخرائط وقطعاً من الفن الزنجي وأدوات موسيقية وعقوداً ودروعاً ورماحاً تمثل فتوحات الرحالة الأوائل والمسدس الذي سلمه ستانلي Stanley لليفينجستون Livingston.

وظلت مصر عام ١٨٧٨ تحافظ على تقاليدها، فبالرغم من إفلاسها على يد إسماعيل ودائنيه الأوربيين ظلت مخلصة لماضيها ونشرت إشعاعها في إفريقيا، وكتب ماربيت في كتالوج المعرض: «وسط التقلبات الرهيبة التي طالما تعرضت لها مصر هناك شيء تجدر ملاحظته وهو: أيًا كانت قوة الشعب الغازي لم تختف الحضارة المصرية [...]، فعلى العكس من ذلك فرض المقهور قانونه على القاهر [...]، وهكذا كان قدر هذا الشعب الغريب الذي وجد ـ وهو في أوج العاصفة ـ السبيل للسيطرة على من دفعوا به داخل الهاوية».

وكانت نهاية دورة الإحدى عشرة سنة التي شكلت الفترة التي نظمت خلالها المعارض الدولية في باريس بصورة منتظمة عام ١٨٨٩، وتزامنت مع مئوية الثورة الفرنسية، وكانت باريس تستعد لهذه الذكرى بتجديد قوس النصر ومحطتي قطار الشمال وسان لازار، وكان المعرض يمتد من الشان دي مارس والتروكاديرو حتى ساحة الأنفاليد والكاي دورسيه، ولم يكن لهذا المعرض مبنى واحد كنواة ـ كما كان يحدث من قبل ـ ولكن كان يضم مجموعة من «القصور» المتخصصة، وكان أكبر القصور يضم «الماكينات»، وتمثل الشيء المبتكر والجديد في برج إيفل، فقد ثمن عالياً الحديد الذي زاد اجتياحه للمباني، ولكن ماذا كان موقع مصر في هذا العيد للصناعة وللأفكار الليبرالية ؟

كان الإنجليز يحتلون مصر اعتباراً من عام ١٨٨٢ ولذا لم تكن قادرة على اتخاذ أية مبادرات، ومع ذلك تم تمثيلها في المعرض، ولو لم يكن الزائر قادراً على دخول هذه المدينة التي ترسم الماضي عن طريق بيت مصري مزين ببعض تماثيل أبي الهول لكان هناك فجوة خطيرة في هذا القسم المخصص لتاريخ الإسكان، وكان العمل البنائي لمهندس الأوبرا شارل جارينيه والذي اتسم بالابتكار وحده بعيداً عن مستوى منافسة المباني العلمية التي شيدها ماربيت.

ولكن من الذي لم يزر في باريس عام ١٨٩٩ شارع القاهرة الأسطوري؟ ويقول الفيكونت فوجيه Vogué «كان أول مكان يسأل عنه القاصي والداني كما يسأل عن المدينة الصينية عند دخول موقع معرض نيجني»[٢٦]، وكان هذا الشارع من إلهام فرنسي ثري من مصر يدعى ديلور دي جليون Delort de Gléon وشرع في العمل لحسابه الخاص، وأسهم هذا الشارع بدرجة كبيرة في النجاح المادي للمعرض[٢٧]، وفي العاصمة المصرية حيث كانت الشوارع المصرية العريضة تشهد هدم المباني القديمة دون أي عقاب، كلف المفوض مهندسًا معماريًا شابًا يدعى جيليه Gillet باختيار عناصر الديكور، وهكذا تم تجميع بعض أجزاء خمسة وعشرين منزلاً قديماً حول نسخة مصغرة من مئذنة قايتباي.

وأحدث جمال الشكل المعماري أثره، وأجمعت الصحافة على إبراز تلك النقطة[٢٨]، ونذكر من بين الأوصاف العديدة هذه الأسطر النمطية:

«يذكرنا شارع القاهرة «بالأنشودة "Mélopée و«صلاة مؤذن -Prière du Huez zin" لفليسيان دافيد Félicien David و«رسائل "Lettres فرومنتان Fromentin، و«رحلات في النيل "Voyages au Nil لماكسيم دي كان Maxime du Camp، أنت في القاهرة، يمتد أمامك شارع ضيق وجميل من المدينة القديمة بمشربياته وتسييجاته العبقرية من الخشب التي تشبه الأسرّة من الطراز البريتوني وشرفاته التي تمتد في الشارع وتحملها كمرات موطّدة في الأسمنت الأبيض؛ ومظلة عريضة مشدودة من سطح إلى آخر تلقي بعض الظل والرطب في هذا الركن من بلد الشمس التي نقلت إلى الشان دي مارس، ومئذنة الجامع المجاور التي ترتفع في السماء بصورتها الظليلة البيضاء الرقيقة»[٢٩].

وللأسف في محلات الدور الأرضي كان هناك نوعان من التسلية خطفت الأضواء من الخرّاطين والسروجيين وبائعي الأقمشة ألا وهما العوالم والحمير. كان هناك تجار سوقيون يقدمون الرقص الشرقي الذي تقوم به عيوشة وزينب، وكانت هاتان المخلوقتان اللتان ليس لهما جنسية أو عمر، المستنفدتان من المجهود واللتان تنتقلان في إطار غير

واضح أو محدد بين مولد طنطا وسوق نوييي Neuilly وبين سوق السمك بالقاهرة والشارع الفسيح بالخارج تحرجان أي عارف جيد لمصر وخاصة أوجين ميلشوار دي فوجيه Eugène Melchoir de Vogué، وكان هذا الرحالة الذي سافر إلى الشرق يشعر بضيق ولا سيما أنه كان يرى المجتمع الأنيق «يتكدس في مسارح المنوعات التي يتردد عليها هناك بحارة الإسكندرية وبورسعيد». أما بالنسبة للحمّارين فقد بلغ عددهم من اثنين في عام ١٨٦٧ ليبلغ مائة على ظهرها السروج لتوفير النزهة للزوار، وكان الحمّارون الذي يصطحبونها أقل إثارة للاهتمام، وكان علينا أن نتوقع من جانب هؤلاء الأوباش كافة أنواع الفظاظة في حانات الهاربين بحي جرينال Grenelle، والحق أن الحمير البيضاء الجميلة الرقيقة أثارت الإعجاب(٣٠)، ولكن هل كانت هذه حقاً مصر ؟

وكانت العصور القديمة في شارع القاهرة المزعوم ذاك محصورة في بضع صور عن معبد تعرضها وكالة كوك Cook لقد تم إغفال حتى قناة السويس بعد أن انزلق فردينان ديليسبس في مشروع قناة بنما، ولم يقدم المعرض أي شيء عن الجوانب الحديثة لمصر سواء في مجال التعليم أو الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو المجال الاستوائي إلخ، فقد حجب الاستعمار البريطاني حضارة النيل. واعترض فوجيه بحيوية قائلاً: «لا، لقد أحببت كثيراً مصر هذه التي تخلينا عنها في يوم ضعف لا يغتفر، للتعرف عليها وهي متخفية في صورة مقهى غنائي». إن تمثيل العاصمة المصرية بهذا الشارع ليشبه تمثيل باريس بشارع موفتار Mouffetard والذي يقع مع ذلك بالقرب من جامعة السوربون !

كانت الأمم قد تواعدت على اللقاء في باريس عام ١٩٠٠ لاختتام القرن التاسع عشر واستقبال القرن العشرين، وقد استغرق العمل ثلاثة أعوام لبناء المدينة الجديدة المخصصة لاستقبال صناعة العالم وتجارته وفنونه وذلك على ضفتي نهر السين وكور لا رين Cours la Reine والشانزليزية حتى ميدان الإنفاليد، كان هذا المشهد الأول من نوعه، ففي كتاب «السيد بيرجيريه في باريس» Monsieur Bergeret à Paris كان البطل الذي قدمه أناتول فرانس Anatole France يطلع تلميذه على درج التروكاديرو Trocadéro وبانوراما المعرض التي يرى فيها: «قباب ومآذن وأجراس

وأبراج وواجهات وأسقف من الجريد وزجاج وآنية من الخزف الملون وأخشاب وجلود حيوانات وشرفات على الطراز الإيطالي وأخرى على الطراز الموريسكي وقصور ومعابد وأكواخ صينية وأكشاك وأكواخ وبيوت خشبية وخيم وقصور مياه وقصور حديد وتناقضات وتناغمات بين كافة مساكن الإنسان، وحرارة العمل وألعاب رائعة صناعية وجهد عظيم لعبقرية الإنسان الذي غرس هنا فنون العالم ومهنه»، ولننتقل مرة أخيرة للبحث عن مصر خلال هذه المواطنة العالمية المذهلة.

صمم مصري من أصل لبناني يدعى فيليب بولاد - وكان شريكاً لمصطفى بك الديب وحبيب بولاد - المبنى وعهد ببنائه للمهندس المعماري مارسيل بورنيون Marcel Bourg-non، وفي ١٦ يونيو افتتح الأمير محمد علي شقيق الخديوي الحاكم هذا القسم المصري، وأحاط به عدد كبير من الأعيان المصريين والفرنسيين منهم باربييه دي مينيار Barbier de Megnard وبعض أفراد عائلة ديليسبس. وإلى جانب المعبد القديم المستوحى من طراز ممفيس وطيبة - وفقاً للصيغة التوفيقية لعام ١٨٦٧ -، والوكالة التي تضم الحرفيين، تمثل العنصر الجديد في مسرح يقدم عليه أوبريت بعنوان «عنترة».

وكان هذا المسرح ذريعة لتقديم الموسيقى والرقصات الفولكلورية، وكان الأوبريت مكوناً من ثلاثة مشاهد، خلال المشهد الأول يعرف ملك فارس أن عنترة الجبار قد دخل البلاد، وفي الثاني يدخل عنترة في معركة مع الملك ويهزمه، وفي المشهد الثالث يتزوج المنتصر الشاب من ابنة عدوه. وفي بداية كل مشهد كنا نمر بطريقة سحرية من شرق إلى شرق آخر؛ من فارس إلى سوريا، ومن النوبة إلى تركيا.

وبعد قرن من الرومانسية ثمّن الجمهور الفرنسي عالياً هذه العروض بصفة خاصة، وأعلن أحدهم: «مع أول نسيم هواء ينقل لنا رائحة بازار أو صوت درابوكة ننجذب مرة أخرى وتصاب أعيننا وآذاننا بالسحر الأبدي»[٣١].

هذا هو الشرق الأوسط الذي تحدث عنه الروائيون والرحالة، وفي هذه الحفلة التنكرية الحقيقية وجد تيوفيل جوتييه الطريق لهروبه الممتع، ولم تكن ابنته جوديت Judith - التي كانت تقلب له وهي فتاة صغيرة الصفحات المصورة لكتاب فيدو Feydeau بمجرد أن

ينقلها إلى صورة نثرية في كتابه «قصة مومياء» - أقل تأثراً بهذه الموسيقى الغربية التي تعزف في معرض عام ١٩٠٠ وقدمت بدورها وصفاً نثرياً لرقصات زهرة الشهيرة[٣٢]، وتؤكد لنا الانطباعات التي أثارها هذا المعرض - المتزامن مع شهرة ميارلوتي - تفوق الموضوعات الخاصة بالشرق التركي وبلاد المشرق على الموضوعات الخاصة بمصر القديمة في الأدب الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر[٣٣].

وبالرغم من تقلبات السياسة ومن ميل الوكلاء لتحقيق المكسب كانت مصر التي تسعى إلى النهضة تحاول داخل المعارض الدولية أن تجد مكانها – وفي تناغم – مع الدول الأخرى، وكما قال الشاب أحمد زكي للمستشرقين الأوربيين المجتمعين في لندن عام ١٨٩٢: «إن مصر - التي ظلت حتى هذا القرن غيورة على كنوزها - تريد اعتباراً من الآن أن تتقاسمها معكم: فهي تقدم ذاتها كاملة وتشعر بسعادة لاستقبال التقدم الذي يأتي إليها من أوربا القوية بعلمها وبالازدهار الرائع لحضارتها»[٣٤].

وكانت مصر في فرنسا تعمل على حساسية الزوار وخيالهم، ونتج عن حضورها المعرض سلسلة من النصوص الهامة كتبها بصفة أساسية رحالة الشرق ولا سيما ماربيت وشارل أدمون وفوجيه وتيوفيل جوتييه فضلاً عن أدب تعريفي للجمهور نشر في الصحافة وأعمال مناسبات. والحق أن رحالة الشرق وجدوا في الأجنحة المصرية مصدراً لإلهامهم وقدموا عنصراً تكميلياً لقصص الرحلات التي كتبوها.

ومن ناحية أخرى ترك الرحالة المصريون المنجذبون للمعارض ذاتها في أدبهم الوطني قصص رحلات متميزة سواء فيما يتعلق بالشكل أو الموضوع، وكان أبرزها قصص فكري وزكي والبكري والمويلحي، وهذه الدراسات خليقة بإضافة فصل لا يزال ناقصاً إلى كتب تاريخ الأدب المصري الحديث.

****

هوامش

١- عن معرض لندن انظر:

V. Le Magasin pittoresque, 1851, 139-343: Rev. des deux mondes, 15 juillet 1854.

عن معرض باريس – انظر:

L'Exposition universelle, par Méry, poème lu à la soirée d'inauguration du Cercle de l'Exposition universelle, Hôtel d'Osmond, le 19 mai 1855. Paris, Chaix, 1855, - L. Reybaud: "L'Exposition de l'industrie en 1855 et ses conséquences économiques", Rev. des deux mondes, 15 déc. 1855. - A. Hennequin: "Coup d'œil rétrospectif sur l'Exposition universelle de 1855", Le Correspondant. 25 janv. 1856.

(2) Maxime Du Camp: "Les voitures publiques de la ville de Paris", Rev. des deux mondes, 15 mai 1867.

(3) Rev. des théâtres, 17 septembre 1867.

(4) Victor Fournel: "Voyage à l'Exposition universelle", Le Correspondant, 25 avril 1867.

(5) Pavillon de réception. V. infra, 183-184.

(6) V. infra, 184 - 185.

(7) J. Tardieu, 133.

٨- انظر الكتالوج الذي كتبه ماريت:

Description du Parc égyptien, 38-85.

(9) Ch. Edmond: L'Egypte à l'Exposition universelle.

١٠- السابق ص ١٩٠ .

(11) H. Wallon: Notice sur la vie et les travaux de Mariette.

(12) Bonola: l'Egypte et la géographie, 46.

(13) L'Orient. II. 93 - 94.

١٤- السابق، ٢ – ٩٨ .

١٥- السابق، ٢ - ٩٤ .

(16) L'Illustration, 28 Sept. 1867, 199-202 et Théophile Gautier: L'Orient, II. 110-118.

(17) Gazette de France, 29 juin 1867.

١٨- كتب ماريت لأخيه إدوار: «هناك كنت روح كل شيء، نظمت كل شيء، وفي الوقت الذي كنت أحترق لأحرث الأرض وأرمي البذر كان آخرون يجمعون الثمار.. لقد أعطيت للمعرض وقتي وثمرة عملي وفكري وفي الوقت الذي كنت أدفع من جيبي كان السيد سي. أي يبني لنفسه منزلاً».

Mariette Pacha, lettres et souvenirs personnels, par Edouard Mariette, Paris, 1906.

(19) J. M. Carré: Voyageurs, II, 194 - 202.

(20) L'Orient, II, 91.

(21) Louis Reybaud: "Une visite à l'Exposition de Vienne" Rev. des deux mondes, 1er déc. 1873.

٢٢- إبراهيم المويلحي، مصر في معرض فيلادلفيا (١٨٧٦). كراسة التاريخ المصري - ١، ٤ (١٩٤٩) - ٣١٦ - ٣٢٦ .

(23) Mariette: La Galerie égyptienne, 49-50.

٢٤- السابق، ٥٣ - ٥٤ .

(25) H. Houssaye: "Voyage autour du monde à l'Exposition universelle", 377-378.

(26) Rev. des deux mondes, 15 sept. 1889, 450, - Sur le voyage en Egypte d'E. - M. de Vogué, v. Marguerite Lichtenberger: Ecrivains français en Egypte contemporaine, chap. IV

٢٧- وصفات سحرية شديدة الشبه بوصفات مطعم برج إيفيل «كان الرقص الشرقي الشهير. الذي تمارسه راقصات شارع القاهرة يجذب حوالي ٢٠٠٠ مشاهد يوميًا، وكانت الوصفة العامة تقدر بنحو ٤٠٠٠٠ تقريبًا» نمارق Neymarek ، ١٨ .

(28) Bluysen: Paris en 1889, 96.

(29) Le notre: Voyage merveilleux à l'Exposition, 11.

٣٠- «إنها لا تنهق مثل سلالتها التي تعيش هنا ولكنها تزقزق».

Livre d'or de l'Exposition de 1889, 126.

(31) Hallays: En Lanant. 46.

(32) Judith Gautier: Les musiques bizarres à l'Exposition de 1900.

(33) Cf. H. El-Nouty: Le Proche-Orient dans la littérature française.

٣٤- أحمد زكي : خطاب ألقاه خلال جلسة القسم السامي العام المنعقدة بجامعة لندن في ٨ سبتمبر ١٨٩٢ - القاهرة - المطبعة القومية - ١٨٩٣ - ص٣ .

****

الفصل الثاني

عبدالله فكري ورفاقه

(١٨٨٩)

عُقد في ستوكهولم عام ١٨٨٩ المؤتمر الدولي الثامن للمستشرقين، وأرسلت مصر إلى هذا المؤتمر وفداً مكوناً من ثلاثة أدباء معروفين بتمكنهم في مجال الفلسفة العربية وهم عبد الله فكري وحمزة فتح الله ومحمود عمر الباجوري وهم جميعاً من خريجي الأزهر الشريف، وكُلّف محمد أمين فكري ابن الأول وخريج جامعة باريس بمصاحبة أعضاء الوفد الذين لا يتحدثون اللغات الأوربية، وقدَّر الجميع خدماته كمترجم ومرشد ومستشار ولا سيما أن هؤلاء الرجال كانوا يأملون في الاستفادة من رحلتهم لزيارة المعرض الدولي. بيد أن باريس التي لم تكن تمثل سوى مرحلة ثانوية على طريق رحلتهم تحولت لتصبح وجهتهم الرئيسية، فمن بين أيام الرحلة البالغ عددها ستة وستين يومًا كرَّس مندوبونا أسبوعين للدول الاسكندنافية وقضوا حوالي عشرين يوماً باستمتاع في باريس.

وتم وضع خطة سير الرحلة بمساعدة وكالة كوك على أن تتضمن عددًا من المدن الشهيرة، وتوقف مسافرونا أثناء رحلتهم في تريستا وفينيسيا وميلانو ولوسرنه وبال، وبعد إقامتهم في باريس اتجهوا إلى لندن، ثم أبحروا بعد ذلك نحو هولندا وقد جذبتهم مكتبة ليد Leyde الشهيرة ومطبعتها العربية، وتكونت لديهم فكرة أولية عن ألمانيا بمجرد وصولهم إلى كولونيا، ومن كوبنهاجن اتجهوا بحراً نحو مالمو Malmo، وبعد نهاية المؤتمر في ستوكهولم والزيارات الرسمية في أوبسالا وكريستيانا عادوا إلى مصر عن طريق كوبنهاجن وبرلين وفيينا وإيطاليا.

ومن السهولة بمكان تتبع هؤلاء الرحالة الأربعة، فقد ترك لنا كل منهم نصّاً يعكس – أحياناً بطريقة مباشرة تماماً – انطباعاته وردود فعله ومواقفه، وعلى الرغم من اختلاف

مستواها تحتوى هذه الأعمال - المستوحاة من قضاء صيف في أوربا - صفحات تلقائية وشخصية تنفصل بهذه الطريقة عن الأعمال التربوية والمدرسية لهؤلاء المؤلفين.

ولْنفهم في البداية السمات التي تميز كلاً منهم: الرئيس وهو عبد الله فكري (١٨٣٤-١٨٩٠)، البالغ من العمر خمسة وخمسين عاماً - يتمتع بالحرية والانفتاح اللذين لا تُهيّئهما له السلطة فحسب، ولكن أيضاً يُهيّئهما تنوع ثقافي عربي وتركي وكذلك ذوق شاعر وروح مرحة، ويتسم هذا الرجل بالثقة في النفس على المستويين الثقافي والاجتماعي ويرجع ذلك إلى أنه كان حفيد مدرّس بالأزهر وابن مهندس عربي، وعمل هو نفسه معلماً للأمراء الخديويين، وقد صاحب الخديوي إسماعيل إلى تركيا بوصفه سكرتيراً وشغل منصب وكيل وزارة المعارف في وزارة علي مبارك ثم أصبح بعد ذلك وزيراً، وظل أكثر حفاوة عنه مهذباً، وفناناً أكثر منه إدارياً، وكان يشعر بسعادة بالغة لأنه يسافر بصحبة ابنه ورفاقه المثقفين.

أما أمين فكري (١٨٥٦- ١٩٠٠) فهو ذلك الابن الذي يليق بأبيه، وقد تشبع بالكلاسيكيات العربية ومؤلفات المشرعين الفرنسيين ولم يتوقف عند المعرفة القانونية، والمؤكد أنه اضطلع بصورة جيدة بواجباته بوصفه قاضياً في القاهرة أو طنطا ولكن القضاء أعطى له فسحة من الوقت تسمح له بالاهتمام بعلوم أخرى ولا سيما الجغرافيا، ولما كان قد تعرف على الحياة الفرنسية قدر مظاهرها بصورة أكبر من الباجوري الذي يكبره بعام واحد، وكان الباجوري مدرساً بدار العلوم ومع ذلك كان يسعى إلى التحرر، فارتدى الملابس على الطراز الأوربي وقدم لمؤتمر ستوكهولم دراسة عن الأمثال والحكم الشعبية المصرية، وبسبب هذا التوجه الفكري انفصل عن زميله الأكبر منه سناً الشيخ حمزة فتح الله (١٨٤٩-١٩١٨)، وكان عمره أربعين عاماً ويتمتع بعقلية شديدة المحافظة. وكان الشيخ متحمساً للعربية الفصحى ولا مثيل له في معرفة الكلمات القديمة نادرة الاستخدام، ويحرص كل الحرص على سلامة اللغة بل كان متشدداً في هذا المجال خلال تدريسه بدار العلوم وفي جولاته التفتيشية، ومثّل مصر في المؤتمر السابع الذي عقد بفيينا

عـام ١٨٨٦، وللمرة الثـانية في أوربا لم يخلـع الشـيخ قـفطانه أو عبـاءته، مما شكل أحد عناصر الجذب للوفد المصري.

ولنســأل في البـداية عن الفكريَّيْنِ، تخـرج عـبـدالله فكري من الأزهر وعـمل خـلال هذه الرحلة إلى أوربا فقيهاً لغوياً مع ابنه مما يذكرنا من عدة مناحٍ رواية شارك في كتابتها، والآن والخيال يتحول إلى حقيقة ويعيش عبد الله فكري بدوره تجربة «علم الدين». فهو لا يقاوم فكرة كتابة قصة رحلات بنفس حجم تلك التي تحمل اسم علي مبارك، وبعد أن استوعب الحضارة العربية ومارس نوع الرحلات الروائية سعى هذا الرجل المعجب بالتقدم الفكري والتقني في مصر إلى إتمام حجه لمصادر الحضارة الحديثة، وكان أفضل من يستطيع الملاحظة والمقارنة والكتابة.

ودوَّنَ ابنه تحت إشرافه ملاحظات ووثَّق المعلومات وقدَّم له عدداً من التفاصيل التي لا يمكن أن يعرفها السائح العادي، وللأسف بعد مرور عام عندما سمح له الوقت بدراسة هذه المادة توفي عبد الله فكري، وترك حوالي اثنتي عشرة صفحة تسرد سفره من القاهرة إلى الإسكندرية وجزءاً من إقامته في هذه المدينة، وفي هذه الصفحات التي نشرت بعد وفاة الكاتب نذوق بساطة الكاتب وفرط حيويته وروحه المرحة التي تظهر في المقارنة التي يعقدها بين الراحة التي توفرها القطارات والفنادق وبين المراكب البطيئة والوكالة الكريهة التي كان الجيل القديم يستخدمها، ولذا فإن الكتاب يعتبر نوعاً من مدح الحداثة. واستمر هذا الفكر المتفائل والهزلي وهذا النثر الثري بالأصداء الأدبية التلقائية والمليء بالسجع أحياناً تحت قلم الابن الذي أخذ على عاتقه استكمال عمل أبيه، وتجاوز حجم الكتاب ثمانمائة صفحة وأخذ عنوان «إرشاد الألبَّا إلى محاسن أوربا»، وفي الإهداء الموجه إلى الخديوي عباس الثاني صرح أمين فكري عن نيته بأن ينقل إلى مواطني بلده بعض الملاحظات التي علقت في ذهنه عن الرحلة، لقد تأثر الكاتب بنشاط الشعوب في كل مكان ذهب إليه وكذلك بالعناية الفائقة التي يولونها لكافة مجالات الإنتاج، وبفضل هذه الجهود العظيمة والتنظيم الدقيق حقق الأوربيون الثروة والرفاهية وهذا التقدم الحضاري الذي يغبطهم الآخرون عليه.

واكتسبت باريس عام ١٨٨٩ بسبب تنافس العارضين قيمة رمزية، فلم تعد عاصمة فرنسا بل عاصمة العالم، عالم تسوده سلطة الصناعة المطلقة. وبمجرد وصول رحّالتنا إلى باريس أصيبوا بدوار المدينة الكبيرة الذي لا يرحم، لا سيما وأنهم كانوا تحت تأثير سحر جمال الطبيعة السويسرية الهادئ، وفي الفنادق شديدة الزحام الموجودة بحي الأوبرا وجدوا أماكنهم محجوزة بطريقة سليمة، وفي المساء انبهروا بواجهات المحلات وإضاءتها، ومن شرفة مقهى لا بيه La Paix تأملوا مشهدًا إنسانياً مذهلاً حيث يختلط المرتجلون والسيارات والسيدات الجميلات والرجال المتأنقون والأشخاص المتعجلون والمتنزهون جميعاً في مسيرة لا نهاية لها.

وكيف يتسنى استغلال وقت بهذه الأهمية ؟ قرر رحالتنا الذهاب أولاً لزيارة المعرض للمشاركة في الاستقبال الشهير لشاه فارس، وفي صباح اليوم التالي قرروا تأجيل زيارة المدينة وذهبوا إلى شارع القاهرة لدى صديقهم مصطفى الديب الذي حفظ لهم مراسلاتهم، وكان هذا المحل المرتجل داخل المعرض يُستخدم مكانًا للقاء الطلاب والأعيان المصريين الذين يمرون بالمدينة، وأثار نجاح هذه الفكرة الفردية الجديدة حماس الكاتب تماماً، فبفضل روح المبادرة ودون انتظار - كما حدث عام ١٨٧٨ بطلب رسمي من الحكومة - استطاع مصطفى الديب أن يحقق نجاحاً على مستوى الأعمال في باريس، ودون أن يبدل ملابسه المصرية الغريبة باع منتجات خان الخليلي من روح الزهر والأعشاب الدقيقة والفاكهة الجافة والأواني والصينيات من النحاس المشغول، ولم يتراجع إزاء مصروفات الرحلة والإقامة ولا إزاء جهله شبه التام باللغة الفرنسية، ويتسنى لنا فهم أهمية هذا الدرس عندما ننظر بصورة ارتدادية إلى القرن التاسع عشر المصري فقد فقد الشعب روح التجارة بسبب الاستبداد الاقتصادي لمحمد علي الذي كان يحتكر تماماً هذا المجال بصفة شخصية، وكما شعر الشعب بعدم الاكتراث في ظل حكم إسماعيل الجشع الذي فرض عليهم ضرائب تعسفية. وفي المقدمة أعطى الكاتب سيرة حياة تعليمية ومفيدة عن التاجر الصغير توماس كوك الذي أصبح بفضل مثابرته وإحساسه بالمسئولية رجل أعمال على المستوى العالمي. ومع ذلك أثار القسم المصري في المعرض السخط، وقيل إنه لو كان قد نظّمه المصريون بدلاً من الأجانب لبدا أكثر أصالة وتشريفاً[1].

وبعد أن أمضى رحالتنا يوماً في المعرض الذي كان بمثابة أول عنصر إثارة لفضولهم جالوا في باريس في عربة، واكتفوا باستكشاف واجهات المباني، وهذا ما لم يمنع الكاتب من ترجمة صفحات «إرشاده» بطريقة تفصيلية، وفي الحي اللاتيني حل الوصف الموضوعي محل الاعترافات، وتأثر أمين بذكرى نزهاته السعيدة في حديقة لوكسمبورج عندما كان طالباً يدرس في باريس قبل هذا التاريخ باثني عشر عاماً، وتوقف في ميدان البانتيون Panthéon ليحج إلى كلية الحقوق، وحرص على اصطحاب والده ليرى الغرفة التي كان يقطنها بشارع كاردينال لوموان Cardinal Lemoine، وفي المساء كان رحالتنا يعدّون لزيارات اليوم التالي عن طريق بعض القراءات.

وبالطبع عادوا مرة أخرى إلى المعرض، وخلال يومين متعاقبين تجولوا بقصر التروكاديرو والحدائق المجاورة له وفي مباني «تاريخ الإسكان» وفي أجنحة أمريكا الجنوبية والصين والهند ليتأملوا كل ما تحتويه من عناصر جذب فولكلورية، ولم يَفُتْهم الصعود على قمة برج إيفل الذي يعد أحدث عجائب الدنيا والإنجاز الرائع لعبقرية الإنسان التي تستحق الثناء! ولكن على المدى الطويل بدت هذه النزهات مجهدة، ودعا موجال بك مدير البعثة المدرسية هؤلاء الزوار لرحلة مريحة في الريف، واكتشفوا جرينيون Grignon ومدرسة الزراعة الكبرى التي كانت في إجازة في ذلك الحين.

ولحسن الحظ جاء عيد الأضحى ليمد فترة الراحة تلك، وتم الاحتفال به بأداء الصلاة في غرفة الشيخ حمزة الذي صعد على السرير وكأنه المنبر ليلقي خطبة عصماء. وكان الفكريان فقط هما اللذان تبعا بعد ذلك موجال بك لزيارة مدرسة تورجو Turgot وقسم التعليم في الجزء الخاص بمدينة باريس في المعرض، وأثنى الزائران على الأسلوب التربوي الحديث الذي يولي أهمية كبيرة للتربية البدنية وتعليم الفنون الجميلة إلى جانب الدراسة البحتة مما يهيئ نمو الطالب البدني والشخصي والعقلي في الوقت نفسه.

وظلت مراكز الاهتمام ذاتها تجذب رحالتنا حتى نهاية إقامتهم في باريس والمتمثلة في المعرض والمدينة والضاحية، وقضوا في المعرض بصورة إجمالية تسعة أيام وهو

الوقت الكافي للقيام بهذه الرحلة الصغيرة حول العالم ورؤية الاختراعات الجديدة، وفي المدينة تعرفوا على شارع الشانزليزيه وميدان الأنفاليد والشوارع الرئيسية الكبيرة وليهال Les Halles وبير لاشاز ومتحف اللوفر وحدائق التويلوري ومدرسة الفنون الجميلة وقصر العدالة وكنيسة السانت شابيل Sainte Chapalle والنوتردام والبانتيون والمرصد ومتحف الفنون والمهن والمكتبة الأهلية والمحلات الكبرى، وخارج باريس نظّمت لهم شركة كوك رحلتين في فونتانبلو وفرساي، وعن كل هذه الأماكن يتمتع القارئ بوصف وافٍ يقدم كافة التفاصيل التاريخية والسياحية التي يقدمها مرشد ذو ضمير.

أما سرد الزيارات فقد تم تقديمه وفقاً لخطّة تاريخية يومًا تلو الآخر، وإذا كان المؤلف يتمتع باستعادة ذكريات رحلته فإن القارئ يشعر بالتشويش، فخلال يوم واحد نرى عبر الكتاب المشاهد الأكثر تنوعاً للإنسانية مقدمة بصورة مصغرة، حيث نرتحل بصورة غير متوقعة بين حضارات متنوعة، وننتقل من الاعتبارات الجغرافية إلى الاعتبارات التاريخية والاقتصادية والنفسية، وينعكس زحام وزخم المعرض في هذا المزيج، بيد أن المؤلف يعطي مساحة كبيرة للوثائق التي اطلع عليها، مغرقاً انطباعاته في أمواج من العموميات، فنادرة هي الأوقات التي ترك فيها «أمين» المجموعة ليخرج للنزهة بطريقة فردية.

ومع ذلك حضر أمين الحفل الموسيقي السيمفوني الذي جرى في المعرض على شرف شاه فارس، وأمضى أمسية بالأوبرا وأمسية أخرى بمسرح الكوميدي فرانسيز -Coméd ie Française حيث كانت تقدم مسرحية ري بلاس Ruy Blas، والتقى بزميل قديم من مدرسة الحقوق وحضرا مسرحية بمسرح الباليه رويال Palais Royal. وبعد ذلك تم دعوة أعضاء المؤتمر إلى أوبرا استوكهولم حيث كانت تقدم أوبرا عايدة والتي كانت مناسبة لهم تماماً.

وكان أمين مهتمّاً بصفة خاصة بمشكلة المسرح، وفي المعرض أوضح له قسم تاريخ المسرح تطور هذا الفن المعقد وتطور فن البناء والإضاءة والإخراج والملابس التي تصمم

بطريقة تأخذ في الاعتبار الطابع المحلي والدقة التاريخية، كما قدمت وثائق مكتبة الأوبرا مزيداً من التفاصيل حول بعض الديكورات الشهيرة ومجموعة من البرامج واللوحات الإعلانية للمؤلف(٢)، وكان أمين يرى المشكلة من هذه الزاوية: «هل يتناسب المسرح مع الحياة المصرية؟» كان أمين معجباً بالبلاغة المأسوية أو الكوميدية للمسرحيات وكذلك بنوعية التمثيل ولكنه كان يطرح السؤال بصورة أكبر على المستوى الاجتماعي والأخلاقي أكثر منه على المستوى الجمالي(٣). وكان يرى في المسرح نوعاً من المشروعات المفيدة لاقتصاد البلاد، فالمسرح يوفر العمل لعدد كبير من الأشخاص اعتباراً من مؤلفي المسرحيات والممثلين والموسيقيين وحتى عمال الشباك والبنائين، ولكن من وجهة نظر أمين فإن كل هذا النشاط يدور حول وجود المرأة سواء كانت ممثلة أو متفرجة، وكان أمين مولعاً بهذه اللقاءات التي شارك فيها المجتمع في جو من الأناقة والمتعة الفكرية. ولكن لماذا نحرم أنفسنا منه ؟ إن الممثلات والمتفرجات متوافرات في مصر حيث شرعت المرأة في التحرر. هل خشي أمين بعد أن توصل إلى هذه الحجة من إحداث صدمة للمحافظين ؟ الحق أن النتيجة التي توصل إليها أخذت شكل سؤال موجه إلى القارئ، سؤال مباشر ومتعجل ويقتضي أقصى حد من الصراحة، واعترف بأن هذه المعضلة كانت تحيره كلما اقترب من الفندق بعد الأمسية التي قضاها بمسرح الكوميدي فرانسين، وكان عائداً ـ كما نعرف جميعاً ـ تحت ذات السقف الذي يضم تحته الشيخ حمزة الذي كان يكتب آنذاك دراسة عن حقوق المرأة في الإسلام.

دراسة مثيرة عن المرأة المسلمة يكتبها شيخ في قلب باريس، وهذا الكتيب المكون من مائة صفحة - بالرغم من ابتعاده عن نوع «قصص الرحلات» - لا ينفصل عن موضوعنا. فعندما كتب حمزة فتح الله هذا الكتاب كان يعتزم الاكتفاء بنقل العشرين ملزمة التي ظهرت عن محاضراته في اللغة العربية المعنونة «المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية»، بيد أن هذا المشروع تغير قبل سفره بوقت قصير بناء على اقتراح شخصية كبيرة مهتمة بإصلاح أخطاء الغربيين فيما يتعلق بالمرأة المسلمة، ولكن هل كان هذا الاقتراح بمثابة أمر(٤)؟ هل كان صادراً عن علي مبارك ؟ شكر المؤلف مؤسس دار العلوم في صفحة

المقدمة لقراره الخاص بطبع محاضراته، ومن ناحية أخرى أكدت أفكار الشيخ حمزة ـ كما سيتضح لنا ـ أفكار علي مبارك في «علم الدين»، وأيّاً كان ملهم العمل فإن كتاب «باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام» يسد حاجة، فهو محاولة لرد الاعتبار للمرأة المسلمة، فالمستشرقون الأوربيون سيجتمعون قريباً ومن الأهمية بمكان استثمار الفرصة للدفاع عن القضية !

ولم يعكف المحامي المرتجل على تحسين عرض كتابه، وكان التركيز ينقصه ولاسيما أنه كان يؤلف أيضاً قصيدة على شرف ملك السويد، ووصف هذه الدراسة التي أتمها في باريس ونقحها في لندن بأنها تمت في «عجالة»، وسمح الطابع السريع للصياغة بتقديم الأسلوب المعتاد للمؤلف وهو أسلوب يتسم بالأصداء الأدبية ويلجأ أحياناً إلى الكلمات القديمة، ويظهر بوضوح في الدراسة التشوه المهني لعالم النحو، وتبدو الدراسة وكأنها محاكاة مستمرة للقدماء الذين يتم ذكرهم بكثرة في الصفحات كلها ! ولكن من خلال هذا الحجاب الذي أصبح نوعاً من الطبيعة الثانية يتسنى لنا فهم الكثير من الاعترافات التقليدية، ونجد في الدراسة موضوعين جد مهمين وهما «باريس والمرأة والفضيلة»، و«باريس والعلم والإيمان».

عن «باريس والمرأة والفضيلة» كان رفاعة قد انتهى من قبل بأن العفة لا ترتبط بالحجاب ولكن بتعليم الفتيات والتفاهم الزوجي، أما الشيخ حمزة فقد عاد خطوة إلى الوراء مؤكداً أن الحجاب إنما يشكل حماية إيجابية لأنه وفقاً لآخر الإحصاءات نجد بين الفرنسيين – على الرغم من كل تعليمهم –٧١٪ من الرجال يرتكبون الزنا و٩٠٪ من الزوجات اللاتي تساء معاملتهن أو المهملات لأزواجهن.

أما الطلاق الذي يعد المخرج الإلهي للتعاسة الزوجية فقد قدمه الكاتب بوصفه إجراء استثنائياً، ويؤكد الشيخ في أدب الفقه على المعارضة للطلاق وعلى الظروف والضمانات التي من شأنها أن تخفف من آثار هذا القرار، ويعارض المؤلف الطلاق بصورة أكبر من معارضته لتعدد الزوجات.

ولتجنب الغواية يوصي الشيخ حمزة الذين يشعرون برغبة جنسية قوية بتعدد الزوجات المنظم والمحدود إذ إن الزواج مؤسس لبناء الأسرة لا للمتعة الجنسية، ويرتكز العالم المؤلف دوماً على الآيات القرآنية والأحاديث ولكنه يضيف أن بعض الأوربيين والأمريكيين من أنصار تعدد الزوجات، ويذكر أمثلة من الملوك؛ من الرومان وحتى نابليون مروراً بداجوبير Dagobert وهنري الثامن، وهو محق في ذلك بعد ما رأى تماثيلهم في متاحف باريس ولندن.

ولا يتعين التصور بأن المسلمة لا حق لها في التعليم؛ فالسيدة عائشة والسيدة حفصة ـ زوجتا الرسول ـ كانتا تعرفان الكتابة جيداً، وهناك الكثير من الأخبار عن المسلمات الأوائل اللاتي كنّ يساعدن أزواجهن في عملهم، وعن اللاتي كنّ ينسجن ويخِطْن دون أن يخلعن حجابهن، وبعضهن كنّ يرافقن الرسول (عليه السلام) حتى ساحة القتال لسقاية المحاربين ولتمريض الجرحى. أما المرأة الأوربية فهي لم تحصل إلا في وقت متأخر – أي في القرن التاسع عشر ـ على الكثير من الحقوق المعترف بها للمرأة المسلمة منذ ثلاثة عشر قرناً، ووفقاً لمقال في «المقتطف» يذكر الشيخ الظلم الاجتماعي الذي عانت منه المرأة ليس في العصور الوسطى فحسب، ولكن أيضاً في القرن السادس عشر عندما تساءل مؤلف إذا ما كانت المرأة إنساناً، وكذلك في القرن السابع عشر بالرغم من الإصلاحات الصغيرة التي يرجع الفضل فيها إلى مدام دي مانتونون Mme de Maintenon وحتى في القرن الثامن عشر عندما أعلن روسو أفكاره عن تعليم الأبناء، وهناك حوليات عن النساء العربيات الشهيرات، وتحدث الفصل الأخير من الكتاب عن خمس عشرة منهن.

أما عن تعليم الفتيات فقد تم تناوله بصورة موسعة وشائقة تحت عنوان «باريس والعلم والإيمان»[٥] وأثنى عضو المؤتمر على ثقافة الأوربيين فيما يتعلق باللغة والحضارة العربية، بيد أنه عانى من استنتاج الإهمال الذي يظهره العرب أنفسهم إزاء تراثهم[٦]، ودفع هذا الشعور بالدونية المؤلف إلى قدح العلم التجريبي للغرب الناقص والمشكوك فيه، ويقدم تطور المفاهيم العلمية الدليل على عدم استقرار هذه المعارف ونسبيتها.

ولكنْ هناك علم مؤكد، تأملوا آيات القرآن التي تدعو الناس إلى تأمل ملكوت السموات والأرض ستجدون فيها معلومات عن أحدث الاكتشافات ! وبعيداً عن حظر الأبحاث العلمية يشجع الإسلام دراسة الرياضيات والفيزياء والفلك لتوجيه المسلمين نحو القبلة وتحديد مواقيت الصلاة والصوم ولتحديد المسائل المعقدة الخاصة بالميراث، والحق أن الشريعة لا تنكر التشريح وفسيولوجيا المرأة لتوضيح ضرورات الطهارة وتفاصيل تتعلق بالزواج. إن تعليم علم الأحياء يقوي الإيمان بتوضيحه حكمة الخالق.

وفي باريس حيث التقى الشيخ بعلماء فرنسيين شديدي التواضع ومدركين لحدود علمهم ومستعدين لدراسة مختلف وجهات النظر رأى أيضاً مصريين «جهلة» يرفضون تصديق البديهيات التي يكرسها القرآن ويقبلون التأكيدات شديدة الغرابة لمجرد صدورها من «السيد» فلان، ووجه الشيخ نصائحه لهؤلاء. وبعد ذلك اعترض على التعليم الذي يقدمه الغربيون للشرقيين(٧)، فبسبب نقص الوقت يحيل الكاتب إلى خطاب جوستاف لوبون بمناسبة افتتاح آخر مؤتمر دولي يناقش مشكلات الاستعمار وهو خطاب ترجم في مجلة الأزهر. إن تحويل سكان الجزائر والهند الصينية وجزر الماريتفيك إلى أوربيين، وفرض إدارة عليهم منقولة عن الإدارات الفرنسية من شأنه تغيير طبيعة حياتهم، ويعلن حمزة فتح الله بصوت مرتفع أن أمةً تلقت القرآن لا تحتاج إلى أي مرشد آخر في كل شئونها؟(٨)

ويذكرنا هذا الصوت برسالة «العروة الوثقى»، ومع ذلك يأخذ حمزة فتح الله موقفاً متوسطاً بين جمال الدين ومحمد عبده؛ فليس له ردود فعل سياسية عنيفة مثل الأول وهو يميل بالأحرى مثل الثاني نحو الإصلاحات الداخلية والفكرية والأخلاقية، ويندد بالجهل الذي أبقى فيه الحكام الطغاة طويلاً الشعب المصري، هؤلاء الحكام الذين يجبرون الدعاة في المساجد على ألا تتجاوز خطبهم الحديث عن فناء الدنيا وعن التخويف والترهيب من الموت وعن السعادة في الحياة الأخرى التي وعد بها الله الفقراء التعساء(٩). والحق أن عودة ذكية لمصادر الإسلام لن تمنع قط المسلمين من استخدام المكاسب النافعة للحضارة

الغربية وتبنيها، ألم يأمر الرسول جنوده بحفر الخنادق على غرار الفرس ؟ ومع ذلك ظل الشيخ حمزة متأخراً عن محمد عبده الذي نعرف تحفظه الشديد بشأن تعدد الزوجات.

وتعكس بعض الملاحظات التي يتضمنها «باكورة الكلام» عن فرنسا نظرة سطحية، فهو بلد يتسم أهله بالعقلانية ومع ذلك فهم يأكلون الفئران(١٠) ويمارسون الرذيلة، والمؤلف الذي كان مكلفاً بالدفاع عن قضية شبه دينية كان يبحث عن حجج جديدة فيما يتعلق بعيوب الفرنسيين والفرنسيات.

وقد اتخذ موقفه بصورة مسبقة، ولتأكيد أفكاره المسبقة كان يجمع مختلف التفاصيل ولا سيما الفاضحة بالنسبة للوسط الذي يعيش فيه، ولما كان متحدثاً باسم هذا الوسط فقد ذهب إلى أوربا ليعبر عن نفسه لا ليستمع، ليعطي لا ليتلقى، ولم يكن يملك عقلية الطالب رفاعة المنفتحة ولم يعش التجربة الثرية التي عاشها محمد عبده، أما عن زميله الشاب ورفيقه الباجوري فسيكون بلا شك أقل انغلاقاً وأقل توجهاً نحو الماضي عن المستقبل.

يعد محمود عمر الباجوري اسماً مغموراً، وهو غير موجود في الكتب التي تقدم سطوراً في مديح عبد الله فكري وحمزة فتح الله، ولكن بمجرد قراءة مقدمة قصة الرحلات المعنونة «الدرر البهية في الرحلة الأوربية» نعرف قدره، والحق أن محمود عمر الباجوري هو سليل عائلة من العلماء، وولد عام ١٨٥٥ في مدينة ملوي بصعيد مصر حيث كان نقل والده ليعمل هناك طبيباً عسكرياً، وبدأ تعليمه في كُتاب الباجور بمحافظة المنوفية وتابعه بالأزهر وأنهاه بدار العلوم عام ١٨٨٠، ولم يترك هذه المنشأة الأخيرة حيث عين معيداً ثم أستاذاً، ودرس أيضاً بمدرسة الهندسة وبقسم الترجمة، وتعد أعماله ثمار تدريسه وتتناول مجالات البلاغة والجغرافيا والتاريخ.

وهذه السيرة الذاتية المختصرة تقدم لنا مفكراً مصرياً متوسطاً من نهاية القرن التاسع عشر، ولم يتلق محمود عمر الباجوري الثقافة الدينية في الأزهر فحسب بل ونهل من الثقافة الأدبية أو بالأحرى العلمانية بدار العلوم باللغة العربية دائماً، ومن ثم فإن تعليمه تابع التطور الطبيعي لمصر، وحافظ الباجوري على توازنه بين الشباب الذين انتقلوا إلى أوربا والشيوخ الذين ظلوا متعلقين بالعادات.

وقصة رحلته المدونة في كتيب من حوالي مائة صفحة والتي ذهبت طي النسيان اليوم تتميز بإظهار هذا التوازن، فكتاباته التي تمتاز بالبساطة والاقتضاب تتناقض مع إسهاب الفكريَّيْنِ والمفارقة التاريخية التي تضمنتها كتابات حمزة فتح الله، وفي انتظار صدور «إرشاد الألبًا» الذي تأخر لوفاة فكري الأب قدم الباجوري كتاب «الدرر» عام ١٨٩١، وأعلن عن العمل الكبير واكتفى هو بتقديم معلومات مختصرة.

وقد وصف على عجالة خط السير الذي يربط بين الإسكندرية وباريس عبر إيطاليا وسويسرا، وتحدث عن باريس في البداية عن طريق أرقام وإحصاءات مذهلة[١١]، ومن المؤكد أن الطابع التقني للحضارة الحديثة يتضخم بالتراكم الاصطناعي لعدد كبير من الآلات داخل المعرض[١٢] ويؤثر على المؤلف في كل خطوة، وأعجب إعجاباً شديداً بالمصعد في البونمارشيه Bon Marché وفي متحف اللوفر ، وفي المكتبة الأهلية – حيث اطلع على مخطوطين عربيين – قدر الاحتراس الأوتوماتيكي للأبواب التي تغلق دون أن تصدر صوتاً أو تصطدم بالحوائط، وهناك أيضًا الموازين التي تخطرك على بطاقة بوزنك الدقيق مقابل عملة من النقود وهذا الوزن دقيق لا غش فيه !

ويثمِّن الباجوري عالياً الباريسيين، فهم عمال نشطاء ومع ذلك لا يفقدون بهجتهم ويعرفون كيفية تنظيم وقتهم والاستمتاع بأوقات فراغهم، ويعرف كل واحد منهم أكثر من مهنة مما يسمح له بكسب عيشه بسهولة، وتتضح عقلانية الفرنسيين في حرصهم على تحليل مختلف الظواهر وفهم أسبابها، وتسود علاقاتهم الأمانة واحترام حقوق الآخرين.

ولكن ما رأيه في الفرنسيين ؟ على الرغم من ترديده ـ على غرار الشيخ حمزة ـ الإحصاءات المقلقة عن الزنا فهو ينظر إلى المرأة الفرنسية من زاوية إيجابية، فهي تقف على قدم المساواة مع الرجل من حيث التعليم والعمل وتشارك في الحياة العامة، وقد تأثر المؤلف بجمال الباريسيات وأعجب بذوقهن وزينتهن الأنيقة، وتمتُّعهن في المجتمع بالاحترام كله.

ومن الممكن القول بأنه ليس هناك شيء جديد في كل هذا، فقد رسم رفاعة ذات الصورة بذات النبرة ولكن بطريقة أكثر اكتمالاً ودقة، ولا يمكننا أن نطلب إلى الباجوري

بعد عودته من رحلة أولى قصيرة إلى باريس أن يقدم لنا انطباعات وتفاصيل عن مشاهداته، فجرأة هذا المثقف الذي لا يملك سلطة فكري الأب ولا تعليم فكري الابن – تكمن في مقاومته للأفكار المسبقة لزميله المبجل الشيخ حمزة، ويكفي أن يشهد هذا الكتيب عن موضوعية وحكم سديد، ومن هنا يتسنى القول بأن هناك من يتبعون خط رفاعة.

وإجمالاً يتسنى لنا القول بأن كافة الموضوعات التي عالجها رفاق عبد الله فكري باستثناء المعرض الدولي موجودة في «تخليص الإبريز» وفي «علم الدين»، ولكن يسمح لنا هؤلاء الرحالة - بالنسبة لكل موضوع - بتوضيح مرحلة ورسم تطور للأفكار المنتشرة في مصر عن أوربا، وتكتسب كتاباتهم بصفة خاصة قيمة مرجعية، ولكن أدى الحرص على نشر المعلومات ومختلف التراكمات إلى كل ما هو مبتكر. وحان وقت وصول كاتب من طراز أحمد زكي إلى باريس ليقدم لنا نصوصاً أساسية وكتابة قوية وحرة نشعر فيها بوجود ثقافة المسافر وأفضلياته.

****

هوامش

١- إرشاد الألبا، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

٢- إرشاد الألبا، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

٣- المصدر السابق ٢٥١ .

٤- باكورة الكلام - ٥ .

٥- ص٣٢ وما بعده.

٦- ص٤ .

٧- ص ٦٢ وما بعده .

٨- ص٦٣ .

٩- المصدر السابق.

١٠- ص٤٧ .

١١- الدرر البهية - ص٢٤ وما بعده .

١٢- المصدر السابق، ص٣٦ وما بعده .

****

الفصل الثالث

رحلات أحمد زكي

(١٨٩٢- ١٩٠٠)

يقدم لنا العقد الأخير من القرن العشرين الطراز الأمثل للرحالة الحديث. والحق أن عبد الله فكري ورفاقه لم يسافروا عام ١٨٨٩ إلا عن طريق المصادفة، وعلى النقيض كان أحمد زكي (١٨٦٧ –١٩٣٤) يعشق الأسفار والآداب وبدا كما لو أنه خلق للسفر والكتابة.

وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية باللغتين العربية والفرنسية حصل على ليسانس الحقوق من مدرسة الإدارة بالقاهرة عام ١٨٨٨، ولكونه مترجماً متميزاً شارك في تحرير الجريدة الرسمية ودرَّس الترجمة بالمدرسة الخديوية والعربية لأعضاء البعثة الأثرية الفرنسية. ولما بلغ عمره الخامسة والعشرين وكان يدير مكتب الترجمة بمجلس الوزراء كُلِّف بتمثيل مصر في المؤتمر التاسع للمستشرقين في لندن عام ١٨٩٢.

ومثَّل ذلك فرصة سانحة لإرضاء المواطنة العالمية شديدة القوة للمثقف الشاب، وفضلاً عن إتقانه للغتين الفرنسية والعربية كان ملماً بالإيطالية ويتحدث الإنجليزية بطريقة مقبولة ومبتدئاً في الإسبانية إذ كان يريد بصفة خاصة أن يزور إسبانيا حيث كان يجذبه المزيج التاريخي للحضارتين العربية والأوربية، ومن ثم لم يكن اشتراكه في المعرض سوى حجة للقيام بجولة ممتازة في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وشبه جزيرة أيبريا.

غادر القاهرة في ١٣ أغسطس ١٨٩٢ وأبحر من الإسكندرية في ١٦ أغسطس ووصل إلى برينديسي وزار نابولي وروما وفلورنسا وبيزا وجنوة وتيرانا، وفي ٢٧ أغسطس وصل إلى باريس وغادرها بعد ذلك بيومين إلى لندن، وبعد انتهاء أعمال المؤتمر زار إنجلترا لمدة حوالي شهر، وفي ١١ أكتوبر غادر العاصمة، وعند عودته إلى فرنسا – عبر كاليه – توقف

في اميان، ثم ظل بعد ذلك في باريس حتى ١٩ نوفمبر، وبعد ٢٤ ساعة وصل إلى إسبانيا عبر مدينة تور وأنجولام وبوردو وظل قرابة ثلاثة أشهر يجول في إسبانيا والبرتغال وأتم بصفة خاصة حجه الشهير إلى مدن الأندلس[١]، وعاد بعد ذلك من برشلونة إلى فرنسا ليصل إلى جنوة عبر ساحل البحر المتوسط ماراً بمارسيليا وتولون ونيس وموناكو ومونت كارلو ومونتون واستراح أخيراً لمدة ثلاثة أيام بروما قبل أن يبحر مرة أخرى من مدينة برنديسي، وعاد إلى القاهرة في ١٤ نوفمبر ١٨٩٣.

وكل هذه الزيارات الحماسية مدونة في قصة رحلات تحت عنوان «السفر إلى المؤتمر»، وهي عبارة عن سلسلة مقالات ظهرت أولاً في الصحافة القاهرية وكان أحمد زكي يرسلها من أوربا بمجرد كتابتها، وكان الكتاب يحتوي فضلاً عن هذه المقالات مقدمة هامة ومن حين لآخر ملاحظات، بيد أنه حافظ على الطابع المرتجل ليوميات السفر، فكان المؤلف يعرض لزياراته ويصف كل ما رآه وينقل انطباعاته لمواطني بلده دون الاهتمام بإعادة قراءة ما كتبه، كان يريد أن يحيا رحلته ببساطة وبطريقة كاملة، وكان يتأمل بعينيه غير مكترث بأية معلومات مسبقة، ما فائدة تكرار معلومات نشرت في العام نفسه في كتاب أمين فكري الهام ؟ والحق أن أحمد زكي كان يفكر في استكمال «إرشاد الألبّا»[٢] عن طريق الحديث عن إسبانيا من ناحية والخروج عن الطرق المرسومة والجو المحايد الذي يتسم به أي دليل للرحلات، وإذا كان قد ترك نفسه ليستمتع بسحر الرحلات وإذا كان لا يثقل صفحاته بمقالات تعليمية، فإن ذلك إنما يرجع إلى نيته في أن يقدم في يوم ما بصورة منفصلة في عمل علمي يطلق عليه «الرحلة الكبرى» مجموعة خبراته ودراساته المقارنة في مجال التاريخ والآداب والعادات أي باختصار دراسات مقارنة بين الحضارات الشرقية والغربية[٣]، بيد أن هذا الطموح العادل للإنساني أحمد زكي لن يتحقق في عمل مُجَمَّع، ومع ذلك ظل «السفر إلى المؤتمر» منجماً للمعلومات، وهي معلومات تم تقديمها في كتابات قصيرة بأسلوب سلس وحماسي.

وكان حماس أحمد زكي كبيراً عندما وصل به القطار مبكراً إلى باريس، وها هو في عاصمة العالم وعاصمة الجمال والفن ومركز العلوم وجنة الجنان، وعلى الرغم من عزوفه

عن الكتابة عن باريس خلال هذا التوقف الأول لمدة يومين لم يستطع التحكم في إعجابه بنشاط الباريسيين وبجمال المرأة الموجودة في كل مكان، أما المدرسون الذين كان يأمل في رؤيتهم فكانوا قد سافروا في إجازات ولم يجد سوى أسعد باشا السفير التركي؛ وفي زيارة لغابة بولونيا أدرك خطورة الفخاخ غير المغطاة بصورة تامة، ولكن ليتجنب أن يبدو تافهاً في عيون القراء شرع في حديث جاد عن دور المرأة في المجتمع عبر التاريخ وذلك بالرجوع إلى القدماء والعرب وذكر الحكم والأشعار على طريقة حمزة فتح الله الذي كلفه بترجمة الدراسة الشهيرة عن حقوق المرأة المسلمة(٤).

وكان أحمد زكي سعيداً بالعودة إلى باريس في شهر أكتوبر، وبدأ في الكتابة عن مدينة النور ولكن بمجرد أن سطر العنوان «العودة إلى باريس» تدفقت الأفكار في رأسه وظل متحفظاً ومتردداً(٥)، كيف يمكن له البدء في الكتابة ؟ وبدأ بتقسيم نصه إلى فصول عديدة وذلك لتحقيق سلاسة وتنظيم للنص.

بدأ «بملحوظتين عن باريس»، فوصف طوبوغرافية المدينة والأحياء التي تمتد على جانبي نهر السين وقدم بعض الإحصاءات عن السكان، وكانت الزيارات الأولى مخصصة «لمتاحف باريس» التي كانت تشكل موضوع فصول المؤلف من متحف اللوفر واللوكسمبورج وحتى متحف الفنون والمهن ومتحف الأوبرا وقصر التروكاديرو ومتحف جيميه، ثم استعرض بعد ذلك «قصور باريس»؛ فبعد أن تحدث عن «قصر التويليري» الرائع الذي اختفى بطريقة مأسوية وصف قصر البورصة وقصر الأنفاليد حيث تعطي مقبرة نابليون الإحساس بالعظمة والحكمة، ومدرسة الفنون الجميلة التي يطلق عليها للتعظيم قصر الفنون الجميلة وقصر البوربون وقصر الصناعة الذي أنشئ عام ١٨٥٥ بمناسبة المعرض الدولي، وبفضل القارئ زار زكي عددًا كبيرًا من القصور العامة والخاصة التي لم يستطع هو نفسه دخولها، ثم جاءت بعد ذلك مصانع باريس ولا سيما مصانع نسيج الجوبلان ومصانع التبغ.

وفي الفصل الخامس المعنون «مكتبات باريس» أشار أحمد زكي إلى أن الناس كافة مولعون بالقراءة حتى السائقين والكناسين، وأن وجود المكتبات إنما ينم عن مستوى

حضاري مرتفع، فالمكتبة الأهلية لها تاريخ طويل ومبنى جميل وأصول جد ثرية. وذكر باختصار مكتبات سان جنيفيف ومازارين ومكتبات الجامعة وغيرها من المباني التعليمية.

أما الفصل السادس والمعنون «الآثار الدينية» فهو يدفعنا لنتأمل – بموضوعية السائح الواعي – هندسة نوتردام المعمارية وكذلك هندسة السانت شابيل وسان أوستاس وسان جيرمان لوكسرواه وحتى سان سوبليس والبانتيون (مقبرة العظماء) والذي تصفه الصحف الباريسية بالمتحف البارد، وذلك ما يثير دهشة المؤلف.

وفي الفصل السابع نتوجه إلى «مقابر باريس» ولا سيما في منطقة بير لاشاز ، ويجد المسافر عددًا كبيرًا من الأسماء الشهيرة، وفي يوم عيد الموتى يعد مشهد الباريسيين الأوفياء للمتوفين من ذويهم مشهداً إنسانياً مثيراً للعواطف.

ويتناول الفصل الثامن «بعض العواميد والأبواب والنوافذ وبرج إيفل»، وتشكل المسلة المصرية «أجمل جوهرة في أجمل ميدان في أجمل مدينة»، ويسترعي برج إيفل بصفة خاصة الانتباه، ويعلو البرج منارة ولذلك يشبه الثريا الكبيرة، ومن أعلى البرج ترى باريس وكأنها قرية نمل أو خلية نحل بينما تصفر الرياح في أذنيك فتصدر صوت أمواج هائجة، واستيقظ أحمد زكي الذي كان غارقاً في تأملاته على حركة الحارس الذي يشير إلى كتاب الزائرين ويكتب بالعربية حماسه مقارناً الذكاء العظيم لإيفل بارتفاع البرج والذي يرمز في الوقت ذاته إلى القيمة العظيمة للشعب الفرنسي في مجال المعرفة(٦).

وبعد زيارة تعليمية في حديقة النباتات ومن خلال متحف التاريخ الطبيعي يأتي الفصل العاشر والمعنون «المدارس والمنشآت الخيرية»، والذي أغفل عن عمد ذكر عدد كبير من المؤسسات التي زارها المؤلف واكتفى بثلاث تتماشى مع احتياجات مصر وهي مدرسة شارت والمدرسة القومية لشباب المكفوفين ومدرسة الصم والبكم.

ويتناول الفصل الثاني «المسارح والملاهي والمتنزهات»، ويؤكد أحمد زكي أن المسرح يعد رفاهية لازمة للباريسي، وتتردد عليه العائلات بكثرة وتشغل النساء المقصورات فتضفي عليها من رونقها وجمالها، وعند رؤية تلك السيدات الحريصات على عرض ثيابهن ومراوحهن واللاتي يرفعن عادة أيديهن إلى شعورهن لتنظيمها واللاتي ينظرن خلسة بغيرة

زادت أو قلت إلى زينة الأخريات يعتقد المسافر بخبث أن حب التظاهر والفتنة - وليس الفن المسرحي - هما السبب وراء هذا اللقاء المليء بالأبهة، ويعتذر في استطراد ظريف مديحه لأناقة الجنس اللطيف ويتحدث عن سوابق شهيرة مثل الشاعر كعب بن زهير الذي تغنى بالمرأة في قصيدته المهداة لسيدنا محمد (ﷺ)، والقائد عمرو بن العاص الذي وصف المصريين في رسالته الموجهة للخليفة العادل عمر، والرحالة ابن جبير الذي اهتم بسكان صقلية.

وعلى غرار أمين فكري وعلي مبارك ينظر أحمد زكي إلى المسرح من الناحية الأخلاقية ولا سيما الاخلاقيات الجنسية، وفي هذا الصدد أكدت المسرحية التي شاهدها في مسرح الكوميدي فرانسيز شكوكه، فهي لا تشرف المسرح أو المؤلف ألكسندر دوماس ذلك الكاتب الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية، فإظهار أن زوجةً - بُغْيَة استرداد زوجها - يتعين عليها أن تلاحقه في الملاهي الليلية، ولإثارة غيرته تخرج برفقة شاب قوي ! كلا، إن هذا المسرح مدرسة ضارة للنساء فهن يتعلمن فيه كافة الحيل والمكر، ولا يستثني زكي من هذا اللوم سوى مسرحي الأوبرا وشاتيلييه حيث تقدم المسرحيات التاريخية.

وبعد إنهاء هذا النقاش، يقدم الكاتب الاكتشافات الفنية الحديثة مثل استخدام المنظار المقرب الذي تخرجه قطعة نقود من ظهر الكرسي الوثير الذي تجلس عليه، وسماعات المسرح التي تسمح لك بالاستماع إلى المسرحيات التي تقدم على بعض المسارح في المكاتب والصحف الكبرى. وفضلاً عن هذه المسرحيات هناك الحفلات وحفلات المقاهي كثيرة العدد، كما أن سباقات الخيل والعجلات والتزحلق تستهوي الجمهور، وأعجب أحمد زكي أشد الإعجاب بالتزحلق على أرض جليدية حتى في وقت الصيف، فقد رأى في ذلك تجسيداً للطبيعة المسخرة لذكاء الإنسان.

وأما الفصل الثاني عشر فهو يحمل عنوان «التماثيل والميادين والأرصفة والكباري»، وتحدث أحمد زكي عن كل شخصية يمثلها تمثال، وكان أحمد زكي يتنزه يوميّاً على الأرصفة على جانبي نهر السين ويتوقف طويلاً أمام صناديق بائعي الكتب، وكان شديد الحساسية لجمال هذه الأماكن ولا سيما في المساء عندما تنعكس أضواء المصابيح الملونة

على مياه النهر مثل ذهب الغسق على فضة المياه، ونتذكر كيف أن هذه النزهة التي تسحر زكي بدت كريهة لرفاعة قبل هذا التاريخ بستين عاماً. وبعد فصل يقدم المعلومات عن «المطبعة القومية ومصرف فرنسا والمون دي بييتيه "Mont de Piété"، ذهب رحالتنا للنزهة والتسكع خلال «الأسواق والمطاعم والمعارض الصناعية والتجارية، إلخ»، وأعجب إعجاباً شديداً بجمال منطقة ليهال Les Halles، ولنستبق الصورة المسلية التي رسمها عن مطعم دوفال Duval وقت الغداء أو العشاء(٧)، مشهد غريب؛ كتائب من الأولاد المتعجلين وجيوش من الآكلين وهم يمضغون ويبتلعون ويشربون بصورة منتظمة مشروبات مشروعة وغير مشروعة، في الوقت الذي يدخل إلى قاعة الطعام عدد من المخلوقات أكبر من التي تخرج منها، وهذه الأمواج من البشر تتجدد دون توقف على وتيرة أحد شوارع لندن.

وبالفعل يختتم أحمد زكي بالفصل السادس عشر المعنون «الباريسيون»(٨)، ويتعجب قائلاً: «أواه باريس!»، وتتحول باريس إلى شخص يتحدث إليه: «لقد تعبت من وصفك؛ فكثرة آثارك العظيمة ومؤسساتك دفعتني إلى سرد طويل دون أن أتمكن من أن أقدم للقارئ سوى نقطة من بحرك». ولتعريف طابع الباريسيين في كلمة واحدة كرر ما قاله حاكم مسلم عندما أشار – وهو يترك إدارة قرطبة – إلى خليفته، بعدم الرضا الأبدي الذي يستشعره دوماً سكان قرطبة قائلاً: «إنهم يشبهون الجمال التي تصرخ عندما ترفع الأحمال عن ظهورها وتصرخ عندما توضع الأحمال على ظهورها، دون أن نعرف مصدر رضاها»، والحق أن ذلك إنما يمثل سمة مشتركة للإنسان في ظل مختلف أشكال المناخ، ومع ذلك فإن الفرنسيين هم أكثر الشعوب حرصاً على المساواة الاجتماعية، وهم يناقشون بحرية وبصورة مطولة وشغف مزايا كبار الموظفين وحقوق الممولين وعيوب الانتخابات البرلمانية. ويعد أحمد زكي بتقديم تفاصيل أدق في كتابه القادم «الرحلة الكبيرة» Grand voyage، ويبدأ التفكير بالفعل في إسبانيا وقرطبة، وجهز حقائبه.

وهذه الصفحات السريعة عن باريس لا تسير وفق خطة محكمة، ولكن الصورة واضحة والألوان دافئة وزاهية، فقد أدرك أحمد زكي باريس من زاوية الفنان، فهو يملك الحس

الجمالي ومع ذلك لا تفوته الرؤى التاريخية، فقد أطلعنا على علاقاته مع البعثة الأثرية الفرنسية في القاهرة في مجال الهندسة المعمارية، ولذا تحدث عن الآثار بطريقة أكثر شخصية ودقة من سلفه.

ونجد عند أحمد زكي شيئاً مبتكراً، ففرنسا لا تتوقف بالنسبة له عند باريس وضواحيها، فالريف يظهر عنده في «السفر إلى المؤتمر»، ويتوقف الرحالة في آميان Amiens ليزور هذه الكاتدرائية التي تزهو بها روما ويصفها، ويراجع تاريخ المدينة ويستعلم عن مدارسها ومكتباتها وصحفها المحلية. وفي طريق عودته من إسبانيا يقضي بضعة أيام في مارسيليا حيث يأكل البويابس(*) ويصعد إلى كنيسة نوتردام دي لا جارد، وفي تولون ونيس ويطول الساحل الجنوبي يتنزه بوصفه مؤرخاً تسيطر عليه بصفة خاصة ذكرى الوجود العربي هناك.

ويندهش القارئ من ثراء ثقافة هذا الرحالة الشاب، هل زار منطقة بير لاشيز؟ تحدث بين أمور أخرى عن قصة حب إلواز«Héloise وأبيلار Abélard» وفي البانتيون استطاع أن يفهم بوصفه عارفاً موضوع الجدارية ذات المعنى التي تقدم شارلمان «Charlemagne» الذي يبعث العلوم ويشيد المكتبات والمدارس ويستقبل وفد الخليفة هارون الرشيد الذي يسلمه مفاتيح مقبرة السيد المسيح، وهل سيدفن «رينان» الذي وافته المنية لتوه في البانتيون وكذلك ميشليه وكينيه ؟ تكفل أحمد زكي بهذا الموضوع المثار من قبل الصحافة. ويرجع السبب في إصراره على زيارة «آميان» إلى أنها أنجبت رجلاً مسئولاً عن كوارث الحروب الصليبية وهو «بيير ليرميت Pierre l'Ermite»، فبعد عودة هذا الرجل من الحج في الأراضي المقدسة عمل على حث المسيحيين للقيام بهذه الحروب. وفي تولون تحدث سائحنا البحاثة عن المسجد الكبير الذي شيد في زمن «شارل كوانت Charles-Quint» عندما جاء لنجدته خير الدين باشا، وتحول اسم خير الدين في الفرنسية إلى شيريدين ولقب باربروس Barberousse.

وتكثر في «السفر إلى المؤتمر» الملاحظات الخاصة بفقه اللغة، فأحمد زكي يعشق ترجمة كل شيء من أسماء الأشياء إلى أسماء الأماكن، وأشعلت إسبانيا هذا العشق

(*) حساء على الطريقة الفرنسية يحتوي على كثير من أسماك البحر. (المترجمة).

المقدس بمجرد أن كشفت له عن الأصول العربية للغتها وحضارتها، وكان ذلك بمثابة الجسر التاريخي بين عالمين، وألف بعد ذلك قاموساً عربيّاً- فرنسيّاً عن الجغرافيا القديمة(٩)، ولْنُثْنِ عند هذا الرحالة هذه العادة في التعريب(١٠)! فالقارئ لا يشعر بالغربة التي تسببها الألفاظ الأجنبية والمكتوبة بطريقة غير سليمة، فقد روّض أحمد زكي الأشياء الأوربية عندما أطلق عليها أسماء عربية، واتبع خط رفاعة، ومن جانبه عمل ـ كما قال للمستشرقين ـ على إزالة «هذا الحاجز الذي كان حتى ذلك الحين يعد منيعاً والذي أوجده تعصب أعمى ومتبادل بين الشرق والغرب»(١١).

وأعلن عن وجهة نظره في المقدمة وهي وجهة نظر إنسان مصري يستشعر الأشياء بالطريقة المصرية ويكتب للمصريين دون أن يأخذ في الاعتبار المؤلفين الغربيين والكتاب العرب إلا عندما تستدعي الأمور التحقق التاريخي أو ذكر بعض الإحصاءات، ويترك نفسه ليسترشد بحسه الوطني ولا يستشير في أوربا سوى العلماء المبجلين(١٢)، ويظهر هذا الحس والوعي الوطني في كافة الأمور، واستخلص زكي درساً جميلاً من حركة إميل جيميه الذي أهدى مجموعته الثمينة إلى بلاده على الرغم من العروض المغرية لجامع تحف إنجليزي. ومن جانبها عندما شيدت فرنسا البانتيون فقد أضفت على اعترافها بجميل العظماء طابعاً أبديّاً. وفكر أحمد زكي مراراً في التماثيل التي يجب أن تزين متنزّهات وميادين القاهرة والإسكندرية لتخليد ذكرى أعمال كبار المصريين.

ولم يتحدث بصورة مباشرة عن الحياة السياسية، ومع ذلك فهو يهتم بها بنفس القدر، وإذا كان قد حضر عرضاً واحداً في مسرح الكوميدي فرانسيز فقد حضر أربع جلسات في مجلس الشيوخ بفضل بوليا Pauliat قرين فرنسا الذي كان يدافع عن قضية شمالي إفريقيا، ووصف أحمد زكي القاعة الجميلة وإجراءات النقاش، ويرى المتحدثين وهم يتناوبون الكلمة أو يقاطع بعضهم بعضًا ليدافع كل منهم عن نظرية حزبه، ولم يفته حضور المشهد الحي في قصر بوربون ويقول إن المشاجرات في قصر البوربون عنيفة وكثيراً ما تحدث منازلات كلامية كما يصفق الحضور للكلام البليغ، وفي وسط المناقشات تغمر أمطار من الأوراق المجلس وهي عبارة عن مطويات عن القضية المشينة لقناة بنما والتي يلقي بها أحد المستمعين الذي يتم توقيفه في الحال، ونشعر بكل حماس الشاب المصري

نحو مناقشات البرلمانيين وأصوات المعارضة والفكر الديمقراطي، وهنا أيضاً يذكرنا أحمد زكي بتجربة رفاعة، ومع ذلك يجد في جدول الأعمال مشكلات من شأنها الإضرار - على المستوى الدولي - بسمعة فرنسا، وبعد عدة سنوات استخلص المويلحي النتائج.

وبعد عودة سائحنا الوطني إلى بلاده عكف على موارد مصر السياحية. وبما يتسم به من شخصية مزدوجة - كما يعترف بذلك - بوصفه رياضياً وشاعراً يمدح أحمد زكي سحر النزهة بالسيارة من الإسكندرية وحتى القاهرة[١٣]، واقترح إنشاء «لجنة تجميل» تقوم بإبراز المواقع التي ميزتها الطبيعة وتعيد إلى مدن أرض النيل القديمة طابعها الجمالي القديم، وللحفاظ على العادات الحرفية القديمة طالب أيضاً بإلحاق ورش مخصصة لتدريب الحرفيين المهرة بمدرسة الفنون الجميلة[١٤]، وأحيا الوصف العربي للفيوم في القرن الثالث عشر والذي ورد في كتاب أبو عثمان النابلسي الصفدي[١٥]، وبوصفه عضواً في الجمعية الخديوية الجغرافية اهتم بكل ما يتعلق بجغرافيا البلاد[١٦].

قام أحمد زكي بأسفار عدة في أوربا؛ ففي ١٨٩٤ سافر إلى جنيف وفي ١٩٠٢ إلى هامبورج وفي ١٩١٠ إلى أثينا، وشارك في مؤتمرات المستشرقين الذين رأوا فيه فقيه لغة ومؤرخاً من الطراز الأول[١٧]، ولكن من بين رحلاته كلها هناك اثنتان ستظلان راسختين في الذاكرة؛ الأولى رحلة ١٨٩٢ لأنها قدمت مادة كتاب «السفر إلى المؤتمر» ورحلة ١٩٠٠ لأنها سمحت له بكتابة ريبورتاجًا عن المعرض الدولي تحت عنوان «الدنيا في باريس».

وشجع نجاح النص الأول المؤلف على كتابة قصة رحلات جديدة، فقد ظهر «الدنيا في باريس» في صورة ملحق مصور للمجلة الأسبوعية «طبيب العائلة»، ونجد في هذا النص الثاني نفس الرحالة بوجهة النظر ذاتها[١٨] والذوق ذاته، ومع ذلك نجده وقد اكتسب مزيداً من السهولة واليسر، فقد تحول عضو المؤتمر إلى بحّاثة لعام ١٨٩٢ وإلى صحفي محبوب، فبعد المداخلات الرسمية للمندوب وضرورات الفضول الذي أثاره إلى أعلى حد الاحتكاك الأول مع المجهول استمتع كاتبنا بالإجازة بهدوء.

وعندما أبحر من الإسكندرية في الأول من أبريل وصل إلى مارسيليا يوم ١٨، وبدأ في وصف المدينة، ولكنه أدرك أن الرحالة الذين ترجموا إلى العربية أدلة السفر التي

استخدموها قد قالوا كل شيء، ولم يتبق له سوى أكل البويابس، ومع ذلك فقد استبعد فكرة السفر ليلاً لأنه كان قد قرر منذ البداية اكتشاف البلد، وبالفعل شكلت مربعات الخضرة الممتدة على الجبال منظراً بديعاً، وسعد زكي بالتوقف في فيل فرانش -Ville franche، واستيقظ - كما لو كان في أحد مراكز مصر - على صوت صياح الديوك وأصوات الطيور والعصافير والأبقار، وعند تأمل الفلاحين الذين يخرجون إلى أعمالهم وهم يلبسون القباقيب في أرجلهم اندهش بخطوتهم السريعة الخفيفة التي تدل على رضاهم وسعادتهم. والحق أننا نحترم تحفظه لعدم عقد مقارنة صريحة بينهم وبين فلاحي النيل، ومع ذلك عاب بعنف على السائحين الشرقيين إهمال الريف والقرى لصالح العاصمة والمدن الكبرى.

وفي طريقه إلى باريس لم يُضَحِّ بزيارة مدينة سانس Sans وكاتدرائيتها الجميلة ذات الطابع القوطي، ويندد بغباء رجال كميونة باريس الذين حطموا رؤوس تماثيل أروقة المدخل، وتعجب من موقف حكومة فرنسا التي منعت باسم العلمانية رجال الدين من فتح مدارس، وجذب انتباهه بصفة خاصة مثوى قديس من العاج مغطى بكتابة عربية ترجمها سيلفستر دي ساسي.

وفي باريس ذهب لأكل الضفادع وذلك لمحاربة أفكار مسبقة غذائية، ووافق يوم ٢٣ أبريل عيد الربيع المصري (شم النسيم)، وأمضى اليوم في تريبل سورسين Triel-sur-Seine، وأشار إلى جمال الريف وهو ريف غير مستوٍ ولكن محاط بتل وغابة، وعند عودة أحمد زكي إلى باريس وفي انتظار الانتهاء من إعدادات المعرض شرع في اكتشاف مكتبات بيع الكتب والمكتبات العامة والمدارس والمتاحف دون أن يدعو القارئ إلى تتبعه، وكذلك الحال للأسف عندما أمضى مدة أسبوعين آخرين من ٧ وحتى ٢٠ مايو في الكوت دور؛ وعاد بعد ذلك إلى باريس للتأكد من نهاية أعمال المعرض، وبطريقته الشرقية التي تعرض حياته للخطر إذا ما عبر شوارع باريس ببطء ووقار رائع، وأوصى باستئجار عربة؛ والبقشيش يعد أمراً مقدساً وخلال المعرض يكون الشخص تحت رحمة سائق العربة الذي يكون الخصم والحَكَم في الوقت ذاته(١٩). ولا يتعين أن تتوهموا فيما يتعلق بالأطباء، فهم لا يختلفون عن زملائهم المصريين إلا فيما يتعلق بالصعوبة البالغة في اقتناص موعد منهم(٢٠).

وكان الريبورتاج الخاص بالمعرض أميناً للغاية، فبعد مقدمة عن تاريخ المعارض اعتباراً من القرن الثامن عشر وعدد ضخم من الإحصاءات يقدم الكاتب رؤية عامة وخريطة دقيقة، ويبدأ بوصف مفصّل للمدخل المزين بالتماثيل والورود، ومع ذلك فإن المؤلف الذي يحرص على الحديث في المقام الأول عن مواطنيه اضطر إلى انتظار الافتتاح حتى ١٦ يونيو، وأخيراً نجد المعبد والوكالة والمسرح !

ومع ذلك إذا كانت الهندسة المعمارية والآثار وبعض المنتجات المعروضة تمثل بطريقة سليمة حالة مصر القديمة، يمكننا أن نشعر بالأسف لغياب مصر الحديثة بصناعتها وتجارتها وحياتها الفكرية[٢١]، وعند باب الوكالة يقف شيخ مزعوم من الأزهر يستوقف الزوار ليكتب لهم باللغة العربية أسماءهم وبعض صيغ البركة مقابل بضعة ملاليم، وهو لبناني يعمل بقنصلية إيران بالإسكندرية ويدعى توفيق شلهوب وكانت هذه هي المرة الأولى التي يضع العمامة على رأسه خلال أيام المعرض، وكان أحمد زكي يتمنى إلغاء فقرة الرقص الشرقي الخليع من باليه عنترة، بيد أن المنظمين كانوا قد أعلنوا عنها كنوع من الجذب للجمهور العريض، وفي مصر ألا يتدفق الجمهور على مسرح الأوبرا لمشاهدة الجمال المكشوف بصورة كبرت أو صغرت للراقصات الأوربيات[٢٢]؟ وكان فيليب بولا Philippe Boulad حريصاً على الحفاظ على المظاهر بأن فصل عن عمد في الكواليس الممثلين عن الممثلات.

وبعد ذلك فإن الزيارات المتأنية والمتكررة لأجنحة كافة الدول في الجران باليه (القصر الكبير) Grand Palais والبتيه باليه (القصر الصغير) Petit Palais اللذين بهما العديد من عناصر الجذب السحرية، وإذا كان أحمد زكي قد أعجب بطريقة العرض الإيطالية فإنه يأخذ على الجناح العثماني نقص الابتكار وهو من تصميم مهندس معماري فرنسي يحتوي على حبوب غذائية يونانية وموسيقيين مصريين، وفي القصر الأمريكي يثير ثراء المنتجات والتقدم التقني الدهشة وتتنافس الولايات المتحدة الأمريكية الشابة بطريقة لائقة مع أوربا العجوز، ويستعرض الكاتب المعارض المثيرة للنمسا والمجر وإنجلترا ومستعمراتها والنرويج والسويد.

وفي معرض السويد يعجب المؤلف بلوحة رسمها الأمير أوجين Eugène ابن ملك السويد، ألا يعد إتقان هذا الفن الصعب مجداً كبيراً لابن ملك أكثر من النبل السهل المكتسب من الميراث وكذلك من الألقاب الموروثة ؟ ويقاطع الكاتب نفسه ويثير سؤالاً غاية في الجرأة مطالباً نفسه بالصمت. إن هذا الازدواج لشخصية المؤلف عن طريق هذا الحوار الخيالي الذي يقدم من وقت لآخر حواراً يجد القارئ نفسه طرفاً فيه بطريقة لا تقاوم، وتعد تلك الطريقة أحد أنجح الأساليب السرية المستخدمة في «الدنيا في باريس».

بفضل «السفر إلى المؤتمر» و«الدنيا في باريس» استطاع أحمد زكي في نهاية القرن التاسع عشر الوصول إلى مرحلة جديدة في مجال أدب الرحلات. وبالنسبة لنا نرى مع أحمد زكي ظهور الرحالة الحديث بعد فترة طويلة من الإعداد. وتنقّل أحمد زكي في أوربا من بلد إلى آخر بذات السهولة التي تمر بها ذاكرته خلال مختلف عصور التاريخ، وقد استفاد من الثقافة المتطورة في مصر منذ عصر رفاعة. ولّما كان أحمد زكي عضواً بالمعهد المصري ويتقن عدداً من اللغات فقد كان على مستوى الثقافة «الدولية» التي يجسدها معرض عام ١٩٠٠، وإذا كان أحمد زكي مدركاً لجنسيته المصرية فقد اهتم في كل مكان بآثار العرب واستطاع الاعتقاد بوجهات نظر مختلفة، وبعد جهود الدارسين والمربِّين الذين سبقوه أعطى أحمد زكي انطباعاً بالاستجمام، فهو يفهم الآثار ويتوقف طويلاً في القرى ويكتشف الريف ويتذوق باريس وهو يتنزه. ولذا تغير بفضله شكل قصص الأسفار، فقد حررته معرفته الشخصية للأشياء عن اللجوء إلى المراجع من الكتب ومن سلطة المرشد الذي كان أمين فكري لا يزال ينقل منه، ويعرف أحمد زكي كيف يفصل بين الأنواع، فقد ولى عهد المقالات الموسوعية وهذا المزيج بين الجغرافيا والتاريخ. كان رفاعة وهو الرائد الأول قد أعد نصه خلال بضع سنوات ولكن زكي كتب نصه على طريقة الصحفي المتعجل، وبالفعل لما كانت فرنسا ولا سيما باريس قد وُصِفَتا من قبل فلا جدوى من تكرار ذلك، وبعد أن هدأ فضول الكاتب الأولي يظهر بجلاء على سجيته، ويستمتع السائح بالحديث إلى نفسه ويعبر عن نفسه بحرية، ويلتقط زكي هذه الانطباعات وينقلها بأسلوبه، ويكون الأسلوب رومانسيّاً وحماسيّاً وجاداً تارة وهزليّاً حيويّاً ومزاحاً تارة أخرى، وكان يجد متعة سواء في الكتابة أو في الملاحظة، ووصل تحرير النثر - الذي بدأ مع رفاعة في تخليص الإبريز - خفة أنيقة

بفضل انطباعية أحمد زكي؛ ألم يسخر من الأسلوب المدعي للكتّاب الذين يبالغون في السجع بتقليد هذا الأسلوب[٢٣]؟ وفي «الدنيا في باريس» يعكس تنوع أسلوب الرحالة الحساس رغبته في التنقل من مكان إلى آخر وتنوع ما يراه من مشاهد وبأسلوب ثرثرة مرتجلة تتابع فيه النكتة والوصف الدقيق والفقرات الغنائية والمقارنة والاستفهام والنداء والحوار المتخيل والتنويه الدقيق، ولا يُخفي المؤلف جرأة ابتكاره، وفي خاتمته يمتدح – على نقيض التقليديين – الأسلوب السريع واللاذع والإيحائي، وباختصار يدخل السفر مع أحمد زكي تماماً في مجال الفن.

والآن لا يتعلق الأمر مطلقاً بالاكتشاف والتعريف ولكن بإعطاء تنوعات مبتكرة عن موضوع معروف وبدرجة أقل لتعريفه بصورة أفضل وبقدر أقل للشعور بلذة الإبداع الأدبي، وفيما يتعلق بالبكري والمويلحي وهما زائران لمعرضي ١٨٨٩ و١٩٠٠ فسوف نجد أن الطابع الأدبي هو الغالب على طابع الرحلات.

****

هوامش

١- عن رحلته في أسبانيا انظر:

H. Pérès: L'Espagne vue par les voyageurs musulmans, 72-87.

٢- السفر، ٥٠٠ .

٣- السابق، ٤٥ - ظهرت أجزاء من الرحلة الكبرى في مجلة الهلال عدد ديسمبر ١٩٣٤، ومايو ١٩٣٥ .

٤- حمزة فتح الله - باكورة الكلام - ص ١٠٣ .

٥- السفر، ٢٣٩ .

٦- السفر، ٣١٧ .

٧- السفر، ٣٦٢ .

٨- السفر، ٣٦٦ .

٩- قاموس الجغرافيا القديمة، القاهرة - بولاق - ١٨٩٩ .

١٠- قال أحمد زكي للمستشرقين المجتمعين في لندن إن الاتصال بأوربا «قد فرض علينا تبني مجموعة من الكلمات والألفاظ التي يتعين دراستها، وبعض هذه الألفاظ لها مقابل في اللغة العربية الخالصة، وقد يكون من المفيد بل من الضروري استخدامها، أما بالنسبة للباقي يتسنى لنا استخدام كلمات جديدة وفقًا للقواعد المعجمية للغة العربية دون اقتباس ألفاظ مشوهة بطريقة آلية لا تنتمي إلى أي لغة». خطاب ألقي في جلسة القسم السامي العام في ٨ سبتمبر ١٨٩٢، ص١٣ .

١١- المصدر السابق، ٣ .

١٢- السفر، ٣ .

١٣- من القاهرة إلى الإسكندرية بالسيارة - خطاب ألقي بالقاهرة - نادي الرياضات الدولية ٢ نوفمبر ١٩١٢ ص ١٣ .

١٤- أحمد زكي، «ماضي الفن الإسلامي ومستقبله في مصر» - القاهرة - مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية - ١٩١٣ (مقتطف من مصر المعاصرة، المجلد الرابع - ١٩١٣ - ١ - ٣٢).

١٥- «وصف عربي للفيوم في القرن السابع الهجري» - القاهرة - المطبعة القومية - ١٨٩٩ (مقتطف من نشرة الجمعية الخديوية للجغرافيا - مجلد ٥ - عدد ١ ٥ .

١٦- انظر ترجمته لمصر والجغرافيا تأليف بونولا بك - الأمين العام للمؤسسة «كتاب السِّير والجغرافيا» القاهرة - بولاق - ١٨٩٢ .

١٧- في مؤتمر هامبورج اختتم أحمد زكي كلمته مشيرًا إلى «مشروع الحكومة المصرية لإصلاح وتحسين الطباعة العربية» معلنًا «لقد جمعت معلومات مفيدة وطرق هامة سواء في الآستانة أو في ڤيينا وليبزيج، وبعد المؤتمر أنوي المرور بلايد وباريس لاستكمال البحث والتنقيب قبل العودة لبلادي، وهكذا لن أعود صفر اليدين».

Verhandlungen des XIII, internationale Orientalisten-Kongresses, Leiden, Brill, 1904, 289.

١٨- الدنيا في باريس، ٣٥ .

١٩- الدنيا في باريس، ٣٥ .

٢٠- المصدر السابق، ٨٤ .

٢١- المصدر السابق، ٩١ .

٢٢- المصدر السابق، ٩٧ .

٢٣- السفر، ص ٧٠-٧١، ٧٧، ٧٨ .

****

الفصل الرابع
البكـري والمويلحـي

أثار المعرض الدولي لعام ١٩٠٠ نوعاً من المنافسة اللاإرادية بين رحالة مصر المثقفين، فقدم أحمد زكي بحساسية الفنان وفضول البحاثة المقالات المثيرة «الدنيا في باريس» وذلك أثناء انعقاد المعرض، ونشر البكري صفحاته عام ١٩٠٦ في ديوانه «صهاريج اللؤلؤ»، وأجل المويلحي حتى ١٩٢٧ نشر «الرحلة الثانية»، ومن ثم فإن وحدة الموضوع التي توضح – في بداية القرن العشرين – ابتكار كل كاتب سمحت لنا بتقييم المواهب الأدبية والأفكار في مصر، والمؤكد أن هذه الأسماء لا تجمع كل أدب العصر ولكنها أسماء لها دلالتها.

ويعد محمد توفيق البكري (١٨٧٠ –١٩٣٢) أرستقراطياً بطريقة مزدوجة؛ إذ تعود أصوله - كما يدل على ذلك اسمه - إلى الخليفة أبي بكر خليفة النبي محمد (ﷺ) وكان هو نفسه شيخاً صوفيّاً، والأفضل من ذلك أنه هو نفسه زعيم طبقة الأشراف هذه الطبقة المبجلة سليلة الأسرة المحمدية، وزعيم كل الجمعيات الدينية، ولذلك تمتع بمزايا نفسية كبيرة ومن ثم مزايا مادية، فهو يمتلك النفوذ والثروة وأوقات الفراغ التي تسمح له بالتغرب والانفصال عن العالم الذي يعيش فيه، وسافر في أوربا من الآستانة إلى فيينا ومن فيينا إلى باريس، ولكن بما أن تفوقه الاجتماعي يعود إلى أصوله وحدها فقد اتجه نحو الماضي وفضل السفر عبر سلسلة نسبه، وتلقى تعليمه في مدرسة الأمراء التي أسسها إسماعيل حتى حلها عام ١٨٨٥، ثم حصل على شهادة من الأزهر الشريف لذا كان يفضل العربية على الفرنسية، ويتم عادة تصنيفه ضمن الأدباء أكثر من فقهاء اللغة، لأن البكري - في تبريره لآراء السيد جوردان - كان يتسلى بصنع النثر النبيل والشعر النبيل.

وليس ثمة ما يظهر رفاهية هذا الرجل أكثر من ديوانه «صهاريج اللؤلؤ»، فها هو لؤلؤ يكفي لملء صهاريج ! لآلئ من الكلمات والألفاظ النادرة التي اقتبسها من قدامى المؤلفين

العباسيين ليضعها في خيوط من الأبيات المتتالية أو المتراكمة في فقرات، وجمع هذا المفهوم الجمالي لتزيين ثمين في ذات المجلة عن طريق قطع متنوعة تصف بعضها جزئياً رحلة في أوربا. والحق أن البكري زار باريس والمعرض الدولي عام ١٨٨٩، ولكن ليس هناك أي أهمية للتاريخ أو للأشياء التي رآها، بما أن صائد اللؤلؤ يحب العيش خارج زمنه.

ومنذ رفاعة شكلت «الباخرة والبحر» أحد الموضوعات المفضلة لرحالتنا، وتحت هذا العنوان أسهب البكري في السجع والمقارنات النمطية، وفي البداية يقارن البحر بلونه الواحد المشع بالسيف والمرأة؛ ثم ترتفع بعد ذلك الأمواج مثل الجبال ويعلوها الزبد، وهي تشبه الأفيال البيضاء التي تزأر مثل الأسود وتصدر أصوات الرعد، وكانت الباخرة تشق سطح المياه كما يشق مقص قطعة قماش، كما يحلو للرياح التي تعصف بها وتلقي بها إلى الأمام وتؤرجحها إلى الأعلى والأسفل حتى لنقول إنها جبل لا ندرك منه – شأنه شأن شخص يعوم – سوى الرأس أو الكتفين، وفي وقت العصر عند هبوب النسيم الهادئ يتحول البحر إلى صفحة خضراء تتناثر فيها الجواهر الصغيرة، أو إلى لوحة ألوان الرسام، وتتم مقارنة الهلال تباعاً بقبضة متوهجة وبعقد وسوار وظفر صقر وناب فيل يمثّل الليل ذاته، وتحت أضواء اللمبات العديدة لهذه السفينة الكبيرة يأكل الناس ويشربون في صحبة طيبة حتى لنعتقد أننا في إحدى مدن سوريا التي تغنّى الشعراء بخمرها الطيب مثل الأندرين أو الجوار .

وبعد ثلاثة أيام نصل إلى أوربا بأراضيها الواسعة وممالكها الضخمة وعظمتها وأنوارها، وماذا عن هذا القطار الذي غادر الآستانة أثناء الليل ؟ إنه ثعبان بعيون مشعة يتحرك في قاع الوديان ليلتف بعد ذلك عند أعلى الجبال، إنه غزال رشيق، إنه مجرى مائي يجري في غابة، إنه فرس وجرادة ونحلة، إنه يصعد عالياً حيث تصل دعوة المظلوم وينزل هناك حيث تدفن روح الشرير.

وفي فيينا أغرقت أبهة حفل كبير المؤلف في ذكرياته الأكثر لمعاناً(١)، فقد تحدث عن أبهة الخلفاء وقصر خسرويه وترجم كلمة «حفلة» بالكلمة الفارسية «فنزاج»، وقارن نظرات

الجميلات بالطبع بطعنات الحسام، والموسيقى بالقواعد النحوية أو علم العروض التي تطبقها أرجل الراقصين وأيديهم بدقة، ولم يثر البكري أي قضية أخلاقية، وكذلك بالنسبة للخمر، فهذه الشمس داخل كأس وهذا اللؤلؤ السائل وهذه الأنوار التي تضيئها المياه، وهذا البرق في سحابة وهذه الزهرة في البرعم التي تطرح الورد على الخدين أو إذا ما أردتم هذه الجمرة التي تخلو من الشرر.

باريس ؟ ولكن من الذي يستطيع التعرف على باريس من خلال هذا الستار الخيالي من اللؤلؤ ؟ إن الصفحات المعنونة «غابة بولونيا»[٢] تختلط بسهولة بالصفحات الأخرى، فيطغى عليها طابع الكلمات القديمة الرنانة، ويمنع التحذلق المؤلف من التعبير عن نفسه مباشرة، ويدفعه تقديسه لأناقة اللفظ إلى الجري وراء الكلمات وتجاهل الأشياء التي تقع تحت عينيه، فما هي السمة الباريسية الخالصة في إضاءة تشبه - بما أن الليل أسود - بياض العين السوداء ؟ وتصور البكري أن برج إيفل في الظلام يحمل النجم الأحمر سُهيلاً كمصباح، وكان يرى أن هذا البرج هو برج بابل لو أن هذا الأخير لم يفرق بين البشر، بينما يجمع برج إيفل الناس داخل نطاق المعرض، وتبدو المدينة في عيد: فالشوارع تكتظ بالعربات والأرصفة بالفضوليين، ونتخيل أننا سنجد في كل شارع جيشاً مهزوماً.

وفي فكر صياد اللؤلؤ كانت كل عمارة تثير قصر غمدان (باليمن) وكل صالون قاعة عرس منقرع وكل حديقة شِعب بوّان (بفارس)، وكل حائط أسد يأجوج ومأجوج وكل كوبري كوبري خورزاد بسمرقند أو كوبري البردان ببغداد، وكل قصر قصر المشتهى وكل كنيسة كنيسة الروحة، وكل تمثال تمثال يأجوج إلخ، ومن ثم كان الاغتراب تامّاً ومنهجيّاً، وكأننا لسنا في باريس ولكن في الزوايا المخبأة من الحضارة العربية.

والحق أن اعتبار إثارة ماضٍ مجيد نوعاً من الثأر للشعور بالدونية أثاره منظر القوة الأوربية يمثل أخذ تسلية مأخذ الجد بصورة مبالغ فيها، ومع ذلك يظل هذا الهوى ذا دلالة، ونجرب من خلال هذا السياق كيف يمكن لعودة مصطنعة للموضات الأدبية القديمة حجب الحاضر وعرقلة المرور إلى الحياة.

ويجد المؤلف المعزول بأسلوبه(٣) عن كافة الجوانب الحديثة لباريس عام ١٨٨٩ في حديقة حيوانات البلاد الحارة ملجأ له، ويترك نفسه لوصف مصور للحيوانات المجتمعة كما لو كانت في سفينة نوح، وكانت زيارته لمقبرة نابليون(٤) بمثابة درس في التواضع المستوحى من مصير رجل عاجز عن دفع دود الأرض عن جسده بعد أن دفع في حياته عددًا كبيرًا من الملوك، وقورنت عظمة بونابرت وشجاعته - كما كان متوقعاً - بعظمة وشجاعة الإسكندر وخسرويه ، وعندما تحدث البكري عن معركة أوسترليتز Austerlitz وفقاً للوحة جيرار Gérard التي تأملها في فرساي مال إلى أدب الحرب المعروف عند العرب.

وفي هذا النثر المتميز ليس هناك وجود للأفكار بل للصور، والغريب، ومسترشداً بالسجع والقافية، عرض الشاعر كنزاً لغويّاً باهراً وتنقيباً مدهشاً، وهكذا نجد في هذه الصفحات عن أوربا قطعاً مختارة بدلاً من قصص رحلات، وتمت الاستعانة بفقيهين لغويين(٥) لتغطية الكتاب الذي لا يستطيع القارئ فهمه بالملاحظات وفرض على تلاميذ مدارس تلك الحقبة كنموذج للصياغة العربية.

وهذه الموهبة التي كانت خليقة بالتألق في بلاط المأمون أو ابن المعتز تبدو لنا مخالفة للمألوف في بداية القرن العشرين، وهذه الخزانات مليئة ولكن بأموال غير مستخدمة، ومهما أضاءت الأحجار الكريمة للبكري بألف وهج لن تنير لنا المكان، والحق أننا نكتشف فيها أرضاً ذات أحافير غنية بالأنواع المفقودة، وبالرغم من قيمتها فإن هذه الحفريات تشكل بالنسبة لنا أشياء صغيرة صلبة لا يمكن اختراقها وسطحية فهي تنتمي إلى أحد المتاحف.



لم يكن محمد المويلحي (١٨٥٨ -١٩٣٠) - مثل البكري - مؤلفاً نبيلاً، فهو حفيد تاجر حرير وابن قاضٍ مثقف وابن أخي النائب عبد السلام المويلحي، وولد في عائلة تمثل عن طريق نشاطها التجاري والفكري والسياسي الشهير الحركة الصاعدة للبرجوازية في ظل النظام القديم، وبدخول أبناء عائلة المويلحي البلاط في القاهرة والآستانة ومجلس النواب

وعالم الصحافة عاشوا بحق تحوُّل المجتمع المصري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

والتحق الشاب محمد بمدرسة الفرير في الخرنفش وتلقى بالمنزل دروساً خصوصية في الأدب العربي، وشارك بجانب أستاذه إبراهيم اللقاني في ثورة ١٨٨١، وسافر غداة الاحتلال الإنجليزي إلى إيطاليا ثم إلى الآستانة وكان يرسل من هناك مقالات تتناول المشكلات السياسية والاجتماعية إلى جريدة المقطم تحت الاسم المستعار «مصري يعرف بلده»، وعند عودته عام ١٨٨٧ شارك في صحف عدة وشغل لمدة ثلاث سنوات منصب مفوض شرطة بمدينة قليوب، ثم لحق بوالده الذي كان قد أسس لتوه بالقاهرة مجلة «مصباح الشرق».

وفي عام ١٩٠٠ كان المويلحي يصاحب في أوربا الخديوي عباس الثاني ضيف الملكة فيكتوريا، ولم تفته زيارة معرض باريس، ويحكى أنه أثناء هذه الرحلة سخر المويلحي مرة من الأمير حسين كامل مما اضطره للاستقالة عام ١٩١٤ من إدارة الأوقاف عندما وصل هذا الأمير المتعصب لكل ما هو إنجليزي[٦] إلى العرش، وعاد مرة أخرى إلى الصحافة، وفي عام ١٩٢١ أعلن عن انسحابه في الأهرام في مقال علني بعنوان «صوت من الوحدة» وهو صوت يدعو الأحزاب إلى الوحدة لطرد الإنجليز.

ومن ثم يجسد المويلحي - على عكس البكري - الكاتب الملتزم، وهو لا يملك تجربة الكتب فحسب بل وتجربة الناس والأحداث والمعارك؛ وتلك التجربة هي التي تغذي الهجاء الاجتماعي العنيف، والذي كان ينشره بصورة دورية في مصباح الشرق عام ١٩٠٦ تحت عنوان «حديث عيسى بن هشام»، ويبني المويلحي بذلك أول تمثال ضخم في تاريخ الرواية العربية.

والخيال البسيط جداً ليس سوى ذريعة لاستعراض مختلف الأوساط المصرية في نهاية القرن التاسع عشر، وشخصية الراوي «عيسى» وأسلوبه البراق مقتبسان من «مقامات» الهمذاني[٧]. كان عيسى يتنزه وهو يشعر بكآبة مبهمة ذات ليلة في المدافن الكبرى للقاهرة

فإذا به يرى مقبرة تنفتح ويظهر باشا سابق من بداية القرن التاسع عشر عاد إلى الحياة مرة أخرى، وبعد الرعب والمفاجأة لكلا الطرفين تنشأ صداقة بينهما، ويحرص عيسى على إخراج الباشا من مشكلات لا حصر لها بداية من مشاجرته الأولى مع الحمَّار الذي قاده إلى المدينة، والأمر يتعلق بنقد استغلال الشرطة للسلطة وبطء إجراءات العدالة، ويمر أمام أعين الباشا المندهش مُدَّعٍ ومحامٍ وعمدة ولاعبون وشاربو خمر وراقصة أوبرا أوروبية وعدد من المدعى عليهم في قضايا والمثيرين للإعجاب، وعندما أصيب الباشا بالمرض أثنى على تقدم الطب الحديث، وتردد على التجار والموظفين وحضر الأفراح وزار حديقة الأزبكية وقصر الجيزة ومتحف القاهرة وأمضى ليلة في مقهى فني.

وفي الفصل الأخير المعنون «المدنية الغربية» يسعى الباشا الذي يشعر بصدمة وحزن وقلق إلى فهم أسباب هذا التغير في العادات المصرية، ويطرح عيسى وصديق آخر له مشكلة الدخول السريع لعادات أوربية في الشرق عن طريق المقلدين الوقحين الذين ينكرون أصالتهم وقيمة تراثهم، وبغية رؤية الأمور بصورة أوضح يأمل الباشا في السفر يوماً إلى أوربا حيث يتسنى له معرفة الحضارة الغربية في معقلها الأصلي والتمييز بين الأصل والمظاهر.

وفي الرحلة الثانية - وهي جزء صدر متأخراً لحديث عيسى بن هشام - نصاحب الباشا إذن إلى فرنسا، وتستكمل رحلته الأولى عبر الزمان بطريقة طبيعية برحلة ثانية عبر المكان.

وينقل المؤلف شخصياته على الفور إلى باريس، ويبدو عيسى متحمساً، والحق أن ازدحام المدينة الكبيرة الذي أدهش فكري وزكي تم تقديمه بلغة حية بفضل ما تتضمنه من تأكيدات وصور، ويصف الراوي المشهد الأخاذ للأنوار والعربات والتدفق الجنوني في الشوارع والمقاهي، ويلاحظ في الجمهور عددًا كبيرًا من النساء، ولم يشك الباشا في أنه يشارك في حفلة يقيمها هؤلاء الناس من «العالم الجديد» الذين عادوا بصورة بديهية من الحرب منتصرين وقد جلبوا معهم الغنائم الثمينة والأسيرات الجميلات، وشرع عيسى

اللبق في إلقاء خطبة طويلة عن باريس تحكي النبرة المتحمسة لبعض الرحالة، إنها المدينة الفاضلة مركز الحضارة التامة ومعقل الفن والمجد ومصدر السعادة والتعاسة والتي لا يمكن لنا مقارنتها ببابل أو أثينا أو روما، وهي معقل العلم ومرفأ السلام ومقر العدالة حيث يتعلم الإنسان حقوق الإنسان وحيث يجد كل وطني بلداً ثانيًا له وحيث يجد كل منبوذ نجدته وكرامته في ظل الحرية والمساواة والإخاء ! وسكانها من العاملين المثابرين ينتقلون من أمل إلى أمل آخر، فلا شيء يقف حائلاً أمام عزيمتهم الصارمة؛ فهم قادرون على تطويع الصخر وتسييل الهواء ومسح الليل واستنفاد البحر.

وبينما يستمع الباشا بانتباه يفقد «الصديق» صبره ثم ينكر هذه العبادة الوثنية لباريس. وما هي فائدة تكرار الخطب الأخلاقية للرحالة المخالفين للصواب عندما يكون من الممكن الشروع في هذه الأماكن في تحقيق واقعي ؟ إن رد الفعل واضح إزاء أسطورة خلقها المقرّظون الغربيون وخصوصًا الفرنسيين أو مؤيديهم[8]، وتسمح لنا مهارة الروائي بمواجهة صورة باريس كما يعكسها على التوالي فكر عيسى الواثق وفكر صديقه الناقد وفكر الباشا المحايد الذي يخلو من أي أفكار مسبقة، واعتباراً من الصفحة الأولى توزع الأدوار بهذه الطريقة.

وتمتد هذه المقدمة الحاذقة بكشف الحساب الواضح الذي يضعه «صديق» أدب الرحلات في نهاية القرن التاسع عشر: أولاً أحاديث أولئك الشباب المغتر أولئك الذين أكملوا دراستهم في أوربا والذين انبهروا بمظاهر الأمور دون النظر إلى جوهرها؛ ثانياً الكلام الكاذب للسائحين الذين يتنقلون ليروا بسرعة الأشياء التي استمعوا إلى مديحها وليبهروا برواياتهم مواطنيهم الذين بقوا في مصر، ثالثاً: الأحكام المتسرعة لبعض الموظفين الذين يقضون إجازاتهم في أوربا حيث كانوا قد أنهوا دراستهم (ومن ثم يدخلون في الفئة الأولى أو الثانية)، رابعاً: حماس بعض المسافرين المجربين الذين أصبحوا للأسف العملاء المهتمين بالسياسة الاستعمارية للغرب. أما فيما يتعلق به - أي «الصديق» - فقد قرر ملاحظة مزايا وعيوب هذه الحضارة في الأرض التي ازدهرت عليها ومناقشتها والتنقيب عنها وجسها وحصرها، وأيّاً كانت النتائج فسوف يكون من المفيد نشرها.

وتوجه إلى الإنصاف الذي يجسده الباشا وطلب منه أن يتحدث عن انطباعاته الأولى، ولم يميز هذا الأخير شيئاً من شدة الدهشة، فقد سعى فقط إلى تجنب الأنوار الصارخة والضوضاء الصاخبة، ولكن أين يتسنى إيجاد الهدوء في عاصمة تتكون من ملايين السكان ؟ ألا ينبغي الاستعانة بمرشد ؟ ويرفض «الصديق» بطريقة منهجية أن يوجهه فرنسي من شأنه أن يمجد بلاده.

ويدخل المسافرون الثلاثة في مطعم، وفي الطاولة التي تخصص لهم كان هناك ثلاثة أشخاص جالسون وهم: أديب شاب ورقيق وأنيق، وتاجر ممتلئ الجسم ذو لون بشرة نديّ، وعجوز نبيل متعقل ويبدو أنه فيلسوف. وعندما تطرق الحديث إلى الحرب في الصين أعرب الكاتب عن أمله في القضاء على البربرية ونشر الحضارة الحديثة في كافة أنحاء العالم بواسطة المعدات الحربية التي طورها وحسنها الأوربيون والتي لا ينبغي استخدامها لتأجيج ثأر المنافسات الداخلية بين الغربيين، وأيده التاجر الممتلئ لأنه بهذه الطريقة سوف يمنع الصينيين من الوقوف ضد مصالح المستعمرين الاقتصادية الذين يستشعرون غضباً شديداً من رؤية شعب غيور على ثرواته نائماً فوق أرض مليئة بالذهب، ولم يقاسمهم العجوز الرأي، فهو يرى أن الحضارة الحقيقية التي تقوم على الحرية والمساواة والإخاء تنفر من المعدات الحربية التي تستنزف أموالنا وتضطرنا للعيش على حساب الآخرين، وإذا ما فرضنا أنفسنا بالعنف فسوف نحقر عاداتهم وتقاليدهم وسوف نطالب الصينيين بترك معابدهم ونسيان ثقافتهم وتعديل طعامهم وملبسهم ورفض حضارتهم الألفية ليصبحوا غربيين في الشرق الأقصى ! وفي هذه اللحظة تدخل شابة فرنسية أنيقة تعتب على الكاتب أنه تركها تنتظره، وصحبهما التاجر وتبعهما العجوز بنظرة احتقار، وعندما علق «الصديق» على المشهد لزملائه لم يخف إعجابه بهذا المفكر، وتشاء الأقدار أن يكون هذا المفكر مستشرقاً وأستاذاً للفلسفة ويفهم العربية جيداً، ولذا سيكون لهم المرشد الذي أرسلته السماء.

ودعاهم منذ اليوم التالي لزيارة المعرض، وكان ذلك هو موضوع الفصل الثاني، وبقريحته المعتادة تحدث عيسى عن اتساع نطاق المكان ووصف المدخل الأنيق الذي

يستقبل فيه تمثال ماريان القادمين ويسحرهم، وبعد أن جال الباشا بعينيه الساذجتين في هذا الأفق من الزهور والمباني تذكر جدران قبره واندهش من ولع البنّائين الذي لا يهدأ، وإذا كان «الصديق» لا يكترث كثيراً بالمعرض - شأنه شأن الفلاح الذي لا يكترث بقريته - لا يبدو مع ذلك أقل انشغالاً به من الآخرين، وقاوم خداع البصر ولم يعلن عن موقفه في الحال، وقال لهم المستشرق إن بذخ عدد كبير من العارضين أدى إلى إفلاسهم وإن هذه الأجنحة ستختفي خلال بضعة شهور باستثناء القصر الصغير والقصر الكبير.

وانتقلوا إلى القصر الصغير وانبهر عيسى في البداية بأبهة الديكور، وعدّد بعد ذلك بعض القطع الفنية المعروضة اعتباراً من الألماس والتيجان وحتى الأحذية المزركشة. إن مثل هذه التحف لا تهم الباشا بصفة خاصة الذي ينتمي هو نفسه إلى القرن الماضي، ولكن يغتنم «الصديق» الفرصة ليثني لمواطنيه على الاهتمام العظيم الذي يوليه الغربيون للحفاظ على ذكرى تاريخهم، ومع ذلك يعتب على مبالغة جامعي التحف الذين يثمّنون عالياً قطعة رخام بينما هناك آلاف البشر في هذا العالم المتحضر لا يجدون المأكل، وهذه الملاحظات تسير في ذات اتجاه الملاحظات التي أبداها محمد عبده أثناء رحلته إلى باليرمو.

ونعود إلى المذهب الاشتراكي المعروض هذه المرة بلباقة عيسى المصورة والمنغمة حول زيارة القصر الكبير الذي يشكل موضوع الفصل التالي. ويُظهر المؤلف تأثره بجمال اللوحات الفني والتعبير بالرسم وهو يجوب وسط اللوحات، وأعجب بصفة خاصة بالتمثيل المجازي والأخلاقي «للفضيلة» و«العلم» و«الإحسان» و«الطبيعة» وآلهة الفن التي تتوج هوميروس، إلخ، ويؤمن الكاتب بتطابق الفنون ويشير إلى أن الرسم شعر صامت والشعر رسم ناطق، وفجأة ينفجر تناقض الرسام عند رؤية رجل قذر ذي لحية يأمل الباشا في طرده من القصر، ويعلن لهم المستشرق أن هذا الرجل هو رسام كبير ويشرح لهم نتائج الحياة البوهيمية، وتفجع الباشا العائد من الماضي تفاصيل المرأة التي تعمل عارضة أزياء، ويطرح «الصديق» سؤالاً أكثر جدية: لماذا لا يوجد الرسم في الشرق ؟ ونقصد هنا

بالشرق الإسلام، لأن العصور القديمة الوثنية والمسيحية ـ وفقاً للفيلسوف العجوز ـ ورثت فن الرسم، كما عملت حضارات آسيوية أخرى على تنميته، بينما نبذته ديانة التوحيد الإسلامية. وكلنا يعرف كيف حارب محمد عبده ـ وهو يتحدث عن جولته في صقلية ـ هذه الفكرة المستبدة لأبناء ديانته.

ويتحدث الفصل الرابع المعنون «الأشجار والورود» عن المعجزات الطبيعية التي تقدمها الصوبات والروضات، ويفضل الباشا هذا المنظر الذي يعد عملاً إلهيّاً تامّاً على الأجزاء الأخرى من المعرض والتي تعد من عمل الإنسان والآلة، ويشير المستشرق لضيوفه إلى الألعاب غير العادية. وفي الواقع كان الصديق قد شعر بالذهول عند قراءته لمقال عن التلسكوب الكبير الذي يظهر لك القمر على مسافة متر واحد فقط، لذا قاد رفاقه نحو القصر الشهير للأضواء والمرايا، وكانت أفكار عيسى الذي ضحك بسبب تضاعف الصورة في المرايا العديدة تذكرنا بأول مرة خرج فيها رفاعة وهو في مارسيليا، وعبروا بعد ذلك متاهة وهي اختراع مصري وفقاً لشروع المستشرق الذي لم يفته ذكر هيرودوت.

أما بالنسبة للقمر الموعود فلا ترى سوى خريطة كبيرة تمثل البروز، ولمصالحة الصديق المحبط يندد الفيلسوف العجوز ما تضمنه الدعاية من تضليل، وكذب هذا الموضوع الفلكي الذي يعد عملاً كبيراً لنائب استعماري مشهور. وهذا الفصل الذي يبدأ بمدح الزهور والطبيعة ينتهي بتعجب عيسى الذي يدين خداع السياسة الإمبريالية التي حرصت على امتداد حدودها حتى الكواكب(٩)!

واتخذ رحالتنا من المستشرق الفرنسي مرشداً لهم، وانتقلوا وراءه من مشهد إلى مشهد ومن خيبة أمل إلى أخرى، واستعرضوا في البداية مختلف أنواع الرقصات التي تمارس في العالم، ولكنه رفض باليهات الغربيين الحديثة حيث ترتدي السيدات ملابس خفيفة ملتصقة على أجسادهن وتبرز أعضاءهن وبروزهن مما يجعلهن تبدين وكأنهن عاريات في الواقع. وعندما ندد الباشا بهذه العروض اتهم المستشرق المصريين بعدم اللياقة، لأنهم يقبلون الرقص الشرقي الإباحي، وأنكر «الصديق» بصرامة هذا الانحلال

وقال إن هذا الرقص لا يتضمن شيئاً مصرياً ويستغله الأجانب في مصر الذين يتمتعون بامتياز إدارة مقام ليلية لا تخضع لقوانين البلاد ويتردد عليها فئة من الأثرياء والسائحين.

ولما ضاق رحالتنا بهذا القدر من الوعود الزائفة أرادوا الاكتفاء بزيارة مكان واحد أثنى عليه مرشدهم الفيلسوف، ألا وهو المدينة السويسرية، وعادت الفرحة لهم عندما اكتشفوا هذا المنظر الجميل من الجبال والوديان والبحيرات والأنهار وكافة تلك المنازل التي تشكل مدينة مصغرة حقيقية، وكان هناك شابات سويسريات مزدهرات بالصحة والنضارة يعتنين بالبقر ويحلبنها ويعطين لكل من يطلب منهن ليشرب اللبن، ورجال طوال القامة في ملابسهم الفولكلورية يعرضون بطريقة لطيفة فاكهة حدائقهم وزهور جبالهم، واستغرق بناء هذا الركن الأصلي لسويسرا ثلاث سنوات من العمل وتكلف ٣٠ مليون فرنك، ويقضي فيه أبطالنا بضع ساعات ممتعة، ويختتم المؤلف هذا الفصل الخامس - على غرار الرابع - وهو يذكرنا بهذه المناسبة بروسو - بتفضيله لحياة سليمة وبسيطة بدلاً من التعقيدات المصطنعة للحضارة.

وللأسف فإن الفصل اللاحق لا يمثل سوى قرار اتهام موجّه ضد «المشهرين بالأمة»، وانجذب عيسى ورفاقه بنافخي مزامير وطبالين يقفون من بعيد ويعزفون لحناً مصرياً وشعروا بالسعادة لأنهم وجدوا مرة أخرى مناخ أرض الوطن وانتظروا أن يروا مصر ممثلة بصورة لائقة، ووسط جمع مضطرب من الناس كان هناك منادٍ مقرف - ذو مظهر لا ينسى - يدعو الجمهور بطريقة عنيفة إلى مشاهدة الرقص المذهل لزهرة ومعتوقة، ونلتقي في مدخل المسرح برجل وقور في يده مسبحة وهو بالتأكيد مصطفى بك الديب شريك بولاد والذي يمتنع المؤلف مع ذلك عن ذكر اسمه، ويرتفع الستار عن فتيات مبتذلات يقمن بحركات خليعة، ويترك رحالتنا القاعة من الخجل والضيق، ويقسمون على عدم العودة أبداً إلى الأماكن الفاضحة تلك، وألزمهم المستشرق بزيارة معرض الحرف والمنتجات المصرية، بيد أن الباشا ظل متشككاً حول جدية هؤلاء المنظمين الذين بالغوا في الابتذال حتى إنهم عرضوا بطون النساء، وبالفعل وبالرغم من التفسير الذي اقترحه «الصديق» عن نفسية

هؤلاء المتنفعين الذين أعماهم المكسب وحماهم عدم اضطرارهم إلى الإفصاح عن هويتهم في باريس، فإن الوكالة عززت من تشكك الباشا بكل ما تشتمل عليه، وكان هناك امرأة باريسية عجوز تدير حانة وتساعدها بناتها وحفيداتها، واكُتشِفَ الشيخ المزيَّف الذي كان أحمد زكي قد فضحه من قبل، أضف إلى ذلك مشهدًا مؤسفًا لمدرس كتاب مزعوم يهز فرع نخلة ويطلب إلى تلاميذه ترديد درس وهم جالسون القرفصاء حوله ويهزون بطريقة توقيعية النصف الأعلى من الجسم، وبعد الكاريكاتيرات الخاصة بالتجار وزفة العروس يدين الكاتب المديرين المشارقة وشريكهم المصري الطموح.

ويحمل الفصل السابع عنواناً غريباً وهو :«عيش الحضارة». كان رحالتنا يجوبون وسط أجنحة مختلف الأمم ولاحظوا جناح ألمانيا ذلك البلد القوي المتفوق في مجال العلوم، بعد أن تفوق من قبل في ميادين القتال(١٠)، وفجأة يقع حادث مأسوي عندما ينهار الكوبري المعلق الكبير مخلّفاً عددًا كبيرًا من الضحايا، وكانت تلك هي المقدمة المأسوية للزيارة الكئيبة التي سيقومون بها في قاع منجم فحم، وكان منظر عمال المناجم فظيعاً وهم يعملون في ظلمة خطيرة وغير آمنة وهم يقرضون الثقوب الأرضية مثل الحشرات وآخذين كافة أوجه الحذر ومظهرين كل مهارة المصارعين، ولكن ماذا يكسبون ؟ لا شيء تقريباً، إنهم يكدحون ليثروا أصحاب الامتيازات الكبار وكذلك أصحاب المصانع، وعاد أبطالنا إلى المذهب الاشتراكي، فعيش الحضارة كما خمنتموه هو الفحم الحجري، يا له من خبز أسود!

ولما كان الحديد يحتل المرتبة الثانية في الصناعة بعد الفحم فقد كرس الفصل التالي لبرج إيفل وهو «عجيبة الدنيا الثامنة»، ويعظم عيسى التحفة المعمارية بكل التبجيل المتوقع، وصعد الرحالة البرج وعندما أشرفوا على المدينة والناس استمعوا إلى المستشرق وهو يحكي قصة العجائب السبع الأخرى، وتساءل «الصديق» إذا كان هذا البرج الحديث لا يشتمل على ذات القدر من الزهو الذي كان يشتمله برج بابل في الماضي ؟ وبدا رحالتنا متشائمين ولا سيما بعد أن علموا بالعار الذي لحق بإيفل الذي سجن بعد قضية بنما.

وبعد أن زار رحالتنا المعرض أصبح من الممكن لهم التعرف على كافة الأوساط الباريسية بفضل المستشرق، وهكذا درسوا الحياة الأخلاقية بعد أن قدروا التقدم المادي، وعندما حل الشتاء وتنافست مدافئ البيوت مع مدافئ المصانع كان الخروج قليلاً وأمضى الأصدقاء الوقت في النقاش، وأوصى المستشرق الصديق - الذي ثار ضد الحضارة الغربية - بالاعتدال؛ فهذه الحضارة طورت الكثير من المزايا والعيوب ولا يتعين الحط من شأنها، عليكم باستيراد الآلات منها لتدافعوا عن أنفسكم ضد المطامع «الاستعمارية» مع الحفاظ على تراثكم ! وبهذه الخاتمة ينتهي العمل، وهذا الفصل الأخير بالغ القصر يحمل عنوان «من الغرب إلى الشرق»، لأن مسافرينا عادوا إلى مصر.

وبالرغم من البهجة العارمة للمويلحي فإن «الرحلة الثانية» التي تبدأ في جو أعياد تنتهي تحت السماء الرمادية والمطرة لشتاء أوروبي، ومن بين الشخصيات كان «الصديق» الذي عاد إلى صوابه هو الذي بدا وكأنه يضطلع بالدور الرئيسي، هل كان المتحدث باسم المؤلف ؟ ليس بالضرورة فالسيست Alceste ليس موليير Molière، وتعد الصرامة أحد قوانين النوع الهجائي، وعلى أية حال ففي دراستنا التي تتناول قرنًا من المسافرين يتعين تصنيف المويلحي في مجموع الموكب لنحدد ماذا قدم لنا بدوره.

من المؤكد أنه قدم رؤية اكثر شمولاً من التي قدمها سلفه، ففي نهاية القرن كان يرى المشهد بصورة أوضح، وقد أخذ مسافة مناسبة تسمح له برؤية شاملة لمشهد حضارة الغرب التقنية، وهو مدرك بدوره كمراقب، ولذلك لابد من أن يتخذ موقفاً بطريقة مباشرة يجابه في حديث شائق مختلف وجهات نظر مصري قوي العزيمة وآخر ساذج وثالث مفكر ورابع كاتب مُدَّعٍ وكذلك رأي تاجر فرنسي كبير وأخيراً رأي مستشرق حكيم يشكل همزة الوصل الأساسية بين الجانبين، وينتظم العرض الواضح الذي يأخذ شكل حوار مفصل في شكل قضية، ويشرح كل شخص ما عنده ويدافع عن نفسه ويظل القارئ هو قاضي النقض.

وفضلاً عن الموضوع العام الذي يتناوله كتابنا الرحالة والمتمثل في «فرنسا مركز الحضارة الحديثة» هناك تحفظات هامة، فالروائي لا يخفي اعتراضاته، فتطور المجتمع

يدعوه إلى إعادة التفكير في الموضوعات، فبعد رومانسية من سبقوه أعلن أنه واقعي، ويتخذ النموذج كمرجعية للتحقق من الصورة التقليدية لفرنسا المتسامحة وهي صورة نشرها في مصر بدايةً خريجو المدارس الفرنسية ثم الصحفيون الأحرار الذين كانت فرنسا تستقبلهم وتستضيفهم بغية محاصرة لندن، ونظر إلى الجوانب المظلمة لا لحياة غربية تحت رحمة الميكانيكا فحسب بل لسياسة توسع الرأسمالية الفرنسية، وبالنسبة للمويلحي يتراجع المثل الأعلى القديم ـ والمتمثل في «الحرية والمساواة والإخاء» ـ أمام مثل أعلى جديد وأكثر تحديداً، ألا وهو «الاشتراكية»، إن زوال الغرور في الرحلة الثانية له تبريراته التاريخية، فبالرغم من أن هذا النص ينقل أحداثًا عن سنة ١٩٠٠ صيغ عام ١٩٠٤ وهو التاريخ الذي اتفقت فيه باريس ولندن وديّاً ـ عن طريق مقايضة تستحق الذكر – ضد مصر والمغرب، وكشف النقاب عن الاستعمار البرلماني وهزئ به وأدانه، ويعد ذلك – في بداية القرن العشرين – التعبير الصادق عن الوطنية المصرية، كما تم التعبير عن هذه الوطنية عام ١٨٣٠ عن طريق إعجاب الشاب رفاعة بالميثاق التأسيسي الفرنسي.

وفرنسا التي يفصلها عن الثورة قرن مليء بالأحداث لا تمارس على أبطال «الرحلة الثانية» سحراً لا يقاوم، ومع ذلك ظلوا قادرين على حب أوربا والإعجاب بها، وكانوا يفضلون – وهم في الأساس زوار للمعرض الدولي – سويسرا وألمانيا، وكان أحمد زكي قد تعلق من قبل بإسبانيا، واكتشف رفاق عبد الله فكري الدول الاسكندنافية، وتجذب حكمة المستشرق الفرنسي الرمزي وحدها تعاطف المصريين، ويفضل تفهمه للأمور لم يحدث انفصال تام بين المعسكرين، فالرحلة الثانية تعلن عن أمل عادل بالرغم من بعض التشاؤم الذي يكتنفها.

ومن ناحية أخرى يقدم لنا المويلحي تمثيلاً أدبياً للرحلة، هل تثير أصول «حديث عيسى بن هشام» مشكلة كبيرة[11]؟ أيتعين البحث عن هذه الأصول في حكاية «الجميلة النائمة» أو في تراجيديا «هاملت»؟ ربما كان التماثل أكثر ملاءمة إذا ما رجعنا أكثر لنصل إلى «كتاب الموتى»، بيد أن القرن التاسع عشر من زمننا يفسر بطريقة وافية هذا العمل المصري المكتوب باللغة العربية.

فقد ظل المثقفون في مصر متأثرين بسحر المقامة، وكانت تلك النوعية الأكثر مناسبة خلال فترة الانحطاط العثماني، فقد وجد كل من كتاب النثر الذين تنقصهم الأفكار والشعراء الذين ينقصهم الإلهام وفقهاء اللغة المجترّين نصيبهم في المقامة، وكان الشاب رفاعة راغباً فيه، وتفنن ليصوغ مقامة مع زملائه على متن «الترويت» في مياه مسين Mes-sine، وقد عظم شأن سيلفستر دي ساسي عنده لأنه ترجم عددًا كبيرًا من المقامات[١٢] وعلق عليها، والحق أن الذي يتحدث عن المقامة يجب أن يتحدث عن «الهمذاني» وتبعه المتميز «الحريري»، إن مؤلف «حديث عيسى بن هشام» استند مباشرة لهذين الأستاذين، فهو لا يأخذ عنهم فقط فسيفساء الأسلوب والتقديم السردي ولكن أيضاً بطله وعنوانه، ويتمثل ابتكاره في تحديث النوع، فهو يطوّره ليصبح رواية بإعطائه مضمونًا جادًا.

وبنظرة شاملة لهذا العمل بعد وضعه في سياقه التاريخي نستطيع أن نستنتج أن «الرحلة الثانية» بعيداً عن كونها تكملة مصطنعة لحديث عيسى بن هشام إنما تقدم لهذا الحديث الحل الحقيقي، والمؤكد أن الباشا لن يعود إلى قبره مثل أسموديه Asmodée، الشيطان الأعرج في قارورته. وكلمة «حل» يمكن الاعتراض عليها من الناحية الفنية، ومع ذلك بالنسبة لرواية تحدد لنفسها الإصلاح الاجتماعي هدفاً لها، فإن تحقيقًا حول مصادر الفساد يبدو لنا أصدق الحلول، ويمكن أن نشعر بوحدة الفصلين بصورة أفضل إذا ما ألقينا نظرة استعادية على رحالة القرن التاسع عشر الحاضرين في ذهن المؤلف، فقد كان تحوُّل مصر هو الفكرة الرئيسية لكل كتاباتهم، وهم يعترفون بأنهم صانعو هذا التحول وأنهم على أية حال أبطال المسرحية، وبالنسبة لروائي مصري في نهاية القرن فإن تحويل الشخصيات إلى رحالة لم يكن حيلة مصطنعة، بما أنه قد سافر هو نفسه. ومن ثم فإن الرحالة المصري في أوربا أصبح بالفعل بطلاً روائياً، فقد سبق «علم الدين» وابنه إلى باريس، ولنفس هذا الهدف سافر «عيسى بن هشام» ورفاقه[١٣].

ولن نعجب لرؤية هؤلاء الرحالة يصطحبهم في فرنسا مرشد مستشرق ! وقد استوحى المويلحي هذه الفكرة الجديدة من علي مبارك، ولكن ظهر المستشرقون الذين أقاموا

اتصالات مع مصري أولاً في «تخليص الإبريز»، وهؤلاء المستشرقون أصليون بما أنهم يسمون: سيلفستر دي ساسي وكوسان دي برسيفال Caussin de Perceval وجوزيف رينو Joseph Reinaud، فعندما فكّر علي مبارك - الذي كان مقيماً بمدارس عسكرية في باريس ومتز - في قصص رحلات رفاعة الباريسية انتهى إلى تصور هذه الشخصية، فقد تمنى أن ينفذ - بفضل هذا المستشرق المأمول - إلى الحياة الغربية ولا سيما الفرنسية، وفكّر في الرجل الذي يكن له تقديراً عظيماً وهو لويس سيديو Louis Sédillot وهو مؤرخ العلوم عند العرب، كما فكر بعد ذلك محمد عبده أو حمزة فتح الله في جوستاف لوبون ، وعلى أية حال أكد علي مبارك بين رفاعة والمويلحي استمرارية رواية معيشة.

وإذا كان هناك بالفعل رواية عاشتها مصر خلال القرن التاسع عشر فإنها رواية الرحالة في فرنسا، ومن الأمور ذات الدلالة أن «الرحلة الثانية» التي تحكي رحلة بعض المصريين في نهاية القرن إلى أوروبا الممثلة في باريس وهم يحيطون برجل عائد إلى الحياة من الرعيل الأول وكذلك في «علم الدين» حيث نجد أبًا من منتصف القرن قام بهذه الرحلة مع ابنه. ويشكل عمل المويلحي بهذه الصورة نوعاً من السيرة الذاتية الجماعية تم نقلها عن الشعب المصري الذي تطور خلال قرن بأكمله.

ولنصل إلى حصيلة الموضوع وإلى حصيلة الشكل أيضاً، إن محاولة التقريب بين الشخصيات التي رسمها المويلحي وبين شخصيات لابروبير وبين التقريب بينه وبين بلزاك وفلوبير فيما يتعلق بقوة رسم المجتمع بل وبينه وبين الجونكور Les Goncourt وهيسمانز Huysmans فيما يتعلق بالكتابة الفنية المصورة قد ينأى بنا عن المعنى الحقيقي للعمل. إن إطار المقامة ذاته الذي لجأ إليه بعد المشروع الروائي لعلي مبارك لا ينبغي أن يخفي عنا في كتاباته التأثير الذي يتم إغفاله لكل من رفاعة وأحمد زكي. فبفضل البساطة التي تم امتداحها في تخليص الإبريز، تخلص المويلحي من نير النثر الفني الذي كان البكري لا يزال يعاني منه، والحق أن الروائي يتزين بأناقة ولكن دون أن يترك الزينة تخنق روحه المبدعة، فيخرج من هذه القيود بسلاسة ويبدأ في حوارات واضحة، وفي هذا

السياق يتعين التذكير بأحمد زكي، وحواراته الذكية التي سطرها خلال رحلته والتي أعطت سحراً خاصاً لصفحات «الدنيا في باريس»، والأسلوب الذي خصصه السائح المثقف لمجابهة رأيين تضخم ليشمل عددًا أكبر من الآراء، ونص المويلحي المليء بالحوارات يعلن عن نوع جديد في الأدب العربي الا وهو المسرح، فهذا المؤلف الذي لا تمنع فسيفساء كلماته من بناء تحفة قوية والذي نجح في تقديم قوة حمزة فتح الله والبكري اللغوية لخفقات الشاب زكي المتعجلة تمتع بنجاح متساوٍ بالنسبة للتقليديين والحديثين.

وبكلمة واحدة يجمع المويلحي في كلٍّ متناغم الموضوعات التي يطالب بها مجتمعه المعاصر والشكل الذي كان نتاجاً لتطور مؤكد، فقد قدم لنا الثمرة المنتظرة حيث يندمج نسغ الجذور وعصارة الطعم، وفي مطلع القرن العشرين يعد ذلك تتويجاً للعمل المضني الذي اضطلع به على التوالي – وغالباً بطريقة غير معلومة – الرحالة والكتاب المصريون في فرنسا في القرن التاسع عشر.

****

هوامش

١- صحاري، ٢١٥ .

٢- السابق، ٣٠٤-٣٤٠ .

٣- عن غياب التجربة النفسية - انظر دراسة :
G. E. von Grunebaum: "The aesthetic foundation of Arabic literature", Comparative Literature, 1952, no. 4m 323-340.

٤- صحاري، ٦٠ .

٥- الشيخ أحمد أمين الشنقيطي والشيخ أبو بكر محمد لطفي.

٦- المويلحي: آل مويلحي في مصر - ١٧٧-١٧٩ .

٧- كلمة "Séances" التي اختارها س. دي ساسي والمستخدمة منذ ذلك الحين لا تكفي للتعبير عن كافة المعاني التي تشتمل عليها كلمة مقامة.

٨- حديث عيسى بن هشام - الطبعة الخامسة - ٢٩٧-٢٩٩ .

٩- حديث عيسى، ٣٢٩ .

١٠- حديث عيسى، ٣٤٢ .
(11) H. Pérés: "Les origines d'un roman célèbre de la littérature arabe moderne".

١٢- تخليص الإبريز، ٦٣-٦٦ .

١٣- عن مشكلة العلاقة بين الترجمة والرواية انظر:
voir Le réel dans la littérature et dans la langue, Actes du Xe congrès de la Fédération internationale des langues et littératures modernes (Fillm), publiés par Paul Vernois, Paris, Klinchsieck, 1967. La communication de Marcel Bataillon, "La profession médicale et son langage devant la littérature: Problèmes espagnols du XVIe siècle", ibid., 23-39 et ses études sur Le Docteur Laguna auteur du Voyage en Turquie, Paris, 1958, expliquent un cas typique du voyage qui se développe en roman.

****

خاتمـــة

اعتباراً من مطلع القرن التاسع عشر صحت مصر بعد هموم كابوسها التركي على طلقات مدافع بونابرت، وإذ أدركت مصر ما تعانيه من تدهور اكتشفت أوربا في مواجهة الإمبراطورية العثمانية المحتضرة، وتعرفت على فرنسا التي كانت تقيم على ضفاف النيل لمدة ثمانية وثلاثين شهراً وكذلك على إنجلترا التي أعادت آخر جنود عبد الله مينو إلى بلاده، وخرقت بهذا سر استقلال سوف يأتي في المستقبل أكثر استدامة من الاستقلال الذي حققه لتوه «علي بك» خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وها هي ذي تدخل مرة أخرى في علاقات مع الغرب من أجل تأسيس هذا الاستقلال على توازن القوى الدولية عشية إبرام القوتين العظميين في هذه الفترة اتفاقية سلام أميان Amiens.

ولسوء الحظ توفي المعلم يعقوب في سن صغيرة ووقع المشروع في طي النسيان، ومع ذلك تابعت مصر مشروعها بالتزود بالأسلحة وبالكفاح بصورة مفتوحة ضد المستعمر البريطاني وبطريقة خفية ضد أسرة انتقالية لا تركية ولكن مصرية مزيفة.

وهذه اليقظة وهذا الاستعداد وهذه الصراعات التي شكلت ميلاد مصر الحديثة تعد بصورة أساسية إنجازاً للمصريين المتصلين بأوربا ولاسيما فرنسا وهم عدد كبير من الرحالة المغمورين في أغلب الأحيان.

وفضلاً عن وسطاء كل جيل بين الماضي والمستقبل كان الانتقال يعد أمراً أساسياً، وكان السفر على مستوى الزمان يتضمن سفراً على مستوى المكان بما أن أوربا التي كانت متقدمة ببضعة قرون كانت تمتلك التقنيات الحديثة. ولكن لماذا اتجه هؤلاء الرحالة خصيصاً نحو فرنسا؟

حدد تضافر السياسة والعامل النفسي اتجاه التيار، لقد حاول الإنجليز مراراً جذب المملوك علي الألفي[1] إلى لندن والنزول بها كما حاول الفرنسيون النزول في الاسكندرية ولكن القي بهم في البحر وقضى محمد علي على المماليك ، وكان التجانس المتوسطي خليقاً بربط مصر بإيطاليا التي استقبلت بالفعل أُولى البعثات الدراسية، والحق أن فرنسا كانت أقل في طابعها الاستشراقي من إيطاليا ولكنها كانت أكثر منها تسامحاً، كما دعتها الكنوز المصرية طويلاً لاستكشافها، وتفوقت على إيطاليا بفضل عروض جومار المتتالية، وفي هذه الفترة بذلت فرنسا قصارى جهدها «لتهيئة نجاح القوات الجديدة»[2] بعد أن رجعت إلى الحكمة بعد مغامرة نابليون، وسريعاً ما تعاملت القوى الكبرى مع مصر ما بعد الصحوة.

وتعد هذه الصحوة منظوراً غير عادي، وحتى يتسنى حضور هذا العرض المتمثل في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ركزنا اهتمامنا على الرحالة إلى فرنسا فقط، وكان دورهم - كما استنتجناه - أساسيّاً، وقمنا باقتفاء آثارهم ودراسة نصوص الكتّاب منهم، ولكن أين ينتهي دور الرحالة وأين يبدأ دور الكاتب؟ إن تعقيد الحركة يربط بين الدورين، فالتجربة والتعبير تمَّا في الوقت ذاته، وقد ميزنا في هذه الرؤية الشاملة والسريعة - بغية تحقيق نوع من السهولة في الخطة - بين تطور الأشكال الأدبية وتطور الأفكار قبل استخلاص المنحنى المهم لفرنسا ومصر لقرن من الاتصالات وبمجابهة صورتيهما على التوالي والتي يعكسهما الرحالة.

ويعد تطور الأشكال الأدبية شهادة في حد ذاته، ولا يمكن تصور الركود الفكري للعصر التركي في القرن التاسع عشر، وأدى التنقل إلى ظهور قصص رحلات يمتثل فيها العربي الذي يتسم بالثبات لمتطلبات جديدة. ومن أجل وصف عالم غير معروف حتى ذلك الحين وتقديم المعلومات وتقديم النفع حرص المسافرون على الكتابة بطريقة دقيقة، وتخلوا بصورة متزايدة عن الصيغ الجوفاء والتلاعب بالألفاظ والإطناب، ووجهت الموضوعات الحديثة اللغة والأسلوب، فقد أعلن تخليص الإبريز عن حرية النثر، واكتسب الريبوتاج مزيداً من السلاسة مع الباجوري وأمين فكري وأحمد زكي بصفة خاصة.

بيد أن قصص الرحلات لا يعد نوعاً خالصاً، إذ تختلط المقالات الوصفية والمقالات التربوية بالسرد والتأريخ، واعتمد فضول رفاعة - الذي كان يستكشف الجوانب المختلفة للحياة الغربية - الأسلوب الموسوعي للجغرافيين العرب في القرون الوسطى(٣)، وحاول أحمد زكي الفصل بين الأجناس، وأسفرت قصص الرحلات عن ميلاد جنسين مختلفين وهما المقال النثري والرواية.

ولا يعد المقال النثري جنسًا مستحدثًا بالنسبة للأدب العربي، ولكنه يعرض اليوم بأساليب جد متنوعة أفكاراً اجتماعية وسياسية وثقافية ذات طابع حديث، وبالفعل ينقسم «تخليص الإبريز» إلى عدد من المقالات النثرية، وتأكدت موهبة رفاعة بوصفه كاتباً للمقالات النثرية عندما كتب بعد ذلك «مناهج الألباب» و«المرشد الأمين» ، كما نشر مقالات نثرية دورية تتسم بالحيوية والحجم القصير في الوقائع الرسمية أو مجلة «روضة المدارس»، كما أدرج بدوره كلاً من محمد عبده رئيس تحرير العروة الوثقى، وحمزة فتح الله وهو يعالج حقوق المرأة المسلمة، وأحمد زكي والمويلحي في مقالاتهم العديدة في قائمة كتاب المقال النثري.

وحتى بداية القرن التاسع عشر كان رجل الأدب يأخذ مظهرين رئيسيين ، وهما الشاعر الفصيح وجليس الأمراء، ولكن سريعاً ما ابتعد الأول عن المقامة والثاني عن الرسالة، فغيرا طبيعتهما ليتحولا إلى كتّاب مقالات نثرية، وبفضل الرحلات لم يعد الأدب ملكاً للخبراء وأصبح قبل كل شيء أداة ثقافة موجهة للشعب، ودفعت الطباعة – المكتسبة مؤخراً – كتّاب المقال النثري نحو الصحافة، وهذه الصحافة الشابة التي تُعلّم أو تُشوِّه الذين تنقل إليهم المعلومات شيدت تدريجياً مجتمعًا جديدًا.

وكانت الصحافة التي انتقلت إلى فرنسا أثناء الانتفاضة الوطنية عام ١٨٨١ صحافة رأي وقتال، وفي المنفى تطورت الصحيفة المصرية. وفي باريس التي تمثل مركز النشاط الدولي كانت جريدة «مصر القاهرة» أكثر انتقادًا للفكر منها في القاهرة والاسكندرية، وكانت تولي حيزاً كبيراً للأخبار، وأدخل أبو نضارة الماكر سراً إلى مصر الكاريكاتير وأولى الرسومات الملونة.

ومع ذلك تحول المقال النثري إلى رواية. وهذا المقال النثري – الذي عند تركيزه حول موضوع واحد يمكن أن يقدم كتاباً بأكمله، وعندما يأخذ شكل مقال مقتضب ومباشر يغطي عموداً أو عدة أعمدة في جريدة – أخذ في الوقت ذاته شكلاً ثالثاً عندما يفرد له مساحة أكبر وينظم ويغذيه الخيال فيتحول إلى رواية. وهكذا نشأت الرواية في الأدب المصري الحديث. وظل العمل الضخم «علم الدين» الذي كان «تخليص الإبريز» الدافع إلى كتابته عملاً تربوياً وذلك باللجوء إلى حبكة قريبة الشبه من السيرة الذاتية. ففي نهاية القرن أخذ المويلحي القيمة الأساسية واستخلصها من الدروس المدرسية ليصنع من ذلك نهاية حديث عيسى بن هشام وهي عبارة عن مزيج ناجح من شكل المقامة القديم ورواية التقاليد والنقد الاجتماعي، ألا تشكل كل من رواية «أديب» و«عصفور من الشرق» – اللتين تعدان من أجمل الروايات العربية في القرن العشرين – قصص رحلات مستوحاة ؟ فطه حسين وتوفيق الحكيم مثلهما مثل بطلي روايتيهما أنهيا تعليمهما في باريس، ولفك رموز هذه الأعمال بما فيها قنديل أم هاشم ليحيى حقي وفهمها يتعين علينا عدم إغفال رفاعة الذي مثّل نقطة الانطلاق أو المويلحي الذي شكّل أفضل نقطة انتقال بين القرنين.

وتبدو نهضة الشعر للوهلة الأولى أقل أهمية بسبب استمرار الإطار التقليدي للوزن والقافية، وأعطى رفاعة الإشارة عن ذلك بالرغم من عدم كونه شاعراً متخصصاً، ففي «تخليص الإبريز» بعد أن احتفل بمصر ورجالها العظام في قصيدة ذات شكل نمطي يسودها اللعب بالألفاظ نجح في كسر رتابة القصيدة لصالح الموضوع أثناء ترجمته لأبيات شعر فرنسية، وأعلن عن الاتجاه الكلاسيكي الجديد (النيوكلاسيكي)، وترك خلفه نماذج الجاهلية لمحاكاة الكمال العباسي. وبذلك أرادوا باستخدام الآلات القديمة غناء ألحان جديدة مستلهمة في أغلب الأحيان من لقائهم مع أوربا.

وغلبت الرقة المشوبة بالشجن التي اتسم بها الرومانسيون على شعر إسماعيل صبري (١٨٥٤ -١٩٢٣) الذي بدأ كتاباته على صفحات «روضة المدارس» التي يصدرها رفاعة وذلك قبل أن يدرس الحقوق بكلية إكس إن بروفانس Aix en-Provence، وتبعه فيكتور هوجو الشعر المصري أحمد شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢) وتفوق عليه بطريقة غير

عادلة، فقد وصل أحمد شوقي إلى فرنسا اعتباراً من ١٨٩٠ لا لدراسة الحقوق كما ظن كتاب سيرته الذاتية بل ليتثقف[٤]، وتحكي لنا مقدمة ديوانه الأول (١٨٩٨) رحلته، ونعرف من خلالها أنه ترجم قصيدة «البحيرة Le lac» للامارتين وأنه كتب بالعربية حكايات على لسان الحيوانات على طريقة لافونتين La Fontaine كما أعد مسرحيته علي بك الكبير[٥].

ومن الأهمية بمكان التذكير بتاريخ المسرحية الكبيرة المكتوبة باللغة العربية وهو العقد الأخير من القرن التاسع عشر؛ عندما عكف الشاب شوقي على بطل من أبطال الاستقلال المصريين، واستطاع شوقي كتابة بعض المسرحيات التي تتسم بصورة أكبر بجمال أبيات الشعر عن جمال الفن المسرحي، واعتباراً من رفاعة اهتم الرحالة كثيراً بالمسرح، واكتشفه كل منهم بدوره وناقشوا مشكلاته الجمالية والأخلاقية من وجهة نظر المجتمع المصري، وقد لاحظنا حماس فكري وتحفظات زكي وهما اثنان من الرحالة المعاصرين لشوقي، انجذب أحدهم بالجانب النفعي لهذا النشاط الفكري بينما رفض الآخر تقديم العادات الخليعة للبرجوازية، ومن ثم فإن الأمر لا يتعلق بعدم الاكتراث بالمسرح ولكن بنوعية معينة منه، وكانت مشكلة المرأة تصاحب دائماً النقاش.

وكانت المرأة الفرنسية هي الأساس لا لقيمة أدبية كبرى في أدب الرحلات فحسب بل لتطور اجتماعي كبير. فبمجرد وصول رفاعة إلى مارسيليا أثنى على دور المرأة التي تعمل على قدم المساواة مع الرجل وبذات قدر الكفاءة وهي غير مرتدية للحجاب، وبعد هذه الأحكام السليمة المعروضة في دراسته التربوية «المرشد الأمين» جاء رد فعل جيل تأثر بالأفكار الجديدة. فعندما كتب حمزة فتح الله في باريس دفاعه عن المرأة المسلمة أوضح موقف هؤلاء الرجال الغيورين على تقاليدهم وهم يقتربون من تحول جوهري، وأراد أن يهنئ المسلمة لتمتعها بمزايا أكبر من الأوروبية، وداخلياً نجده يقبل بعض حقوق المرأة الحديثة ولكن باسم التقاليد. والحق أنه اعتباراً من نقد البرجوازية الفرنسية الفاسدة بالتحديد انطلق قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨) والذي يعد أكبر محامٍ لقضية المرأة المصرية، فبعد دراسة الحقوق في باريس بدأ قاسم أمين حملته لا بكتابه «تحرير المرأة» بل بكتيب

باللغة الفرنسية رد فيه على ادعاءات الدوق داركور d'Harcourt عن مصر والمصريين»[٦].

ويعد كل من قاسم أمين وأحمد زكي ومصطفى كامل المؤسسين الحقيقيين للجامعة المصرية التي افتتحت عام ١٩٠٨[٧]، وكان سلفهم رفاعة قد أسس من قبل مدرسة الألسن وتطور التعليم الذي كان ذا طابع ديني بحت في بداية القرن التاسع عشر، فإلى جانب الأزهر افتتح محمد علي مدارس عسكرية كما أرسى رفاعة التعليم المدني، ونجد في تخليص الإبريز النسخة الأولى من برنامج الإصلاحات التي حرض محمد علي على إدخالها على الأزهر نحو نهاية القرن، وفي ذلك الحين أنشأ علي مبارك دارًا للمعلمين وهي «دار العلوم»، ونظم التعليم في ثلاث مراحل وهي الابتدائية والثانوية والعليا. والحق أن البعثات الدراسية التي وفرت غالبية المدرسين المصريين في القرن التاسع عشر وفرت أيضاً أساتذة جامعيين متميزين خلال القرن العشرين، ويكفي في هذا المجال ذكر أسماء مثل منصور فهمي وأحمد ضيف ود. عزمي ومحمد والي وكامل مرسي وحسين فوزي والرائد الأكبر طه حسين.

وخلال القرن التاسع عشر واكب تقدم الحياة الفكرية والاجتماعية في مصر تطور الأفكار السياسية، وكانت أفكار رفاعة تتفق ومشروع المعلم يعقوب وتكمّله، وثمّن رفاعة عاليًا كتابي «روح القوانين» L'esprit des lois، و«العقد الاجتماعي» Le Contrat social، وأعجب بالنظام البرلماني واعتنق مبدأ الديمقراطية وترجم الدستور وروى لمواطني بلاده الثورة الفرنسية، ولجأ الصحفيون الليبراليون من الجيل اللاحق إلى باريس، واختتمت تجربة مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) القرن.

واعتباراً من ١٨٩٣ كان هذا الشاب المصري يسافر سنوياً إلى فرنسا، وفي نوفمبر ١٨٩٤ هنأته صحيفة «لاجازيت دي تولوز La Gazette de Toulouse» لحصوله على ليسانس الحقوق وهو في العشرين من عمره، وأصبح المدافع عن حقوق بلاده وعاد عام ١٨٩٥ ليقدم لرئيس مجلس النواب صورة مجازية تظهر مصر وهي مكبلة بقيود بريطانيا وتدعو فرنسا لنجدتها.

وألقى في تولوز خطابًا مدويًا وتعرف في صالون جولييت آدم – التي أصبحت منذ ذلك الحين أمه الروحية – على مارشان Marchand بطل فاشودا Fachoda، وعلى بيير لوتي Pierre Loti، وأندريه تارديو André Tardieu إلخ، ومع ذلك جاء الوفاق الودي ليحطم آماله بعد أن ظل ينتظر مساعدة فرنسا، ومنذ ذلك الحين فهم أن الأمة – شأنها شأن الفرد – يتعين عليها أن تمتلك قوتها الخاصة بها وعدم الاعتماد على مساعدة الغير، وتحول نحو الشعب المصري وناشده في تأسيس الصحف والمدارس والصناعات وأدار بنفسه مدرسة وثلاث صحف يومية، وفي يوم ٨ يونيو ١٩٠٤ وبالتحديد بعد بضعة أسابيع من توقيع البروتوكولات بين فرنسا وبريطانيا أعلن في خطاب له بالإسكندرية كلمة «جامعة» للمرة الأولى، وامتدت خطوط سيره التي كانت تتوقف بصورة طبيعية في باريس إلى بروكسل وبرلين وفيينا حيث استمر في الدفاع عن قضية مصر المقهورة والمحبطة، واعتباراً من ذلك الحين أخذ الوطنيون المصريون من الخطباء والصحفيين غير المرغوب فيهم بصورة كبرت أو صغرت في فرنسا(١١) الطريق نحو جنيف(١٢) التي كانت قد استضافت عددًا آخر من الليبراليين.



وهكذا انتهى هذا القرن من العلاقات الوثيقة بين مصر وفرنسا بمفارقة؛ فعندما يحل المهاجر والتلميذ واللاجئ محل الرحالة الحقيقي الذي استطاع – بعد تثقيف فكره وإتقان فن كتابته – فهم فرنسا ووصفها ثم تأتي هذه الأخيرة لتكشف عن وجه مفزع. ولكن كيف يتسنى لنا شرح هذه المفارقة؟

وبداية يتعين ملاحظة أن غالبية هؤلاء الرحالة كان ينقصهم الانتباه والذكاء والاستعداد، وتوقفت معرفتهم بصورة بديهية عند حدود فضولهم، وكانت الطبقة الأولى – وهي رائدة الاتصالات التي تمت – قد انصهرت داخل الشعب الفرنسي بعد أن أظهرت الشرق للفن الروائي وساعدت فقهاء اللغة على تعلم العربية وشامبليون على فك رموز الهيروغليفية دون أن تستطيع مع ذلك تعليم مواطني بلادها هذه التجربة لحياة جديدة، واعتباراً من الجيل اللاحق بدا لنا الدارسون وقد اختيروا بصورة غير مناسبة حتى إنهم

عجزوا عن تحقيق النتائج المرجوة، وبصورة رسمية تم تكليفهم بالبحث عن إعداد مهني أكثر منه فكريًا، واستوعبت معرفتهم ونقلت مهاراتهم بطريقة متواضعة و ذلك بصورة تتناسب مع كفاءتهم وطموحهم. بيد أن حالة نجاح رفاعة على سبيل المثال الذي أراد أن يعيد بناء مصر باكتشافه فرنسا تعوّض الكثير من حالات الفشل، فقد استعرض المشكلات الرئيسية التي ظهرت خلال مقارنة حماسية، ومع ذلك وجهت احتياجات اللحظة اكتشاف فرنسا بدلاً من الاستمرار في العمل في اتجاه العمق، وإذا كان المجال البصري قد اتسع بفعل الوقت فإن بعض النقاط قد اكتسبت أهمية على حساب نقاط أخرى.

وبصفة عامة افتقر هؤلاء المسافرون إلى الإحساس بالطبيعة، فالمشهد بكل ما يمثله من عناصر غير مألوفة بالنسبة للعيون المصرية من ضباب وأمطار وغابات وجبال وبحيرات لم يظهر في قصصهم مفسحاً المجال للمجتمع والآثار المقدمة بصفة خاصة عن طريق إحصاءات ومعلومات مستقاة من الكتب، ولم يذهب أحد مثل السيد بيريشون Perrichon لزيادة بحر الثلج، وإذا كان قِصَر زمن الرحلة أو صعوبة المواصلات قد عاقتهم عن بلوغ المواقع غير العادية فكان عليهم وهم أبناء بلد زراعي أن يتوقفوا في الريف، فقد كان ٧٥٪ من الفرنسيين عام ١٨٥٠ من الفلاحين وكان لكل منطقة سماتها الخاصة بها[١٣]، ومع ذلك – فيما عدا رفاعة الذي رأى القرى تمر أمام عينيه من خلال نافذة عربة جياد المسافرين وأحمد زكي الذي وجد في الريف مجرد نوع من الاسترخاء – لم يهتم أحد بالحياة الريفية، فكان المصريون في بلدهم يتركون أرضهم أمام ظلم الاستغلال الحكومي[١٤]، ولذا غاب الريف الفرنسي بكافة مشكلاته ودروسه إلا عن بعض دارسي كلية الزراعة الذين أدوا دوراتهم التدريبية في روفيل Roville.

وبعزوفهم عن الريف لم يقاوم المسافرون المصريون ـ شأنهم شأن الأوربيين ـ سطوة العنصر الحضري «بالرغم من عدم تفوقه من الناحية الرقمية»[١٥]، فالريف الفرنسي لم يستبق سوى جزء من الطلاب المسجلين بجامعات إكس ومونبلييه وتولوز أما الغالبية العظمى للطلاب فقد تدفقوا – مع باقي العالم – نحو باريس حيث تطورت المركزية الإدارية والفكرية بالتوازي مع تمركز الأنشطة الاقتصادية، بيد أن وجود هؤلاء المستكشفين

للحضارة الغربية في مدينة النور ألقى على عاتقهم سلفاً بمسئوليات جسام. فما هي المفاهيم التي سيحددونها وينقلونها؟ ولنذكر في هذا الصدد ما ذكره بول فاليري في «نظرات على العالم الحالي»، من تعريف لدور باريس: «أن تكون باريس وحدها العاصمة السياسية والأدبية والعلمية والمالية والتجارية والكمالية والتدبيرية لبلد كبير وأن يكون تمثيل كل تاريخ البلد فيها وامتصاص كل العناصر المفكرة وتركيزها فيها وكذلك كل الائتمان والجزء الأكبر من الكليات والإمكانات المالية وكل ذلك في خيره وشره من أجل الأمة التي تتوجها، هذا ما يميز مدينة باريس عن كافة المدن العملاقة».

والمؤكد أن رحالتنا قدروا الحياة التجارية والكمالية والتدبيرية، وللأسف طمس هذا المظهر المادي التفوق الفكري والفني، وباستثناء رفاعة لم يكترث أحد بالرجوع إلى المصادر، فقد كان القارئ يشعر في كتابتهم بجو معين أكثر من إدراكه لأمر، وإذا كانت رقة الحياة في حينها قد أبعدت السائح المتعجل عن إدراك الأمور الأساسية، فغالبا ما يظل الدارس عاجزاً هو أيضاً عن النفاذ إليها بسبب نقص الإعداد أو قلة التطلعات. وفي نحو نهاية القرن أصبح برج إيفل العجيب - رمز العصر الصناعي - قبلة المسافرين الجادين، ويتميز هؤلاء بالكاد عن أبي نضارة الماكر الذي كان يجد متعة في ضوضاء الشوارع الكبرى بأنهم كانوا ينجذبون بواجهات المحلات والمناظر والبذخ الصارخ لواجهة باهرة، ولم يفكروا قط في العامل وما يقوم به من أعمال أو بساكن باريس داخل أسرته، فلم تعد باريس قلب الأمة وعقلها بل اكتفت بأن تصبح هذا الإطار الفخم للمعارض الدولية، وقد نصل إلى القول بأن تاريخ فرنسا - بالرغم من الآثار والأحياء التي ترويه - بدأ عام ١٧٨٩ ! ومن ثم تصبح السياسة الفرنسية المعاصرة إشراقاً مريحاً للثورة، ولم يتم إدراك الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للحياة الفرنسية إلا عام ١٩٠٠ مع كتابات المويلحي.

وبشكل عام فإن صورة فرنسا التي عكسها المسافرون المصريون تشكّل - في نهاية القرن التاسع عشر - لوحة فنية مزدوجة هامة يقدم الشق الأول منها فرنسا ثورية مُحبة للعدل تحمل مشعل الحرية، ويقدم الشق الثاني ملكة حضارة صناعية بجلالتها وبكل التفوق المادي الذي يختص به الغرب، وهي صورة تنطوي على مغالطة تاريخية إلى حد

كبير حيث نتعرف على فرنسا حقوق الإنسان وفرنسا عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وكان رفاعة - الرحالة الأول - هو الذي قدّم هذه الصورة المزدوجة، وكان عاشقاً لمونتسكيو وروسو ومؤرخًا لثورة ١٨٣٠ ومترجمًا للدستور وكذلك لدراسات في علم الهندسة والمناجم، وقد أثرى خلفاؤه من الطلاب والصحفيين والسائحين الموضوعات ذاتها بأفضل ما عندهم: ففي مقابل مصر المقهورة التي تخلصت من نير الاستعمار التركي ثم الإنجليزي قدموا فرنسا الليبرالية، وفي مقابل مصر الزراعية والفقيرة أشادوا بمعجزات الميكنة والرخاء الذي ينتج عنها، ولمدة قرن من الزمان كان المثل الأعلى للسعادة الذي رسمته مصر لنفسها بمقدار ما عانته من آلام والذي يعكس وجهها الحقيقي يخفي عنها - في تطور فرنسا - كل ما هو مختلف عن هذا المثل الأعلى، فلم نكن نرى بين وجهي هذه اللوحة الفنية التي عكسها الرحالة المصريون عن فرنسا هذا التناقض الصارخ الذي يحافظ على تطور الرأسمالية الفرنسية مع دفع البرجوازية بطريقة حتمية - والتي يمكن أن نقول عنها ليبرالية - إلى التوسع الإمبريالي(١٦)، ومما لاشك فيه أن السياسة الاستعمارية بكل ما فيها من تعسف هي ابنة السياسة الصناعية(١٧)، وهكذا عندما صاحت القومية المصرية في عنفوان عمرها: «حرية ! مساواة ! أخوة» فإن فرنسا لم تستجب لصرخة التحالف تلك(١٨)، وفضلاً عن ذلك فإن الوفاق الودي بدلاً من إبرامه بين فرنسا ومصر لتتويج صداقة متنامية، تحول إلى تنازل رسمي عن مصر للمحتل البريطاني(١٩).

وتغير الواقع ولكن ظلت الصورة التي كانت موجودة من قبل، وبما أن المواقف الشعورية تبقى متأخرة عن تحول العالم الخارجي(٢٠) حدثت ظاهرة سراب، بأنه بين الواقع والصورة التي لدينا عنه ينزلق الزمن ويترك شاشة أمام أعيننا(٢١)، وبعد مرور قرن من الزمان استشعر المويلحي ضرورة مجابهة الصورة بالأصل.

والمؤكد أن فهم فرنسا - تاريخها وفكرها ومؤسساتها وفنها وعاداتها - لم يكن في متناول كل هؤلاء الرحالة، فالحضارة هي شيء أعمق مما رأوه، ومع ذلك يتعين علينا التأكيد - وذلك لعدم إدانتهم - بأنهم افتقدوا المرشد عند سفرهم للغرب، وكانت شخصية المستشرق في رواية المويلحي هي التي تضطلع بهذا الدور الذي لا غنى عنه الا وهو

الوسيط، وهو يوفر الحوار الذي يجب أن تتضمنه أي زيارة، وإذا كان رفاعة على الرغم من كونه حديثًا في مجال السفر فإنه استفاد بصورة جوهرية في رحلته وامتنٌ لكل من جومار وسيلفستر دي ساسي وكوسان دي برسيفال Caussin de Perceval وغيرهم من المفكرين الذين صاحبوا خطواته الأولى، ولم يتمتع علي مبارك أو محمد عبده بمثل هذه الفرصة، ولما لم يكن أمامهم سوى إمكاناتهم الخاصة وتعلقوا بكتب سيدييو Sédillot وجوستاف لوبون ، وهذان الأخيران - بعيداً عن مزاياهما - كانا يكثران من الإطراء على العرب ليكونوا لهما أساتذة حقيقيين في مجال الاستشراق، وكان يلزم لكل مسافر على غرار رفاعة تعليم متمهل وجاد في مجاله تحت إدارة صفوة مجربة ليتعرف بصورة أعمق على القرن التاسع عشر.

ولنندِّد بصفة خاصة برياء هذا القرن البرجوازي والمادي والحريص على مصالحه وهو يحمل في الوقت ذاته مثلاً أعلى إنسانياً(٢٢)، والحق أن التمتع بالمال والسلطة جعله نحو النهاية عاجزاً عن التعاطف والأخوة والاتصال الروحي، فقد أخفى هذا القرن روح أوربا ودفع بلقائه مع الشرق ليكون لقاءً سطحياً، وعلى الرغم من كل شيء لم يترك هذا القرن هؤلاء الرحالة الذين درسناهم في هذا العمل غير مكترثين إزاءه : فقد حاول كل منهم على التوالي محاكاته وفهمه فهما عميقاً، وإذا كانت مصر قد أعادت تشكيل ذاتها في القرن التاسع عشر فإن الفضل في ذلك إنما يرجع لهذا الحوار الذي ولد حركية تاريخها المعاصر.

وكان هؤلاء الرحالة هم محركي هذا الحوار وبالرغم من الثغرات التي اكتنفت تحقيقاتهم فقد اضطلعوا بالدور المنوط بهم، فقد سافروا لفك رموز أوربا فإذا بهم يكتشفون هويتهم بصورة أفضل.

وغذى الإعجاب بحضارة أجنبية عند رفاعة وكذلك عند محمد عبده بحثا دؤوبًا عن الأصالة، وفي فرنسا تحدثوا عن ماضٍ مجيد - فرعوني وفي ذات الوقت متعلق بالعصور

الوسطى – واستعانوا بالمصادر وثيقة الصلة بثقافتهم، وإزاء تفوق الغرب حدد شعورهم بالانتماء إلى كيان قومي – بعثت فيه الروح مرة أخرى – الأسئلة الأساسية التي يطرحونها، كما أثار هذا الشعور كل التطور الفردي والاجتماعي الذي مثلوه فيما بعد[٢٣].

وإجمالاً كان المسافرون المصريون في فرنسا مصريين أكثر منهم مسافرين، وكانت قصة الرحلات الأولى المعروفة في العالم هي قصة مصري[٢٤]، ويرجع ذلك إلى أن مصر التي تبدو ظاهرياً معزولة في واديها هي في الواقع مقترنة بمصير الحضارة العالمية[٢٥]، فمنذ العصور القديمة – وبغية اقتباس تعبير لأندريه جيد – اضطلعت بالإنسانية على خير وجه، ولذا كان وجهها مألوفاً بالنسبة لكل العقول، ودون الرجوع إلى هيرودوت يتسنى لنا متابعة الرحالة الفرنسيين مع جان ماري كاريه، ففي القرن التاسع عشر جذب هذا البلد ذو الألوان الزاهية فلوبير، واستبقت بؤرة للصوفية جيرار دي نرفال ذاك الحالم المحب للرؤى، بينما وصف تيوفيل جوتييه أرض الميعاد تلك قبل ثلاثين عاماً من زيارتها كما لو كان نبيّاً، وفي داخلها استجابت مصر الحديثة للتأثيرات الرومانسية والواقعية وسمحت بظهور تحف فنية في التراث المشترك للآداب.

ونأمل أن يتسنى للقرن العشرين الذي أزال المسافات بصورة إعجازية وضاعف اللقاءات وقضى على السراب وأكد – بعيداً عن قلاقله المأساوية – على إنسانية مستشعرة، تحطمت إزاء أصالتها الأفكار المسبقة وأستار الدعاية، ونعرض تجربة الذين يفصلهم البحر المتوسط ويجمعهم في الوقت ذاته على الرجال ذوي العزيمة القوية وذلك بغية معرفة متبادلة أفضل.

****

هوامش

1- Douin et M^{me} Fawtier-Jones: L'Angleterre et l'Egypte mamelouke (1801-1803). La Caire, Soc. De géographie, 1929-1930, 2 vol. - Id: L'Angleterre et l'Égypte. La campagne de 1807. Le Caire, Soc. De géographie, 1928.

2- P. Renouvin: Hist. des relations internationales. V,2.

٣- «العرب مثلهم مثل القدماء على سبيل المثال لم يستشعروا الحاجة لأن يحدوا أبحاثهم في مجال الجغرافية الوصفية، ففي أعمالهم نجدهم يتطرقون إلى مجال علم الكون والجغرافيا والمناجم والزراعة والحيوان، وفي الوقت ذاته ظهر الكاتب العربي في صورة مدون حوليات ومؤرخ للعادات ومؤرخ للديانات وعالم اقتصاد وأحيانا عالم قانون وعالم لاهوت وفيلسوف».

R. Blachére: Extraits des géographes arabes, 9-10. - André Miquel: La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siécle. Paris-La Haye. Mouton. 1967, p. vIII, souligne la possibilité "de s'attaquer, par le biais des géographes, à une étude des formes fondamentales de la culture arabo-musulmane du moyen age.»

٤- أرشيف القصر الجمهوري – القاهرة – ملف أحمد شوقي، رسائل من أحمد رشدي باشا، رئيس مراسم الخديوي إلى موجيل بك – ٧ سبتمبر و ٣ أكتوبر ١٨٩٠ ، انظر إلى الملحق رقم ١٤ .

٥- ترجم هـ. بيريس H. Pérès هذه المقدمة التي كتبها شوقي ونشرت الترجمة في حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر – الجزء الثاني (١٩٣٦)، ٣١٣–٣٤٠ .

٦- قاسم أمين – المصريون – رد على دوق داركور d'Harcourt – القاهرة – باربيه – ١٨٩٤ .

7- Cf. Charles Sauvafe: "L'Université Égyptienne", Correspondance d'Orient, 15 juin 1909, 564-372.

٨- مصطفى كامل: محاضرة عن مصر :

Conférence sur l'Egypte, Toulouse, Impr. Marques, 1895, 8^{0} , 20 p.

٩- مصطفى كامل: مصريون وإنجليز :

Egyptiens et Anglais. Préface de J. Adam. Paris, 1906. - Id.: Lettres égyptiennes-françaises adressées à M^{me} J. Adam (1895-1908). Le Caire, 1908. - Cf. Saad Morcos: Juliette Adam,

Le Caire. Dar Al-Maaref, 1962, 208-211. (Thèse principale pour le doctorat ès lettres, Paris. Compte rendu de Pierre Moreau. Rev. De litt. Comparée, XXXVII, 1963, n° 3, 465-467).

١٠- انظر رسالة :

Joseph James Mathews: Egypt and the formation of the Anglo-French Entente of 1904, Philadelphia, Univ. of Pennsylvania Press, 1939.

١١- في عامي ١٩٠٩ و ١٩١٠ عقد في جنيف «مؤتمر الحزب الوطني المصري» الذي حظرت السلطات الفرنسية عقده في باريس.

12- Béat de Fischer: Contributions à la connaissance des relations suisses-égyptiennes, Lisbonne, 1956. 191-200, ?Patriotes et politiciens égyptiens en Suisse, (Compte rendu de Jean-Daniel Candaux. Journal de Genève, 23 mars 1957, 6.

13- André Maurois: Portrait de la France et des Français, Paris, Hachette, 1955, 65. Cf. Louis Bertrand: Les grands aspects du paysage français, Paris, A. Delpeuch, 1928.

14- Cf. Gabriel Baer: A history of landownership in modern Egypt, 1800-1950, London, Oxford Univ. Press, 1962.

١٥- في مقال بعنوان: «ساكن المدينة العقلاني» يفسر أ. دومار A Dumard هذا الجهل بالريف بأن «استبعاد الفلاحين والحياة الريفية من مجال اهتماماتهم مثّل بالنسبة لبرجوازية باريس نوعاً من إنكار كل ما تبقى من بدائية ولا عقلانية في حضارة عصرهم ورفض كل ما يعلو على المعارف وإمكانات الإنسان فيما يتعلق بوضع العلم المعاصر».

La bourgeoisie parisienne de 1815 à 1848, 622.

١٦- «كان رفض المزايا والاهتمام بالحفاظ على المساواة القانونية للفرنسيين يقوم على نموذج أخلاقي مبني على تقديس الجهد والعمل، وتوصل إلى خلق مجتمع يقوم على عدم المساواة الاجتماعية».

A. Daumard: La bourgeoisie parisienne de 1815 à 1848,629. Cf. M. Baumont: L'essor industriel et l'impérialisme colonial, livre III "L'évolution matérielle et spirituelle de 1878 à1 904", p. 377 et suiv.

17- R. Schnerb: Le XIX siecle, 179. Cf. Aimé Césaire: "Le mythe de la colonisation civilisatrice", Christianisme social, 64[e] année. n°10, 1956, 701-717; H. Blet: Histoire de la colonisation française, Paris, Arthaud, 1947-1950, t. II, III.

١٨- في أعقاب الجدل بين جبريال هانوتو ومحمد عبده عام ١٩٠٠ نشر بشارة تقلا في الأهرام في ١٦ يوليو ١٩٠٠ حوارًا مع الوزير الفرنسي السابق، ويقول تقلا «إننا نعيب على فرنسا ولاسيما أننا اعتدنا منها دعم الضعفاء في مواجهة الأقوياء» وصرح هانوتو «إن هذا المفهوم لا ينطبق على وضع أوربا الحالي التي لم تكن تهتم في الماضي إلا بحكامها والتي تتوجه الآن نحو الاستعمار دون أن تقف عند حجة العدالة».

Texte reproduit par M.R. Rida: Tarikh II, 444, 445.

19- Jean Darcy: France et Angleterre Cent ans de rivalités coloniales, Paris, Perrin, 1904.

20- Nikel Dufrenne: La personnalité de base, 271-272.

21- J.M. Carré: Les écrivains français et le mirage allemand, Paris, Boivin, 1947, p. IX.

22- P. Barrière: La vie intellectuelle en France, 514-515, 524.

23- Cf. Georges Guéron et Joseph Foray: "Adaptabilité et universalisme", De l'impérialisme à la décolonisation, édité par Jacques Berque et Jean-Paul Charnay, Paris, Éd. de Minuit, 1965, 327-331.

24- "Vers l'an 2750 av. J.-C.", Jean Beaujeu: Histoire universelle des explorations, publ. sous la direc. de L.H. Parias, I, 125. - Cf. F. Bonola: "Les voyageurs égyptiens", Bull. De la Soc. Khédiv. de géogr., IV (1896), 659-681; J. Capart: "Les grands voyages à l'époque égyptienne", Rev. de l'Université de Bruxelles, IX (1903-1904), 119-142.

٢٥- عن دور مصر في تاريخ الحضارات - انظر طه حسين:

Taha Hussein: "Modern Egypt" in Islam Today, ed. By A.J. Arberry, Rom Landau. London, Faber and Faber, s.d., chap. 6.

****

ملاحـق

١- شهيد جيش طيبة:

بعـد توسع الإمبـراطورية، اضطر ديوكليتـيـان Dioclétion أن يشـرك فـي عـرشـه ماكسيميان هرقل Maximien Hercule وأرسله لقمع ثورة الفلاحين الغاليين في فرنسا والذين كان يطلق عليهم اسم «الباجود». وعندما وصل ماكسيميان إلى جبال الألب بمدينة أجون Agaune التي تعد محطة هامة في الطريق الكبير شرع في تقديم القرابين رسمياً، وذلك لطلب مساعدة الآلهة لجيوشه قبل بدء الحملة، بيد أن أهل طيبة ـ الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية منذ عهود بعيدة ـ رفضوا المشاركة في هذا الاحتفال الوثني، ولمعاقبتهم شـرع هـرقل في قـتل جندي مـن بين كل عـشـرة وذلك عن طريق القـرعـة وضـربه بقـضـيب وقطع رأسـه أمـام زمـلائه، ومع ذلك لـم يخـضـع أهل طـيـبـة، ورفـضـوا مـرة ثانيـة وتكررت عمليات القتل العشوائي مرة ثانية أيضاً، وأشعل هذا الاضطهاد إيمان ثلاثة ضباط ذكر أسـماءهم التاريخ المقدس وهـم موريس واكزوبير Exupère وكانديد Candide ونقل عنهم هذه اللغة الرائعة:

«لقد شـهدنا قتل رفاق العمل والمخاطر، وغطتنا دماؤهم، ومع ذلك لم نبك قط موت هؤلاء الزمـلاء المقدسين، فـقـد أيقنا أنهـم سـعـداء للمـعـاناة من أجل الرب، وحـتـى في هذه اللحظة فإن الخطر الجسيم الذي يحيط بنا لا يصنع منا متـمـردين؛ فـاليأس لا يسلحنا ضدك أيها الإمبراطور ! إننا نحمل السلام ولا نقاوم؛ فنحن نفضل أن نُقتل على أن نَقتل، وأن نموت ضحـايا على أن نعيش مذنبين، وكل ما تأمر به علينا من نار وتعذيب وضرب بالسيوف نحن مستعدون لتحمله».

وثار الإمبراطور ولم يأمر بقتل عشرهم بل بقتل الجيش كله، وعندما دخلت المسيحية القطر نقل القـديس تيـودو Saint Théodore في النصف الثـاني من القـرن الرابع رفـات

الشهداء في كنيسة بناها على شرفهم (وكانت هذه الكنيسة ملتصقة بالصخرة، وحلت محلها كنيسة أخرى نحو عام ٥٢٠)، وكتب المطران أوشيه Eucher من ليون مسرحية دينية لتخليد ذكرى هذا الحدث في ذاكرة المؤمنين.

ونشرت المسرحية الدينية ونقدها المؤرخ دنيس فان برشيم Denis Van Berchem بطريقة منهجية في مقالته النثرية «عن تكوين أسطورة» (١٩٥٦) التي شكلت المرحلة الأخيرة لهذا الموضوع.

٢- المشروع الأول لبعثة تعليمية مصرية في فرنسا (١٨١١):

إن مشروع جومار الذي وجهه عام ١٨١١ لمحمد علي عن طريق القنصل دروفيتي Drovettiغير موجود في مراسلات هذا الأخير المحفوظة في تورين Turin، والتي رتبها جيوفاني مارو Giovanni Marro وبدأ في نشرها، ولا تحتوى هذه المراسلات على أي وثائق ترجع إلى ما قبل عام ١٨١٩، وبما أننا لم نجد هذا النص في أرشيف القصر الجمهوري بالقاهرة نقدم في هذا السياق ملخصاً له صاغه جومار نفسه عام ١٨٣٩ وذلك في فقرة من الدراسة التي أعدها وأرسلها إلى كوشليه Cochelet قنصل فرنسا بالإسكندرية تحت عنوان «مذكرات حول عدة فروع للإدارة العامة في مصر تحتوي على وجهات نظر حول الإصلاح والتحسين»:

«بعد حوالي من عشر إلى اثنتي عشرة سنة من غزو الفرنسيين بدأ أحد افراد الحملة - المليء بالثقة في مزايا المصريين الفطرية التي لاحظها في ظروف مواتية والمليء أيضًا بالأمل في النبات الذي ألقت بذوره الحملة على أرض النيل - هذا الإصلاح الفكري عندما أرسل إلى قنصل فرنسا دروفيتي خطة موجهة للوالي، ونصحه فيها بعدم الاعتماد كثيراً على الأوربيين الذين يعملون في خدمته سواء من الموظفين أو المربين أو المدرسين لأنهم عادة ما يكونون موجودين بصورة مؤقتة ومتأثرين بوجهات نظر شخصية نفعية، ودعا الأمير إلى إرسال فريق كبير إلى فرنسا وتركه لفترة طويلة حتى يستقي منها -

بالرغم من اختلاف العادات ـ تعليماً كاملاً، وأن يكون عدد هذا الفريق كبيراً حتى يتم تدريب رجال في مختلف المهن المدنية والعسكرية، وقال بصفة خاصة إن الوسيط المتمثل في الترجمان drogmans أو المترجم الفوري لا يمكن أن يعطي مفاهيم صحيحة ودقيقة وحقيقية عن العلوم التي لا يعرفها المستمع وكذلك الوسيط».

CP. Charles - Roux: Edme - François Jomard et la réforme de l'Egypte en 1839, 34.

٣- سفر زرافة محمد علي إلى فرنسا (١٨٢٧):

يختتم مقال الروفو انسكلوبيديك Rev. encyclopédique العدد ٢٧ (يوليو ١٨٢٧) ص ٢٥٨ -٢٦١ .

«زرافة ـ وصول أنثى شابة من هذه الفصيلة إلى فرنسا وباريس» بالخبر التالي:

«السيد جوفروي سان هيلير Geoffroy Saint-Hilaire من المعهد الذي سافر إلى مارسيليا لاستقبال الزرافة والتي رافقها منذ ذلك الحين حتى باريس وهو يسهر بحرص على الحفاظ عليها، قدم عن هذا الحيوان عدداً من التقارير الهامة إلى أكاديمية العلوم ونشر مؤخراً حول هذا الموضوع مقالة تحت عنوان «عن الزرافة».

ويصف كل من بارتيليمي Barthélemy وميري Méry في مجلة الباكرياد Bacri-ade وصول الزرافة:

منذ وقت قصير بالفعل شواطئ مارسيليا
شهدت نزول المعجزة الحية؛
بيد أن باريس كانت تنتظرها كبالاديوم(*)
دخلت في حوائط مدينة إيليوم الجديدة؛
وصرخ الشعب: يحيا الكائن الشريف ذو الأقدام الأربع !

(*) إلهة الحكمة عند الإغريق، وكانوا يعتقدون أن سلامة مدينة طروادة مرهونة بها. (المترجمة).

إنه خليق بإثارة إعجاب بوفون Buffon أو لاسيبيد Lacépéde
أحاط به الناس ودفعوا به والقافلة الضخمة
عن طريق كوبري أوسترلفيز دخلت حديقة الملك.

٤- مسرحية هزلية خفيفة عن الدارسين المصريين في باريس (١٨٢٧):

الزرافة أو يوم في حديقة الملك، وهو لوحة بشأن مسرحية هزلية خفيفة من تأليف السيد تيوبون Théaubon وتيه. آن Th. Anne وجوندولييه Gondelier الذي تم تقديمها للمرة الأولى في ٧ يوليو ١٨٢٧ على مسرح الفودفيل.

وفي هذه المسرحية تلمح باريسية شرقيين وتتعرف على الفور على طلابنا الذين أصبحوا جد مشهورين، وتقول: «إنهم المصريون الذين جاءوا لتعلم الفرنسية في باريس، ويقال إنهم فيما يتعلق باللغة تمكنوا منها شأنهم في ذلك شأن الأتراك».

ولكن في الحقيقة إنهما نورمانديان متخفيان في صورة مصريين وذلك في موقف مستوحى من مسرحية البرجوازي النبيل Le Bourgeois Gentilhomme ويسمح المشهد بعقد هذه المقارنة اللطيفة بين الطابع النورماندي والطابع التركي وذلك في أغنية بذات لحن «الخروج من البنسيون «La Sortie de pension»:

يحب النورماندي عندما يرى عشرين جميلاً
ولكن التركي يحتاج إلى أربعمائة،
ويخون النورمانديون دون حياء،
والأتراك لا يراعون عهودهم إلا قليلاً.

ويظهر دارسان مصريان حقيقيان يوشكان أن يقتلا بالخناجر هذين النورمانديين اللذين ادعيا أنهما يونانيان للاعتذار عن عدم الرد بالتركية.

٥- بعثة تلاميذ سود (١٨٢٩):

فضلاً عن ٣٤ مواطناً أرسلهم محمد علي إلى فرنسا عام ١٨٢٩ لتعلم مهن مختلفة، أرسل دروفيتي Drovetti ستة إثيوبيين، ويقول كلوت بك إنهم كانوا سبعة، واحتسبهم

طوسون من بين مبعوثي محمد علي، وأشار إلى ثلاثة منهم، وبعد ذلك حدد عبد الكريم تاريخ سفرهم عام ١٨٣٢، ويليق بنا في هذا المقام تقديم بعض المعلومات عن بعثة مجهولة بهذه الصورة.

اعتباراً من ١٨١١ لاحظ دروفيتي في ورش محمد علي ذكاء العبيد الأفارقة فوضع مشروعا لتعليم عدد من شباب الزنوج في فرنسا وذلك لإدخال المدنية في أفريقيا، حيث كان المسافرون غالباً ما يلقون حتفهم، وتحدد المشروع عام ١٨٢٧، وفي شهر يونيو ١٨٢٩ أعلن جومار لأعضاء جمعية الجغرافيا عن وصول ستة من الصبية الأفارقة، تم عتقهم بفضل جهود السيد دروفيتي وهم محمود من بلاد جانجيان وعمره ٨ سنوات، وبلال من البحر الأبيض وعمره ٩ سنوات، ومرجان من هبيل وعمره ١٠ سنوات، ومرشال من كردفان وعمره ١١ سنة ومحبوب ومرجيان وهما حبشيان وعمرهما ٩ و١٢ سنة، وتم وضعهما في مدرستين داخليتين في ضواحي باريس، وخلال ١٢ يومًا استطاعوا قراءة الأبجدية الفرنسية وكان من المقرر أن «يدرسوا الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وجعلهم يوماً في رحلة المسافرين»، وبعد عام توفي أحدهم على أثر إصابته بالدرن، واعتباراً من ١٨٣٢ أكملوا دراستهم على نفقة الباشا، وغادروا فرنسا متوجهين إلى مصر في يناير ١٨٣٦ بناء على أوامر محمد علي الذي استدعى في هذا التاريخ كافة الدارسين، وتنقصنا المعلومات عن مصيرهم فيما بعد ذلك التاريخ.

٦- أرتين كما تحدث عنه فلوبير وماكسيم دي كان:

عند وصول فلوبير وماكسيم دي كان إلى مصر تم تقديمهما لأرتين بك، وتبدأ الرسالة الثانية التي بعث بها فلوبير إلى والدته من الإسكندرية في ٢٢ نوفمبر ١٨٤٩ بهذه السطور:

«أكتب إليك يا عزيزتي العجوز وأنا في كامل هيئتي بملابس سوداء وسترة بيضاء وحذاء خفيف إلخ كرجل قام لتوه بزيارة لرئيس الوزراء، لقد خرجنا حالاً من عند هارتيم بك (خطأ) وزير الخارجية الذي قدمنا له القنصل والذي استقبلنا استقبالاً حافلاً، وسوف يعطينا فرماناً لكل رحلتنا، لقد استقبلنا هنا استقبالاً لا يتصوره عقل. فيبدو علينا مظهر

الأمراء، بأنه للمرة الأولى في حياتي كان هناك عشرة عبيد لخدمتي، وواحد يقوم بطرد الذباب. لقد حدث ذلك بالفعل».

ومع ذلك ساعدوا على زوال حظوة هذه الشخصية التي أدينت بخيانة الوظيفة ولتجنب ثورة غضب عباس باشا أبحر أرتين سراً على ذات السفينة الفرنسية «الإسكندر» التي استقلها فلوبير ودي كان من الإسكندرية إلى بيروت. وكتب فلوبير في ٦ أكتوبر ١٨٥٠ للعم باران Parain يقول: «لقد هرب في الوقت المناسب من الحجر الصحي بالروضة ووصل إلى القسطنطينية حيث سيَشى بسيده محاولاً خلعه من الحكم، وخلال ثلاثة أيام قضوها معاً على متن السفينة تحدثنا طويلاً، أو بالأحرى تحدث إلينا طويلاً - إذ اشتم أننا من أصحاب الأقلام - عن دي كان (ذكريات أدبية 526،I Souvenirs Litté-raires I, 526)، «كان أرمنيا ذا شعر أبيض غاية في الدقة، غير صادق ونظراته غير ثابتة وأنف ضخم يشبه منقارا غير مكتمل».

Voir A. Naaman: Les lettres d'Egypte de Gustave Flaubert, p. LXIV, 122.

٧- الامتحان النهائي لرفاعة في باريس (١٨٣١):

تقدم مجلة لاروفو اونسيكلوبيديك (La Rev. encyclopédique, XLVIII Nov. 1831; 521-523) المقال التالي:

«الشيخ رفاعة وهو أحد الطلاب المتميزين في البعثة المصرية بفرنسا وهو على وشك العودة إلى مصر بعد أن أنهى دراسته، وأدى امتحانه لدى السيد جومار عضو المعهد المكلف بإدارة الدراسات، وحضر الاجتماع كل من السادة رينو Rainaud وهو مستشرق وملحق بمكتب مخطوطات مكتبة الملك؛ ومولر وهو سكرتير ومترجم للغة العربية، وحبيبي وهو أب سوري والسيد المهردار عبدي أفندي رئيس المدرسة؛ والسيد الأستاذ دوليل De-lile؛ والسيد آلو Allou مهندس مناجم؛ والسيد الكونت دي تورجينيفTourguéneff وزير التعليم العام الأسبق لروسيا، إلخ. وكان موضوع الجلسة هو إخضاع الطالب رفاعة لبعض الاختبارات لاستنتاج قدرته كمترجم وهي المهنة التي يعمل بها، وفي البداية تمت تلاوة ما يلي:

أولاً: قائمة الأعمال الاثني عشر أو أجزاء منها ترجمة الشيخ رفاعة من الفرنسية إلى العربية منذ العام السابق، وتلك هي العناوين:

١ـ نبذة في تاريخ إسكندر الأكبر، مأخوذة من تاريخ القدماء.

٢ـ عناصر من كتاب أصول المعادن (علم المعادن الشعبي تأليف برار Brard).

٣ـ رزنامة (تقويم) سنة ١٢٤٤هـ ألفه مسيو جومار Jomard لاستعمال مصر والشام، متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية.

٤ـ كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوايدهم.

٥ـ مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على مسيو دهنبلض De Humboldt (مقدمة قاموس الجغرافيا العالمية مراجعة م. دي همبولدت M.de Humboldt).

٦ـ قطعة من كتاب ملطبرون Malte-Brun في الجغرافية (صفحات من الجزء الأول من جغرافيا مالت – برون Malte-Brun).

٧ـ ثلاث مقالات من كتاب لجندر Legendre في علم الهندسة.

٨ـ نبذة في علم هيئة الدنيا.

٩ـ قطعة من عمليات رؤساء ضابطان عظام (نظرية الضابط من مرتبة القادة).

١٠ـ أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج أصلاً لأحكامهم (عن القانون الطبيعي لبورلاماكس).

١١ـ نبذة في الميثولوجيا يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم.

١٢ـ نبذة في علم سياسات الصحة.

ثانياً: تم قراءة ملخص عن مؤلف مستفيض من تأليف الشيخ رفاعة عن «رحلته في فرنسا» وهذا التحليل كتب بتوسع وأدخلت عليه تصويبات. وقدم للشيخ العديد من الكتب

المطبوعة بالعربية في مطبعة بولاق وكان قد اعتاد على ترجمة فقرات منها؛ ثم قرأ بالعربية - أيضاً في الحال - ترجمة فقرات طالت أو قصرت من الجورنال ديجيبتJournal d'Egypte الذي كان يطبع أيضاً في بولاق. وكانت مقدمة الكتاب المعنون: «نظرية الضابط من مرتبة القادة» الذي ترجمه الشيخ إلى العربية [بعنوان: عمليات رؤساء ضابطان عظام] هو موضوع الاختبار التالي؛ فكان هناك مساعد يمسك النص الفرنسي وكان الشيخ يمسك الترجمة، وكان يترجم عن هذه الترجمة مرة أخرى إلى اللغة الفرنسية؛ وكان المتحنون يقارنون بين التعبيرات التي يستخدمها الشيخ والتعبيرات في النص الأصلي. وقد أدى الشيخ رفاعة هذا الاختبار على خير وجه، وكان يقدم معاني كل جملة وكلماتها بأمانة كبيرة، وكانت عبقرية اللغة العربية تجبره أحياناً على استبدال استعارة بأخرى ولكن دون تغيير طبيعة المعنى؛ وهكذا على سبيل المثال بدلاً من أن يقول (بطريقة معنوية) «معجم غني يتم استغلاله»، كان يحول هذه الكلمات إلى: «بحر نصيد منه اللؤلؤ»؛ ووجه المتحنون للشيخ عددًا كبيرًا من الملاحظات حول ترجمته؛ فمن حين لآخر كان يفتقد إلى الدقة ويعمد إلى التكرار والإسهاب ولاسيما عند ورود مصطلح تقني، ولكن مع ذلك دون أن يحدث لبساً في المعنى مع مراعاة روح النص دائماً، وأيقن الشيخ جيداً أنه عندما سيشرع في ترجمة أي عمل علمي بعد ذلك سيضطر إلى التخلي عن أي إسهاب وشروح وإلى إيجاد مصطلحات تتفق واحتياجات الموضوع نفسه.

وخضع السيد رفاعة لاختبار مماثل حول عمل آخر وهو «قاموس الجغرافيا العالمية» الذي ترجم مقدمته التي تدور حول الجغرافيا الطبيعية. وكان هذا الجزء قد ترجم إلى العربية منذ عام، ولذلك كان الشيخ أقل تقدماً، ولم يتم الحكم على هذه الترجمة بأنها بذات سلامة الترجمة السابقة؛ فعلى الأقل لم يترجم كل عبارات النص الفرنسي؛ بيد أن معنى النص لم يتغير، وكان مسار الترجمة أيضاً طيباً.

وانتهت جلسة الامتحان والجميع راضون عن تقدم الشيخ رفاعة ومقتنعون بأنه في مستوى يسمح له بتقديم خدمات لحكومته؛ فسوف يكون قادراً على ترجمة الأعمال التي يتعين نشرها لنشر التعليم والحضارة.

٨- رفاعة ومشكلة دوران الأرض:

قام كوسان بارسيفال Caussin de Perceval بنقل وترجمة الفقرة التالية إلى الفرنسية وذلك من مخطوط لرفاعة (المجلة الآسيوية الجديدة ـ جزء ١١ ـ مارس ١٨٣٣)، وهذه الفقرة لم ترد في النص المطبوع «تخليص الإبريز» لأن المؤلف وجد ـ بعد عودته إلى مصر ـ أن نشر هذه الفقرة سيكون نوعاً من التهور:

«وقال بعض علماء الافرنج إن القول بدوران الأرض واستدارتها لا يخالف ما وردت به الكتب السماوية. وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الأشياء في معرض وعظ ونحوه جرياً على ما يظهر للعامة لا تدقيقاً فلسفياً. مثلاً ورد في الشرع أن الله تعالى وقف الشمس، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين وهذا يحصل بتوقيف الأرض، وإنما أوقع الله الوقوف على الشمس لأنها هي التي يظهر في رأي الأعين سيرها. انتهى. فظاهر كلامه أنه ارتكب غاية التأويل».

ولكن يتخلص رفاعة من أي مسئولية عند نشر ترجمته لجغرافيا «ملطبرون» بعد ذلك بسنوات، قال شيخنا:

«نجد في هذا الكتاب مصطلحات مقتبسة من علم الكون وعلم الطبيعة اللذين لا يؤمن بهما العلماء، ولكننا مع ذلك نذكرها كما هي حتى تظل الترجمة أمينة، وبالفعل نقبلها من وجهة نظر عملية وبالنسبة للمعطيات الرياضية التي يتضمنها العلمان وليس من وجهة نظر إيمانية».

(الجغرافية العمومية ـ القاهرة بولاق ١٨٣٨ – ١٢٥٤هـ – مقدمة ـ ص٦).

٩- رفاعة في الخرطوم بقلم شارل ديديه:

كانت مدينة الخرطوم في حياة عباس باشا مكاناً للمنفى، وكان تحديه اللا إنساني والعنيف في الوقت ذاته يدفع به إلى أن يلقي فيها كل من يشك فيه بأية صفة. وكان أحد هؤلاء المشتبه فيهم يدعى رفاعة بك وكان يرأس في القاهرة مدرسة من نوع مدرسة

المعلمين أنشأها محمد علي، ولكن حفيد هذا الأخير وجد أن هذه المدرسة ذات طابع أوروبي مبالغ فيه فقام بإلغائها ونفى مديرها إلى الخرطوم وهناك – على غرار دنيس في كورينث – كان هذا المدير المنفي يعلم الأطفال القراءة ليكسب عيشه، وكانت الضربة عنيفة ولكن كان رفاعة يتعامل مع الوضع بأفضل طريقة ويمتثل لأوامر الله كمسلم حق. وقد رأيته عدة مرات. كان رجلاً بذوق علمي، وقد تعلم في باريس في المدرسة المصرية هناك، وكان يتحدث الفرنسية ونشر بالعربية قصة لرحلته وإقامته في فرنسا.

(٥٠٠ فرسخ على النيل، ص ٣٧).

١٠ - تلغراف نوبار باشا وإجابة الخديوي إسماعيل حول موضوع الطالب عبد الله صادق وإدمون:

«أصدر شريف باشا أمره للطالب عبد الله صادق ليعود إلى مصر، وطلب السيد أبو About إلى شريف باشا - إن لم يكن هناك ضرر من ذلك - ترك عبد الله لبعض الوقت في باريس لاحتياجه إليه لروايته التي ينشرها في «لاروفو دي دوموند Revue des Deux Mondes»، ما هو الرد المناسب؟

٢ مارس ١٨٦٩: تلغراف من نوبار في باريس للسيد إيرام Eram عناية الجناب الخديوي:

«قام السيد «أبو» برحلة إلى مصر بهدف جمع المعلومات ولم أكن أعتقد أنه ما زال في حاجة إلى معلومات ليكمل كتابه؛ وعلى أي حال فقد اتخذ قرار استدعاء الطالب عبد الله صادق لأسباب هامة وهو غير مؤهل على الإطلاق للإسهام بصورة نافعة في عمل بذات أهمية ذلك العمل الذي ينشره السيد إدمون. أبو E. About في لاروفو دي دوموند، وإذا كان السيد «أبو» في حاجة إلى معلومات جديدة، فإنني أرى أنه يتعين عليه أن يتوجه لك شخصياً أو لأشخاص أكثر قدرة من صادق على تقديم معطيات جادة عن مصر، ومن ثم لا تغيرون في شيء أوامر شريف باشا لأنها صدرت بناء على تعليماتي. ونحن إذ نولي اهتماماً لهذا العمل نجد أنه من المؤسف أن تستقى معلومات فيه من شخص بهذا الضعف العلمي لن تكون لمعلوماته الجوفاء أي أثر. وبما أنك قد بذلت جهداً ليخرج هذا العمل إلى

النور، رجاء توجيه «أبو» وتوصيته أيضاً من جانبي بعدم اللجوء إلى مصادر غير موثوق فيها لاستقاء المعلومات اللازمة له.

كما أطلب عدم التوصية بأشخاص من هذه النوعية قبل معرفة إذا ما كانوا يستحقونها بالفعل.

عابدين، ٢ مارس ١٩٦٩

أرشيفات القصر الجمهوري - القاهرة - الملفات الخاصة بالتعليم ٣٥ / ٢

١١ـ أوجست كونت وتلاميذه المصريون:

إن التلاميذ المصريين الثلاثة، الذين بلغت سنّهم عام ١٨٢٦ سبعة عشر عاماً - مظهر وبيومي ومحرمجي - الذين أشار جومار اعتبارا من عام ١٨٢٨ إلى تقدمهم في مجال الرياضيات (لونوفو جورنال آزياتيك، ١٨٢٨، ٢، ١٠٥ Nouveau Journal Asia-tique) تعلموا لمدة أربع أو خمس سنوات على يد أوجست كونت، وفي ٢٧ فبراير ١٨٤٣ في نهاية خطاب موجّه إلى جون ستيوارت مل كتب كونت:

«سوف أسمح لنفسي أن أوجه إليك أحد طلابي القدامى، الذي من المقرر أن يمضي في إنجلترا الجزء الأكبر من هذا الربيع قبل العودة إلى بلاده.

إنه موظف مصري مسئول حالياً في بلاده بإدارة الأشغال العامة الكبرى، وهو بهذه الصفة موجود بصفة مؤقتة في الغرب ليستقي بعض المعلومات التقنية».

«والحق أن مظهر أفندي هو أكثر الشباب المصريين ذكاء وحساسية أولئك الذين أرسلهم الباشا في الماضي إلى باريس لاستكمال تعليمهم العلمي، لقد ظل هو واثنان آخران لمدة أربع أو خمس سنوات تحت إشرافي في مجال الرياضيات، من أبسط إلى أعقد المضاربات لهذه المرحلة الإيجابية الأولى، وبعد ثماني سنوات من الإقامة في مصر فإنني ممتن لأنه ما زال يذكرني جيداً، مما دفعه للمجيء لزيارتي بشوق كبير بمجرد وصوله إلى باريس، وسوف أكون مديناً لك بالكثير إذا ما سهلت له قليلاً الحياة في لندن

حيث قضى فيها من قبل شهرين عام ١٨٣٥ وإذا ما أوليته شرف الحوار الفلسفي معك، والذي أؤكد لك أنه ـ بطريقته ومن وجهة نظره الخاصة ـ جدير به، وقد يحتاج أيضاً إلى تدخلك للدخول بسهولة في بعض المنشآت والاطلاع على بعض الوثائق التي يهتم بمعرفتها، ولا يساورني أدنى شك في أنك ستجد فيه شخصًا متميزًا عن حق.

وبالرغم من أنه لن يغادر باريس قبل شهر على الأقل، فإنني وجدت لزاماً عليَّ أن أبلغك بزيارته، وذلك بالرغم من رسالة التقديم الخاصة التي سأعطيها له عند سفره. لقد جعلني أشعر بكثير من الرضا عندما أخبرني كيف آتت جهودي المخلصة – التي بذلتها مع هؤلاء الشباب لتربية عقولهم – ثمارها، وأنني أستطيع الاعتماد على بعض العلاقات الفردية الطيبة مع هذه الطليعة القادمة من الشرق».

وفي الخطاب المؤرخ بتاريخ ١٦/ ٧/ ١٨٤٣ والذي قدم فيه أوجست كونت مظهر أفندي للفيلسوف الإنجليزي يقول كونت: «مظهر أفندي الذي سيسلم لك الخطاب هو على كافة المستويات أكثر الطلاب المصريين الذين أشرفت في الماضي على دراستهم في مجال الرياضيات ذكاءً، وآمل في أنك ستجده جديراً بحفاوة الاستقبال الذي وعدتني أن تشرفه به، وعلى الرغم من أن عمله الآن ذو طبيعة عملية ودون أن يتخصص علانية في مجال المفاهيم الفلسفية فهو قادر مع ذلك على الاستماع إليها وتذوقها، وسوف يسعدني كثيراً أن تحيطه بعنايتك سواء بتسهيل استكشافاته الخاصة في إنجلترا بوصفه مهندساً، أو بالدخول معه في حوار فلسفي».

وفضلاً عن التحفظات المستترة التي أعرب عنها أوجست كونت بشأن انضمام مظهر التام للنظامين الفلسفيين الإنجليزي أو الفرنسي كان هناك ملحوظة أشار إليها – بعد شهر طويل – عن كسل هذا الأفندي الذي تأخر في تقديم نفسه للسيد جون ستيوارت مل J. S. Mill، وكتب كونت في ٢٨ أغسطس:

«غادر باريس يوم ١٨ يوليو متجهاً مباشرة صوب لندن، حيث كنت قد أوصيته بتسليم هذه الرسالة لك، ولكن لأني أعرف ميله واستعداده للنزهة ولأنني رأيته وقد أمضى أربعة أشهر هنا أكثر مما كان مقرراً في البداية فإنني أخشى أنه لم يسلمك خطابي إلا مؤخراً أو ربما لم يسلمه لك بعد، بالرغم من حرصه الشديد على بدء علاقات معك».

ومع ذلك كان مظهر قد زار جون ستيوارت مل، والذي كان حريصاً أيضاً على أن يراه قبل الرد على أوجست كونت. وكتب جون ستيوارت مل في ٣٠ أغسطس للفيلسوف الفرنسي: «إن هذا التأخير غير المعتاد إنما يرجع بالفعل إلى مظهر أفندي ولكن ليس بالطريقة التي تصورتها، كنت أتمنى فقط أن أستطيع أن أتحدث إليك عنه، لقد جاء إلى مكتبي بصحبة الدكتور بورينج وأعطاني خطابك بعد تاريخه بعدة أيام، ومنذ ذلك الحين لم يأت مرة أخرى، وبما أنه لم يُجب على خطاب قصير كتبته له، أعتقد أنه سافر إلى داخل البلاد حيث يمكن بالفعل أن يجد منشآت صناعية وأخرى خاصة بالأشغال العامة، أشياء أكثر أهمية مما يمكن أن يجده في لندن، وفي هذه الحالة أتمنى أن أراه أكثر عند عودته ولا سيما أنه لم يجالسني طويلاً خلال زيارته الأولى ليتسنى لي معرفته بصورة جيدة، فعندما جاء لزيارتي كانت الأسرة في الريف، والمنزل مكتظ بالعمال، ولكن عند عودته سوف أخصص له استقبالاً أفضل».

ومن المؤكد أن الفلسفة كانت تمثل اهتماماً ثانوياً بالنسبة للمهندس المصري الذي سافر بحثاً عن الوثائق الفنية. وكتب جون ستيوارت مل لكونت في ٨ ديسمبر ١٨٤٣: «لم أر مظهر أفندي مرة ثانية، ونما إلى علمي أنه غادر لندن وربما لم يعد إليها ثانية. وعند عودته سيجد رسالتي وسوف أفعل له كل ما بوسعي».

وتُظهر حدود هذه العلاقات بين مظهر أفندي وأوجست كونت وجون ستيوارت مل في منتصف القرن التاسع عشر، حدود الصفوة المصرية التي استقت الوضعية من مصادرها وذلك وسط تخوف من الفكر الغربي، وفي نهاية القرن سنلاحظ في المقابل لهفة محمد عبده على الحوار مع جوستاف لوبون وجون ستيورات مل.

The earlier letters of John Stuart Mill (1812 - 1848), edited by Francis E. Mineka, University of Toronto Press, Routledge of Kegan Paul, 1963, II, p. 592, 617.

١٢ - سلف مجهول لمصطفى كامل:

مقتطفات من الإجابة على كتيب السيد إم. إي بول M.E. Paul المعنون «مستقبل مصر» بقلم مصري – الصادر في مونبيلييه – مكتبة فابري – ١٨٨٥، ١١ صفحة. – ص٣ :

«في الوقت الذي تتسع فيه السياسة الاستعمارية للقوى الأوروبية بطريقة تدعو للقلق، وفي الوقت الذي يبدو فيه أن الرجال الذين يحكمون الدول المتحضرة يعتبرون الأرض كلها ملكية لهم ويتفقون على تقاسمها، وفي الوقت الذي لا تزال تحتل فيه مصر بمشكلاتها الداخلية والخارجية فكر كافة المهتمين بهذا البلد، ظهر مؤخراً كتيب يحمل عنوان: مستقبل مصر.

ويظهر في هذا الكتيب بجلاء في كل سطر منه فكر مؤلفه إم. إي. بول M.E.Paul الاستعماري، ويختتم بصورة طبيعية بضرورة سيطرة إنجلترا على أرض النيل». – ص٤ :

«ومع شكري للسيد إم. إي. بول للاهتمام الذي يوليه لبلادي وللجهد الذي بذله ليجذب اهتمام مواطني بلاده نحوه، فإنني لا أستطيع قبول النتيجة التي يمكن استخلاصها من عمله والتي أعرب عنها هو نفسه بصورة رسمية، ألا وهي أن مصر لا تستطيع الاستغناء عن مساندة بريطانيا».

والحق أنه يتعين الاعتراف بأن المشكلة جد حساسة، فالأمر لا يتعلق في هذا الصدد بواحدة من هذه البلدان التي لم تدخل فيها المدنية بعد، وإذا ما تركت لحالها احتاجت إلى عدد لا نهائي من القرون للتحضر. فكما نعرف جميعاً امتلكت مصر حضارة طويلة ولامعة تبعتها فترة من الركود، واستيقظت مصر منذ حوالي قرن وعرفت تاريخها المجيد وتسعى الآن لاسترداده، وقد بذلت بالفعل جهودًا كبيرة، والجزء الأكبر من العمل تم بالفعل وما يتبقى هو أمر يسير ... والسؤال الذي يثور هو هل مصر على مستوى العمل الذي فرضته على نفسها ؟ هل تستطيع إتمامه وحدها عن طريق جهودها الشخصية ؟ يجيب إم. إي. بول: لا، ونجيب نحن: نعم، وسوف نثبت هذا الرد الإيجابي [...] - ص٥ :

«تركت مدارسنا منذ زمن قصير، وأمضيت فيها ما يناهز عشر سنوات وأؤكد أنهم لم يعلموني فيها قط كراهية الأجانب» - . [..] ص١٠-١١ :

«اسمحوا لي - ختاماً - أن أشير إلى السيد إم. إي. بول أن المسألة لا تتعلق بمعرفة إذا ما كان من مصلحة إنجلترا أو أية قوة أخرى الاهتمام بشئون مصر، فالمهم بالنسبة لنا

وبالنسبة لكل شخص يحترم حقوق الإنسان هو مصلحة المصريين، والحق أن مصلحتنا تتفق تماماً مع أحلامنا.

مصر مستقلة وحرة يكون فيها العمل والتبادل الدولي لمصلحة الإنسانية كافة، ويعيش فيها الأجانب بوصفهم إخوة لا سادة، ويتوافر فيها النظام والأمن وهما الشرطان اللذان لا غنى عنهما لأي تطور: هذا هو مثلنا الأعلى، وتلك هي الوسيلة الوحيدة لاحتلال المكانة الكبيرة التي يهيئها لنا في العالم موقعنا الطبيعي وخصوبة التربة التي لا مثيل لها.

ونحن نعتمد بغية الوصول لهذه المكانة على شيء آخر غير الحب الأفلاطوني من جانب أوربا».

١٣- مبالغات صنوع:

كان صنوع ممثلاً مسرحياً، وكان يعتني بالدعاية لنفسه، والحق أن المعلومات والأرقام التي يعطيها والتي يكررها كُتّاب سيرته الذاتية تدعو إلى الحذر في أغلب الأحيان.

ويذكر جون لانداو J. Landau أيضاً في عام ١٩٥٢ (مجلة الدراسات اليهودية Journal of Jewish Studies المجلد ٣ - ص ٣٤) - وذلك تأسيساً على كلام إبراهيم عبده وبينيير Baignières الذي أخذ الحديث عن صنوع مباشرة - بأن عدد نسخ أبو نضارة المنشورة في القاهرة عام ١٨٧٨ بلغ نحو ٥٠,٠٠٠ نسخة (مع ملاحظة أنه في عام ١٨٧٧ لم تكن لا روفو دي دو موند تطبع أكثر من ٢٥,٠٠٠ نسخة).

وفي باريس صرح صنوع لقرائه في العدد الأول من «النظارة المصرية» الصادر في ١٦ سبتمبر ١٨٧٩ بأنه طبع ٥٠٠٠ نسخة، بينما صرح الطابع روجونو Rogueneau في وزارة الخارجية بأنه طبع النظارة المصرية وهي مجلة شهرية يديرها يعقوب صنوع من (مائة) نسخة.

Voir Arch. nationales: Série F 18 175, p. 166, Déclarations d'imprimeurs (Paris), no. 8233.

١٤- الرحلة الأولى للشاعر أحمد شوقي إلى فرنسا (١٨٩٠)

خطابان من أحمد رشدي باشا، كبير مسئولي مراسم الخديوي لموجيل بك.

الإسكندرية في ٧ سبتمبر ١٨٩٠:

عزيزي موجيل بك:

بناء على أمر جناب الخديوي أطلب إليك معلومات حول الأسلوب الذي يجب اتباعه والمصاريف اللازمة لشاب يعمل حالياً بأمانة معاليه وسوف يسافر قريباً لاستكمال دراساته في مجال القانون في فرنسا.

ويبلغ هذا الشاب نحو ١٩ أو ٢٠ عاماً، ويتقن اللغة العربية ومستوى لغته الفرنسية متوسط وحصل على ليسانس الحقوق من مدرسة الحقوق بالقاهرة، وهو شخص جميل الطباع وممتاز السلوك.

برجاء إطلاعي تفصيلياً على القيمة المطلوبة – سواء لمعيشته أو لدراسته في باريس أو إكس أو مونبلييه، وأي هذه الأماكن تفضل دون إغفال ذكر سبب هذا التفضيل.

مع ملاحظة أيضاً أن هذا الشاب الذي نتحدث عنه ليس ثرياً ومن ثم يتعين المواءمة بين مصروفاته وموارده.

وحبذا لو استطاع الالتحاق لدراسة الأدب الفرنسي والعلوم إلى جانب دراسة الحقوق ليحصل على ليسانس الآداب وبكالوريوس العلوم المحدود أي دون دراسة اليوناني واللاتيني، ومن ثم سيشكل ذلك برنامجاً ثلاثياً للدراسة الذي سأنتظر منك إرساله.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

توقيع: أحمد رشدي

✡✡✡✡

رأس التين في ٣ أكتوبر ١٨٩٠

عزيزي موجيل بك:

أشكر لك المعلومات التي قدمتها لي في خطابك بتاريخ ١٦ الماضي.

إن الشخص الذي طلبت من أجله هذه المعلومات ويدعى أحمد أفندي شوقي يعمل بمكتب جناب الخديوي في مجال الترجمة وسوف يمنح إجازة ليتسنى له السفر إلى فرنسا لدراسة القانون.

وإذ لم يكن متاحاً إلا مبلغ ٢٠٠٠ فرنك لتخصيصها له، قرر فخامته وذلك لحسن رعايته لموظفيه، بزيادة هذا المبلغ من مخصصاته الشخصية ليصل إلى ٣٧٠٠ فرنك، وهو المبلغ الذي أشرت أنه لازم ليستكمل دراسته في مونبلييه وذلك لتغطية معيشته وغرفته وملابسه ومصروف جيبه ومصاريف دراسته.

وسوف تسلم هذه القيمة مقدماً في صورة أقساط ربع سنوية قيمة كل قسط منها ٩٢٥ فرنك.

وإذا استطاع الشاب أحمد شوقي توفير جزء من هذا المبلغ فإن ذلك سيكون في صالحه، لأنه سيتمكن من استخدامه للتوسع في تعليمه الأدبي والعلمي، ودون الحصول مع ذلك على بكالوريوس العلوم.

وأعتقد أنني قد ذكرت لك في خطابي الأخير أن هذا الشاب قد حصل على ليسانس الحقوق من مدرسة القاهرة، وكانت معلوماتي غير دقيقة.

فإنه بعد أن أمضى عامًا من الدراسات الأساسية في مجال الحقوق عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ انتقل إلى دراسة الترجمة في القسم الذي أُنشئ لهذا المجال بمدرسة الحقوق وبعد أن اجتاز اختباراته في هذا التخصص، حصل في إبريل ١٨٨٩ على دبلومة كفاءة. وهو قوي في اللغة العربية وشاعر متميز، ويمتاز بحسن السير والسلوك وحسن التصرف.

ولا أشك في أنه سيشرف الرعاية السامية التي تحيطه.

ويسافر أحمد شوقي بحراً يوم ١٩ الجاري متجهاً إلى مارسيليا، وأرجو منك - بناء على أمر الجناب الخديوي - اتخاذ التدابير اللازمة حتى يتسنى له التوجه من مارسيليا إلى مونبلييه ليسجل نفسه ويجد - بمساعدتك ومساعدة أبناء بلده الموجودين هناك - إقامة مناسبة.

وسوف تجد طيه كمبيالة بمبلغ ١٠٠٠ فرنك للقسط الربع السنوي الأول ومصروفات سفره والإقامة الأولى.

وأخيراً تفضلوا بقبول فائق الاحترام

توقيع: أحمد رشدي

أرشيف القصر الجمهوري - القاهرة - ملف أحمد شوقي.

****

ببليوجرافيا
ESSAI
de BIBLIOGRAPHIE SYSTÉMATIQUE

Une bibliographie sélective, répartie suivant les perspectives de notre enquête, en embrasse ici la genèse et les prolongements, pour constituer un instrument de travail au service des recherches ultérieures dans l'aire culturelle envisagée. Systématiquement conçue en fonction du plan de notre ouvrage, elle fait cependant l'objet d'un index alphabétique final. Les premières listes, de caractère général, ne donnent des archives et des périodiques qu'une indication sommaire, réservant aux bibliographies particulières des subdivisions, ainsi qu'aux notes, la précision des séries.

GÉNÉRALITÉS
BIBLIOGRAPHIES

LITTÉRATURE COMPARÉE

Baldensperger (Fernand) & Friederich (Werner P.): Bibliography of Comparative Literature. University of North Carolina, Chapel Hill, 1950.

Bibliographie générale de littérature comparée. Paris, Didier, 1949-1958. 5 vol. (Bibl. trimestrielle de la Rev. de littérature comparée).

Yearbook of Comparative and General Literature. University of North Carolina. Chapel Hill, 1952-1960; Indiana University Press, Bloomington, depuis 1961.

Voir les orientations de Marcel Bataillon: "Pour une bibliographie internationale de littérature comparée", Rev. de litt; comp., XXX (1956) 1, 136-144; et la bibliographie pratique de Claude Pichois & André-M. Rousseau: La Littérature comparée, Paris, A. Colin, 1967, 182-209.

CIVILISATION ET LITTÉRATURE FRANÇAISES AU XIXe SIÈCLE

Lanson (Gustave): Manuel bibliographique de la littérature française moderne. Paris, Hachette, 1921. (4e partie: "Révolution et XIXe siècle", pp. 925-1523).

Thieme (Hugo P.): Bibliographie de la littérature française de 1800 à 1930, Paris, Droz, 1933. 3 vol.

Dreher (S.) & Rolli (M.): Bibliographie de la littérature française de 1930 à 1939. Genève, Droz, 1948.

Drevet (M. L.): Bibliographie de la littérature française de 1930 à 1949. Genève, Droz, 1955.

Talvart (H.) & Place (J.): Bibliographie des auteurs modernes de langue française (1801-1962). Paris, Édition de la Chronique des Lettres françaises, 1928-1966. 17 vol. parus.

Cordié (Carlo): Avviamento allo studio della lingua edella litteratura francese. Milan, Carlo Marzorati, 1955.

Klapp (Otto): Bibliographie des französischen literaturwissenschaft. Frankfurt, Vittorio klostermann, 1956 – 1969. 6 vol. parus.

Starr (William T.): French VI Bibliography. Critical and biographical references for the study of nineteenth century French Literature. New York, Stechert & Hafner, 1940-1954; New York, French Institute, depuis 1964 (1966: 6 vol. parus, bibl. des années 1954-1965).

Ranc'ur (René): Bibliographie de la littérature française moderne, XVIe-XXe siècles. Publ. par la Société d'hist. litt. de la France. Depuis l'année 1962, Paris, A. Colin, 1963- (Titre à partir du 5e vol., paru en 1967: Bibliographie de la littérature française du moyen âge à nos jours).

Comité des Sciences historiques: Bibliographie annuelle de l'histoire de France. Paris. Ed. du CNRS, depuis 1956.

Lepointe (Gabriel), Vandenbossche (André): Éléments de bibliographie sur l'histoire des institutions et des faits sociaux, 987-1875. Paris. Ed. Montchrestien, 1958.

CIVILISATION ET LITTÉRATURE ARABES

Outre les répertoires bibliographiques, cette liste comprend des recueils bi-bibliographiques et certaines synthèses pourvues de bibliographie.

Abstracta islamica. Fascicule de la Revue des études islamiques depuis

1927; supplément annuel de la revue depuis 1965; la 21e série a paru en 1967.

'_lam al-maktab_t (le monde des bibliothèques). Le Caire, depuis 1960.

Anawati (G. C.): "Bibliographie islamo-arabe. Livres et articles sur l'Islam et l'arabisme, en langues occidentales, durant la période 1960-1966". Mélanges de l'Inst. dom. d'études or. du Caire, IX (1967), 143-213.

Badr (Ahmed): Répertoire des archives, bibliothèques, centres de documentation et institutions bibliographiques des pays arabes. Le Caire, Commission nationale pour l'Unesco, 1965.

Brockelmann (Carl): Geschichte der arabischen Literaure, 2e éd., Leyde, Brill, 1945-1949, 2 vol.; Supplément, 1937-1942, 3 vol. - Tr. arabe par 'Abd al-Halim an-Najj_r. Le Caire, D_r al-Ma'_rif, 1960-1962. - Cf. Claude Cahen: "Notes pour un Brockelmann futur", Arabica, 10 (1963), 301-309.

Chauvin (Victor): Bibliographie des auvrages arabes ou relatifs aux Arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885. Liège, 1892-1922. 12 vol. Commissione nazionale italiana per l'Unesco: Contributo italiano alla conoscenza dell'Oriente. Repertorio bibliografico dal 1935 al 1958. Firenze, Le Monnier, 1962.

Dagher (Joseph A.): L'Orient dans la littérature française d"après-guerre (1919-1933). Beyrouth. A. Angélil, 1937.

- : Faharis al-maktaba al-'arabiyya fi-l-kh_fiqayn (Répertoire bibliographique de la bibliothèque arabe). Beyrouth, Imp. Sadir Rayhani, 1947.

- : Mas_dir ad-dir_sa al-adabiyya. Al-Fikr al'arabi al-hadith fi siyar 'a'Tamihi. Ar-R_hil_n, 1800-1955 (Éléments de bio-bibliographie de la littérature arabe). Beyrouth, Soc. des gens de lettres, 1956.

Dobson (W. A. C. H.) ed.: A select list of books on the civilization of the Orient. Prepared by the Association of British Orientalists. Oxford, Clarendon Press, 1955.

Encyclopédie de l'Islam. Leyde, Bril, 1re éd., 1913-1938, 4 vol. et 1 suppl. - 2e éd., parait depuis 1954.

Ettinghausen (Richard): A selected and annotated bibliography of books

and periodicals in western languages dealing with the Near and Middle East.With special emphasis on medieval and modern times. Washington, Publication of the Middle East Institute. 1952, 2nd ed. with suppl., 1954.

Gabrieli (Giuseppe): Bibliografia degli studi orientalistici in Italia dal 1912 al 1934. Roma, Agenzia gen. it. del libro, 1935.

Gay (Jean): Bibliographie des ouvrages relatifs à l''Afrique et à l'Arabie. Catalogue méthodique de tous les ouvrages français et des principaux en langues étrangères traitant de la géographie, de l'histoire, du commerce, des lettres et des arts de l'Afrique et de l'Arabie. San Remo, Gay et fils, 1875.

Al-Hajrasi (Sa'd M.): Guide bibliographique des ouvrages de références dans le monde arabe. Le Caire, Commission nationale pour l'Unesco, 1965.

Hay'at ad-dirãsãt al-'arabiyya fi l-jãmi'a al-amrikiyya (Section des études arabes, Université Americaine): Al-adab al-'arabi fi 'ãthãr ad-dãrisin (Les études sur la littérature arabe). Beyrouth, Dar al-'ilm li l-mãlayin, 1961.

- : Al-fikr al-falsafifi mi'at sana (La pensée philosophique en cent ans). Beyrouth, Dar al-'ilm li l-malãyin, 1962.

Issawi (Charles): The economic history of the Middle East, 1800-1914. A book of readings, with introductions. Univ. of Chicago Press, 1966.

Kahhãla ('Umar Rida): Mu'jam al-mu'allifin. Tarãjim musannifi al-kutub al-'arabiyya. (Dictionnaire des écrivains. Biographies des auteurs de livres arabes). Damas. Matba'at at-Taqaddum, 1376-1380 h. (1957-1961). 15 vol.

Le Tourneau (R.): "Éléments d'une bibliographie des questions musulmanes actuelles", Bull. des études arabes, Alger, jan. 1951, 6-12.

Lewis (Bernard): "The Muslim world", The Americain historical association's guide to historical literature, New York, Macmillan, 1961, 219-232.

Ljunggren (Florence) & Geddes (Charles L.): An international directory of Institutes and Societes interested in the Middle East. Amsterdam, Djambatan, 1962.

Majallat al-kitãb al-'arabi (Rev. du livre arabe). Le Caire, depuis 1964. The Middle East Journal. Washington, the Middle East Institute. -

Bibliographies trimestrielles de livres et de périodiques, depuis 1947.

Moyer (K. E.): A selected and annotated bibliography of North Africa and the Near and Middle East. New York, Missionary Research Library, Union Theological Seminary, 1957.

Pearson (J. D.): Index islamicus, 1906-1955. A catalogue of articles on Islamic subjects in periodicals and other collective publications. Cambridge, Heffer, 1958.

- : Index islamicus supplement, 1956-1960, Cambridge, Heffer, 1962.

- : Index islamicus second supplement, 1961-1965. Cambridge, Heffer, 1967.

- : Oriental and Asian bibliography. An introduction with some reference to Africa. London, Crosby Lockwood, 1966.

Pérès (H.): "Voyageurs musulmans en Europe aux XIXe et XXe siècles. Notes bibliographiques", Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale, Le Caire, 1940. t. LXVIII (Mélanges Maspero, vol. III), 185-195.

- : Littérature arabe moderne. Grands courants. Bibliographie. Alger, J. Carbonel, 1940. - 2e éd., 1944: La Littéraure arabe et l'Islam par les textes. Le XIXe et XXe siècles.

Sarkis (Y. E.): Mu'jam al-matbu'_t al-'arabiyya wa-l-mu'arraba (Bibliographie des imprimés arabes et traduits en arabe). Le Caire, Impr. Sarkis, 1928.

Sauvaget (J.): Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Eléments de bibliographie. Édition refondue et complétée par Cl. Cahne. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1961. - J. Sauvaget's Introduction to the history of the Muslim East. A bibliographical guide, based on the second edition as recast by Cl. Cahen. Berkeley-Los Angeles, Univ. of California Press, 1965.

Spuler (Bertold), Forrer (Ludwig): Der vordere Orient in islamischer Zeit. Bern, A. Francke, 1954. (Wissenschaftliche Forschungsberichte Geisteswissenschaftliche Reihe, 21).

Zaydan (J.): Trãjim mash_hir ash-Sharq (Biographies des hommes célèbres de l'Orient). Le Caire, Impr. Al-Hil_l, 1922, 2 vol.

Az-Zirikli (Khayr ad-Din): Al-A'lãm. Le Caire, Al-Matba'a al-'arabiyya, 1345-1347 h. (1927-1928). 3 vol. - 2e éd., 1956.

ÉGYPTE MODERNE

Barringer (John): Catalogue de l'histoire de l'Afrique. Bibliothèque Nationale, Paris, autographié, 1895.

Could (Lyman H.): An annotated research bibliography of studies in Arabic English, and French, of the Fellah of the Egyptian Nile, 1798-1955. Miami, Florida, Univ. of Miami Press, 1958.

Davidson (Roderic H.): "The Midde East since 1450". The American historical Association's guide. op. cit., 362-382.

Distel (Marion) ed.: List of French doctoral dissertations on Africa, 1844-1961. Boston, Boston Univ. Libraries, 1967.

Egypt, Subject Cataloge. Cairo, Egyptian National Library Publications, 1957, 1960. 2 vol.

Ellul (Jean): Index des communications et mémoires publiés par l'Institut d'Egypte (1859-1952). Le Caire, Inst. fr. d''archéol. orientale, 1952.

Gay (Jean): Op. cit., pp. 106-183.

Goby (Jean-Edouard): "De l'établissement d'une bibliographie de l'histoire de l'Egypte", Cah. d'hist. égyptienne. I (1949) 4. 283-294.

- : "Le premier volume de la bibliographie générale de l''histoire de l'Egypte", Ibid., II (1950) 4, 353-358.

Guémard (Gabriel): "Supplément à la bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne (1798-1916) de M. René Maunier", L'Egypte contemporaine, XVI (1925) 85, 240-26-.

Heyworth-Dunne (J.): Select bibliography on modern Egypt. Cairo, Renaissance Bookshop, 1952.

Ibrahim-Hilmy (prince): The literature of Egypt and the Sudan from the earliest times to the year 1885 inclusive, with appendix of additional works to May 1887. London, Trübner, 1886-1888. 2 vol.

Keimer (Louis): "Les voyageurs de langue allemande en Égypte entre 1800 et 1850 ainsi que leurs relations de voyage. Essai bibliographique", Cah. d'hist. égyptienne, V, 1 (mars 1953), 1-28.

Maunier (René): Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne (1798-1916). Le Caire, Impr. de l'Inst. fr. d'archéol. orientale, 1918.

Munier (H.) et Tagher (J.): Guide des principales bibliothèques publiques du Caire et d'Alexandrie. Le Caire, Dar al-Maaref, 1947.

An-Nashra al-misriyya li-l-matb_'_t (1956-1960) (Bibliogr. nationale). Le Caire, Impr. Dar al-Kutub, 1962. - La bibliogr. de 1968 a paru en 1969.

Pratt (Ida): Modern Egypt, a list of references to material in the New York Public Library. New York, 1929.

Salama (Ibrahim): Bibliographie analytique et critique touchant la question de l'enseignement en Egypte dépuis la période des Mamelouks jusqu'à nos jours. Le Caire, Impr. Nationale, 1939.

Ash-Shayyal (J.): "A sketch of Arabic historical work published in Egypt and the Near East during the last five years (1945-1950)". Proceedings of the Egyptian society for Historical Studies, I (1951), 143-174.

Sherborn (C. D.): Bibliography of scientfic and technical literature relating to Egypt, 1800-1900. Cairo, Survey Department, 1915.

Standing Conference on Library Materials on Africa: Theses on Africa accepted in the universities in the United Kingdom and Ireland. Cambridge, Heffer, 1964.

Tagher (Jacques): "Bibliographie analytique et critique des publications françaises et anglaises relatives à l'histoire du règne de Mohammed Ali", Cah. d'hist. égyptienne, II, 1, (1949) 128-235.

Tignor (Robert L.): "Some materials for a history of the "Arãbi Revolution. A bibliographical survey", Middle East Journal, XVI, 2 (1962), 239-248.

Voir assui la rubrique précédente.

OUVRAGES GÉNÉRAUX

HISTOIRE GÉNÉRALE

Bourgeois (Émile): Manuel historique de politique étrangère. Paris, Belin, 1911-1927, 4 vol. - 2e éd., 1948.

Clio, introduction aux études historiques. Paris, P.U.F. - Notamment t. 8, 9 I, 9 II:

Villat (Louis): La Révolution et l'Empire. II, Napoléon (1799-1815), 1936;

Droz (Jacques), Genet (Lucien), Vidalenc (Jean): L'Époque contemporaine. Restaurations et révolutions (1815-1871), 1953;

Renouvin (Pierre), Préclin (Edmond), Hardy (Georges): L'Époque contemporaine. La paix armée et la grande guerre, 1939, 2e éd., 1960.

Destins du monde. Publ. sous la dir. de Lucien Febvre et Fernand Braudel. Paris, A. Colin. - Notamment:

Miquel (André): L'Islam et sa civilisation, VIIe-XXe siècles, 1968;

Morazé (Charles): Les bourgeois conquérants, XIXe siècle, 1957.

L'Évolution de l'humanité. Fondée par Henri Berr. Pairs, Albin Michel. - Notamment les t. suivants:

Weill (G.): L'Europe du XIXe siècle et l'idée de nationalité, 1938;

- : Le journal, 1934;

Hardy (G.): La politique coloniale et le partage de la terre aux XIXe et XXe siècles 1937.

Barrière (P.): La vie intellectuelle en France du XVIe siècle à l''époque contemporaine, 1961, Cf. sa bibl.

Les grandes civilisations. Publ. sous la dir. de Raymond Bloch. Paris, Arthaud. - Notamment t. 8.:

Sourdel (D. et J.): La civilisation de l'Islam classique, 1968.

Histoire générale des civilisations. Publ. sous la dir. de Maurice Crouzet. Paris, P.U.F., 1953-1957, 7 vol. - Notamment t. 6:

Schnerb (Louis): Le XIXe siècle, 1955. Cf. "Orientations bibliographiques", pp. 545-552.

Histoire des littératures. Publ. sous la dir. de Raymond Queneau. Paris, Gallimard, 1955-1958, 3 vol. (Enc. de la Pléiade).

Histoire des relations internationales. Publ. sous la dir. de Pierre Renouvin. Paris, Hachette, 1953-1958, 8 vol.; 2e éd., 1958-1961. - Notamment t. 5 et 6:

Renouvin (P.): Le XIXe siècle, 1954-1955.

Histoire universelle. Publ. sous la dir. de René Grousset et Émile G.

Léonard. Paris, Gallimard, 1956-1958, 3 vol. (Enc. de la Pléiade).

Histoire universelle des explorations. Publ. sous la dir. de L.-H. Paries. Paris, Nouvelle Librairie de France, 1955, 2 vol.

Le monde et son histoire. Publ. sous la dir. de Maurice Meuleau. Paris, Bordas-Laffont. - Notamment t. 3:

Pietri (L.): L'Occident barbare et carolingien, Byzance et l'Islam, 1966.

Nouvelle Clio, l'histoire et ses problèmes. Publ. sous la dir. de Robert Boutruche et Paul Lemerle. Paris, P.U.F. - Notamment t. 27, 37, 38:

Mauro (Frédéric): L'expansion européenne, 1600-1870, 1964;

Godechot (Jacques): L'Europe et l'Amérique à l'époque napoléonienne, 1967;

Duroselle (J.-B.): L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales, 1967.

Peuples et civilisations. Publ. sous la dir. de Louis Halphen et Philippe Sagnac. Paris, Alcan (P.U.F.), 1926-1951, 20 t. - Notamment t. 13-18:

Lefebvre (G.), Guyot (R.), Sagnac (Ph.): La Révolution française, 1930, 3e éd. 1951;

Lefebvre (G.): Napoléon, 1935, 5e éd., 1965;

Weill (G.): L'éveil des nationalités et le mouvement libéral, 1815-8148, 1930, rééd. 1960 par F. Ponteil;

Pouthas (Ch.-H.): Démocraties et capitalisme, 1848-1960, 1941, 2e éd. 1948;

Hauser (H.), Maurain (J.), Benaerts (P.): Du libéralisme à l'impérialisme, 1860-1878, 1939, rééd. 1952 par F. L"Huillier;

Baumont (M.): L'essor industriel et l'impérialisme colonial, 1878-1904, 3e éd. 1965.

Pirenne (Jacques): Les grands courants de l'histoire universelle. Neuch_tel, La Baconnière, 1945-1956. 7 vol.

Ponteil (Félix): Histoire générale contemporaine, du milieu du XVIIIe siècle à la deuxième guerre mondiale. 2e éd., Paris, Dalloz, 1958.

Collection La vie quotidienne. Paris, Hachette. - Notamment les t. suivants:

Mazaheri (Aly): La v. q. des Musulmans au Moyen âge, 1951;

Robiquet (Jean): La v.q. au temps de Napoleon, 1946;

Burnand (Robert): La v. q. en France en 1830, 1943;

Allem (Maurice): La v. q. sous le Second Empire, 1948;

Burnand (R.): La v. q. en France de 1870 à 1900, 1947.

LA FRANCE ET SA CIVILISATION AU XIXe SIÈCLE

Barrière (P.): La vie intellectuelle en France. op. cit.

Bonnard (L.): Le voyage en France à travers les siècles. Paris, Impr. L. Pochy, 1927.

Chevallier (Jean-Jacques): Histoire des institutions et des régimes politiques de la France moderne, 1789-1958. 3e éd., Paris, Dalloz, 1967.

Clerget (Marcel et Pierre): La France dans le monde. Pairs, Payot, 1938.

Curtius (Ernst-Robert): Essai sur la France. Trad. J. Benoist-Méchin. Paris, Grasset, 1932.

Dansette (Adrien): Histoire religieuse de la France contemporaine. I, De la Révolution à la IIIe République. II, Sous la IIIe République. Paris, Flammarion, 1948-1951.

Daudet (Léon): Le stupide XIXe siècle. Exposé des insanités meurtrières qui se sont abattues sur la France depuis 130 ans, 1789-1919. Paris, Nouvelle Librairie Nationale, 1922.

Daumard (Adeline): La bourgeoisie parisienne de 1815 à 1848. Paris, SEVPEN, 1963. (École pratique des Hautes Études, VIe Section).

Desmazières de Séchelles (R.): Essai sur la prédestination de la France. Paris. Ed. Fischbacher, 1967.

Duby (G.), Mandrou (L.): Histoire de la civilisation française. Paris, A. Colin, 1958. 2 vol.

Duhamel (Georges): Civilisation française. Paris, Hachette, 1944.

Dupeux (Georges): La société française, 1789-196-. Paris, A. Colin, 1964. (Coll. U).

Eckhardt (Alexandre): Le génie français. Paris, Librairie de Médecis, 1942.

Fouillée (Aflred): Psychologie du peuple français. 2e éd., Paris, Alcan, 1898.

Gaultier (Paul): L'âme française. Paris, Flammarion, 1936.

Gaxotte (Pierre): Histoire des Français. Paris, Flamarion, 1951. 2 vol.

Halphen (Louis), Doucet (Roger): Histoire de la société française. Paris, F. Nathan, 1953.

Histoire du peuple français. Publ. sous la dir. de L.-H. Parias. Paris, Nouvelle Librairie de France, 1951-1967. 5 vol. - Pariculièrement t. 4, 5:

Duveau (Georges): De 1848 à nos jours, 1956;

Mayeur (Jean-Marie) et autres: Cent ans d'esprit républicain, 1967.

Maurois (André): Portrait de la France et des Français. Paris, Hachette, 1955.

Maury (Lucien): Définitions de la France à diverses époques par des souverains, hommes d'Etat, écrivains, artistes français et étrangers. Paris, Stock, 1941.

Morazé (Charles): La France bourgeoise, XVIIIe-XXe siècles. Paris, A. Colin, 1946.

Péguy (Charles): La France. Paris, Gallimard, 1939. - Cf. "Paris", pp. 31-35.

Pernoud (Régine): Histoire de la bourgeoisie en France. T. 2, Les temps modernes. Paris, Ed. du Seuil, 1962.

Raymond (Marcel): Génies de France. Neuchatel, La Baconnière, 1942. (Les Cah. du Rhône. 4).

Siegfried (André): Aspects de la société française. Paris, Libr. générale de Droit et de Jurisprudence, 1954.

Swart (Koenraad W.): The sense of decadence in nineteenth-Century France.

The Hague, Martinus Nijholf, 1964. (Archives internationales d'histoire des idées 7).

Voir aussi la rubrique précédente.

CIVILISATION ET LITTÉRATURE ARABES

Op. cit.: Brockelmann, GAL. - Enc. de l'Islam. - Miquel, L'Islam et sa civ. - Sourdel, Civ. de l'Islam classique.

Abd-el-Jalil (J.-M.): Brève histoire de la littérature arabe. Paris, Maisonneuve, 1943. 8e éd., 1963.

Amin (Ahmad): Fajr al-Islam, 1923, Duhã al-Islam, 1934-36, 3 vol.; Zuhr al-Islam, 1945, 4 vol.; Yawm al-Islam, 1958 (Histoire de la civ. de l'Islam, en 4 époques). Le caire, an-Nahda, plusieurs réimpressions.

Arberry (Arthur J.), Landau (Rom), éds.: Islam to-day. London. Faber & Faber, 1942.

Arkoun (Mohammed): "Introduction à la pensée islamique classique", Cah. d'hist. mondiale, XI (1969), no 4, 578-614. Cf. sa bibl.

Berque (Jacques): Les Arabes. Paris, Delpire, 1959. (Enc. essentielle).

Blachère (Régis): Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge. Paris, Geuthner, 1932. – 2e éd. en collaboration avec H. Darmaun, Paris, Klincksieck, 1957.

- : Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XVe siècle de J.-C. Paris, Maisonneuve, 1952-1966, 3 vol. parus.

- : "Moments tournants dans la littérature arabe", Studia islamica, XXIV (1966), 5-18.

Brockelmann (Carl): Histoire des peuples et des États islamiques depuis les origines jusqu'à nos jours. Paris, Payot, 1949.

Carra de Vaux (B.): Les penseurs de l"Islam. Paris, Geuthner, 1921-1925. 5 vol.

Charles (Raymond): L'âme musulmane. Paris, Flammarion, 1958.

Cheikho (Louis): Al-_dãb al-'arabiyya fi l-qarn al-tãsi" "ashar (La littérature arabe au XIXe siècle). I, De 1800 à 1870. II, De 1870 à 1900. Beyrouth, Impr. catholique, 1908-1910. 2e éd., 1924-1926. 2 vol.

Dermenghem (Émile): "Littérature arabe", Hist. des littératures, publié sous la dir. de R. Queneau. Paris, Gallimard, 1955, I, 825-885.

Entretiens sur l'évolution des pays de civilisation arabe. Paris, Hartmann, 1937. (Centre d'études de politique étrangère. Travaux des groupes d"études. No 3).

Gabrieli (Francesco): Les Arabes. Tr. M. de Wasmer. Paris, Buchet-Chastel, 1963.

- : Storia de civilita musulmana. Napoli, Ricciardi, 1947.

- : Storia della litteratura araba. Milano, Accademia, 1951.

- : "Litteratura araba", Le civilita dell'Oriente. Roma. 1957, II, 229-300.

Gardet (Louis): Humanisme musulman d'hier et d'aujoud'hui. Tunis. Inst. des belles lettres arabes. 1944.

- : La cité musulmane. Vie sociale et politique. Paris, Vrin, 1954. 2e éd., 1961.

- : L'Islam, religion et communauté. Paris, Desclée de Brouwer, 1967.

- : et Anawati (G. C.): Introduction à la théologie musulmane. Essai de théologie comparée. Paris, Vrin, 1948.

Gaudefroy-Demombynes (Maurice): Les institutions musulmanes. Paris, Flammarion, 1946.

Gibb (H. A. R.): Arabic literature. An introduction 2e éd., Oxford, Clarendon Press, 1966. - Tr. allemande avec appendice sur le XXe siècle par J. M. Landau: Arabische Literaturgeshichte. Zürich, Artemis. 1968.

- : "La littérature arabe", Enc. de l'Islam, 2e éd., I, 601-618. - Cf. sa bibliographie.

- : Studies in the civilization of Islam. Edited by S. J. Shaw, W. r. Polk. Boston, Beacon Press. 1962. - Tr. arabe, Beyrouth, 1964.

Grünebaum (Gustav E. von): Medieval Islam. A study in cultural orientation. Cambridge Univ. Press. 1946. 2e éd., Univ. of Chicago Press, 1953.

- Tr. fr. par Odile Mayot: L"Islam médiéval. Histoire et civilisation. Paris, Payot, 1962.

- : Islam. Essays in the nature and growth of a cultural tradition. Menasha, Wisc., American Anthropologist. 1955.

- : Unity and variety in Muslim civilization. Univ. of Chicago Press. 1955.

- : et Brunschvig (R.): Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Symposium de Bordeaux, juin 1965. Paris, Besson et Chantemerle, 1957.

Hasan (Hasan Ibrãhim): Tãrikh al-Islam as-siyãsi wa d-dini wa th-thaqãfi wa l-ijtimã'i (Hist. politique, religieuse, culturelle et sociale de l'Islam). Le Caire, an-Nahda, 1968. 4 vol.

Hitti (Philip K.): History of the Arabs. 8e éd., London, Macmillan, 1964.
- Tr. fr. par M. Planiol: Précis d'hist. des Arabes. Paris, Payot, 1950.

Hourani (Albert): Arabic thought in the liberal age, 1798-1939. London, Oxford Univ. Press. 1962.

Al-Jindi (Anwar): Al-muhãfaza wa t-tajdid fi n-nathr al-'arabi al-mu'ãsir fi mi'at 'ãm (Conservatimse et innovation dans la prose arabe contemporaine en cent ans). Le Caire, al-Anglo, 1961.

Jomier (Jacques): Introduction à l'Islam moderne. Paris, Ed. du Cerf, 1964.

Khuri (Ra'if): Al-fikr al-'arabi al-hadith (La pensée arabe moderne). Beyrouth, Dar al-Makshuf, 1944.

Kratchkovski (I.-J.): Tãrikh al-adab al-jughrãfi al-arabi. Le Caire, Ligue des États arabes, 1963. Tr. arabe par Salãh ad-Din "Uthmãn Hãshim de l'Istoria arabskoi geograficheskoi literatury, Moskova-Leningrad, 1957.

Le Tourneau (Roger): L'Islam contemporain. Paris, Les Éditions internationales, 1950.

Lewis (Bernard): Les Arabes dans l'histoire. Neuchâtel, La Baconnière, 1958.

Linant de Bellefonds (Y.): Traité de droit musulman comparé. Paris-La Haye, Mouton, 1965. 2 vol.

Makdisi (G.) ed.: Arabic and Islamic studies in honor of Hamilton A. R. Gibb. Leiden, Brill, 1865.

Massignon (Louis): Situation de l''Islam. Paris, Geuthner, 1939.

- & Arnaldez (Roger): "Arabic science", A general history of the science, ed. by René Taton, London, Thames and Hudson, 1963, I, 385-421.

Meyerhof (M.): Le monde islamique. Paris, Rieder, 1926.

Mez (A.) Die Renaissance des Islams. Heidelberg, C. Winter, 1922.

Millot (Louis): Introduction à l'étude du droit musulman. Paris, Recueil Sirey, 1953.

Montagne (Robert): La civilisation du désert. Paris, Hachette, 1947.

Monteil (Vincent): L'arabe moderne. Paris, Klincksieck, 1960.

Nuseibeh (H. Z.): the ideas of Arab nationalism. Ithaca, Cornell Univ. Press, 1956.

O"Leary (De Lacy Evans): Arabic thought and its place in history. London, Kegan Paul, 1939.

Pareja (F. M.): Islamologie. Beyrouth, Impr. catholique, 1964.

Pellat (Charles): Langue et littérature arabes. Paris, A. Colin, 1952.

Planhol (Xavier de): La fondements géographiques de l'histoire de l'Islam. Paris, Flammarion, 1968. (Nouvelle bibliothèque scientifique, dir. par f. Braudel).

Reinaud (J.-T.): Introduction à la géographie des Orientaux, t. I de la Géographie d'Aboulféda. Paris, Impr. Nationale, 1848.

Rosenthal (Erwin I.Y.): Political though in medieval Islam. An introductory outline. Cambridge, Univ. Press, 1958.

-: Islam in the modern national state. Ibid., 1965.

Rosenthal (Franz): The Muslim concept of freedom prior to the nineteenth century. Leiden, Brill, 1960.

Sãbãt (Khalil): Tãrikh at-tibã'a fi ash-sharq al-'arabi (Histoire de l'imprimerie dans l"Orient arabe). 2e éd., Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1966.

Schacht (Joseph): An introduction to Islamic law. Oxford, Clarendon Press, 1964.

Smit (Walter Cantwell): Islam in modern history. Princeton, 1957. - Tr. fr. par. A. guimbretière: L'Islam dans le monde moderne. Paris, Payot, 1962.

Spuler (Bertold): Geschichte der islamischen Lãnder. Leiden, Brill, 1952-1959. 3 vol. - Tr. angl. par F. R. C. Bagley: The Muslim world, a historical survey. Ibid., 1960-1969. 3 vol.

Thomas (Bertram): Les Arabes. Tr. de l"anglais par roland Huret. Paris, Payot, 1946.

Vintéjoux (M.): Le miracle arabe. Préface par L. Massignon. Paris, Charlot, 1950.

Wiet (Gaston): Introduction à la littérature arabe. Paris, Maissonneuve et Larose, 1966. (Collection Unesco d'introduction aux littératures orientales).

Zaydãn (J.): tãrikh ãdãd al-lugha al-'arabiyya (Hist. de la litt. arabe). Le Caire, al-Hilãl, 1914 et plusieurs réimpr. 4 vol.

- : Tãrikh at-tamaddun al-islãmi (Hist. de la civ. musulmne). Ibid., 3e éd., 1922. 4 vol.

ÉGYPTE MODERNE

Abdel-Malek (Anouar): Egypte, société militaire. Paris, Ed. du Seuil. 1962.

- : Matériaux pour l'étude de la pensée arabe contemporaine. l'Egypte. Thèse, 3e cycle, lettres, Paris, 1964, dactyl.

- : Dirãsãt fi ath-thaqãfa al-wataniyya (Études sur la culture nationale). Beyrouth, Dãr at-Tali'a, 1967.

- : Idéologie et renaissance nationale, l'Egypte moderne. Paris, Anthropos, 1969.

Ahmad (Jamal Mohammed): The intellectuel origins of Egyptian nationalism. London, Oxford Univ. Press. 1960.

Almagia (Roberto): L'opera degli Italiani per la conoscenza dell'Egitto e per il suo risorgimento civile ed economico. Scritti di vari autori raccolti et coordinati. Roma, 1926.

Amad (Emile Selim): La question d'Égypte (1841-1938). Paris, Éditions internationales, 1938.

Amin (Ahmad): Qãmus al-'ãdãt wa t-taqãlid wa t-ta'ãbir al-misriyya (Dictionnaire des coutumes, traditions et expressions égyptiennes). Le Caire, an-Nahda, 1953.

'Awad (Louis): Dirãsãt fi adabinã al-hadith (Études sur notre littérature moderne). Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1961.

- : Tãrikh al-fikr al-misri al-hadith (Hist. de la pensée égyptienne moderne). Le Caire, Dar al-Hilal, 1969. 2 vol.

Baer (Gabriel): A history of landownership in modern Egypt, 1800-1950. London, Oxford Univ. Press, 1962.

Balboni (L. A.): Gl'Italiani nella civilita egiziana del secolo XIXe. Alexandrie, 1906. 3 vol.

Becker (C. H.): "Égypte", Enc. de l'Islam, 1re éd., II, 5-25.

Berque (Jacques): L'Égypte, impérialisme et révolution. Paris, Gallimard, 1967. (Bibliothèque des sciences humaines).

Bréchier (Louis): L'Égypte de 1798 à 1900. Paris, Combet, (1903).

Clerget (Marcel): Le Caire. Étude de géographie urbaine et d'histoire économique. Le Caire, Impr. Schindler, 1934. 2 vol. - Cf. sa bibliographie.

Crouchley (A. E.): The economic development of modern Egypt. London, Longmans, Green & Co., 1938.

Darcy (Jean): France et Angleterre. Cent années de rivalités coloniales. Paris, Perrin, 1904.

Dayf (Shawqi): Al-adab al-'arabi al-mu'ãsir fi .Misr (La litt. arabe contemporaine en Egypte). 3e éd., Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1958.

Ad-Dusuqi ('Umar): Fi al-adab al-hadith (De la litt. moderne). Le Caire, Dãr al-Fikr al-'arabi, 1948-1961. 2 vol.

Fawzi (Husayn) Sindbad misri (S. égyptien). Le Caire, Dãr al-Ma'arif, 1961.

Fischer (Béat de): Contributions à la connaissance des relations suisses-égyptiennes (d'environ 100 p. C. à 1949). Lisbonne, 1956. Cf. bibliographies à la fin des chapitres.

Gibb (H. A. R.): "Studies in contemporary Arabic literature", Bull. of the School of Oriental Studies, IV, 4 (1928), 745-760; V, 2 (1929), 311-322; V, 3 (1929). 445-466; VII, 1 (1933), 1-22.

Hasenclever (Adolf): Geschichte Ägyptens im 19. Jahrhundret, 1798-1914. Halle, 1917.

Haykal (Ahmad): Tatawwur al-adab al-hadith fi Misr min awa'il al-qarn at-tasi' 'ashar ilã qiyãm al-harb al-kubra ath-thãniya (Évolution de la litt. moderne en Égypte. du début du XIXe siècle à la deuxième guerre mondiale). Le Caire, Dar al-Ma'ãrif, 1968.

Histoire de La nation égyptienne. Publ. sous la dir. de Gabriel Hanotaux. Paris, Soc. de l'hist. nat., 1931-1940. 7 vol. - Cf. t. 6:

Charles-Roux (Fr.): L'Égypte de 1801 à 1882, Mohamed Aly et sa dynastie jusqu'à l'occupation anglaise, 1936.

Holt (Peter Malcolm) ed.: Political and social change in modern Egypt. Conference on the modern history of Egypt, Univ. of London, 1965. London, Oxford Univ. Press, 1968.

Issawi (Charles): Egypt in revolution. An economic analysis. Ibid., 1963.

Kamel (Nabeeh): The national characteristics of the modern egyptians. M. A. thesis, London, 1942, dactyl.

Khuri (Emile), Ismã'il ('_dil): As-siyãsa ad-dawliyya fi ash-sharq al-'arabi

min sanat 1789 ilã sanat 1958 (La politique internationale dans l'Orient arabe de 1789 à 1958). Beyrouth, Dar an-Nashr lis-siyãsa wa t-tãrikh, 1959-1961. 3 vol. parus.

Kramers (J. H.): "Khediw", Enc. de l'Islam, 1re éd., II. 955-1010.

Kratchkovski (I. J.): "Littérature arabe moderne", Enc. de l'Islam, 1re éd., suppl., 27-34.

Lacouture (J. et S.): L'Égypte en mouvement, Paris, Ed. du Seuil, 1956. 2e éd., 1962.

Lane (Edward William): The manners and customs of modern Egyptians. London, Dent, 1838.

L'Huillier (Fernand): Fondements historiques des problèmes du Moyen-Orient. Paris, Sirey, 1958.

Marlowe (John): Anglo-Egyptian relations, 1800-1956. London, Cresset Press, 1965.

Mubãrak (Ali): Al-khitat at-tawfiqiyya al-jadida li Misr al-Qãhira wa mudunihã wa biladihã al-qadima ash-shahira (Le nouveau cadastre, dédié à Tawfiq). Le Caire, Impr. Nationale, 1306 h. (1889). 20 parties en 5 vol. - Cf. G. Baer: "Ali Mubarak's "Khitat" as a source for the history of modern Egypt", in Holt, ed.: Polit. and soc. change, 13-27.

Politis (Athanase G.): L'hellénisme et l'Égypte moderne. Paris, Alcan, 1929-1930. 2 vol.

Précis de l'histoire d'Égypte par divers historiens et archéologues, 4 vol. - Cf. t. 3, 4:

Combe (Étienne), Bainville (Jacques), Driault (Edouard): L'Égypte ottomane, l'expédition française en Égypte et le régne de Mohamed-Aly (1517-1849), Le Caire, Impr. de l'Inst. fr. d'archéol. orientale, 1933; Sammarco (Angelo): Les règnes de 'Abbas, de Said et d'Isma'il (1848-1879) avec un aperçu de l'histoire du canal de Suez, Rome, Instituto poligrafico dello Stato. 1935.

Ar-Rãfi'i ('Abd ar-Rahmãn): Tarikh al-haraka al-qawmiyya wa tatawwur nizam al-hukm fi Misr (Hist. du mouvement national et évolution du régime politique en Égypte). Le Caire, an-Nahda, 1929-1930. 2 vol.

Safran (Nadav): Egypt in the search of political community. An analysis

of the intellectual and political evolution of Egypt, 1804-1952. Cambridge, Mass., Harvard Univ. Press, 1961.

Sammarco (A.), Ciarlantini (F.), Galassi (G.), Rossi (E.), Cignolini (F.), Guidi (M.): Egitto moderno. Roma, Edizione Roma, 1939.

Wahida (Subhi): Fi 'usul al-mas'ala al-misriyya (Des origines de la question d'Egypte). Le Caire, al-Anglo, 1950.

Zulficar (Said): L'impérialisme britannique en Égypte, 1882-1914. Thèse, 3e cycle, lettres, Paris. 1966, dactyl.

Voir aussi la rubrique précédente.

IMAGES ET ÉCHANGES CULTURELS

(Questions d'histoire et de méthode)

Abdel-Malek (Anouar): "L'orientalisme en crise", Diogène, no 44 (oct.-nov. 1963), 109-142. Cf. sa bibliographie, 132-142. - Commentaire de Claude Cahen, Ibid., no 49 (janv.-mars 1965), 141-143.

- : "La vision du probléme colonial par le monde afro-asiatique", Cah. internationaux de sociologie, XXXV (1963), 145-156.

Abel (Armand): "Le problème des relations entre l'Orient musulman et l'Occident chrétien au moyen âge", Annuaire de l'Inst. de philosophie et d'histoire orientales et slaves, Bruxelles, XIV (1957), 229-261.

- : "Réflexions comparatives sur la sensibilité médiévale autour de la Méditerranée aux XIIIe et XIVe siècles", Studia islamica, XIII (1960), 23-53.

Abou (Sélim): Le bilinguisme arabe-français au Liban. Paris, P.U.F., 1962.

Abu-Lughod (Ibrahim): Arab rediscovery of Europe. A study in cultural encounters. Princeton Univ. Press, 1963.

Amari (Michele): Storia dei Musulmani di Sicilia. Modificata ed accresciuta dall'autore, con note a cura di C. A. Nallino. Catania, Prampolini, 1933-1939. 3 vol.

Al-'Aqiqi (Najib): Al-Mustashriqun (Les orientalistes). Le Caire, Dar al-Ma'ãrif, 1964-1965. 3 vol.

Arnold (Thomas W.): Preaching of Islam. A history of the propagation of the Muslim faith. 3rd ed., London, Luzac, 1935.

- & Guillaume (Alfred): The legacy of Islam. Oxford, Clarendon Press, 1931.

Atiya (Aziz S.): Crusade, commerce and culture. Bloomington, Indiana Univ. Press, 1962.

"Awad (Louis): Al-Mu'aththirãt al-ajnabiyya fi l-adab al-'arabi al-hadith (Les influences étrangères sur la littérature arabe moderne). Le Caire, Dar al-Ma'rifa, 1963, 1964. 2 vol.

Badawi ('Abdurrahman): La transmission de la philosophie grecque au monde arabe. Paris, Vrin, 1968.

Bagby (Philip): Culture and history. Prolegomena to the comparative sltudy of civilizations. Berkeley and Los Angeles. Univ. of California Press. 1959.

Baladi (Nejib): "L'Occident et la culture arabe contemporaine", Mardis de Dar. El-Sa'am, Paris, Vrin. 1954, 95-116.

Bammate (Najm oud-Dine): "La tradition musulmane devant le monde actuel", Tradition et innovation. La querelle des Anciens et des Modernes dans le monde actuel. Texte des conférences et des entretiens organisés par les Rencontres internationales de Genève, 1956. Neuchatel. La Baconnière, 1956, 119-150.

Beltran (Gonzalo A.): "Confluents de cultures en anthropologie", Diogène, no 47 (juillet-sept. 1964),3-15.

Bencheneb (Saadeddine): "Les humanités grecques et l'Orient arabe moderne". Mélanges Massignon, I. 173-198. Damas, Inst. fr. de Damas, 1956.

Berdiaeff (Nicolas): L'Orient et l'Occident. Textes suivis de débats. Cahiers de la quinzaine, 6 juin 1930.

Berque (Jacques): "Perspectives de I'orientalisme contemporain". Rev. Inst. des belles lettres arabes, Tunis, XX (1957), 217-238.

- : "L'inquiétude arabe des temps modernes", Rev. des études islamiques, 1958, I, 87-107.

- : Les Arabes d'hier à demain. Paris, Éd. du Seuil, 1960.

-, Charnay (Jean-Paul) et au tres: De l'impérialisme à la décolonisation. Paris, Éd. de Minuit, 1965.

- : Normes et valeurs de l'Islam contemporain. Paris. Payot, 1966.

Bounoure (Gabriel): "Éducation française et culture arabe", Rev. de l'enseignement fr. hors de France, janv. 1934., 75-79. (Communication au congrès de la Mission laique française, Paris, juillet 1933).

Braudel (Fernand): La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. Paris, A. Colin, 1949. – 2e éd., 1966, 2 vol.

Brodersen (Arvid): "Caractères nationaux: nouvel examen d'un vieux probème". Diogène, no 20 (oct. 1957), 103-121.

Browne (Laurence Edward): The eclipse of Christianity in Asia, from the time of Muhammad till the fourteenth century. Cambridge, Univ. Press, 1933.

Calmette (Joseph): "Compénétrations et influences réciproques des civilisations médiévales", L'Élaboration du monde moderne, Coll. Clio, vol. V, P.U.F., 1949, 455-467.

Caskel (W.): "Western impact and Islamic civilization". Unity and variety in Muslim civ., ed. by Grünebaum, 335-360.

Cattaui (Georges): "Pérennité de l'Égypte", Annales du Centre univ. méd., II (1947-48), 45-64.

Césaire (Aimé): "Le mythe de la colonisation civilisatrice", Christianisme social, LXIV, 10 (oct. 1956), 701-717.

Chappey (Joseph): "Histoire de l'échange et histoire des nations", Histoire générale de la civilisation d'Occident de 1870 à 1950, Paris, Presses universelles, 1950, I, 115-124.

Charles (Raymond): L'évolution de l'Islam. Paris, Calmann-Lévy, 1960.

Chejne (Anwar G.): "Travel books in modern Arabic literature", Muslim World, LII, 3 (july 1962), 207-215.

Cobb (Stanwood): Islamic contribution to civilization. Washington, Avalon Press, 1963.

Coles (Paul): The Ottoman impact on Europe. London, Thames and Hudson, 1967.

Connaissance de l'étranger, Mélanges offerts à la mémoire ds Jean-Marie Carré. Paris, Didier, 1965.

Coon (Carleton S.): "The impact of the West on Middle Eastern social

institutions", Proceedings of the Academy of Political Science, New York, XXIV. 4 (janv- 1952), 3-26.

Daniel (Norman): Islam and the West. The making of an image. Edinburgh, Univ. Press, 1960. - 3rd ed., 1966.

- : Islam, Europe and Empire. Edinburgh, Univ. Press, 1966.

Doresse (Jean): Des hiéroglyphes à la croix: ce que le passé pharaonique a légué au christianisme. Istanbul, 1960. (Uitgaven van het Nederlands historisch-archaeol. Inst. te Istanbul, 7).

Duby (Georges): "Histoire des mentalités", L'Histoire et ses méthodes, publ. sous la direction de Charles Samaran, 937-966. Paris, Gallimard, 1961. (Enc. de la Pléiade).

Duirenne (Mikel): La personnalité de base, un concept sociologique. Paris, P.U.F., 1953.

Dugat (Gustave): Histoire des orientalistes d'Europe du XIIe au XIXe siècle. Paris, Maisonneuve, 1868-1870. 2 vol.

Dunlop (D.-M.): Arabic science in the West. Karachi, Pakistan Historical Society, 1966.

Ebersolt (Jean): Orient et Occident. Recherches sur les influences byzantines et orientales en France. I, Avant les Croisades. II. Après les Croisades. Paris, G. Van Oest, 1928-1929. 2 vol. – 2e éd., Paris. Boccard, 1954. 1 vol.

Farès (Bichr): "Des difficultés d'ordre linguistique, culturel et social que rencontre un écrivain arabe moderne, spécialement en Égypte", Rev. des études islamiques, X (1936), 221-246.

Fāris (Nabih Amin) ed.: The Arab heritage. Princeton Univ. Press, 1944.

- et autres: Colloquium on Islamic culture in its relations to the contemporary world. Princeton, 1953.

Fedden (Robin): English travellers in the Near East. London, Longmans, Green & Co., 1958. (Writers and their works, 97).

Frye (Richard Nelson) ed.: Islam and the West. Proceedings of the Harvard Summer School Conference in the Middle East, july 1955. Cambridge, Mass., Harvard Univ., 1957.

Fück (J. W.): Die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts. Leipzig, 1955.

- : "Islam as an historical problem in European historiography since 1800". Historians of the Middle East, ed. by Bernard Lewis. P. M. Holt, 303-314. London, Oxford Univ. Press, 1962.

Gabrieli (Francesco): "Oriente e Occidente e loro conoscenza reciproca", La communità internazionale, XVII (1962). no 2.

- : "Apologie de l'orientalisme", Diogène, no 50 (avril-juin 1965), 134-142.

Gardet (Louis): "Interprétation des cultures", Extr. des Actes de la Xe Assemblée générale du Mouvement international des Intellectuels catholiques (Beyrouth, 2-7 avril 1956), 28 p.

- : "Méditerranée, dialogue de cultures", Études méd., 1 (été 1957), 3-20.

- : "La culture arabe et sa vocation universelle", Mélanges Taha Hussein, Le Caire, Dar al-Maaref, 1962, 17-23.

Gibb (H. A. R.): "La réaction contre la culture occidentale dans Ie Proche Orient", Cah. de l'Orient contemporain, VIII (1951) 1, 1-10.

- : "The influence of Islamic culture on mediaeval Europe", Reprinted from the Bull. of the John Rylands Library, XXXVIII (1955) 1, 82-98.

- : "Esquisse d'un programme d'études sur: Orient et Occident, divergence et convergence", Études méditerranéennes, printemps 1958, 5-9.

Gibb (H. A. R.), Bowen (H.): Islamic society and the West. I, Islamic society in the eighteenth century. Oxford Univ. Press, 1950-1957. 2 vol.

Glanville (S. R. K.) ed.: The legacy of Egypt. Oxford, Clarendon Press, 1942.

Grünebaum (G. E. von): "Le problème des échanges culturels", Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal. Paris, Maisonneuve et Larose, 1962, I, 141-151.

- : Modern Islam. The search for cultural identity. Berkeley and Los Angeles, Univ. of California Press, 1962. - Cf. compte rendu de M. Arkoun, Arabica, 1964, 113-126, avec un commentaire de l'auteur.

- : "Specialisation", Arabic and Islamic studies in honor of H. A. R. Gibb, Leiden, Brill, 1965, 285-292.

Guernier (E.): L'apport de l'Afrique à la pensée humaine. Paris, Payot, 1952.

Haddad (J.): "Problèmes posés par la rencontre des cultures islamique et occidentale", Civilisations, XII (1962), 311-330.

Hamd_n (Jam_l): Shakhsiyyat Misr, dir_sa fi 'abqariyyat al-mak_n (Personnalité de l'Égypte, essai sur Ie génie du lieu). Le Caire, D_r al-Hil_l, 1967.

Hammad (S. I.): The impact of Europe on Islam viewed in education. Thesis Ph. D., London, 1952, dactyl.

Hardy (Georges): La géographie Psychologique. 7e éd., Paris, Gallimard, 1939.

Hatem (Anouar): Suisses et Arabes à travers les siècles. Genève. Suar, 1969. 76 p.

Histoire universelle des missions catholiques. Publ. sous la dir. de Mgr Simon Delacroix. Paris. Grund. Monaco, Éd. de l'Acanthe, 1956-1959. 4 vol.

Hitti (Ph. K.): Islam and the West. A historical cultural survey. Princeton, Van Nostrand Anvil Books, 1962.

Husayn (Tãhã): Mustaqbal ath-thaqãfa fi Misr. Le Caire, Dãr al-Ma'ãrif, 1938. 2e éd., 1944. 2 vol. - Traduction anglaise de Sidney Glazer: The future of culture in Egypt. Washington, Translation Program of the American Council of Learned Societies, 1954.

L'Islam et l'Occident. No spécial des Cah. du Sud, 1947.

Jacob (Georg): Oriental elements of culture in the Occident. Washington. Government Printing Office, 1903. (From the Smithsonian Report for 1902, 509-529).

Khoury (Adel-Théodore): Les théologiens byzantins et l'Islam. Munster. 1966. 2 vol. (Thèse lettres. Lyon).

AI-Khuri (Y. Q.): "AI-jughrãfiyyun al-'arab wa urubbã" (Les géographes arabes et l'Europe). Al-Abhãth, Beyrouth, XX, 4 (déc. 1967), 357-392.

Kohn (Hans): Western civilization in the Near East. London, G. Routledge, 1936.

Laroui (Abdallah): L'idéologie arabe contemporaine. Paris, Maspero, 1957.

- Notamment, "Conscience de l'Occident et conscience de soi", 29-42.

Latourette (K. S.): A history of the expansion of Christianity. New York, Harper & Bros, 1958-1962. 7 vol.

Levi-Provençal (É.): La civilisation arabe en Espagne. Vue générale. Le Caire, Inst. Fr. d'arch. orientale, 1938.

Lewis (Archibald Ross): Naval power and trade in the Mediterranean, A. D. 500-1100. Princeton Univ. Press, 1951.

Lewis (Bernard): "The Muslim discovery of Europe", Bull. of the Sch. of Orien. and Afr. Studies, XX (1957), 409-416.

- : The Middle East and the West. Bloomington, Indiana Univ. Press, 1964. Littérature générale et histoire des idées. Actes du premier Congrès national de Littérature comparée. Paris, Didier, 1956. (Études de Littérature étrangère et comparée).

Madkour (Ibrahim): "Culture arabe et culture européenne", Mélanges de l'Inst. domin. d'études orient. du Caire, 8 (1964-1966), 389-394. (Message adressé à la Conférence européenne de la culture, Bâle, 29 sept. 1964).

Malvezzi (Aldobrandino): L'Islamismo e la cultura europea. Firenze, Sansoni, 1956.

Martino (Pierre): L'Orient dans la littérature française aux XVIIe et XVIIIe siècles. Paris, Hachette, 1906.

Massignon (Louis): "Multaqã al-adabayn" (Rencontre des deux littératures [arabe et française]). Rev. de l'Acad. arabe. Damas. I, 1, (janv. 1921), 24-28. - : "L'Islam et la Chrétienté dans leurs connexions culturelles. - La laicisation de l'Islam et ses facteurs", Ann. du Collège de France, 28e année (1926-1927), 82.

- : "Documents de psychologie différentielle musulmane", Journal de psych. normale et pathologique, XXIV, 2 (1927), 163-168. - Rééd., Opéra minora, Paris, P.U.F., 1969, II, 503-507.

- : "Comment ramener à une base commune l'étude textuelle de deux cultures: l'arabe et la greco-latine?", Lettre d'humanité G. Budé. II (1943), 122-143. - Rééd., La rev. du Caire, XXIV, 126 (janv, 1950), 177-200. Op. min., I, 172-186.

- : "Interprétation de la civilisation arabe dans la culture française". Congrès de l'UNESCO 1946, Paris, 1947, 115-131. - Rééd., Op. min., I, 187 - 204.

- : "La sauvegarde des cultures dans leur originalité", Cahiers de l'Est, Beyrouth, 1948, 129-133. - Rééd., Op. min.. I, 205-207.

- : "L'Occident devant l'Orient, primauté d'une solution culturelle". Politique étrangère, Paris. juin 1952, 13-28. - Reed.. Op. min.. I. 208-223.

- ; "Le mouvement intellectuel contemporain au Proche-Orient". Hesperia, Zurich. IV (1953) 10, 71-78. - Rééd., Op. min., I, 224-231.

- ; "L'Islam et l'avenir d'un contact culturel international entre travailleurs intellectuels", Comprendre, Venise, cah. 17 (1957) 72-76. - Rééd., Op. min., I, 232-237.

- : "Archaïsme et modernisme en Islam. A propos d'une nouvelle structure du travail humain", Cah. de l'Inst. de science économique appliquée, V, 3 (déc. 1961), 7-22.

May (Louis-Philippe): Esquisse d'un tableau des apports de la France à la civilisation. Paris. Albin Michel, 1951.

Mieli (Aldo) : La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale. Leiden, Brill, 1938. Rééd., 1966.

Monneret de Villard (Ugo): Lo studio dell'Islam in Europa nel XII e nel XIII secolo. Citta del Vaticano, Bibl. apostol. vatic., 1944. (Studi e testi, 110).

Munier (René): Sociologie coloniale. I. Introduction à l'étude du contact des races. II, Psychologie des expansions. Paris, Domat-Montchrestien. 1932-1936. 2 vol.

Nakosteen (Mehdi): History of the Islamic origins of western education A. D. 800-1350. Boudler, Univ. of Colorado Press, 1964.

Nef (John U.): Les fondements culturels de la civilisation industrielle. Paris. Payot, 1964.

L'Occidente e l'Islam nell'alto Medioevo. In Spoleto, Presso la Sede del centro, 1965. 2 vol. (Settimane di studio del Centro italiano di studi sull'alto Medioevo, 12).

O'Leary (De Lacy Evans): Arabic thought and its place in history. Revised ed. London, Kegan Paul, 1939.

- : How Greek science passed to the Arabs. London, Routledge & Kegan Paul, 1949.

L'Originalité des cultures, son rôle dans la compréhension internationale. Paris. UNESCO, 1953. (Unité et diversité culturelle).

Patai (R.): "The dynamics of westernization in the Middle East". The Middle East Journal. IX (1955) 1, 1-16.

Peet (Thomas Eric): A comparative study of the literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia: Egypt's contribution to the literature of the ancient world. London. Oxford, British Academy, 1931. (Schweich Lectures. 1929).

Pellat (Charles): "Littérature arabe et problèmes de littérature comparée", Société française de Littérature comparée, Actes du septième Congrès national, Moyen âge et littérature comparée, Paris, Didier, 1967, 3-15. (Études de littérature étrangère et comparée).

Peres (Henri): L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930. Paris, Adrien-Maisonneuve, 1937.

Perrier (Paul): "L'unification humaine. Relations et influences internationales", Rev. de synthèse, LXIV (juillet-dec. 1948), 67-88.

Pirenne (Henri): Mahomet et Charlemagne. Paris. Alcan et Bruxelles, Nouv. Soc. d'Éditions. 1937.

Planhol (Xavier de): Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam. Paris. Flammarion. 1968. Op. cit.

Poliak (A. N.): "L'arabisation de l'Orient sémitique", Rev. des études islamiques, XII (1938), 35-63.

Polk (W. R.), Chambers (R. L.) eds.: Beginnings of modernization in the Middle East. The nineteenth century. Chicago. Univ. of Chicago Press. 1968.

Ponteil (Félix): La pensée politique depuis Montesquieu. Paris, Sirey, 1960. "La pensée politique arabe", ","-",",

Préaux (Claire): "Les raisons de l'originalite de l'Égypte". Museum helveticum, Basel. X (1953), 202-221.

Puaux (Gabriel): "La double culture: L'Islam et l'humanisme français", Annales du Centre univ. médit., VI (1952-53), 45-57.

Qubain (Fahim I.) : Inside the Arab mind. Arlington, Virginia, Middle East Research Associates. 1960.

Reinaud (Joseph-Toussaint): Invasions des Sarrazins en France et de France en Savoie, en Piemont et dans la Suisse, pendant les VIIIe, IXe et

Xe siècles de notre ère, d'après les auteurs chrétiens et mahométans. Paris, Yve Dondey-Dupré, 1836.

Rochedieu (Edmond): La pensée occidentale face à la sagesse de l'Orient. Paris, Payot, 1963.

Rodinson (Maxime): "Le marchand méditerranéen à travers les âges", Markets and marketing as factors of development in the Mediterranean basin, ed. by C. A. O. van Nieuwenhuijze, The Hague, Mouton, 1963, 71-92.

Rougemont (Denis de): L'aventure occidentale de l'homme. Paris, Albin Michel, 1957.

- et autres: Le dialogue des cultures. Colloque de Genève, 15-17 sept. 1961. Neuchâtel, La Baconnière, 1962. (Centre européen de la culture).

Rougier (Louis): Le génie de l'Occident. Paris, R. Laffont, 1969.

Saport (Armando): Le marchand italien au moyen âge. Conférences et bibliogr. Paris. A. Colin, 1952. (École pratique des Hautes Études. VIe Section).

Saunders (John J.) ed.: "The naval struggle between Christendom and Islam", The Muslim world on the eve of Europe's expansion. Englewood Cliffs. New Jersey, Prentice-Hall. 1966, 95-127.

Schwab (Raymond): La Renaissance orientale. Paris, Payot, 1950.

- : "L'orientalisme dans la culture et les littératures de l'Occident moderne", Oriente moderno, mai-juin 1952, 136-141.

- : "Domaine oriental", Hist. des littératures, publ. sous la dir. de R. Queneau. Paris, Gallimard, 1955, I, 103-219. (Enc. de la Pléiade).

Sédillot (René): Histoire des colonisations. Paris. Fayard. 1958.

Ash-Shubãshi (Muh. Mufid): Rihlat al-adab al-'arabi ilã urubbã (Voyage de la litt. arabe en Europe). Le Caire, Dar al-Ma'ãrif, 1968.

Siegfried (André): Vue générale de la Méditerranée. 10e éd., Paris, Gallimard, 1943. Particulièrement chap. XVI, "Place de la Méd. dans le monde",

- : La civilisation occidentale. Oxford, Clarendon Press, 1945. (The Romanes Lecture) .

- : L'âme des peuples. Paris, Hachette, 1950.

- : Itineraires de contagions. Epidémies et idéologies. Paris, A. Colin, 1960.

Singer (Charles): "East and West in retrospect", A history of technology. edited by Ch. Singer, E. J. Holmyard, II, The .Mediterranean civilizations and the Middle Ages, Oxford, Clarendon Press, 1956, 753-776.

Smith (Byron Porter): Islam in English literature. Beirut, American Press, 1939.

Southern (R. W.) : Western views on Islam in the Middle Ages. Cambridge, Mass., 1962.

Théry (Gabriel) : Entretien Sur la philosophie musulmane et la culture française. Oran, Heintz, 1945.

Tieghem (Paul van): "La littérature comparée et les relations internationales", Actes du quatrième Congrès international d'histoire littéraire moderne, Paris 1948. Paris, Boivin, 1950. 33-35. (Études de litt. étrangère et comp.).

Tieghem (Philippe van): Les influences étrangères sur la littérature française, 1550-1880. Paris, P. U.F., 1961.

Toynbee (Arnold): The world and the West. 4th impr., London, Oxford Univ. Press, 1957. - Tr. fr.: Le monde et l'Occident. Genève, Gonthier, 1964. (Bibliothèque Médiations, 15).

Waardenburg (Jean-Jacques): L'Islam dans le miroir de l'Occident. Comment quelques orientalistes occidentaux se sont penchés sur l'Islam et se sont formé une image de cette religion. La Haye-Paris, Mouton, 1963.

Walzer (Richard): Greek into Arabic. Oxford, Bruno Casirer, 1962.

Watt (W. M.): Islam and the integration of society. London, Routledge & Kegan Paul, 1961.

Young (T. Cuyler) ed.: Near Eastern culture and society. A symposium on the meeting of East and West. Princeton Univ. Press, 1951.

Zananiri (Gaston): L'esprit méditerranéen dans le Proche-Orient. Marseille, Les Cah. du Sud, 1939.

PÉRIODIQUES

A part les publications des journalistes égyptiens exilés à Paris, objet de la deuxième partie de notre travail, sont signalés ici les titres des principaux périodiques consultés. Pour une bibl. plus générale, voir:

Dagher: Masādir, II, 27-34 (les périodiques en arabe de 1800 à 1955);

El-Mahdi (M.): Répertoire des périodiques en cours publiés au monde arabe, Le Caire, Commission nationale pour l'Unesco, 1965;

Ljuggren (Florence) & Hamdy (Mohamed): Annotated guide to the journals dealing with Middle East and North Africa, Cairo, American Univ. Press, 1965.

Acta africana, Genève.

Al-Ahrām, Le Caire.

Annales. Economies, sociétés, civilisation, Paris.

Annales de L''institut d'études orientales, Alger.

Annales du Centre universitaire méditerranéen, Nice.

Arabica, Leyde.

Bulletin d'études orientales de l'Institut framçais de Damas.

Bulletin de l'Institut d'Egypte, Le Caire.

Bulletin de la Société de géographie, Le Caire.

Bulletin de la Société de géographie, Paris.

Bulletin of the School of Oriental and African Studies, London.

Cahiers algériens de littérature comparée, Alger.

Cahiers d'histoire égyptienne. Le Caire.

Cahiers d'histoire mondiale, Paris.

Cahiers de l'Association internationale des études françaises, Paris.

Cahiers de l'Orient contemporain, Paris.

Comparative Literature, Oregon.

Comparative Literature Studies, Illinois-Maryland.

Diogène, Paris.

L'Égypte contemporaine, Le Caire.

En terre d'Islam, Lyon.

Études méditerranéennes, Paris.

Al-Hilāl, Le Caire.

Der Islam, Hambourg.

Journal asiatique. Paris.

Journal of the economic and social history of the Orient, Leiden.
The Journal of the Royal Asiatic Society, London.
Al-Kitāb, Le Caire.
Al-Lisān al-'arabi, Rahat.
Al-Majalla, Le Caire.
Majallat al-kitāb al-'arabi. Le Caire.
Mardis de Dar El-Salam, Paris.
Mélanges de l''institut dominicain d'études orientales, Le Caire.
The Middle East Journal, Washington.
The Muslim World, Hartford, Connecticut.
Orient, Paris.
Orient-Occident, Unesco, Paris.
Orient moderno. Rome.
Rev. africaine, Alger.
Rev. d'histoire littéraire de la France, Paris.
Rev. d'histoire moderne et contemporaine, Paris.
Rev. de L'Institut de belles lettres arabes, Tunis.
Rev. de littérature comparée, Paris.
Rev. de psychologie des peuples, Le Havre.
Rev. de synthèse, Paris.
Rev. des deux mondes, Paris.
Rev. des conférences françaises en Orient, Le Caire.
Rev. des cours et conférences, Paris.
Rev. des études islamiques, Paris.
Rev. du Caire.
Rev. encyclopédique, Paris.
Studia islamica, Paris.
Al-Waqā'i' al-misriyya (Journal officiel), Le Caire.
Die Welt des Islams. Leiden.
Yearbook of Comparative and General Literature, Chapel Hill, Bloomington.

ARCHIVES

PARIS: Archives Nationales.

Archives du ministère des Affaires étrangères.

VINCENNES: Archives du ministère de La Guerre.

TURIN: Archives privées de Bernardino Drovetti (Instituto di Antropologia).

LE CAIRE: Archives du Palais de la République (Äbidïn).

BIBLIOGRAPHIE DE L'INTRODUCTION

L'ÉGYPTE CHRÉTIENNE ET LA FRANCE

Dictionnaire des antiquités chrétiennes. Publ. sous la dir. de l'abbé J.-R. Martigny. 3e éd., Paris, Hachette, 1889.

Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie. Publ. sous la dir. de dom Fernand Cabrol et don Henri Leclercq. Paris. Letouzey et Ané, 1907-1953.

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques. Publ. sous la dir. du cardinal Alfred Baudrillart. Ibid., 1912-

Dictionnaire de spiritualité. Publ. sous la dir. de Marcel Viller. Paris. Beauchesne, 1932-

Dictionnaire de théologie catholique. Publ. sous la dir. d''A. Vacant. Paris, Letouzey et Ané, 1903-

The Catholic encyclopedia. Publ. sous la dir. de Ch. Herbermann. New York, The Encyclopedia Press, 1907-1922.

Histoire de l'Eglise. Publ. sous la dir. de V. Martin et A. Fliche. Paris, Bloud et Gay, 1936-

Kammerer (Winifred): A Coptic bibliography. Ann Arbor, Univ. of Michigan Press, 1950.

Tagher (Jacques): Aqbãt wa muslimun mundh al-fath al-'arabi ilã 'ãm 1922 (Coptes et Musulmans de la conquète arabe à 1922). Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1951.

Hardy (Edward R.): Christian Egypt. Church and people. Oxford Univ. Prees, 1952.

Chauleur (Sylvestre): Histoire des Coptes d' Égypte. Paris, La Colombe, 1960.

Meinardus (Otto): Monks and monasteries of the Egyptian desert. Cairo, The American Univ. Press, 1961.

- : Christian Egypt. Ancient and modern. La Caire, Inst. fr. d'archéol. orientale, 1965.

Roncaglia (Martiniano): Histoire de l'Église copte. Beyrouth, Dar al-Kalima, 1966 (t. 1 paru).

Khella (K. N.): "Naissance et développement de l'Église copte", Le Monde non chrétien, 81 (1967), 5-47.

Atiya (Aziz S.) : A history of Eastern Christianity. London, Methuen, 1968.

Kamil (Murad): Coptic Egypt. Cairo, Le Scribe égyptien, 1968.

Butler (A. J.): The ancient Coptic churches. Oxford, Clarendon, 1844.

Butcher (F. L.) : The story of the church of Egypt from the Roman conquest until now. London. Smith, 1877. 2 vol.

- : The Coptic church. Ibid., 1900.

Ledwich (Edward): Antiquities of Ireland. Dublin, John Jones. 1804.

Kenney (James F.): The sources of the early history of Ireland. New York, Columbia Univ. Press, 1929.

Philips (Walter Alison): History of the church of Ireland. London, Milford, 1933.

Baillet (Adrien): Les vies des saints. Paris, L. Roulland, 1701. 4 vol.

Cheneau d'Orléans (Paul): Les saints d' Égypte. Jérusalem, Couvent des RR. PP. Franciscains, 1923. 2 vol.

O'Leary (De Lacy Evans): The saints of Egypt. London, S.P.C.K., 1937.

Dubourdieu (Jean): Dissertation historique et critique sur le martyre de la Légion thébéenne. Amsterdam, 1705.

Montmélian (J. Bernard de): Saint Maurice et la Légion thébaine. Paris, Plon, 1888. 2 vol.

Stolle (Franz): Das martyrium der thebaischen Legion. Breslau. Muller und Seilfert, 1891.

Julian (Camille): "La Légion thébaine", Rev. des études anciennes, XXII (1920), 41-47.

Berchem (Denis van): Le martyre de la Légion thébaine. Essai sur la formation d"une légendé. Bâle. F. Reinhardt, 1956.

Hermant (Godefroy): La vie de saint Athanase. Paris, J. Du Puis, 1671. 2 vol.

Cavallera (F.): Saint Athanase (295-373). Paris, Bloud, 1908.

Cross (Frank Leslie): The study of saint Athanasius. Oxford, Clarendon Press, 1945.

Szymusiak (Jan-M.): Athanase d'Alexandrie. Apologie à l'empereur Constance. Apologie pour sa fuite. Paris, Éd. du Cerf, 1958. - cf. introduction. "Les luttes d'Athanase d'Alexandrie de 328 à 365", 9-77.

Amélineau (E.): "Histoire de saint Pakhôme et de ses communautés", Annales du Musée Guimet, XVII (1889).

Gorce (Denys): Les voyages, l'hospitalité et le port des lettres dans le monde chrétien des IVe et Ve siècles. Monastère du Mont-Vierge (Belgique) et Paris, 1925.

Griffe (Elie): La Gaule chrétienne à l"époque romaine. Des origines à la fin du IVe siècle. Paris, A. et J. Picard. 1947.

Montalembert (Charles-René Forbes, comte de): Les moines d'Occident. Paris, J. Lecoffre, 1860-1877. 7 vol.

Alliez (L.): Histoire du monastère de Lérins. Paris, Didier, 1862. 2 vol.

Guilloud (A.): Saint Eucher, Lerins et l'église de Lyon au Ve siècle. Lyon, 1881.

Besse (J.-M.): "Les premiers monastères de la Gaule méridionale". Rev. des questions historiques, LXXI (1902), 395-464.

Moris (H.): L'abbaye de Lérins. histoire et monument. Paris, Plon, 1909.

Cristiani (Léon): Lérins et ses fondateurs. Paris, Éd. de Fontenelle, 1946.

- : Jean Cassien, la spiritualité du désert. Rouen, Éd. de Fontenelle. 1946.

Jourdain (Charles): "Un collège oriental à Paris au XIIIe siècle", Rev. des Sociétés savantes, 1861, 66-73.

Maître (Léon): Les écoles épiscopales et monastiques de l'Occident depuis Charlemagne jusqu'à Philippe-Auguste. Paris, Dumoulin, 1866.

Jaugey (J.-B.): "L'École du Palais". Rev. du monde calholique. XXIII (1868), pp. 72 et suiv.

Lefort (Th.): "Coptes et Latins", Rev. d'histoire ecclésiastique, XXIX (1933), 128-130.

Bréhier (Louis): "Les colonies d'Orientaux en Occident au commencement du moyen âge. Ve-VIIIe siècles", Mémoire présenté au XIIIe Congrès des orientalistes à Hambourg. Byzantinische Zeitchrift, XII (1903), 1-39.

Jalabert (L.): "Les colonies chrétiennes d'Orientaux en Occident du Ve au VIIIe siècle", Rev. de l'Orient chrétien, IX (1904), pp. 96 et suiv.

Leclercq (H.): "Colonies d'Orientaux en Occident", Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie, op. cit., t. III. 2, 2266-77.

Mâle (Émile): L'art religieux du XIIe siècle en France. 5e éd., Paris, A. Colin. 1947.

- : L'art religieux du XIIIe siècle en France. 3e éd., Ibid., 1910.

Ebersolt (Jean): Constantinople byzantine et les voyageurs au Levant. Paris. Leroux, 1918.

Baltrusaitis (Jurgis): Le moyen âge fantastique. Antiquités et exotismes dans l''art gothique. Paris, A. Colin, 1955.

Labib (Mahfouz): Pélerins et voyageurs au Mont Sinaï. Le Caire, Inst. fr. d'archéol. orientale. 1961.

Fiore (Silvestro): "The medieval pilgrimage from the legacy of Greco-Oriental antiquity to the threshold of Greco-Occidental humanism", Rev. de litt. comparée, XL, 1 (janv.-mars 1966), 5-21.

L'ÉGYPTE ARABE ET LA FRANCE

Lacam (Jean): Les Sarrazins dans le haut moyen âge français. Histoire et archéologie. Paris, Maisonneuve et Larose, 1965.

Pirenne (Henri): "Mahomet et Charlemagne", Rev. belge de philosophie et d'hist., I (1922), 77-86.

- : "La fin du commerce des Syriens en Occident", Mélanges Bidez Annuaire de l'Inst. de philologie et d'hist. orientales, Université libre de Bruxelles, II (1934), 677-687.

Doehaerd (Renée): "Méditerranée et économie occidentale pendant le

haut moyen âge", Cah. d'hist. mondiale, I, 3 (janv. 1954), 571-593.

Lombard (Maurice): "L'or musulman du VIIe au XIe siècle", Annales, E. S. C., II, 2 (avril-juin 1947), 143-160.

- : "Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane. Le navire et l'économie maritime du moyen âge au XVIIIe siècle", Travaux du deuxième colloque intern. d'hist. maritime, Paris, 1958, 53-106. - Cf. compte rendu de Claude Cahen, Journal of the economic and social history of the Orient, II (1959), 339-341.

Goitein (S. D.): "The unity of the Mediterranean world in the "middle" middle ages", Studia islamica, XII (1960), 29-42.

Braibant (Charles): "Mer franque. Marseille, J. Vigneau, 1943.

Mu'nis (Husayn): "Les Musulmans dans le bassin méditerranéen jusqu'aux Croisades", (en arabe). Al-Majalla at-tãrikhiyya al-misriyya, Le Caire, IV (1951), 45-174.

Zananiri (Gaston): L'Égypte et l'équilibre du Levant au moyen âge (637-1517). Marseille, Cahiers du Sud. 1936.

Atiya (Aziz S.): The Crusade. Historiography ând bibliography. Bloomington. Indiana Univ. Press, 1962.

- : The Crusade in the later middle ages. London. Methuen, 1938.

Bréhier (Louis): L'Église et l'Orient au moyen âge: les Croisades. Paris, G. Gabalda. 1907. – 5e éd., 1928.

Grousset (R.): Histoire des Croisades. Paris, Plon, 1934-1936. 3 vol.

Choiseul-Daillecourt (Maxime de): De l'influence des Croisades sur l'état des peuples de l'Europe. Paris, Tillard, 1809.

Hamdy Mahmoud (A.-el-H.): The western attitude towards Islam before and after the first Crusade. Liverpool, 1953, (Ph. D. thesis).

Reinaud (Joseph-Toussaint): Histoire de la sixième Croisade et de la prise de Damiette, d"après les écrivains arabes. Paris, Danley-dupré. 1826. (Extr. du Journal asiatique).

Davis (Edwin John): The invasion of Egypt, A. D. 1240 (A. H. 647), by Louis IX of France and a history of the contemporary sultans of Egypt. London, S. Low, 1897.

Rashad (Mohamed): "Sur la prison de Louis IX à Mansourah", Bull. de l"Inst. égyptien, sér. II, 7 (1887), 78-89.

Ziyãda (Muh. Mustafã): Hãmlat Louis at-tãsi "alã Misr wa hazïmatuhu fi al-Mansura (L"expédition de Louis IX contre l"Égypte et sa défaite à Mansourah). Le Caire, al-Majlis al-a"lã li-l-funun wa-l-ãdãb. 1961.

Zumthor (Paul): Histoire littéraire de la France médiévale (VIe-XIVe siècles). Paris, Presses universt. de France, 1954.

Richard (Jean): "La vogue de l"Orient dans la littérature occidentale du moyen âge", Mélanges René Crozet, Poitiers. Soc. d"études médiévales, 1966, 557-561.

Ziolecki (B.): "La légende de Mahomet au moyen âge", En terre d"Islam, 1943, no 3, 123-144.

Pellat (Y. et Ch.): "L"idée de Dieu chez les Sarrazins des Chansons de Geste", Studia islamica, XXII (1965), 5-42.

Carmody (Francis): "Les sources orientales du Perceval de Chrétien de Troyes", Rev. de litt. comparée, XXXIX, 4 (oct.-dec. 1965), 497-545.

Fiore (Silvestro): "Arabic traditions in the history of the Tuscan Lauda and Ballata", Rev. de litt. comparée, XXXVIII, 1 (janv.-mars 1964), 337-358.

Paris (Gaston): La littérature française au moyen âge. Paris, Hachette, 1905.

- : "Les contes orientaux dans la littérature française du moyen âge",

Paris, Librairie A. Franck, 1875. (Extrait de la Rev. politique et littéraire, no 43, 24 avril 1875. 24 p.).

- : "La légende de Saladin", Journal des savants, mai-août, 1893.

Thomas (A.): "La légende de Saladin et les littératures romanes", Extrait de Diogène, no 8 (nov. 1954), 18-47. - Cf, compte rendu de Marcel Bataillon, Rev. de litt. comparée, avril-juin 1955. 271-273.

Hatem (Anouar): Les poèmes épiques des Croisades. Paris, Geuthner, 1932.

Schefer (Ch.): "Étude sur la Devise des chemins de Babiloine", Archives de l"Orient latin, II (1884), 89 et suiv.

Delaville Le Roux (J.): La France en Orient au XIVe siècle, Paris, E. Thorin, 1886.

Newton (Arthur Percival): Travel and travellers of the middle ages. London. Routledge and Kegan Paul, 1926. - 3rd ed., 1949.

Bouard (Michel de): Voyages en Méditerranée au moyen âge", Rev. du Caire, fév. 1939, 19-39.

Ganshof (F. L.): Le moyen âge, t. I de l"Histoire des relations internationales publ. sous la direction de P. Renouvin. Paris, Hachette, 1953.

Al-'Adawi (Ibrahim Ahmed): As-safãrãt al-islãmiyya ilã "urubbã fi-l-usur al-wustã (Les ambassades islamiques en Europe au moyen âge). Le Caire, Dar al-Ma"ãrif, 1975. (Iqara", ",").

Depping (G. B.): Histoire du commerce entre le Levant et l"Europe depuis les Croisades jusqu"à la fondation des colonies d"Amérique. Paris, Impr. Royale, 1830. 2 vol.

Heyd (W.): Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Traduction française de Furcy-Reinaud. Leipzig, 1885. – 2e éd., Leipzig, 1923. – 3e éd., Amsterdam, 1959, 3 vol.

Pigeonneau (H.): Histoire du commerce de la France. Paris, Cerf, 1885-89. 2 vol.

Julliany (Jules): Essai sur le commerce de Marseille. Marseille, 1832. 3 vol. - 2e éd., 1842.

Histoire du commerce de Marseille, publiée par la Chambre de commerce de Marseille sous la direction de Gaston Rambert, t. I: L"antiquité, par Raoul Busquet, Le moyen âge jusqu"en 1291, par Régine Pernoud. Paris, Plon. 1949.

Wiet (Gaston): "Les marchands d"épices sous les sultans Mamlouks", Cah. d"hist. égyptienne, VII, 2 (1955), 81-147.

Poliakov (Léon): "Intellectuels et marchands à l"aube des temps modernes", Critique, nov. 1957, 982-993.

L"ÉGYPTE TURQUE ET LA FRANCE

Charrier (E.): Négociations de la France dans le Levant, ou correspondance, mémoires et actes diplomatiques des ambassadeurs de France à Constantinople et des ambassadeurs, envoyés ou résidents à divers titres à Venise, Raguse, Rome, Malte et Jérusalem, en Turquie, Perse, Géorgie, Crimée, Syrie, Égypte, etc. Paris, Impr. Impériale, 1840-1860. 4 vol.

Leval (André): Voyages en Levant pendant les XVIe,-XVIIe et -XVIIIe siècles. Essai de bibliographie. Budapest, Singet et Wolfner, 1897.

Pannier (Jacques): "Calvin et les Turcs", Rev. historique, CLXXX (1937), 268-286.

Casanova (Paul): L"enseignment de l"arabe au Collège de France. Paris, Geuthner, 1910.

Huart (Clément): "Les études arabes en France de la Renaissance à nos jours", Rev. de l"Académie de langue arabe de Damas, 1925, 157-178.

Horniker (Arthur Leon): "Anglo-French rivality in the Levant from 1583 to 1612". The journal of modern history, XVIII, 4 (dec. 1946), 289-305.

Hammer (J. de): "Mémoire sur les premières relations diplomatiques entre la France et la Porte"," Journal asiatique, t. X, pp. 19 et suiv.

Tongas (Gérard): Les relations de la France avec l"Empire ottoman durant la première moitié du XVIIe siècle et l"ambassade à Constantinople de Philippe de Harlay, comte de Césy (1619-1640). Toulouse, F. Boisseau, 1942. (Thèse d"univ.).

Rousseau (Louis): Les relations diplmatiques de la France et de la Turquie au XVIIIe siècle. Paris. Rudeval. 1908.

Barenton (Hilaire de): La France catholique en Orient durant les trois derniers siècles, d"après des documents inédits. Paris, Charles Poussielgue, 1902.

Charles-Roux (Fr.): France et chrétiens d'Orient. Paris, Flammarion, 1939.

Homsy (Basile): Les Capitulations et la protection des chrétiens au Proche-Orient. aux XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles. Paris, Gouthner, 1956.

Masson (P.): Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIe siècle. Paris, Hachette, 1896.

- : Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIIe siècle. Ibid., 1911.

Fahmy (Moustapha): "La première convention commerciale franco - égyptienne au XVIIIe siècle", Cah. d'hist. égyptienne, VII, 1 (fév. 1955), 21-34.

Mathorez (J.): Les étrangers en France sous l'ancien régime. T. I, Les Orientaux et les Extra-Européens. Paris, Champion, 1919.

Paquot (Marcel): Les Etrangers dans les divertissements de la cour de Beaujoyeulx à Moliére (1581-1673). Bruxelles. Palais des Académies, 1932.

Rouillard (Clarence Dana): The Turk in French history, thought and literature (1520-1660). Paris. Boivin, 1938, (Études de litt. étrangère et comparée).

Thévenot (J.): L'Empire du Grand Turc vu par un sujet de Louis XIV. Paris, Calmann-Lévy. 1965.

Vandal (Albert): "Molière et Ie cérémonial turc à la cour de Louis XIV". Rev. d'art dramatique, 15 juillet 1888.

- : Louis XIV et l'Égypte. Paris, A. Picard, 1889.

- : L'odyssée d'un ambassadeur. Les voyages du marquis de Nointel (1670-1680). Paris, Plon, 1900.

Esnault (G.): "L'Orient dans Molière", Rev. Orient. et Occident, Paris, 1923, 222-230.

Martino (Pierre): L'Orient dans la littérature française aux XVIIe et XVIIIe siècles, op. cit.

- : "La cérémonie turque du Bourgeois Gentilhomme", Rev. d'hist. littéraire de La France, XVIII (1911), 37-60..

- : "Les Arabes dans la comédie et Ie roman du XVIIIe siècle", Rev. africaine, 1905, no 257, 149-159.

Ayda (Adile): "Molière et l'envoyé de la Sublime Porte", Cah. de l'Association intern. des études fr., IX (juin 1957), 103-116.

Vovard (André): Les turqueries dans la littérature française. Toulouse, Privat, 1959.

Mathiex (J.): "Trafic et prix de l'homme en Méditerranée aux XVIIe et XVIIIe siècles", Annales, E. S. C., 1954, 157-164.

Billacois (François): "Le Turc: image mentale et mythe politique dans la France du début du XVIIe siècle", Rev. de psychologie des peuples, XXI, 2 (1966), 233-246.

Dufrénoy (Marie-Louise): L'Orient romanesque en France (1704-1789). Montréal, Beauchemin, 1946.

Abdel-Halim (Mohamed): Antoine Galland, sa vie et son "uvre. Paris, Nizet, 1964.

Vernière (Paul): "Montesquieu et le monde musulman", Actes du congrès, Montesquieu (Bordeaux, 23-26 mai 1955). Bordeaux, Impr. Delmas, 1956. 175-190.

Hadidi (Djavad): Voltaire et l'Islam. Thèse d'univ., Paris. 1960. dactyl.

Bousquet (G. H.): "Voltaire et l'Islam". Studia. islamica, XXVIII (1968), 109-126.

Watelet (Jean): L'Orient dans l'art françsais, 1650-1800. Alger, Musée national des Beaux-Arts. (Études d'art, 14).

Omont (H.) : Missions archéologiques françaises en Orient aux XVIIe et XVIIIe siècles. Paris, Impr. Nationale, 1902. 2 vol.

- : Projets de prise de Constantinople et de fondation d'un empire d'Orient sous Louis XIV. Paris. 1893.

Vansleb (J. M.): Nouvelle relation en forme de journal d'un voyage fait en Égypte par ie P. Vansleb en 1672 et 1673. Paris, E. Michallet, 1677.

Le Mascrier (abbé Jean-Baptiste): Description de l'Égypte, composée sur les mémoires de M. (Benoit) de Maillet, ancien consul de France au Caire, par M. l'abbé Le Mascrier. Paris. L. Genneau et J. Rollin, 1735.

Bruce (James): Voyage en Nubie et en Abyssinie. Traduit par J.-H. Castera. Paris. Hôtel de Thou, 1790.

Saint-Aymour (vicomte de Caix de): La France en Éthiopie. Histoire des relations de la France avec l''Abyssinie chrétienne sous les règnes de Louis XIII et Louis XIV. Paris. Challamel ainé, 1886.

Dehérain (H.): "La diplomatie française et les études archéologiques dans le Levant", Rev. des Affaires étrangéres, Paris, 1931. pp. 497 et suiv.

Fedden (Robini): "Notes on the British consulate in Egypt in the XVIIth and XVIIIth centuries: 1580-1775". Bull. de l'Institut d'Égypte, 1946, 11-21.

Bibliothèque Nationale: Quatre siècles de colonisation française, Exposition d'œuvres du XVe au XVIIIe siècle. Paris, Éd. des Bibliothèques Nationales. 1931.

Saintoyant (J. F.): La colonisation française sous l'ancien régime. Paris, La Renaissance du Livre, 1929. 2 vol.

- : La colonisation française pendant la Révolution. Paris, La Renaissance du Livre, 1930. 2 vol.

- : La colonisation européenne du XVe siècle au XIXe siècle. Paris, Daubin, 1947.

Charles-Roux (François): "L'isthme de Suez et les rivalités européennes au XVIe siècle", Rev. de l'histoire des colonies françaises, XVII (2e trim, 1924), 153-192.

- : Autour d'une route: L'Angleterre, l'isthme de Suez et l'Égypte au XVIIIe siècle. Paris, Plon, 1922.

- : Les Échelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe siècle. Paris, 1928.

- : "L'Échelle française d'Égypte". Egypte-France, Exposition française au Caire. S. I., 1929, 65-82.

- : Le projet français de la conquête de l"Égypte sous le règne de Louis XVI. Le Caire, 1929. (Mémoires de l'Inst. d'Égypte, XIV).

- : "La politique française en Égypte à la fin du XVIIIe siècle", Rev. historique, XCI (1906). 1-20, 255-242,

- : Les origines de l'expédition d'Égypte. 2e éd., Paris, Plon. 1910.

- : "France, Égypte et Mer Rouge de 1715 à 1798". Cah. d'hist. égyptienne. III, 2(janv. 1951), 117-195.

Clément (R.): Les Français d'Égypte aux XVIIe et XVIIIe siècles. Le Caire, lnst. fr. d'archéol. orientale, 1960.

Volney (C. F. Chasseb"uf. comte de): Voyage en Syrie et en Égypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. lre éd., 1787. - Publié avec une introduction et des notes par Jean Gaulmier. Paris. La Haye, Mouton, 1959. (École pratiquc des Hautes Études, VIe Section, Sciences économiques et sociales. "Le monde d"outre-mer. passé et présent", :2e série. vol. II).

Al-Jabarti ('Abd ar-Rahmãn): 'Ajã'ib al-'ãthãr fi-l-trãjim wa l-'akhbãr. Le Caire. B_l_q, 1290-1297 h. (1873-1879). 4 tomes en 2 vol. Chronique de l'expédition française dans le 3e tome. - Traduction d'A. Cardin: Journal d"Abdurrahman Gabarti pendant l'occupation française en Égypte. suivi d"un précis de la même campagne par mou'allem Nicolas El-Turki. Paris. Dondey-Dupre, 1838. - Traduction de Chefik Mansour et autres: Merveilles biographiques et historiques du cheikh Abd-el-Rahman el-Djabarti. Paris. Leroux. 1888-94. 7 yol.

Turc (Nicolas): Histoire de l'expédition des Français en Égypte. Publ. et trad. par Desgranges ainé. Paris. Dondey- Dupré. 1840. - Chronique d'Égypte (1798-1804). Publ. et trad. par Gaston Wiet. Le Caire, Dar al-Ma'ārif, 1950.

La Description de l'Égypte ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition de l'armée française. Paris, Impr. Nationale, 1809-1828. 9 vol. texte in-fo., 14 vol. planches gr. in-fo. - Ed. Panckoucke. 1821-1829. 24 vol. in-89, 12vol. planches in-fo.

Guémard (Gabriel): Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts et de l'Institut d'Égypte. Le Caire. Impr. Barbey, 1936.

Munier (Henri): Tables de la Description de l'Égypte, suivies d'une bibliographie sur l'expédition française de Bonaparte. Le Caire, Société royale de géogr., 1943.

Goby (Jean-Edouard): "Contribution à l'inventaire des sources manuscrites et à l'étude bibliographique de l'histoire de l'expédition française en Égypte". Bull. de l'Inst. d'Égypte, session 1950-1951, 305-322.

Louca (Anouar): "La Renaissance égyptienne et les limites de l'œuvre de Bonaparte", Cah. d'hist. égyptienne, VII, 1 (fév. 1955), 1-20.

- : "Une source méconnue du romantisme français: la Légion copte", Bull. de La Soc. d'hist. et d'archéol. de Genève. 1967. 475-4.76.

Charles-Roux (F.): "Une proposition de conquérir l'Égypte faite au gouvernement français en 1825". Rev. de l'hist. des colonies fr., 1928, 217-221.

- : "Le capital français en Égypte à L'Égypte contemporaine. nov. 1911. 465-502.

Ash-Shayyal (Jamal ad-Din): "The first cultural contacts between Egypt and the West in the XIXth century", Bull. of the Faculty of Arts, Alexandria. XIV (1960), 69-88.

Hussein (Taha): "La France et l'Égypte", Conférence du 28 avril 1950 au Centre universitaire méditerranéen, Nice. Annales du Centre univ. méd., III (1948-1950), 31-39.

Wiet (Gaston): "Le rôle de la France en Égypte", Bulletin de la Société des amis de l'Université de Lyon. nov.-déc. 1913.

- : Les consuls de France en Égypte sous le règne de Mohamed Ali", Rev. du Caire, oct., nov., déc. 1943.

- : Mohamed Ali et les beaux-arts. Le Caire, Dar al-Maaref, 1950.

Jourdan (Louis): Les intérêts de la France en Égypte. Paris, Amyot, 1851.

Darmesteter (James): "De la part de la France dans les grandes découvertes de l'orientalisme moderne", Essais orientaux, Paris, A. Lévy, 1883, 1-103.

Société asiatique: Les fêtes du centenaire. Paris, Impr. Nationale, 1923.

1881-1909. L'Institut français d'archéologie orientale du Caire. Le Caire, Impr. de l'Inst. fr. d'arch. or., 1909. In-16, 63 p.

Testoin (Édouard): Égypte, ou le pays des Coptes. Diffusion de la langue française en Orient. Tours, Cattier, 1894.

Pasquet (D.): "Comment la France a perdu l'"Égypte, d'après les mémoires de Lord Cromer", Rev. historique, XXXVI (1911), t. 106, 27-59.

Polier (Léon): "La France en Égypte", Rev. des deux mondes, 1er août 1914, 647-675.

Ivray (Jehan d'): "L'influence française en Égypte". La rev. mondiale, CLXIII (janv. 1925), 11-21.

Carnoy (Norbert): La colonie française du Caire. Paris, P.U.F., 1928. (Thèse de droit).

Alazard (A.): L'Orient dans la peinture française au XIXe siècle. Paris, Plon, 1930.

Bruneau (André): Traditions et politique de la France au Levant. Paris, Alcan, 1932.

Carré (Jean-Marie): Voyageurs et écrivains français en Égypte. Le Caire, Inst. fr. d'archéol. orientale, 1932. 2 vol. – 2e éd., 1956. (Nous renvoyons à la 1re éd.).

- : "Les écrivains français en Égypte (1782-1849)". Annales du Centre univ. méd., IV (1950-51), 45-62.

- : "Les écrivains français en Egypte: de Flaubert à Fromentin (1850-1870). Résumé de la conférence du 11 avril 1953. Ibid., VI (1952-53), 266-267.

- : "L'inauguration internationale du canal de Suez (1869)". Résumé de la conférence du 23 avril 1954. Ibid., VII (1953-54), 282-285.

Lichtenberger (Marguerite): Écrivains français en Égypte contemporaine. Paris, Leroux, 1934.

Jourda (Pierre): L'exotisme dans la littérature française depuis Chateaubriand. I, Le romantisme. Paris, Boivin, 1938. II, Du romantisme à 1938. Paris, P. U.F., 1956.

Chakhachiro (Omar): Proche et moyen Orient dans l'œuvre de Victor Hugo. Paris, Jouve, 1950.

EI-Nouty (Hassan): Le Proche-Orient dans la littérature française de la fin du romantisme à la mort de Pierre Loti. Paris, Nizet, 1958.

- : La peintres français en Égypte au XIXe siècle. Paris, thèse complémentaire, 1953, dactyl.

Taha-Hussein (Moënis): Le romantisme français et l'Islam. Le Caire & Beyrouth, Dar al-Maaref, 1962. (Collection "Recherches et Documents").

Amjad (Ali): Contribution des savants français du XIXe siècle, et du début du XXe aux études arabes. Paris, thèse univ., 1964, dactyl.

Rodinson (Maxime): "Les négociations culturelles franco-égyptiennes", Le Monde diplomatique, oct. 1964, p. 4.

Zolondek (Leon): "The French Revolution in Arabic literature of the nineteenth century", Muslim World, LVII (1967), 202-211.

BIBLIOGRAPHIE DE LA PREMIÈRE PARTIE

MISSIONS SCOLAIRES

1. DOCUMENTS OFFICIELS

A. - ARCHIVES.

I. Archives du ministère des Affaires étrangères - Paris:

"Correspondancce consulaire. Le Caire", vol. 26, fos 278. 10 mars 1826; 282, 4 avril 1826.

"Correspondance consulaire, Alexandrie", vol. 19. fos 278-281.

II. Archives privées de Bernardino Drovetti. Instituto di Antropologia-Turin: Outre les lettres publiées par Giovanni Marro dans Documenti

inediti sulla cessione el Piemonte della collezione egiziana Drovetti (Dal corpo epistolare privato di Bernardino Drovetti), Torino, 1934.

Il corpo epistolare di Bernardino Drovetti (dont n'a paru que vol. 1, Rome, 1940),

La personnalità di Bernardino Drovetti studiata nel suo archivio inedito. Torino, 1951,

voir les lettres inédites adressées par Jomard à Drovetti, aux dates suivantes:

31 sept. 1824; 15 janv. 1826; 25 juin 1826; 18 sept. 1827; 20 oct. 1827; 8 mars 1828; 10 mai 1828; 7 août 1828; 20 mars 1829; 25 avril 1829; 22 mai 1829; 1er juillet 1830; 15 janv. 1832; 20 sept. 1832; 4 février 1834; 25 mai 1835; 7 juin 1836; 1er juin 1844.

III. Archives du Palais de la République - Le Caire:

En guise de catalogue. consulter:

Deny (Jean): Sommaire des Archives turques du Caire. Le Caire, Soc. de géographie. 1930;

Salama (Ibrahim): Bibliographie analytique et critiquet louchant la question de l'enseignement en Égypte depuis la période des Mamelouks. Op. cit

a) Section turque.

Carton ma'iyya no 6. 1er Jum_d_, I, 1231. Registres: 18, no 235. 20 Dhu-l-hijja, 1239; 22, no 57, 13 Rabi' II, 1242; 29, no 105, 19 Jumada II. 1242; 31, no 22. 15 Rabi II. 1243; 31, no 60, 8 Jum_d_ II. 1243; 31, no 276. 18 Dhu-l-qa'da, 1243; 37, no 487, 21 Sha'ban, 1244; 40, no 398, 15 Muharram, 1245; 40, no 221, 20 Rahi' I, 1245; 40, no 291, 18 Rajab, 1245; 40, no 518, 28 Jum_d_ I, 1246; 40, no 156, 7 Shaww_l, 1246; 40, no 667, 8 Dhu-l-qa'da, 1246; 40, no 673, 20 Dhu-l-qa'da, 1246; 40, no 674, 20 Dhu-l-qa'da, 1246; 779, (khédive) p. 78, no 236, 8 Safar, 1248; 779, (khédive) p. 154, no 467, 19 Rabi' I, 1248; 50, no 20, 15 Jum_d_ I, 1248; 50, no 32, 19 Jum_d_ I, 1228; 51. no 145, 28 Jum_d_ II, 1248; 52, no 2, 7 Dhu-l-hijja, 1248; 67, no 1213, 25 Rajab, 1251; 2 109 (madãris) p. 136, no 131, 9 Rajab, 1261; 2 097 (madãris) p. 30, no 2 458, 2. Sha'ban, 1261; 2 120 (madãris) p. 199, 6 Dhu-l-hijja, 1263; 469, no 95, 1266; 483, no 49, 1268.

b) Section européenne.

Carton "enseignement", dossiers nos 35/5, 35/7, 35/10, surtout dossier no 35/2, rapports du Conseil d'Études et de Surveillance de la Mission à Paris, envoyés par Lemercier, Barthélemy-Saint- Hilaire, Barbet.

B. - AL-WAQĀI' AL-MISRIYYA (Le Journal officiel), Le Caire.

Nos: 73 (26 Rabi' II, 1245); 113 (28 Sha'bān, 1245); 396 (25 Muharram, 1248); 399 (3 Safar, 1248); 416 (16 Rabi' I, 1248); 69 (1er Rajab, 1263); 81 (25 Ramadan, 1263); 85 (24 Shawwāl, 1263); 87 (9 Dhu-l-qa'da, 1263); 123 (16 Sha'bān, 1264); 126 (7 Ramadan, 1264); 117 (3 Rajab, 1264); 138 (3 Dhu-l-hijja, 1264); 59 (14 Rajab, 1283); 82 (14 Shawwāl, 1283); 141 (24 Jumādā I, 1284); 328 (12 Rajab, 1286); 366 (15 Rabi' II, 1287); 379 (18 Rajab, 1287); 428 (27 Rajab, 1288); 472 (30 Jumādā II, 1289); 747 (8 Safar, 1295); 790 (27 Dhu-l-hijja, 1295).

II. LE CADRE HISTORIQUE

A. - GENÈSE POLITIQUE ET SOCIALE

Mengin (Félix): Histoire de l'Égypte sous le gouvernement de Mohamemd-Aly, ou Récit des événements politiques et militaires qui ont eu lieu depuis le départ des Français jusqu'en 1823. Ouvrage enrichi de notes par MM. Langlès et Jomard et précédé d'une introduction historique par M. Agoub. Paris, A. Bertrand, 1823. 2 vol.

Planat (Jules): Histoire de la régénération de l'Égypte. Paris et Genève, Barbeza, 1830.

Sakakini (A.): De l'Égypte et de l'intervention européenne dans les affaires d'Orient. Paris, H. Dupuy, 1833.

Vaulabelle (Achille de): Histoire de l'Égypte moderne. Paris, 1835. 2 vol.

Œuvres de Saint-Simon et d'Enfantin. Paris, Dentu, 1866-1872. Vol. X-XII.

Auriant: "Lettres de Prosper Enfantin sur l'Égypte et l'Orient (1840)". L'Acropole, III (1928), 82-103.

Bowring (John): Report on Egypt and Candia. adressed to the Right Hon. Viscount Palmerston. London, Clowes, 1840.

Bartle (G. F.): "Bowring and the Near Eastern crisis of 1838-1840". The English historical review, London, oct. 1964, 761-774.

Clot-Bey (Antoine-Barthélemy): Aperçu général sur l'Égypte. Paris, Fortin et Masson, 1840. 2 vol.

Hamont (P. N,): L'Égypte sous Méhémet-Ali. Paris, Léautey et Lecointe, 1843.

Schelcher (Victor): L'Égypte en 1845. Paris, Pagnerre, 1846.

Gouin (Édouard): L'Égypte au XIXe siècle. Paris, Boizard, 1847.

Gisquet (H.): L'Égypte, les Turcs et les Arabes. Paris, Amyot, 1848. 2 vol.

P(risse) et H(amont): L'Égypte sous la domination de Méhémet-Ali. Paris. Firmin Didot, 1848. (L'Univers pittoresque).

Prisse d'Avennes (É.): Politique et administration de l'Égypte moderne. Manuscrit, B. N. de Paris: nouvelles acquisitions françaises. 20.422.

- : M"urs et coutumes. Ms., ibid.: 20.423-20.424.

- : Petits mémoires secrets de la Cour d'Égypte. Publ. par Auriant. Paris. La Centaine, 1931.

Louca (Anouar): "Idris Effendi, mu'arrikh ahmalahu at-tãrikh" (Prisse d'Avennes, historien méconnu). Al-Majalla, mars 1958, 47-59. - "Idris Effendi wa Zãlim Pacha" (Prisse d'Avennes et Méhémet-Ali). Al-Hilãl, nov. 1958, 6-15. - "Min mudhakkirãt Idris Effendi" (Extraits des mémoires inédits de Prisse d'Avennes). Al-Majalla, sept. 1964, 12-26.

Merruau (Paul): L'Égypte contemporaine de Méhémet Ali à Said Pacha (1840-1857). Paris. Didier, 1853.

Mouriez (Paul): Histoire de Méhémet-Ali, vice-roi d'Égypte. Paris, Louis Chappe, 1858. 4 vol.

Paton (F. R. G. S.): History of the Egyptian revolution from the period of the Mameluks to the death of Mohamed Ali. London, 1863. 2 vol.

Cattaui (Joseph-Edmond): Histoire des rapports de l'Égypte avec la Sublime Porte du XVIIIe siècle à 1841. Paris, Jouve, 1919.

Driault (Édouard): La question d'Orient, depuis ses origines jusqu'à la Paix de Sèvres (1920). Paris, Alcan, 1921.

- : Mohammed Aly et Napoléon (1807-1814). Correspondance des consuls de France en Égypte. Le Caire, Soc. de géographie, 1925.

- : L'expédition de Crète et de Morée (1823-1828). Correspondance des consuls de France en Égypte et en Crète, recueillie et publiée avec une introduction et des analyses sommaires. Ibid., 1930.

- : L'Égypte et l'Europe. La crise de 1839-1841. Correspondance des consuls de France et instructions du gouvernement, recueillies et publiées avec une notice bibliographique. Ibid., 1933-1935. 5 vol.

- : "La Renaissance de l'Égypte. L'Égypte et les Napoléons", Rev. d'études napoléoniennes, janv. 1925, 5-22.

Douin (Georges): Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly. Le Caire, Soc. de géographie, 1923.

- : Les premières frégates de Mohamed Aly (1824-1827). Ibid., 1926.

- : La mission du Baron de Boislecomte: l'Égypte et la Syrie en 1833. Ibid., 1927.

Ghorbal (Shafik): The beginings of the Egyptian Question and the rise of Mohamed Ali. A study in the diplomacy of the Napoleonic era based on researches in the British and French archives, with a preface by Arnold J. Toynbee. London, George Routledge, 1928.

- : "La contribution de Mohamed Ali à la solution de certains problèmes méditerranéens de son époque", Annales du Centre univ. médit., Nice, IV, (1950-51), 9-28.

Sabry (Mohamed): La question d'Égypte depuis Bonaparte jusqu'à la révolution de 1919. Paris, Association Égyptienne de Paris, 1920.

- : L'Empire égyptien sous Mohamed-Ali et la question d'Orient (1811-1849). Paris, Geuthner, 1930.

Sammarco (Angelo): Il regno di Mohammed Ali nei documenti diplomalici italiani inediti. Le Caire, Soc. de géogr., 1930-1932. 10 vol.

Cattaui (René): Le règne de .Mohamed Aly d'après les archives russes en Égypte. Ibid., 1931.

Dodwell (H. L.): The founder of modern Egypt. A study of Mohammed Aly. Cambridge. Univ. Press, 1931.

Al-Khani (Alaeddin): L'opinion française et la question d'Orient pendant les campagnes d'Ibrahim Pacha en Syrie de 1831 a 1833. Paris, Geuthner, 1941. (Thèse d'univ.).

Puryear (Vernon John): France and the Levant, from the Bourbon Restauration to the peace of Kutaieh. Berkeley, Univ. of California Press, 1941.

Amad (Émile Selim): La question d'Égypte (1841-1938). Op. cit.

Guémard (Gabriel): Les réformes en Égypte (d'Ali-Bey El Kébir à Méhémet Ali, 1760-1848). Le Caire, Impr. Paul Barbey, 1936.

Crouchley (A. E.): "The development of commerce in the reign of Mohamed Ali", L'Égypte contemporaine, vol. XXVIII, 1935. - "A century of economic development 1837-1937. A study in population and production in Egypt", Ibid., vol. XXX. 1939.

'Abduh (Muhammad): L'œuvre de Méhémet-Ali, article en arabe publ. dans al-Manãr, ler Rabi' I 1320 h. (7 juin 1902), reproduit dans M. R. Rida: Tãrikh al-ustãdh al-imãm, I, p. 539 et suiv.

Ar-Rãfi'i ('Abd ar-Rahmãn) : 'Asr Muhmmad Ali (L'époque de Méhémet-Ali). 2e éd., Le Caire, an-Nahda, 1951.

Rifaat (Mohamed): The awakening of modern Egypt. London, Longmans, 1947.

Shukri (Muh. Fu'ãd) ; Binã' dawla (Construction d'un État). Le Caire, Dar al-Fikr al-'arabi, 1948.

Cattaui (René et Georges): Mohamed-Aly et l'Europe. Préf. de Charles-Roux. Paris, Geuthner, 1950.

Charles-Roux (François): Thiers et Méhémet-Ali. Paris, Plon. 1951.

Andraos (Adly): "Le rôle de la Méditerranée dans les destinées de Mohamed Aly", Annales du Centre univ. méd., V (1951-52), 9-21.

Fahmy (Mouatafa) : La révolution de l'industrie en Égypte et ses conséquences au XIXe siècle (1800-1850). Leyde, Brill, 1954.

Rivlin (Helen B.) ; The agricultural policy of Muhammad 'Ali in Egypt. Cambridge, Mass., 1961. (Harvard Middle Eastern studies, IV).

Tomiche (Nada): "Notes sur la hiérarchie sociale en Égypte à l'époque de Muhammad 'Ali". Political and social change in modern Egypt, edited by P. M. Hoit. London. Oxford University Press, 1968. 249-263.

B. - SUR L'ENSEIGNEMENT EN ÉGYPTE AU XIXe SÈICLE

1. - Ouvrages du XIXe siècle:

Chabrol: Essai sur les m"urs des habitants modernes de l'Égypte. T. XVIII de la Description de l'Égypte. Paris, 1826.

Reinaud (J.-T.): "Notice des ouvrages arabes, persans et turcs imprimés en Égypte", Nouveau journal asiatique. 2e série, VIII (oct. 1831), :333-344.

Bianchi (T. X.): "Catalogue des livres arabes. persans et turcs imprimés à Boulac en Égypte depuis l'introduction de l'imprimerie dans ce pays", Ibid., 1843. II, 24-60.

Perron (A.): "Lettre sur les écoles et sur l'imprimerie du pacha d'Égypte". Ibid., 1843. II, 5-23.

Artin (Yacoub): Lettres du Dr Perron du Caire et d'Alexandrie a M. Jules Mohl, à Paris, 1838-1854. Le Caire. Fink et Baylaender, 1911.

Pellissier: "Rapport adressé à M. le Ministre de l'Instruction publique et des Cultes par M. Pellissier, professeur de philosophie, chargé d'une mission scientifique en 1848". Archives des missions scientifiques et littéraires. Paris, Impr. Nationale, 1850, t. I.

Guérin (Victor): Missions scientifiques et littéraires. Rapport adressé à S.E..M. le Ministre des Cultes... sur une mission en Égypte (1851). Paris, Impr. P. Dupont, 1858.

Rossi: "De l'état actuel de l'Instruction publique", Bull. de l'Institut d'Égypte, no 4, 1860.

Dor (Édouard): L'Instruction publique en Égypte. Paris, Lacroix, 1872.

Égypte, Ministère de l'Instruction publique: Notice sur les établissments d'Instruction publique en Égypte. Le Caire, Delbos-Demouret, 1869. 31 p. (B. N. du Caire: Inst. 298).

- : Rapport de la Commission pour les réformes de l'organisation de l'Instruction publique. Le Caire, Jablin, 1881. 105 p. (B. N. du Caire: Inst. 299).

- : Exposé des réformes effectuées pendant les années 1885 avec 2e - 5e rapports sur l'enseignement public en Égypte, années 1886-1889. Le Caire, Impr. Nationale, 1886-1890. 3 vol. (B. N. du Caire: Inst. 300).

- : Rapport à S. E. Hussein Fakhry Pacha, ministre de l'Instruction publique. Le Caire, Impr. Nationale, 1895. 38 p. (B. N. du Caire: Inst. 305).

Cunynghame (H.): "The present state of education in Egypt", The Journal of the Royal Asiatic Society, London, XIX (1887), 223-237.

Plauchut (Edmond): "L'Égypte et l'occupation anglaise. V. La Justice et l'Instruction publique", Rev. des deux mondes, 1er févr. 1889.

Artin (Yacoub): L'Instruction publique en Égypte. Paris, Leroux, 1890.

Bonola bey (Frédéric): L'Égypte et la géographie. Sommaire historiques des travaux géographiques exécutés en Égypte sous la dynastie de Mohammed Aly. Le Caire, Impr. Nationale, 1890.

Amadou (Hyacinthe): L'Enseignement français en Égypte. Le Caire, Barbier, 1897.

"Travaux de l'Institut égyptien du 6 mai 1859 au 5 mai 1899. VIII, Enseignement - instruction publique", Le livre d'or de l'Institut egyptien, Le Mans, Impr. de l'Inst. de Bibliographie, 1899, 172-173.

2. - Ouvrages du XXe siècle:

Salama (Ibrahim): Bibliographie analytiqe. Op. cit.

- : L'enseignement islamique en Égypte. Son évolution, son influence sur les programmes modernes. Le Caire, Impr. Nationale, 1939.

Arminjon (Pierre): L'enseignement, la doctrine et la vie dans les universités musulmanes d'Égypte. Paris, Alcan, 1907.

Vollers (Karl): "Al-Azhar", Enc. de l'Islam, 1re éd., I. 541-550.

Jomier (Jacques): "Al-Azhar", Ibid., 2e éd., I, 837-844.

Khafãji (Muh. 'Abd al-Mun'im): Al-Azhar fi alf 'ãm (Al-Az. en mille ans). Le Caire, 1374 h. (1955).

As-Sa 'idi ('Abd al-Muta'ãl): Tãrikh al-islãh fi al-Azhar (Histoire des réformes à al-Az.). Le Caire, Impr. al-I'timãd, 1958.

Dodge (Bayard): Al-Azhar. A millinium of Muslim learning. Washington, Middle East Institute, 1961.

Shalabi (Ahmad): Tãrikh at-tarbiya al-islãmiyya (Histoire de la pédagogie musulmane). Le Caire, al-Anglo, 1960.

Gaulmier (Jean): "Volney et la pédagogie de l'"Arabe", Bull. d'études orientales, Damas, 1945-46.

Sami (Amin): At-ta'lim fi Misr (L'enseignement en Égypte). Le Caire, al-Ma'ãrif, 1917.

- : Taqwim an-Nil (Calendrier du Nil). Le Caire. Impr. de la Bibliothèque Nationale, 1928. :2 vol.

Laoust (Henri): "Introduction à une étude de l'enseignement arabe en Égypte", Revue des études islamiques, 1933, pp. 317 et suiv.

Galt (R.): The conflict of French and English educational policies in Egypt. Cairo, American Univ., 1933.

Bovier-Lapierre (Paul): "La renaissance intellectuelle de L'Égypte", L'Égypte contemporaine, janv. 1933, 69-85.

Mahfouz (Naguib): The history of Medical education in Egypt. Cairo, 1935.

Guémard (G.): Les réformes en Égypte, 289-305.

"Abd al-Karim (Ahmad 'Izzat): Tarikh at-ta'lim fi 'asr Muhammad Ali (Histoire de l'enseignement au temps de Méhémet-Ali). Le Caire, an-Nahda 1938.

- : Tãrikh at-ta'lim fi Misr (1848-1885). Suite de l'ouvrage précédent. Le Caire, an-Nahda, 1948. 4 vol.

Heyworth-Dunne (J.): An introduction to the history of education in modern Egypt. London, Luzac, 1938.

- : "Printing and translation under Muh. Ali of Egypt. The foundation of Modern Arabic", The Journal of the Royal Asiatic Society, 1940, 325-349.

Sauvage (Charles): "L'enseignement en Égypte", Correspondance d'Orient, 1909: 15 août, 723-727; 15 sept., 793-797; 15 oct., 853-860; 1910: 15 fév., 133-139; 1er mai, 367-371; 1er juin, 455-457; 1er juillet, 12-16; 15 juillet, 56-59; 1er août, 98-102; 15 août, 139-144.

Guerin (Agathe-Marie-Josèphe): Essai sur le développement de l'instruction féminine en Égypte. Thèse principale pour le doctorat ès lettres, 1948, dactyl. - V. compte rendu, Annales de l'Univérsité de Paris, avril-juin 1949.

Tagher (Jacques): Harakat at-tarjama bi-Misr khilãl al-qarn at-tãsi' 'ashar (Mouvement de la traduction en Égypte au XIXe siècle). Le Caire, Dar al-Ma'ãrif, 1945.

Hammad (S. I.): French and British influence in Egyptian education, a historical and comparative study. Thèse M. A. Educ., London, 1950. dactyl.

Ash-Shayyãl (Jamal ad-Din): Tãrikh at-tarjama wa-l-haraka ath-thaqafiyya fi Misr fi 'asr Muhammad 'Ali (Histoire de la traduction et du mouvement culturel en Égypte au temps de Méhémet-Ali). Le Caire, Impr. al-I'timãd, 1952.

Radwan (Abu al-Fatouh Ahmad): Old and new forces in Egyptian education. New York, Teachers College, Columbia Univ. Press, 1951.

Sislian (Jack): The beginnings of British and French missionary educational activity in Egypt, 1825-1863. Thèse M. A. Educ., London, 1956, dactyl.

Salãma (Jirjis): Tarikh at-ta'lim al-ajnabi fi Misr (Hist. de l'enseignement étranger en Égypte aux XIXe et XXe siècles). Le Caire, Al-Majlis al-a'lã li-l-funun wa al-ãdãb, 1962.

- : Athar at-tatawwur as-siy_si "alã at-ta'lim al-qawmi fi Misr bayn 1882 wa 1936 (Influence de l'évolution politique sur l'éducation nationale entre 1882 et 1936). Thèse lettres Univ. du Caire, 1964. dactyl.

Waardenburg (Jean-Jacques): Les universités dans le monde arabe actuel. La Haye et Paris, Mouton, 1966. 2 vol. (Recherches méditerranéennes - Etudes, VIII).

III. LES ÉCOLES ÉGYPTIENNES EN FRANCE

Tusun ('Umar): Al-Ba'athãt al-'ilmiyya fi 'ahd Muhammad Ali thumma fi 'ahday 'Abbãs I wa Said. (Les missions scolaires au temps de Méhémet-Ali, Abbas 1er et Said). Alexandrie, Imp. Salah ad-Din, 1934.

Salih (Zaki) et Mursi (Mahmud): Al-Ba'athãt al-'ilmiyya fi-l-qarn at-tãsi' 'ashar (Les missions scolaires au XIXe siècle). Le Caire, Dar al-Qãhira li-t-tiba'a, 1959.

A. - L'ÉCOLE ÉGYPTIENNE DE PARIS (1826-1835)

Bulletin de la Société de géographie, Paris: mai-juin 1826, 573-674; oct. 1827, 137-142; juin 1834, 417-418; mai 1835, 354-356.

Rev. encyclopédique: XXX (mai 1826), 577-578, "Institution fondée à Paris, pour élever quarante jeunes Égyptiens, envoyés en France par leur gouvernement"; XXXI (août 1826), 529-531. "Réflexions sur les

relations de la France avec une partie du Levant, et sur l'envoi de quarante jeunes Egyptiens à Paris, pour y être élevés sous la direction de plusieurs savants français"; XXXII (déc. 1826), 837, "Dissémination dans plusieurs pensions de Paris des jeunes Egyptiens envoyés en France pour y terminer leur éducation"; XXXVII (mars 1828), 843-845, "Des jeune Égyptiens envoyés à Paris, en 1826"; XLVIII (nov. 1830), 521-523, "École égyptienne, retour de plusieurs élèves dans leur patrie",

Nouveau journal asitatique: août 1828, II, 96-116, Jomard, "École égyptienne de Paris",

Le Moniteur universel: 13 août 1826; 7 déc. 1826; 12 mars 1828; 8 janv. 1830; 26 mai 1830.

Le Constitutionnel: 1er juin 1826.

La Pandore : 22 et 26 août 1826.

Barthélemy et Méry: La Bacriade ou la Guerre d'Alger, poème héroï-comique en cinq chants. Paris, A. Dupont, 1827.

Théaubon, Th. Anne et Gondelier: La Girafe ou une journée au jardin du roi, vaudeville. Paris, Barba. 1827.

La Garde nationale, Marseille: 9 et 23 octobre 1832.

Le Sémaphore de Marseille: 3 octobre. 1832.

Le Messager de Marseille: 24 octobre 1832.

Clot-Bey (A. B.): Audience de S. M. Louis Philippe. Roi des Français. accordée à M. le Dr Clot-Bey le 25 Mars 1833. Marseille, 1833. (Brochure de 7 pages tirée à 25 exemplaires).

- : Mémoires d'A.-B. Clot-Bey. Publiés et annotés par Jacques Tagher. Le Caire, Impr. de l'Inst. fr. d'archéol. orientale, 1949.

Jomard (Edme-François): Coup d'"il impartial sur l'état présent de l'Égypte comparé à sa situation antérieure. Paris, Béthune et Plon, 1836.

- : Banquet de l'expédition d'Égypte, 31 mars 1862, allocution du président. Paris, N. Chaix, 1862.

- : "Lettre au Dr Ch. Gaillardot, 6 août 1836". Guemard: Les réformes en Égypte, 441-443.

Galerie iconographique et mission égyptienne en France, 1826, sous la direction de M. Jomard. Suite de 17 lithographies de A. Colette, A.

Devéria et Émile Lassalle. Paris, Impr. Decan, 1851. (Album à la B. N. de Paris. Cabinet des Estampes. N 3, no 1).

Cattaui (R.): Le règne de Moh. Aly d'après les arch. russes, I, 361-362, "Pezzoni à Nesselrode, 18 sept. 1829".

Du Camp (Maxime): Souvenirs littéraires. Paris, Hachette, 1882-1883, 2 vol. I, 545-546.

Flaubert: Voyages. Paris, Les Belles Lettres, 1948. II, 106.

Naaman (Antoine Y.): Les lettres d'Égypte de Gustave Flaubert d'après les manuscrits autographes. Paris, Nizet, 1965. - Cf. compte rendu critique de Pierre Moreau, Rev. de litt. comparée. juillet-sept. 1966, 484-487.

Ninet (John) : "Origin of the National Party in Egypt", The Nineteenth Century, London, XIII (janv. 1883), 117-134.

Artin (Yacoub): Artin-Bey, ministre des Affaires étrangères et du Commerce sous le règne de Méhémet-Ali Pacha (1800-1859). 10 p. in-8o. Le Caire, Impr. Nationale, 1896.

La Revue d'Égypte, IV, janv.-avril, 1897.

Douin (Georges): Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly. Le Caire, Société de géographie, 1923.

Zaki ('Abd ar-Rahmãn): A'lãm al-jaysh wa-l-bahariyya fi Misr athnã al-qarn at-tasi' 'ashar (Les hommes illustres de l'armée et de la marine en Égypte au XIXe siècle). Le Caire, Impr. ar-Risãla. 1947.

Hasan (Muhammad 'Abd al-Ghani): "Mustafa Mukhtar bey", Al-Kitab, Le Caire, décembre 1948, 703-711.

Deny (Jean): "Quatre lettres de Méhémet-Ali d'Égypte", Paris. Maisonneuve, 1950. Extrait des Mélanges William Marçais, 125-146.

Tagher (Jacques): "Les locaux qui abritèrnt la première mission scolaire égyptienne à Paris existent encore", Cah. d'hist. égyptienne, II, 2-3 (1950), 333-336.

Charles-Roux (Fr.): Edme-Frantçois Jomard et la réforme de l'Égypte en 1839. Le Caire, Impr. de l'Inst. fr. d'archéol. orientale, 1955. 48 p. in-8o. (Cah. de la Soc. d'études historiques et géogr. de l'isthme de Suez).

B. - L'ÉCOLE MILITAIRE GYPTIENNE (1844-1849)

L'Illustralion, Paris, 12 août 1845 et 2 mai 1846.

Halim (Mohamed bey): Allocution adressée par Mohamed bey Halim à ses camarades de l'école de Paris. 1 page, Paris. 1847. (B. N.: O3b 162).

Vingtrinier (Aimé): Soliman Pacha. Paris, Firmin Didot, 1886.

Cattaui (René): "Note au sujet d'une lettre de Soliman Pacha sur l'éducation de son fils Iskandar Bey", Bulletin de l'Institut d'Égypte, XX, 227-230.

Surhanq (Ismail pacha): Haqã'iq al-akhbar 'an duwal al-bihãr (Histoire des États maritimes). Le Caire, Impr. Nationale, 1894-1898. 3 vol.

Auriant: "Un amateur de "Courbets", Khalil Bey", Le Manuscrit autographe, no 33, mai-juin 1931 et no 35, sept.-oct. 1931.

Wiet (Gaston): "Une lettre de Jomard au sujet de l'École Militaire Égyptienne de 1844". Rev. du Caire, octobre 1944, 562-577.

- : "Le voyage d'Ibrahim Pacha en France et en Angleterre, d'après les archives européennes du Palais d'Abdine", Cah. d'hist. égyptienne, I, 1 (1948), 78-126.

C. - LES MISSIONS SCOLAIRES PENDANT LA SECONDE MOITIÉ DU XIXe SIÈCLE

About (Edmond): Le Fellah. Paris, Hachette, 1905. ("Ahmed le Fellah", parut d'abord dans la Revue des deux mondes, fév.-avril 1869). - Cf. J.-M. Carré: Voyageurs et écrivains français en Égypte, II, 257-288.

Mismer (Charles): Souvenirs du monde musulman. Paris, Hachette, 1892. - Cf. Jacques Tagher: "Charles Mismer", La Rev. du Caire, août 1945.

'Abduh (Muh.): "Khata' al-'uqala" ", (L'erreur des intellectuels). Al-Waqã'i' al-misriyya, 19 avril 1881.

An-Nadim (Abdallah): ",Arabi tafarnaj", (Un Arabe européanisé). At-Tankit wa-t-tabkit, no 1, 6 juin 1881. Reproduit dans Sulafat an-Nadim, 2e éd., Le Caire, Impr. Hindiyya, 1914, I, 82.83.

Chesnel (E.): Plaies d'Égypte, les Anglais dans la vallée du Nil. Paris, Flammarion, s. d.

Girard (B.): L'Égypte en 1882. Paris, Berger-Levrault. 1883.

Chonski (S. de): Croquis égyptiens. Paris, Dentu, 1887, 30-64.

Sanua (James): L'Atawadod d'Abou-Naddara, Paris, 4e année, no 3, avril 1895.

L'Eclair, Paris, 10 sept. 1895.

Pensa (Henri): L'Égypte et l'Europe. Paris, Joseph-André, 1896.

Notovitch (Nicolas): L'Europe et l'Égypte. Paris. Ollendorf, 1898.

Bemmelen (P. van): L'Égypte et l'Europe, par un ancien juge mixte. Leiden, E. J. Brill, 1881-1884. 2 vol.

Tagher (Jacques): "Jacques de Valserre et la création du premier bureau égyptien d'information à Paris", Cah. d'hist. égyptienne, I, 3 (1949), 221-229.

Chevalley (Abel): "La jeune Égypte", Rev. de Paris, 15 nov. 1896.

Shafiq (Amad pacha): Mudhakkirãti fi nisf qarn (1873-1923) (Mémoires). Le Caire, Impr. Misr, 1933-1936. 3 t. en 4 vol.

IV. LES HOMMES

EDME-FRANÇOIS JOMARD

Pongerville (Jean-Baptiste de): "Jomard". Nouvelle biographie générale, publ. sous la direction de H"fer, Paris, Firmin-Didot, 1861, XXVI, col. 871-874.

Guigniaut (Joseph-Daniel): Institut impérial de France. Académie des inscriptions et belles-lettres. Funérailles de M. Jomard. Discours prononcé le 25 sept. 1862. Paris, Firmin-Didot, 1862.

"Obsèques de M. Jomard. - Discours de M. le contre-amiral baron de la Roncière le Noury, vice-président de la Société de géographie. - Discours de M. d'Avezac, président de la commission centrale de la Soc. de géogr.", Bull. de la Soc. de géogr., Paris, 1862, IV, 197-204.

Articles nécrologiques par Richard Cortambert dans La Science pour tous et la Rev. du monde colonial; Vivien de Saint-Martin dans Le Temps. D'après Bull. de la Soc. de géogr., 1862, IV, 281-287, "Extraits des procès verbaux des séances",

Schwob: "Notice sur Jomard-Bey", Bull. de l'Inst. égyptien, 1862, 47-51.

Schnepp (B.): "Introduction" du t. I des Mémoires ou travaux originaux présentés a l'Inst. égyptien. Paris, Firmin Didot, 1862. pp. v-xv.

Cortambert (Richard): Notice sur La vie et les "uvres de M. Jomard. Paris, Impr. de De Soye et Bouchet, 1863. (Extr. de la Rev. orientale, 19 p.).

[Dezos] De La Roquette [Jean-Bernard-Marie-Alexandre]: Notice sur la vie et les travaux de M. Jomard. Paris, Impr. L. Martinet, 1863. (Extr. du Bull. de La Soc. de géogr., fév. 1863, 81-101).

Godart de Saponay (P.): Notice nécrologique sur la vie et les travaux de M. E.-F. Jomard. Paris, Impr. S. Raçon, 24 p. (Extr. du Bull. de la Soc. de l'instruction élémentaire, mai 1863).

Boselli (comte Jules): "Edme-François Jomard", Rev. d'Egypte, IV, janv.-avril 1897.

Du Bus (Ch.): "E.-F. Jomard et les origines du Cabinet des cartes (1777-1862)". Communication faite au Gongrès international de géogr., Paris, 1931.

Houth (Émile): "Jomard l'Égyptien", Bull. de l'Inst. d'Égypte, XV (1932-1933), 259-266.

Guémard (G.): Bibliogr. critique de la Commission des sciences et arts, p. 55.

Pallary (Paul): "Le corps des ingénieurs géographes de l'Armée d'Orient", La Géographie, 66 (1936), 285-296.

Goby (Jean-Édouard): "Lexique biographique des membres de la Commission des sciences et arts", Rev. des conférences fr. en Orient, IX. nov. 1945, 681.

Charles-Roux (F.): E.-F. Jomard et la réforme de l'Égypte en 1839.

OSMAN NOUREDDIN

Prisse d'Avennes: Politique et administration de l'Égypte moderne, fo 42.

Marro (G.):Il corpo epistolare di Bernardino Drovetti, 139.

- : La personalità di Bernardino Drovetti studiata nel suo archivio inedito. 90-91 (Lettre du 4 fév. 1834 de Jomard à Drovetti).

Cattaui (R.): Le règne de Mohamed Ali d'après les archives russes, 387-8.

Brocchi (G. B.): Giornale delle osservazioni fatte ne viaggi in Egitto, I, 160.

Balboni: Gl' ltaliani nella civiltà egiziana del secolo XIX, I. 253.

Tagher (Jacques): "Un agent de rapprochement entre l'Orient et l'Occident: Osman Noureddin Pacha", Gah. d'hist. égyptienne. II. 5-6 (1951) 392-405.

Charles-Roux (F.): Edme-François Jomard et la réforme de l'Égypte en 1839, 33-34.

RIFÃ'A AT-TAHTÃWI

Archives du Palais de la République. Le Caire: Section arabe, dossier Rifã'a bey",

Majdi (as-sayyid Sãlih bey): Hilyat az-zaman bi-manãqib khãdim al-watan (Le joyau du temps à faire savoir les mérites du serviteur de la patrie). Biographie de Tahtawi. Ms de 30 fos in-8o à la B. N. du Caire. no 1026. Publ. avec introduction et notes par J. Ash-Shayyãl, Le Caire, al-Halabi, 1958.

Mubãrak (Ali pacha): Al-Khitat, t. XIII.

Jomard (E.-F.): "L'École Égyptienne de Paris", Nouveau journal asiatique, 1828, II, 99, 104.

- : "École Égyptienne. retour de plusieurs élèves dans leur patrie", Rev. encyclopédique, XLVIII (nov. 1830), 521-523.

Sur la traduction par Rifa'a de La lyre brisée d'Agoub, cf. La gazette de France, 24 août 1827; Rev. encycl., XXXVI (oct. 1827), 208-209.

"Extrait d'une lettre adressée par le Cheykh Refah, ancien élève de la mission égyptienne en France, à M. Jomard, membre de l'Institut, etc. Kaire, 16 août 1831". Nouveau journal asiatique, VIII (nov. 1831), 534-535.

Ampère (Jean-Jacques): Voyage en Égypte et en Nubie. Paris, Calmann-Lévy, 1881. (Textes publiés dans la Rev. du deux mondes de 1846 à 1849).

Didier (Charles): Cinq cents lieus sur le Nil, Paris, Hachette, 1856, 37-38.

Delatre (Louis): "L'Égypte en 1858". Rev. de l'Orient, de l'Algérie et des

colonies, VIII (1858), 7-25, 81-101, 129-149; IX (1859), 9-25.

Paton (F. R. G. S.): History of the Egyptian revolution, II, 271.

Kabis: "Rapport sur un poème arabe de M. Rifaa-Bey", Mémoires ou travaux originaux présentés à l'Inst. égyptien, Paris, Firmin Didot, 1862, 5-12.

Éloge de Rifaah bey, par le Dr Colucci bey, président. Séance du 27 juin 1873. Bull. de l'Inst. égyptien, XI (1872-73), 136.

Poole (Stanley Lane): Life of Edward William Lane. London, Williams and Norgate, 1877, 70-71.

Bemmelen: L'Égypte et l'Europe. II. 761.

Brockelmann: GAL, II, 481; Suppl. II, 731.

Carra de Vaux: Les penseurs de l'Islam, V, pp. 235 et suiv.

Husayn (Muhammad as-sãdiq): "Rifa'a at-Tahtawi", Aa-Siyãsa al-usbu'iyya, Le Caire, 28 mai 1927.

Gibb (H. A. R.): "Studies in contemporary Arabic literature". Bull. of the School of Oriental Studies, London, 1928, pp. 748 et suiv.

Chemoul (Maurice): "Rifa'a bey", Encycl. de l'Islam, 1re éd., III, 1235-36.

Auriant: "Histoire du cheikh Refaah", Cahiers d'Occident, sept. 1930, 139-165.

Heyworth-Dunne (J.): "Rifa'ah Badawi Rafi' at-Tahtawi, the Egyptian revivalist", Bulletin of the School of Oriental Studies, 1939, vol. IX, part 4; vol. X, part 2.

Pérès (Henri): "Les premières manifestations de la renaissance littéraire arabe en Orient au XIXe siècle: N. al-Yaziji et F. ash-Shidy_q", Annales de l'Institut d'études orientales de la Faculté des lettres d'Alger, I, (1934-35), 233-256.

'Abduh (Ibrãhim): Tãrikh al-Waqã'i' al-misriyya (Histoire du Journal officiel). Le Caire, Bulaq, 1942.

Amin (Ahmad): "Ach-cheikh Rifa'a at-Tahtawi", Ath-Thaqãfa, Le Caire, 1943. nos 230-235.

Ash-Shayyãl (Jamal ad-Din): Rifa''a at-Tahtawi. Le Caire, al-Halabi, 1945. (A'lãm al-Islam, 15). – 2e éd., Dar al-Ma'ãrif, 1958. (Nawãbigh al-fikr al-'arabi, 24).

- : Tarikh at-tarjama. op. cil.

- : At-tãrikh wa-l-mu'arrikhun fi Misr fi l-qarn at-tãsi' 'ashar (L'histoire et les historiens en Égypte au XIXe siècle). Le Caire, an-Nahda. 1958.

Rashad (Ahmad): "Rifa'a Rafée el Tahtaoui", Cah. d'hist. égyptienne, I. 2 (1948), 175-185.

Tagher (Jacques): "La création d'écoles populaires en Égypte, selon un projet de Rifa'a Rafée", Ibid., 186-191.

Badawi (Ahmad): Rifa'a at-Tahtãwï bey. Le Caire, Lajnat al-bayãn al'arabi, 1950.

Nuseibeh: The ideas of Arab nationalism. 109-118.

Rifaah El-Tahtawi (Fathy): Petit aperçu historique de la vie et de l'"uvre de Rifaah Badawi Rafeh El-Tahtawi. Le Caire, 1958.

Nashra 'an kutub Rifã"a Rãfi' at-Tahtãwi (Bibliographie de I'oeuvre de Rifã'a, établie par A. A. Badawi, Anouar Louca, etc.). Le Caire, Imp. de la Bibliothèque Nationale, 1958.

Mihrajãn Rifa"a Rãfi' at-Tahtãwï, Recueil des conférences données au Caire, à l'occasion de la commémoration de Rifa'a (18-26 déc. 1958) par Al-Majlis al-a'lã li-l-funun wa-l-ãdãb. Le Caire. Dãr an-Nashr li-l-jãmi'ãt. 1960.

Louca (Anouar): "Rifã'a at-Tahtãwi fi Bãris" (T. à Paris). Al-Jil, Le Caire, no 337, 9 juin 1958, 20-22, 33.

- : "Thawrat an-nathr al-'arabi yaquduhã Rifã'a min Bãriz" (La révolution de la prose arabe dirigée de Paris par T.). Ar-Risãla al-Jadïda, oct. 1958. 44-45.

- : "Takhlïs al-ibrïz fi talkhis Bãriz" (La relation de voyage à Paris de T.). Kitãbi. no 80, nov. 1958, 23-63.

- : "Rifã'a fi mir'ãt al-gharb" (T. dans le miroir de l'Occident). Al-Hilãl. déc. 1958, 79-84.

- : "Les Parisiens dans le miroir de Rifã'a", La Rev. du Caire, déc. 1958.

- : "Rifã'a bayn al-Qãhira wa Bãriz" (T. entre Le Caire et Paris). Mihrajãn Rifa'a, op. cit., 137-143.

- : "Ba'that Rifã'a at-Tahtãwi" (La mission scolaire de T.). Al-Majalla, no 53, mai 1961, 40-50.

- : "Un voyageur égyptien à Paris en 1830, Rifã'a at-Tahtawi", Connaissances de l'Étranger. Mélanges offerts à la mémoire de Jean,-Marie Carré. Paris, Didier, 1964, 286-291.

- : "Rifã'a at-Tahtawi, ou une nouvelle étape de la civilisation arabe", Le monde arabe, Genève, mars-avril 1966, 12-13.

Wehr (H.): "L'arabe moderne", Enc. de l'Islam, 2e éd., I. 590.

Ponteil (F.): La pensée politique depuis Montesquieu, 292-293.

Hourani (A.): Arabic thought, 69-83, 144, 194.

Zolondek (Léon): "Al-Tahtawi and political freedom", Muslim World, LIV (1964), 89-97.

Rosenthal (E. I. J.): Islam in the modern national State, 65-66.

"Awad (Louis): "Rifã'a at-Tahtawi", Al-Ahrãm, 16, 23 févr., 15 mars 1968, pp. 4-5.

As-Sa'ïd (Rif'at): "R. at-Tahtãwi wa bidãyat al-fikr al-ishtirãki fi Misr" (T. et le début de la pensée socialiste en Égypte). Al-Katib, VIII (1968), no 83, 100-107.

Abdel-Malek (A.): Idéologie et renaissance nationale. Passim.

ALl MUBÃRAK

Mubãrak (Ali pacha): Al-Khitat, IX, pp. 37 et suiv.

Vollers (Karl): "Ali pacha Mubãrak", Encyclopédie de l'Islam, 1re éd., I, 297-298; 2e éd., I, 407-408.

Husayn (Muh. as-Sãdiq): "Ali Mubãrak", As-Siyãsa al-'usbu'iyya, Le Caire, 19 avril 1927.

Amin (Ahmad): Zu'amã' al-islãh fi-l-'asr al-hadith (Les grands réformateurs modernes). Le Caire, an-Nahda, 1948.

Khalafallah (Muhammad Ahmad): Ali Mubãrak wa 'ãthãruhu (A. M. et son oeuvre). Le Caire, al-Anglo, 1958.

Zayid (Sa'ïd): Ali Mubãrak wa 'a'mãluhu (A. M. et son oeuvre). Le Caire, Alf kitãb, 1958.

Ash-Sharqãwi (Mahmud): "Ali Mubãrak et la civilisation européenne", La Rev. du Caire, juillet-août 1960, 1-14.

- : Ali Mubãrak, hayãtuhu wa da'watuhu wa 'ãthãruhu (A. M., sa vie, son message et son "uvre). Le Caire, al-Anglo, 1962.

Kenny (Lorne M.): "Ali Mubãrak, nineteenth century Egyptian educator and administrator", Middle East Journal, winter 1967, 35-51.

An-Najjãr (Husayn Fawzi): Ali Mubãrak, abu at-ta'lim (A. M., le père de l'enseignement). Le Caire, Dar-al-Kãtib al-'arabi, 1967. (A 'lãm al-'arab, 71).

ISMA'ĪL AL-FALAKĪ ET MAHMŪD AL-FALAKĪ

Arch. du min. des Aff. étrangères, Paris. "Correspondance consulaire et commerciale, Alexandrie", vol. 43 (1873-75), f. 299.

Bull. de la Soc. de géogr., Paris, 1862, II, 207, "Actes de la Soc., séance du 1er août 1862".

Éloge de Mahmoud pacha el-Falaki, par Maspero, président. Séance du 4 déc. 1885. Bull. de l'Inst. égyptien, 2e série, no 6 (1885), 403.

Mismer: Souvenirs du monde musulman, 292-296.

Bonola: L'Égypte et la géographie, 46, 47, 103.

"Mahmud pacha al-Falaki", Al-Hilãl, V (1896), no 8, 282-285.

Jomier (Jacques): "Al-Falaki", Encycl. de l'Islam, 2e éd., II, 782.

Ad-Dimirdash (Ahmad Sa'īd): Mahmud Hamdi al-Falakī. Le Caire, Maktabat Misr, 1965. (A'lãm al-'arab, 49).

MUHAMMAD SHARIF SALIM ET SES COLLÈGUES

'Abd al-Jawwãd: Taqwim Dãr al-'Ulum, 1872-1947 (Le calendrier de Dar al-'Ulum). Le Caire, Dar al-Ma'ãrif, 1952.

V. TEXTES SUR LA FRANCE
PAR DES MEMBRES DE LA MISSION

Rifã'a at-Tahtãwi: Takhlis al-ibrīz fi talkhīs Bãriz.

Larges fragments du manuscrit autographe, identifiés dans les papiers de Rifa'a, que conserve sa famille à al-Hilmiyya, Le Caire.

Caussin de Perceval: "Relation d'un voyage en France par cheikh Réfaa",

Nouveau journal asiatique, XI (mars 1833), 222-251. (Présentation et extraits, d'après le ms).

1re éd., Le Caire, Bulaq, 1250 h. (1834),

2e éd., Le Caire, Bulãq, 1265 h. (1849),

3e éd., Le Caire, Impr. at-Taqaddum, 1323 h. (1905),

4e éd., Le Caire, Al-Halabi, 1958 (avec introdution et notes par Mahdi 'Allãm, A. A. Badãwi, Anouar Louca).

- : Relation de voyage à Paris (1826-1831). Introduction, traduction et notes par Anouar Louca. Thèse complémentaire pour le doctorat és lettres, présentée à la Faculte des lettres de l'Université de Paris, 1957, dactyl.

Ali Mubãrak: 'Alam ad-Din. Alexandrie. Impr. du Journal al-Mahrusa, 1882. 4 vol.

La Revue Égyptienne, oct. 1912, pp. 323 et suiv. donne un fragment traduit des mémoires de Hammãd 'Abd al-'Ãti, publiés par son fils Sãlih Hamdi Hammãd dans al-Malãji' al-'abbãsiyya, Alexandrie, à partir du vol. 12, ne 11, le 1er Dhu-l-qa'da 1330 h. (1912).

Muhammad Sharif Salim: (Relation de voyage). 7 fascicules lithographiés de 1888 à 1890, à l'exception du 5e fascicule, rédigé à Melun, 1890, manuscrit à la B. N. du Caire, no 31 Géographie.

BIBLIOGRAPHIE DE LA DEUXIÈME PARTIE
JOURNALISTES LIBÉRAUX

I. L'ÉGYPTE KHÉDIVIALE
ET LES JOURNALISTES BANNIS

1. - TABLEAU DE L'ÉGYPTE KHÉDIVIALE

Audouard (Olympe): Les mystères de l'Égypte dévoilés. Paris, Dentu, 1865.

Sacré (Amédée) et Outrebon (Louis): L'Égypte et Ismail Pacha. Paris, Hetzel, 1865.

Mayrargues (Alfred): Quelques mots sur l'Égypte contemporaine. Le vice-roi et le fellah. Paris, 1869.

Riaux (Francis): L'Égypte et La France, Paris. Impr. D. Jouaust, 1870.

Faucon (T.): L'Emprunt égyptien et les capitalistes français. Paris, Amyot, 1873.

Danglar (Eugène Gellion): Lettres sur l'Égypte contemporaine (1865-1875). Paris, Sandoz et Fischbacher, 1876.

Merruau (Paul): "L'Égypte sous le gouvernement d'Ismail Pacha", Rev. des deux mondes, 15 août 1876, 903-930.

Égypte: Un cri de détresse! Paris, Impr. administrative de Paul Dupont, 1877. 8 p. in-8o.

Léon (Edwin de): The Khedive's Egypt, or the old hause of bondage under new masters. London, S. Law, 1877.

Mac Coan (James Carlile): Egypt as it is. London, C. Petter and Galpin, s. d.

Jerrold (William Blanchard): Egypt under Ismail Pacha. London, Tinsley, 1879.

- : The Belgium of the East. London, W. H. Allen, 1882.

Keay (J. Seymour): Spoiling the Egyptians, a tale of shame told from the British Blue Books. New York, G. P. Putnam, 1882.

Malortic (baron Carl von): Egypt: Native rulers and foreign interference. London, W. Ridgway, 1882.

Giffard (Pierre): Les Français en Égypte. Paris. Havard, 1883.

Bemmelen (P. van): L'Égypte et l'Europe. Op. cit.

Ninet (John): Les mille pertuis des finances du khédive et les banques en Égypte. Photographies historiques, d'après nature, par Sidi Lokman El-Hakim. Vienne, Agence Internationale, 1873.

- : Les créanciers du khédive et la réforme judiciaire en Égypte, par un ancien membre du corps consulaire en Orient. Berne, I mpr. de R.-P. Haller, 1874.

- : M. Nubar, Révélations opportunes sur l'imbroglio égyptien. Genève, Neuchatel et Paris, Jules Sandoz, 1878-1879.

- : "Origin of the National Party in Egypt", Op. cit.

- : Arabi Pacha. Berne, chez l'auteur, 1884.

- : Au pays des khédives. Genève, Impr. Schira, 1890.

Egypt for the Egyptians. A retrospect and a prospect. London, C. Brooks, 1880.

An-Naqqãsh (Salim Khalil): Misr li-l-misriyyïn (L'Égypte aux Égyptiens). Le Caire, al-Mahrusa. 1884. 9 vol.

Wallace (D. Mackenzie): Egypt and the Egyptian question. London, Macmillan. 1883.

Amici (F.): L'Égypte ancienne et moderne et son dernier recensement. Alexandrie, Typolithographie V. Penasson, 1884.

Broadley (Alexander Meyrich): How we defended Arabi and his friends. A story of Egypt and the Egyptians. London. Champan and Hill. 1884.

Guillon (Édouard): Notes pour l'histoire de notre temps. L'Égypte contemporaine et les intérêts français. Grenoble, A. Gratier, 1885.

Bowen (John Eliot): "The conflict of East and West in Egypt", Political Science Quartely, Boston, I, 1886, pp. 295-335, 449-490, 636-676.

Frédolin: John Bull sur le Nil. Paris, Jules Lévy, 1886.

Chonski (S. de): Croquis égyptien. Op. cit.

Bell (C. F. Moberly): From Pharaon to Fellah. London, W. Gardner, 1888.

Scotidis (N.): L'Égypte contemporaine et Arabi Pacha. Paris, Flammarion, 1888.

Plauchut (Édmond): L'Égypte et l'occupation anglaise. Paris, Plon, 1889 (articles publiés dans la Rev. des deux mondes, du 1er déc. 1888 au 1er fév. 1889).

Benedetti: "La question d'Égypte", Rev. des deux mondes, 1er et 15 nov. 1891.

Rae (W. Fraser): Egypt to-day. London, Bentley, 1892.

Pensa (Henri): L'Égypte et l'Europe. Op. cit.

Bourguet (Alfred): La France et l'Angleterre en Égypte. Paris, Plon, 1897.

Notovitch (Nicolas): L'Europe et l'Égypte. Op. cit.

Penfield (Frederic Courtland): Present day in Egypt. London, Macmillan, 1899.

Des Michels (baron Jules Alexis): Souvenirs de carrière (1855-1886). Paris, Plon, 1901.

Velay (A.): Les rivalités franco-anglaises en Égypte (1876-1904). Nimes, Impr. Chastanier, 1904. (Thèse de droit, Montpellier).

Ragatz (Lowell Joseph): The question of Egypt in Anglo-French relations, 1875-1904. Edinburgh, Pembroke, 1922.

Colvin (A.): The making of modem Egypt. London, Seeley, 1906.

Blunt (Wilfrid Scawen): Secret history of the English occupation of Egypt. London, T. F. Unwin, 1907.

- : Gordon at Khartoum. London, S. Swift, 1911.

- : My Diaries. London, Martin Secker, 1919. 2 vol.

Cromer (the Earl of): Modem Egypt. London, Macmillan, 1908. 2 vol.

Péméant (Georges): L'Égypte et la politique française. Paris, Giard et Brière, 1909.

Biovès (Achille): Français et Anglais en Égypte, 1881-1882. Paris, Roger et Chenoviz, 1910.

Rothstein (Theodore): Egypt's ruin. A financial and administrative record. With an introduction by W. S. Blunt. London, A. C. Fifield, 1910.

Becker (C. H.): "Arabi pacha", Enc. de l'Islam, 1re éd., I, 422-423.

Al-Ayyūbi (Ilyas): Tārikh Misr fi 'ahd al-khédive Ismaïl pacha min 1863 ilā 1879 (Hist. de l'Égypte sous Ismail). Le Caire, Dār al-Kutub, 1923. 2 vol.

Sabry (M.): La genèse de l'esprit national égyptien (1863-1882). Paris. Association linotypiste, 1924.

- : L'Empire égyptien sous Ismaïl et l'ingérence anglo-française (1863-1879). Paris, Geuthner, 1934.

Crabitès (Pierre): Ismaïl the maligned Khedive. London, G. Routledge, 1933.

Douin (Georges): Histoire du règne du khédive Ismail. Rome et Le Caire, 1935-1936. 3 vol.

Kenny (Lorne M.): "The Khedive Isma'il's dream of civilization and progress", Muslim World, LV (1965), 142-155, 211-221.

Mange (Alyce Edythe): The Near-Eastern policy of the emperor Napoleon III. Urbana, University of Illinois Press, 1940,

Ar-Rãfi'i ('Abd ar-Rahman): 'Asr Ismã'ïl (L'époque d'Ismail). Le Caire, an-Nahda, 1932. 2e éd., 1948. 2 vol.

- : Ath-Thawra al-'urãbiyya wa-l-ihtilãl al-inglizi (La révolution de 'Urabi et l'occupation anglaise). Le Caire, an-Nahda, 1937. 2e éd., 1949. 3e éd., ad-Dar al-Qawmiyya, 1966.

- : Az-za'ïm ath-thã'ir, Ahmad 'Urãbi (Le chef révolté, A. "Urãbi). Le Caire, Dar al-Hilãl, 1952. – 3e éd., Dar ash-Sha'b, 1968.

Khuri (Ra'if): Al-Fikr al-'arabi al-hadith. Op. cit.

Rifã'ï ('Abd al-'Aziz): Tatawwur an-nizãm an-niyabi qabl ath-thawra al-'urãbiyya fi Misr al-haditha (1866-1879). Le Caire, thèse dactyl., 1948.

- : Tatawwur an-nizãm an-niyãbi min ath-thawra al-'urabiyya hatta qiyam al-harb al-'uzma al-'ula (1880-1914). Le Caire, thèse dactyl., s. d. (Les deux thèses étudient l'évolution du système parlementaire en Égypte, de 1866 à 1914).

Thibault (Pierre): "La question d'Égypte et la presse française en 1882". Cah. d'hist. égyptienne, IV, 1 (1951), 1-78; V, 2-3 (1953), 97-138.

Arié (Rachel): L'opinion en France et la question d'Égypte (1885-1904). Paris, thèse d'univ., 1954, dactyl.

Landau (Jacob M.) : Parliaments and parties in Egypt. New York, Praeger, 1954.

Nuseibeh (H. Z.): The ideas of Arab nationalism. Op. cit.

Landes (David S.): Bankers and Pashas. International finance and economic imperialism in Egypt. London, Heinemann, 1958. - Tr. arabe par 'A. Anis, Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1966.

Ducruet (Jean): Les capitaux européens au Proche-Orient. Paris, P. U.F., 1964.

Ponteil (Félix): La Méditerranée et les puissances depuis l'ouverture jusqu'à la nationalisation du Canal de Suez. Paris, Payot, 1964.

Ahmad (Jamal Mohammed): The intellectual origins of Egyptian nationalism. Op. cit.

Safran (Nadav): Egypt in the search of political community. Op. cit.

Mustafã (Ahmad 'Abd ar-Rahim): Ath-Thawra al-'urãbiyya (La révolution de 'Urãbi). Le Caire, Dar al-Qalam, 1961. (Al-Maktaba ath-thaqãfiyya, 30).

- : Misr wa-l-mas'ala al-misriyya (L'Égypte et la question d'Égypte). Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1965. - Version arabe d'une thèse Ph. D., London. 1955, dactyl., The domestic and foreign affairs of Egypt from 1876 to 1882.

Khalafallah (Muhammad Ahmad): Abdallah an-Nadim wa mudhakkiratuhu as-siyasiyya (Nadim et ses mémoires politiques). Le Caire, al-Anglo, 1956.

Al-Hadidi (Ali): Abdallah an-Nadim. Le Caire, Maktabat Misr, 1961. (A'lam al-'Arab, 9).

Delanoue (Gilbert): "Abd Allah Nadim (1845-1896). Les idées politiques et morales d'un journaliste égyptien", Bull. d"études orientales, Damas, XVII (1961-1962), 75-120.

Rowlatt (Mary): Founders of modern Egypt. New York, Asia Publishing House, 1962.

Louca (Anouar) : "A la recherche de John Ninet", Annals of the Faculty of arts, Ain Shams University, Cairo, VIII (1963). 209-216.

Berque (Jacques): L'Egypte, impérialisme et révolution. Op. cit.

- : "Trois stades de l'économie proche-orientale", Arabic and Islamic studies in honor of Hamilton A. R. Gibb, 108-117.

- : "Étapes de la société égyptienne contemporaine", Studia islamica, XXII (1965), 91-118.

Sharabi (Hisham): "The transformation of ideology in the Arab world", Middle East Journal, autumn 1965, 471-486.

Tingor (Robert L.): Modernization and British colonial rule in Egypt. Princeton Univ. Press, 1966.

Abu-Lughod (Ibrahim): "The transformation of the Egyptian elite: Prelude to the 'Urãbi revolt", Middle East Journal, summer 1967, 325-344.

2. - LA PRESSE ÉGYPTIENNE

Arch. du ministère des Affaires étrangères, Paris. "Correspondance politique des consuls, Égypte": vol. 62 (janv.-mars 1879), f. 150-155; vol. 70 (sept.-oct. 1881), f. 119-172, 294-314, 385-410; vol. 71 (nov.-déc.

1881), f. 73-79; vol. 72 (janv.-fév. 1882), f. 150-166.

Union de la Jeunesse Égyptienne: La liberté de la presse. S. I., déc. 1879, in-8o, 16 p. en français, 12 p. en arabe.

Rae (W. Fraser): Op. cit., 238-262.

Hartmann (Martin P. W.): The Arabic press of Egypt. London, Luzac, 1899.

Artin (Yacoub pacha): "Étude statistique sur la presse égyptienne (fin 1904)". Bull. de l'Inst. égyptien, IV, 6 (1905), 89-97.

Tarrãzi (vicomte Philippe de): Tãrikh as-sahãfa al-'arabiyya (Histoire de la presse arabe). Beyrouth, 1913-1933. 4 vol.

'Attãra (Qustãki Ilyas): Tarikh takwin as-suhuf al-misriyya (Histoire de la formation des journaux égyptiens). Alexandrie, Impr. at-Taqaddum, 1928.

"Djarida", Enc. de l'Islam, 1re éd., I,1047-1050; 2e éd., II, 476-484.

Massignon (Louis): "L'étude de la presse musulmane et la valeur de ce témoignage social", Annales d'histoire économique et sociale, Paris, VII (15 juil. 1930), 321-327. - Opéra minora, I, 303-309.

Munier (Henri): La presse en Égypte (1799-1900), notes et souvenirs. Paris, 1930.

Galal (Kamal Eldin): Enstehung und Entwicklung der Tage presse in Aegypten. Berlin, 1939. (Schriftenreihe des Instituts fur Zeitungswissenschaft an der Universitat Berlin. Neue Folge, Band 11).

Ramadan (Abdel Meguid Sadik): Évolution de la législation sur la presse en Égypte. Le Caire, Impr. Photiadis, 1935. (Thèse de Droit, Paris).

'Abduh (Ibrãhim): Tatawwur as-sahãfa al-misriyya (Évolution de la presse égyptienne). 2e éd., Le Caire, Impr. at-Tawakkul, 1945.

- : "A'lãm as-sahãfa al-'arabiyya (Les grands journalistes arabes). 2e éd., Le Caire, Maktabat al-Adab, 1948.

- : Al-Ahram, tãrikh Misr fi khams wa sab'in sana (Al-Ahrãm, histoire de l'Égypte en soixante-quinze ans). Le Caire. Dar al-Ma'ãrif, '1950.

Tagher (Jacques): "La naissance et le développement du journal Al-Ahram", Cah. d'hist. égyptienne, IV, 5-6 (1952), 259-271.

'Inãn (Muhammad): "La presse et l'époque d'Ismail", Al-Kãtib al-misri, 1947, no 18, 158-165.

Heyworth-Dunne (J.): "Society and politics in modern Egyptian literature", The Middle East Journal, II, 3 (1948), 306-318.

Hamza ('Abd al-Latif): Adab al-maqala as-sahafiyya fi Misr (Littérature de l'article journalistique en Égypte). Le Caire, Dãr al-Fikr al-'arabi, 1950-1963. 8 vol.

- : As-Sahãfa al-misriyya fi mi'at 'am (La presse égyptienne en cent ans). Le Caire, Ministère de la culture. s. d. (1960). (Al-Maktaba ath-thaqãfiyya, 14).

Abu-l-Layl (Najib): As-Sahãfa al-faransiyya fi Misr mundh nash'atihã hattã nihãyat ath-thawra al-'urãbiyya (La presse française en Égypte, dès origines à la fin de la révolution de 'Urãbi). Le Caire, Impr. at-Tahrir, 1953.

- : Al-ihtilãl al-britãni wa-s-suhuf al-'arabiyya (L'occupation britannique et les journaux arabes). Le Caire, Impr. at-Tahrir, 1953.

Muruwwa (Adib): As-sahafa al-'arabiyya, nash'atuhã wa tatawwuruha (La presse arabe, sa naissance et son évolution). Beyrouth, Maktabat al-Haya, 1961.

Ad-Dusuqi ('Umar): "Tatawwur al-maqãl al-adabi fi-n-nathr al-'arabi al-hadith. Development of the literary essay in modem prose", Arabic and Islamic studies in honor of Hamilton A. R. Gibb, 191-210.

Zolondek (Leon): "Ash-Sha'b in Arabic political literature of the nineteenth century", Die Welt des Islams, X (1965), 1-16.

Al-Jindi (Anwar): As-Sahãfa as-siyãsiyya fi Misr mundh nash'atihã hatta qiyãm al-harb al-'ãlamiyya ath-thãniya (La presse politique en Égypte, depuis sa naissance jusqu'au début de la deuxième guerre mondiale). Le Caire, Impr. ar-Risala. 1962.

- : Tatawwur as-sahafa al-'arabiyya fi Misr (Évolution de la presse arabe en Égypte). Le Caire, Impr. ar-Risala, 1967.

'Aziz (Sami): As-Sahãfa al-misriyya wa mawqifuhã min al-ihtilal al-inglizi (La presse égyptienne et son attitude à l"égard de l'occupation anglaise). Le Caire, Dar al-Katib al-'arabi, 1968.

Sabat (Khalil): "Al-Maktaba al-i'lãmiyya fi-l-jumhuriyya al-'arabiyya al-muttahida. 1896-1968". (Bibliothèque de l'information dans la République arabe unie). Majallat al-kitab al-'arabi. juil. 1968, 4-15.

Abdel-Malek (A.): Idéologie et renaissance nationale, 170-185.

II. ADIB ISHÃQ

Misr al-Qãhira (L'Egypte Triomphante). Paris, 24 déc 1879-1880. Ninet (J.) : Arabi Pacha, 37-38, 43.

Al-Hilal, II, août 1894, 706-707.

Ad-Druar. Prose et vers d'Adib Ishaq, recueillis et édités par son frère 'Awni Ishaq. Beyrouth, 4e éd., 1909.

Khairallah (K. T.): "La Syrie", Rev. du monde musulman, XIX (1912), 72-76.

Tarrazi : II, 257-258.

Hamza ('A.): Adab al-maqala, II, 9-61.

Lecerf (J.) : "Le mouvement philosophique contemporain en Syrie et en Égypte", Mélanges de l'Institut français de Damas, I, 1929, 29-64

- 'Abbud (Mãrun): "Adib Ishaq". Al-kitãb, fév. 1948, 271-283.

Abdel-Nour (Jabbour): La contribution des Libanais à la Renaissance littéraire arabe au XIXe siècle. Paris, thèse dactylographiée, 1952, 214-216.

Ad-Dusuqi ('U.): "Tatawwur al-maqal", 196-198.

Muruwwa (Husayn): "Adib Ishãq", Ath-Thaqãfa al-wataniyya, Beyrouth, oct.-nov. 1959, 59-62.

Ponteil (F.): La pensée politique depuis Montesquieu, 298-99.

Abdel-Malek (A.): Idéologie, 440-443.

III. MUHAMMAD 'ABDUH

Renan (Ernest): L'Islamisme et la science. Paris, Calmann Lévy, 1883. 24 p. in-8o.

Al-Afghani (Jamãl ad-Din): Al-A'mãl al-kãmila li-Jamãl ad-Din al-Afghani (Œuvres complètes). Introd. de Muhammad 'Amara. Le Caire, Dar al-Katib al-'arabi, 1968.

'Abduh (Muhammad): "Khata' al-'uqala'" (L'erreur des intellectuels). Al-Waqa'i' al-misriyya, 4. 11, 19 avril 1881.

- : Al-'Urwa al-wuthqa (Le Lien indissoluble). Paris, du 13 mars au 17 octobre 1884.

Recueil des 18 nos, Beyrouth, Impr. at-Tawfiq, 1328 h. (1910). 3e éd., Beyrouth, Impr. al-Ahliyya, 1351 h. (1933).

- : Taqrir fi islãh al-mahãkim ash-shar'iyya (Rapport sur les réformes à introduire dans les tribunaux de statut personnel). Le Caire, Impr. al-Manar, 1317 h. (1900).

- : L'Europe et l'Islam. Trad. par Tal'at Harb des articles parus, en 1900, dans le journal al-Mu'ayyad, en réponse à Gabriel Hanotaux. Le Caire, Impr. Jean Politis, 1905.

- : Al-Islam wa-n-Nasrãniyya ma' al-'ilm wa-l-madaniyya (L'Islam et le Christianisme devant la science et la civilisation). Articles parus dans al-Manar, en 1901, en réponse à Farah Antun, rédacteur de la rev. al-Jami'a. Le Caire, Impr. al-Manar, 1902. 5e éd., 1938.

- : "Rihla ila Urubbã wa jazirat Siqilliyya wa Tunis wa-J-Jazã'ir sanat 1321" (Voyage en Europe, en Sicile, Tunis, Algérie, en 1902). M. R. Rida: Tarikh. II, 473-504.

- : Risalat al-Tawhid. Exposé de la religion musulmane. Trad. de l'arabe avec une introd. sur la vie et les idées du cheikh Muhammad 'Abduh par B. Michel et le cheikh Moustapha Abdel-Razik. Paris, Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, 1925.

- : Mudhakkirãt al-imãm M. 'Abduh (Mémoires), publ. par Tahir at-Tanahi. Extraits de M. R. Rida. Le Caire, Dar al-Hilal, s. d. (1964).

Rida (Muhammad Rashid): Tàrikh al-ustãdh al-imãm ach-cheikh Muhammad 'Abduh (Biographie). Le Caire, Impr. al-Manar, 1926-1931. 3 vol.

- : Tafsir al-Coran al-hakim al-mushtahir b-ism tafsir al-Manar (Commentaire du Coran). Le Caire, Impr. al-Manar, 1337-1338 h. (1927-1928). 9 vol. in-8.

Goldziher (I.): "Djamal ad-Din al-Afghani", Enc. de l'Islam, 1re éd., I, 1037-39; 2e éd., II, 427-430, article complété par J. Jomier.

Kohn (Hans): "Muhammad Abduh", Enc. of social sciences, X, 571-72.

Macdoland (Duncan Black): Development of Muslim theology, jurisprudence and constitutional theory. Chicago, 1909. - New York, Scribner, 1926.

Brunet (Emmanuel): "La crise de l'Azhar", Correspondance d'Orient, 1er juillet 1909, 618-628.

Sékaly (Achille): "L'Université d'al-Azhar et ses transformations", Rev. des études islamiques, 1927, 95-118, 465-529; 1928, 47-165, 255-337, 401-472; 1931, 241-276; 1936, 1-43.

Adams (Charles): "Muhammad 'Abduh, the Reformer", Moslem World, XIX (1929), 264 et sq.

- : "Muhammad 'Abduh and the Transvaal Fatwa", The Macdonald Presentation Volume. Princeton University Press, 1933, 11-29.

- : Islam and modernism in Egypt. Oxford University Press, 1933. Traduction arabe, Le Caire, Impr. al-I'timād, 1935.

Lator (Esteban): "Modernisme en Islam: Muhammad Abdou", En terre d'Islam, nov. 1935, 369-376.

Cardahi (Choukri): "Les infiltrations occidentales dans un domaine réservé: le statut personnel musulman", Introduction à l'étude du droit comparé, en l'honneur d'Édouard Lambert, Paris, 1938, II, 604-620. (Université de Lyon, Faculté de droit).

Gibb (H. A. R.) I Modern trends in Islam. University of Chicago Press, 1947. - Tr. fr. par B. Vernier: Les tendances modernes de l'Islam. Paris, Maisonneuve, 1949.

Laoust (Henri): "Le réformisme orthodoxe des "Salafiyya" et les caractères généraux de son orientation actuelle", Rev. des études islamiques, 1932, 175-224.

- : "L'évolution de l'Égypte contemporaine: l'évolution moderne du droit musulman", Entretiens sur l'évolution des pays de civilisation arabe. Centre d'Études de Politique étrangère. Paris, Hartmann, 1936, 78-82.

- : Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-d-Din Ahmad b. Taimiya. Le Caire, Impr. de l'Inst. fr. d'archéologie orientale, 1939, 541 sq.

- : "Le réformisme musulman dans la littérature arabe contemporaine", Orient, 1959, 81-107.

- : "Le réformisme musulman", Monde non chrétien, 51-52 (1959), 81-88.

Schacht (Josephl): "Muammad 'Abduh", Enc. de l'Islam, 1re éd., III, 723-726.

- : "Shari'a und Qãnun im modernen Ägypten", Der Islam. 1932, 209-236.

- : "L'évolution moderne du droit musulman en Égypte", Mélanges Maspero, Le Caire, lnst. fr. d'archéol. orientale, 1935-1940, III, 323-334.

- : Esquisse d'une histoire du droit musulman. Paris, Max Besson, 1953.

- : "Problems of modern Islamic legislations", Studia islamica, XII (1960), 99-129.

Amin (Osman): Muhammad 'Abduh. Essai sur ses idées philosophiques, et religieuses. Le Caire, Impr. Misr, 1944.

- : "Azhari fi Bãris "(Un Azhariste à Paris). Akhbãr al-yawm, 6 janv. 1945.

- : "As-Suwar wa t-tamãthil fi ra'y al-imãm M. 'Abduh" (La peinture et la sculpture selon l'opinion de M. 'Abduh). Al-Ahram, 13 août 1950.

- : Ruwwãd al-wa'y al-insãni fi-sh-sharq al-islãmi (Pionniers de la conscience humaine dans l'Orient musulman). Le Caire, Dar al-Qalam, 1961. (Al-Maktaba ath-thaqãfiyya, 46).

Amin (Ahmad): Zu'ama' al-islãh fi-l-'asr al-hadith (Les grands réformateurs modernes). Le Caire, an-Nahda, 1948.

Morrison (S. A.): "Arab nationalism and Islam", Middle East Journal, april 1948, 147-159.

Bousquet (G. H.): "Loi musulmane et droit européen. Quelques remarques de psychologie comparée", Rev. de psychol. des peuples, 1950, 299-306.

Landau (J.): "Al-Afghani's Panislamic project", Islamic culture, july 1952, 50-54.

Liebesny (Herbert J.): "Religion's law and westernisation in the Muslim Near East", Amer. jour. of comparative law, autumn, 1953, 492-504.

Bennabi (Malek): Vocation de l'Islam. Paris, Éd. du Seuil, 1954.

Jomier (J.): Le commentaire coranique du Manãr. Tendances modernes de l'exégèse coranique en Égypte. Paris, Maisonneuve, 1954.

As-Sa'idi ('Abd al-Muta'ãl): Al-Mujaddidun fi l-Islam min al-qarn al-awwal ilã l-rabi' 'ashar (Les rénovateurs dans l'Islam du 1er siècle au

14e). Le Caire, Impr. al-Adab, 1954.

Blachère (R.): "Connaissance de l'Islam", Le Monde, 15 févr. 1955.

Qasim (Mahmud): Jãmal ad-Din al-Afghãni, hayãtuhu wa falsagatuhu (Afghãni, sa vie et sa philosophie). Le Caire, al-Anglo, 1955.

Cragg (Kenneth): "Religious developments in Islam in the XXth century", Cah., d'hist. mondiale, III, 2 (1956), 504-524.

Chejne (Anwar G.): "Egyptian attitudes toward Pan-Arabism", Middle East Journal, XI, 1 (1957), 253-268.

Al-Bahiyy (Muhammad): Al-fikr al-islãmi al-hadith wa silatuhu bi-l-isti'mar al-gharbi (La pensée islamique moderne et sa relation avec le colonialisme occidental). Le Caire, Maktabat Wahba, 1957.

Vatikiotis (P. J.): "Muh. 'Abduh and the quest for a Muslim humanism". Islamic Culture, XXXI (1957), no 2, 109-126.

Abu Rayya (Mahmud): Jamãl ad-Din al-Afghani, tãrikhuhu wa risãlatuhu (Afghani, sa vie et son message). Le Caire, Dãr al-Hana, 1959. – 2e éd., Dãr al-Ma'arif, 1961. (Nawabigh ai-Fikr al-'arabi, 15).

Anderson (J. N. D.): Islamic law in the modern world. New York University Press, 1959.

Tyan (E.): Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam. 2e éd., Leyde, Brill, 1960.

Merad (Ali): "Origines et voies du réformisme en Islam", Annales de l'Inst. d'études orientales, Alger, XVIII-XIX (1960-61), 359-399.

- : "L'enseignement politique de Muh. 'Abduh aux Algériens (1903)". Orient, no 28 (1963), 77-116.

- : Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940. Essai d'histoire religieuse et sociale. Paris-La Haye, Mouton, 1967.

Baljon (J. M. S.): Modern Muslim Koran interpretation (1880-1960). Leyde, Brill, 1961.

Al-'Aqqad ('Abbas M.): Muhammad 'Abduh. Le Caire, Maktabat Misr, 1962. (A'lam al-'Arab, 1).

Ziadeh (Nicola): Origins of nationalism in Tunisia. Beirut, American University, 1962.

Demeerseman (A.): "Genèse de la formation de la conscience nationale

en Tunisie", Rev. de l'Inst. des belles lettres arabes, Tunis, 1962, no 3, 219-243.

Ash-Shanufi (al-Munsif): "Masãdir 'an rihlatay ash-shaykh M. 'Abduh ila Tunis" (Références sur les deux voyages de M. Abduh en Tunisie). Annales de l'Université de Tunis, III (1966), 71-102.

Harris (Christina Phelps): Nationalism and revolution in Egypt. The role of the Muslim Brotherhood. The Hague, Mouton, 1964. (The Hoover Institution on war, revolution and peace, Stanford, California), pp. 115-127.

Dawn (C. Ernest): "Arab Islam in the modern age", Middle East Journal, XIX, 4 (1965), 434-446.

Kerr (Malcolm H.): Islamic reform. The political and legal theories of Muhammad 'Abduh and Rashid Rida. Berkeley, University of California Press, 1965.

Salem (Elie): "Arab reformers and their reinterpretation of Islam", Muslim World, LV, 4 (1965), 311-320.

Pakdaman (Homa): "Notes sur le séjour de Djamal al-Din al-Afghani en France", Orient, 3e trim. 1965, 203-224.

Keddie (Nikki R.): "Sayyid Jamal al-Din's first twenty-seven years: the darkest period", Middle East Journal, XX, 4 (1966), 517-533.

- : An Islamic response to imperialism. Political and religious writings of Sayyid Jamal ad-Din "al-Afghani", Berkeley, Univ. of California Press. 1968.

Kenny (L. M.): "Al-Afgani on types of despotic government", Journal of the American Oriental Society, LXXXVI (1966) , 19-27.

Kedourie (Elie): Afghani and 'Abduh. An essay on religious unbelief and political activism in modern Islam. London, Frank Cass, 1966.

Hanna (Sami A.): "Al-Afghani, a pioneer of Islamic socialism". Muslim World, LVII (1967), 24-32.

Ar-Rafi'i ('Abd ar-Rahman): Jamãl ad-Din al-Afghãni, bã'ith nahdat ash-sharq, 1838-1897 (Afghani, promoteur de la renaissance de l'Orient). Le Caire, Dãr al-Kãtib al-'arabi, 1967. (A'lam al-'Arab, 61).

Gardet et Anawati: Introduction à la théologie musulmane, 79-89, 171-173.

Hourani (A.): Arabic thought, 103-192.

Grunebaum (G. E. von): Modern Islam, 88, 207-208, 222.

Daniel (N.): Islam, Europe, 417-418, 449-452, 471.

Abdel-Malek (A.): Idéologie, chap. x, "La genèse du fondamentalisme islamique", 371-405.

IV. ABOU-NADDARA

A. - OEUVRE D'ABOU-NADDARA

1. Périodiques:

Abou-Naddara zarqa (L'homme aux lunettes bleues). Le Caire, 1878. 15 nos; 1er no: 21 Rabi' I, 1295.

Rihlat Abi-Nazzrara zarqa (Voyage de l'homme aux lunettes bleues du Caire à Paris). Paris, 1878-1879; 30 nos; 1er no: 7 août 1878.

Abou-Naddara zarqa. Paris, 30 nos; 1er no: 21 mars 1879.

En-Nazzarat el-masriyya (Les lunettes égyptiennes). Paris, 10 nos; 1er no: 16 sept. 1879.

Abou-Suffãra (Le Flutiste). Paris, 3 nos; 1er no: 4 juin 1880.

Abou-Zummara (La Clarinette). Paris, 3 nos; 1er no: 17 juillet 1880.

El-Hawi (Le Charmeur). Paris, 4 nos; 1er no: 5 févr. 1881.

Abou-Naddara, organe de la jeunesse d'Égypte. Paris, 7 nos; 1er no: avril 1881.

Abou-Naddara zarqa, organe de la nation égyptienne libre. Paris, avril 1882-déc. 1884.

El-Watani el-masri (The Égyptian Patriot). Paris, 2 nos, sept. et nov. 1883.

Abou-Naddara, l'Égypte aux Égyptiens. Paris, 10 janv. 1885-1910.

A'ttawadod (Sympathisons), revue mensuelle. Paris, 1888-1902.

El-Munsif (L'Équitable). Paris, 15 févr. 1899-1903.

L'Univers musulman (Al-'Alam al-islami). Rev. en français, Paris, 15 févr. 1907-1908. 1re année: 8 nos; 2e année: 4 nos.

2. Brochures et articles:

Les soupirs du proscrit. Paris, Impr. Lefebvre, s. d., 40 p. in-16, 32 vignettes. Extraits des périodiques d'Abou-Naddara. Sommaire:

I. Biographie de l'auteur, par L. Brunet. - II. Les Anglais dans la Vallée du Nil de 1800 à 1900. - III. Les souhaits d'Orient à la France (vers). - IV. Dot sanglante et Vengeance, deux épisodes des guerres anglaises en Égypte et au Soudan. - V. Les Souhaits d'Égypte à S.M.I. le Sultan (vers). - VI. Babel-Hôtel, saynète en six langues (prose et vers). - VII. Le Molière égyptien. - VIII. Le grand ami de la France.

Mahãmid al-Faransis wa Wasf Bãris (Les admirables qualités, des Français et la Description de Paris). Trad. de: La France et Paris, par E. M. Felumb. Paris, Impr. Lefebvre, 1891.

Rihlat Abi-Naddara bi-l-Asitãna al-'aliyya (Voyage à Constantinople). Paris, 1892.

"The Koran and other scriptures. Letter to the Parliament from J. Sanua Abou Naddara, Paris", The World's Parliament of Religions, held in Chicago in connection with the Columbian Exposition of 1893, edited by Rev. J. H. Barrows. London, Review of Reviews Office, 1893. II, pp. 1146, 1148.

Brasier (L.) & Brunet (J.-L.): Les ordres persans. Préf. et appendice par le cheikh Abou Naddara Chaer-el-Molk. Paris, Actualités diplomatiques et coloniales, 1902. 26 p. in-8o.

Les sœurs latines, prose et vers en plusieurs langues. Paris, Impr. Lefebvre, 1905. 32 p. in-8o.

Ma vie en vers et mon théâtre en prose. Impr. Montgeronnaise, s. d. (1909). 16 p. in-8o.

Husn al-ishãra fi musãmarãt Abi-Naddãra (Causeries d'Abou Naddara, à l'occasion de l'Exposition universelle de 1900). Le Caire, Muh. Amin Dirbal al-kutubi, 1910. 192 p. in-8o.

Le joug brisé, piéce patriotique ottomane en deux actes. Montgeron (S. & O.), Impr. G. Denis, 1911.

B. - SUR ABOU-NADDARA

1. Articles:

L'Europe diplomatique, juin 1879, pp. 2-4.

The Saturday Review, 26 july 1879.

The Nineteenth Century, january 1883, pp. 127-128.

Le Rappel, 27 mai 1885.

Rev. des deux mondes, 15 juin 1885, p. 787.

Journal de Genève, 30 août 1885.

Gil Blas, 3 mars 1885, 10 févr. 1886.

La France, octobre 1886, 5 fév. 1887.

Le Salut public, Lyon, 28 mai 1887.

Le Voltaire, fév. 1888, nov. 1890.

L'Echo contemporain, nov. 1889.

La Dépêche tunisienne, 25 janv. 1890, 9 fév. 1890.

Le Siècle, 12 fév. 1890.

La France internationale, 13 mars 1890.

Le Figaro, 27 mai 1887,10 janv.1888, 10 fév.1889, 11 juillet 1889, 2 août 1889. 8 fév. 1890.

La Rev. de l'Est, Paris, 1er mai 1895, pp. 1097-1108.

Abou-Naddara, 22 juillet 1897: "Histoire d'un proscrit" par Aimé Vingtrinier.

Le Figaro littéraire, 24 juillet 1909.

Jubilé littéraire et retraite du doyen des publicistes arabes. Montgeron (S. & O.), Impr. G. Denis, 1911. 12 p. in-8o.

The Jewish Encycl. New York, London, Funk and Wagnalls, 1905, XI, 50-51: "Sanua, James",

L'Athénée, nov. 1912.

The Jewish Chronicle Supplement, no 194, avril 1939: "The Cheikh with Blue Spectacles", par B. Lewis.

Cahiers d'histoire égyptienne, Le Caire, I, 2 (1949), 192-207: "Les débuts

du théâtre moderne en Égypte" par Jeannette Tagher.

Encycl. de l'Islam, 2e éd., 1954, I, 146: "Abu Naddara", par J. M. Landau.

Journal of Jewish. Studies, Cambridge, 1952, pp. 30-44: "Abu-Naddara, an Egyptian Jewish nationalist" par J. M. Landau. (Communication au 21e Congrès international des orientalistes, Paris, 30 juillet 1948).

Europe, juillet 1956, 21-32: "Les prémices d'une vocation, lettres inédites d'Isabelle Eberhardt", par Gaston Roger.

Kitãbi, Le Caire, juillet 1958, 9-51: "Le harem du khédive" (en arabe), pièces de Sanua publiées avec introd., par A. Louca.

The Middle East Journal, Washington, XV, 1 (1961), 16-28: "James Sanua and Egyptian nationalism", par I. L. Gendzier. - Trad. fr. dans Études méditerranéennes, IX (mai 1961), 73-79.

Al-Majalla, Le Caire, no 51 (mars 1961), 51-71: "Masrah Ya'qub Sanua" (Le théâtre de J. Sanua). par A. Louca.

Musées de Genève, n. s., 62 (fév. 1966), 9-11: "Une Turquerie genevoise", par A. Louca.

2. Livres et brochures:

Egypt for the Egyptians. Op. cit., 103-106.

Jerrold (Blanchard): Egypt under Ismaïl Pacha, pp. 107, 160, 216-231, 242, 277 et 4 caricatures reproduites.

- : The Belgium of the East, 38-40.

Guillon (E.): L'Égypte contemporaine et les intérêts français, 27-28.

Baignières (Paul de): L'Égypte satirique. Album d'Abou Naddara... Les deux affreux tyrans du Nil, Tewfik et son père Ismail, vision du cheikh Abou Naddara. Conférences: l'Égypte au XIXe siècle, l'invasion anglaise, le Mahdi. Paris, Impr. Lefebvre, 1886.

Gromier (Marc-Amédée): L'Union méditerranéenne. Paris, Lefébvre, 1888.

Chesnel (Eugène): Les Anglais en Égypte. Leurs défaites au Soudan. Esquisses contemporaines d'après le Journal d'Abou-Naddara. Paris, Impr. Lefébvre, s. d. 16 p. in-16.

Ninet (John): Arabi Pacha, 225-226.

- : Au pays des khédives, 32.

Lefebvre (Gaston): Abou Naddara et son voyage en Espagne, Portugal, Maroc, Algérie, Tunisie. Paris, Impr. Lefebvre, 1890. 16 p. in-16.

Lemaître (Alfred): Abou Naddara à Stamboul. Préf. par Édouard Le Roy. Paris, Impr. Lefebvre, 1892. 24, 16 p. in-8s.

Vingtrinier (Aimé): Abou-Naddara à Constantinople. L'Espoir de l'Égypte. Paris, G. Lefebvre, 1897. 16 p.

Morel (Adolphe): Le cheikh J. Sanua Abou Naddara Chaër-el-Molk. Limoges, Impr. commerciale Perrette, s. d. 8 p. in-8o.

Blunt (W. S.): Gordon at Khartoum, 1911, 45-47.

- : My diaries, 1919-1920, I, 71, 376.

Tarrãzi: Tãrikh as-sahãfa, II, 281.

"Abduh (Ibrãhim): Abou-Naddara. Le Caire, al-Adab, 1953.

Mackworth (Cecily): Le destin d'Isabelle Eberhardt. Trad. par André Lebois. Oran, Ste L. Fouque, 1956, 34, 73, 76.

Najm (Muhammad Yusuf): Al-Masrahiyya fi-l-adab al-'arabi al-hadith (The drama in modern Arabic literature, 1847-1914). Beyrouth, Dar Beyrouth, 1956, 77-91.

Landau (J. M.): Studies in the Arab theater and cinema. Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1958, pp. 65-67. - Trad. fr. par F. Le Cleac'h: Études sur le théâtre et le cinéma arabes. Paris, Maisonneuve et Larose, 1965, 67-69.

Gendzier (Irene L.): Practical visions of Ya'qub Sanu'. Harvard University Press, 1966.

Ghunaym ('Abd al-Hamid): Sanua, rã'id al-masrah al-misri (S., pionnier du théâtre égyptien). Le Caire, ad-Dãr al-qawmiyya, 1966.

Amer (Attia): Lughat al-masrah al-'arabi (La langue du théâtre arabe). Stockholm, Almqvist & Wiksell, 1967. I, 76-107. (Acta Universitatis Stockholmiensis. Stockholm Oriental Studies, VII).

Abdel-Malek (A.): Idéologie, 320-321.

Milhaud (Jean): Louli Sanua vivante. Paris, Impr. Nationale, 1969.

C. - MANUSCRITS

Les papiers de James Sanua, conservés par sa famille.

BIBLIOGRAPHIE DE LA TROISIÈME PARTIE

TOURISTES LETTRÉS

I. L'ÉGYPTE AUX EXPOSITIONS UNIVERSELLES DE PARIS

OUVRAGES GÉNÉRAUX

Lapparent (Albert de): Le siècle du fer. Paris, F. Savy, 1890.

Demy (Adolphe): Essai historique sur les Expositions universelles de Paris. Paris, Alphonse Picard, 1907.

Tamir (M.): Les expositions internationales à travers les âges. Paris, Galerie Jeanne Bucher, 1939. (Thése d'univ.).

Poirier (René): Des foires, des peuples, des expositions. Paris, Plon, 1958.

Baroli (Marc): Le train dans la littérature française. Paris, École technique d'imprimerie "Notre Famille" 1963. (Thèse de doctorat es lettres).

1867

L'Exposition universelle de 1867 illustrée. Rédacteur en chef Fr. Ducuing. Paris, Impr. Ch, Lahure, 1867. 60 livraisons en 2 vol.

Reybaud (Louis): "L'Exposition du Champ de Mars", Rev. des deux mondes, 15 août 1867.

Maury (Alfred) : "L'Ancienne Égypte d'après les dernières découvertes. L'Exposition égyptienne du Champ de Mars", Ibid., 1er sept. 1867.

Rémy (P.-A.): "Le café du Caravansérail égyptien", Illustration, 28 sept. 1867, 199-202. Ibid., G. Bell: compte rendu d'une conférence donnée par de Lesseps.

Edmond (Charles): L'Égypte à l'Exposition universelle de 1867. Paris, Dentu, 1867.

Mariette (Auguste): Aperçu de l'histoire ancienne d'Égypte pour l'intelligence des monuments exposés dans le temple du Parc Égyptien. Paris, Dentu, 1867.

- : Description du Parc égyptien. Paris, Dentu, 1867.

Wallon (H.): "Notice sur la vie et les travaux de Mariette Pacha", Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, séance du 23 nov. 1883, Paris, Firmin-Didot. 1883, 45-124.

Tardieu (Jules): Lettres à la dame de c"ur sur l'Exposition universelle. Paris, J. Tardieu, 1867.

Thiers (Henri): L'Égypte ancienne et moderne à l'Exposition universelle. Paris, Dramard-Baudry, 1867.

Egger (E.): L'Égypte ancienne et moderne à propos d'une visite au Parc égyptien du Champ de Mars. Paris, Hachette, 1868.

Gautier (Théophile): L'Orient. Paris, Charpentier, 1877, II, 91-122.

Schapira (M. C.): "Th. Gautier, l'Orient et Le Gastronome", Rev. d'hist. litt. de La France, sept.-oct. 1968, 815-828.

Driault (Edouard): "La Renaissance de l'Égypte. L'Égypte et les deux Napoléons", Rev. des études napoléoniennes, 1925, 5-22.

1878

Houssaye (Henry): "Voyage autour du monde à l'Exposition universelle", Rev. des deux mondes, 15 juillet, 1878, 364-383.

Mariette (Auguste): La galerie de l'Égypte ancienne à l'Exposition rétrospective du Trocadéro. Paris, Impr. F. Pichon, 1878.

Lamarre (Clovis) et Fliniaux (Charles): Les pays étrangers et l'Exposition de 1878. L'Égypte, la Tunisie, le Maroc. Paris, Delagrave, 1878.

Molinari (Gustave de): La rue des nations. Visites aux sections étrangères de l'Exposition universelle de 1878. Paris, Dreyfous, 1878.

1889

Allmanach de l'Exposition. Paris, Delarue, 1889.

Le Champ de Mars, Journal de l'Exposition universelle de 1889. Paris, 24 déc. 1888-6 nov. 1889. "La rue du Caire" in no 18, 27 avril 1889, p. 6.

Vogue (vicomte Eugène-Melchior de): "A travers l'Exposition", Rev. des

deux mondes, 15 sept. 1889, 449-465.

Abou-Naddara, année XIII, no 6, 25 juin 1889.

Debans (Camille): Les coulisses de l'Exposition universelle. Paris, Ernest Kolb, 1889.

Lenôtre (G.): Voyages merveilleux à l'Exposition universelle de 1889. Paris, Alfred Duquesne, 1889.

Bluysen (Paul): Paris en 1889. Souvenirs et croquis de l'Exposition. Paris, Arnould, 1890.

Neymarck (Alfred): Ce que La France a gagné à l'Exposition de 1889. Paris, Berger-Levrault, 1890.

1900

ABC de l'Exposition de 1900. Paris, Vermot, 1900.

Le Cosmopolite. Journal quotidien de l'Exposition (en 6 langues). Paris, 1900.

Encyclopédie du siècle. L'Exposition de Paris (1900). Paris, Montgredien, 1900. 3 vol. - Gravures et textes sur l'Égypte: III, 4-7, 250. Cf. une rétrospective illustrée, "Historique des Expositions universelles", I, 4-37.

Cornély (Édouard): Le livre d'or de l'Exposition. Paris, Cornely, 1900.

Gers (Paul): En 1900. Paris, Crété, 1900.

Gautier (Judith): Les musiques bizarres à l'Exposition de 1900. Musique égyptienne: Chant Khédivial, danse de l'abeille, danse des verres, transcrits par Benedictus. Paris, Paul Ollendorff, 1900.

Vogue (vicomte E.-M. de): "La défunte Exposition", Rev. des deux mondes, 15 nov. 1900.

Hallays (André): En flânant. " travers l'Exposition de 1900. Articles publiés dans le Journal du débat. Paris, Perrin, 1901.

Quantin (A.): L'Éxposition du siècle. Paris, édité par La rev. Le monde moderne, 1901.

Rousselet (Louis): L'Exposition universelle de 1900. Paris. Hachette, 1901.

II. ABDALLAH FIKRI ET SES COMPAGNONS (1889)

Fikri (Muhammad-Amin): Irshãd al-alibbã ilã mahãsin urubbã (Direction des intelligences vers les beautés de l'Europe). Le Caire, Impr. d'al-Muqtataf, 1892.

"Abdallah Fikri pacha, nazir al-ma'arif al-'umumiyya sibiqan" (A. Fikri, ex-ministre de l'Instruction publique). Al-Hilal, III (1895), no 18, 681-687.

Fikri (Abdallah): Al-Āthar al-Fikriyya (Les oeuvres de Fikri). Prose et vers de Abdallah Fikri, recueillis et précédes de sa biographie par son fils Muhammad-Amin Fikri. Le Caire, Impr. Nationale, 1897.

Hassan (Muhammad 'Abd al-Ghani): Abdallah Fikri. Le Caire, al-Halabi, 1946. - 2e éd. augmentée, Le Caire, Maktabat Misr, 1965. (A'lām al'Arab, 42).

Jomier (Jacques): "Fikri", Enc. de l'Islam, 2e éd., II, 912-913.

Fath-Allah (Hamza): Bakurat al-kalam 'alã huquq an-nisã' fi-l-Islam (Prémices du discours sur les droits de la femme dans l'Islam). Le Caire, Bulaq, 1891.

A-Bãjuri (Mahmud 'Umar): Ad-Durar al-bahiyya fi-r-rihla al-urubbãwiyya (Les perles splendides qui font connaître le voyage d'Europe). Le Caire, Impr. Mu hammad Mustafa, 1891.

Louca (Anouar): "En marge du huitième Congrès des Orientalistes", Cah. d'hist. égyptienne, IX, 1-2 (1957), 68-80.

III. LES VOYAGES D'AHMAD ZAKI (1892, 1900)

Zaki (Ahmad): Discours prononcé dans la séance de la section sémitique générale tenue à l'Université de Londres, le 8 sept. 1892. Le Caire, extrait du Journal officiel, no 39, du 29 mars 1893.

- : As-Safar ilã-l-mu'tamar (Le voyage au congrès). Le Caire, Bulaq, 1893. 2e éd., 1894. (Nous renvoyons à la 2e édition).

- : Ad-Dunya fi Bãris (L'Univers à Paris). Le Caire, 1900.

Vollen (Karl): Le neuvième Congrès international des Orientalistes tenu à Londres du 5 au 12 sept. 1892. (Communication faite à l'Institut égyptien, 2 dec. 1892).

Sur A. Zaki, cf. les articles de: Farès (Bishr), in Rev. des études islamiques, 1934, III, 383-392; Az-Zayyat (A. Hasan), in Ar-Risala, 1934, no 54; 'Isa (Ahmad), in Bull. de l'Inst. d'Égypte, t. XVII, pp. VII-XIX; Al-Ma'luf ('Isa Iskandar), in Rev. de l'Acad. arabe de Damas, XIII (sept.-oct. 1935), 394-398; Husayn (Taha), in Al-Wãdi, 8 juillet

1934; 'Abd ar-Rãziq (Mustafa), in Al-Ahrãm, 19 janv. 1935.

Al-Jindi (Anwar): Ahmad Zaki. Le Caire, Maktabat Misr, 1964. (A'lãm al-'Arab, 29).

IV. AL-BAKRI ET AL-MUWAYLIHI (1900)

Al-Bakri (Muhammad Tawfiq): Sahãrij al-lu'lu' (Les citernes des perles). Le Caire, Impr. al-Hilal, 1906.

Mubãrak (Ali): Al-Khitat, III, 123.

'Ubayd (Ahmad): Mashahir shu'ara' al-'asr (Les illustres poètes contemporains). Damas, al-Maktaba al-'arabiyya, 1922, I, 168-180.

Mubarak (Zaki): "Sãhib Saharij al-lu'lu'", Al-Balãgh, 19 août 1932.

Al-'Aqqad ('Abbãs M.): Shu'arã' Misr wa bi'ãtuhum fi-l-jil al-madi (Les poètes égyptiens de la dermière génération et leurs milieux). Le Caire, Impr. Hijazi, 1937.

Fahmi (Mahir Hasan): Muhammad Tawfiq al-Bakri. Le Caire, Dar al-Katib al-'arabi, 1967. (A'lam al-'Arab, 64).

Barque (Jacques): L'Égypte, 134, 153.

Al-Muwaylihi (Muh.): Hadith 'Isa-bn-Hishãm aw fatra min az-zaman (Propos de 'Isa-bn-Hisham ou Un intervalle de temps). Le Caire, 1907. Le second tome, ar-Rihla ath-thaniya (le Second voyage) parait dans la 4e éd., Le Caire, 1927. Nous renvoyons à la 5e éd., Le Caire, Impr. Misr, 1935.

Al-Muwaylihi (Ibrahim): Introduction à la 7e éd. du Hadith 'Isa-bn-Hishãm. Le Caire, Dar al-Ma'ãrif, 1947, III-XII.

- : "Las Mouelhy en Égypte, Mohammad el-Mouelhy Bey", Cah. d'hist. égyptienne, VI, 3-4 (oct. 1954), 168-179.

Pérès (Henri): "Les origines d'un roman célèbre de la littérature arabe moderne, le Hadith 'Isa ibn Hishãm de Muhammad Al-Muwaylihi", Bulletin d'études orientales de l'Institut français de Damas, X (1944).

- : "Essai sur les éditions successives du Hadith 'Isa ibn Hishãm de Muhammad Al-Muwaylihi, remaniements de texte et corrections de vocabulaire et de style", Mélanges Massignon, III, 233-258.

- : "Le roman dans la littérature arabe des origines à la fin du moyen Âge", Annales de l'Inst. d'études orient., Alger, XVI (1958), 5-40.

Al-Bishri ('Abd al-'Aziz): Al-Mukhtar. Le Caire, Dar al-Ma'arif. s. d., I, 226-277. Mubarak (Zaki): "Hadith 'Isa-bn-Hishãm", Ar-Risala, Le Caire, XI (1943), 595, 1016, 1035.

Bencheneb (Saadeddine): "Edmond About et Al-Muwaylihi", Rev. africaine, Alger, 3e-4e trim. 1944, 270-273.

- : Les humanités grecques et l'Orient arabe moderne", Mélanges Massignon, I, 173-198.

Widmer (Gottfried): "Beitrãge zur neuarabischen Literatur. - IV: Al-Muwaylihi, Der Spiegel der Welt", Die Welt des Islams, n. s., III, 2 (1954), 57-126.

Dayf (Shawqi): Al-Maqama. Le Caire, Dãr al-Ma'ãrif, 1954.

Shawkat (Mahmud Hamid): Al-Fann al-qasasi fi-l-adab al-misri al-hadith, 1800-1956 (Le genre romanesque dans la littérature égyptienne moderne). Le Caire, Dar al-Fikr al-'arabi, 1956.

Ash-Shak'a (Mustafa): Badi' az-Zaman al-Hamadhani, ra'id al-qissa al'arabiyya wa-l-maqala as-sahafiyya (Hamadhani, pionnier du roman arabe et de l'article journalistique). Le Caire, 1959.

Al-'Aqqãd ('Abbas M.): "Muh. al-Muwaylihi kamã 'araftuhu" (Muwaylihi tel que je l'ai connu). Al-Majalla, Le Caire, déc. 1962, 2-6.

Badr (Taha 'Abd al-Muhsin): Tatawwur ar-riwãya al-'arabiyya al-haditha fi Misr, 1870-1939 (Évolution du roman arabe moderne en Égypte). Le Caire, Dar al-Ma'arif, 1963.

'Ayyad (Muh. Shukri): Al-Qissa al-qasira fi Misr. Dirãsa fi ta'sil fann adabi (La nouvelle en Égypte. Étude sur l'enracinement d'un genre littéraire). Le Caire, Impr. an-Nahda al-jadida, 1968.

INDEX DES NOMS DE PERSONNES

Établi par M. André Duckert

Abbas Ier, 50 n. 2, 69, 78, 83, 86, 101, 131, 181, 256, 259.

Abbas II, 145, 176, 199, 226.

Abbas Halim, sa femme Khadija, 145.

Abbassides, 73, 225, 227 n.

"Abd al-Äti, Hammãd, 76 n. 1, 78, 82 n, 5, 83 et n. 1.

"Abd al-'Aziz, sultan, 122 et n. 2, 186.
"Abd al-Hamid, sultan, 159, 174.
"Abd al-Karim, A. "Izzat, 79 n. 1, 255.
"Abd ar-Rahim Ahmad, directeur de Dar al-'Ulum, 114.
"Abdi Shukri, 41, 43, 51, 257.
"Abduh, Ibrahim, 263.
"Abduh, Muhammad, 27, 72, 73, 126, 132, 133-152, 154, 175, 206, 230-231, 236, 241, 244, 248 n. 3, 249, 262.
Abélard, 165, 215.
Abou-Naddara, voir Sanua, J.
About, Edmond, 26, 108 et n. 2, 110-114, 116, 186, 259-260.
Abu Bakr, le 1er calife, 222.
Abu-l-Qãsim, 55.
Abu-s-Su'ud, Abdallah, 73, 123.
As-Safadi, Abu 'Uthmãn an-Nabulsi, 217.
Adam, Juliette, 244.
Al-Afghãni, Jamãl ad-Din, 27, 124-125, 127-128, 132 et n. 1, 134 et n. 2 et 5, 135-136, 138-140 et n. 1, 141, 148, 154-155, 174, 205-206.
Agoub, Joseph, 38, 61, 112, 131.
Ahmad, prince, fils d'Ibrahim pacha, 75, 79.
Aiguillon, duc Emmanuel-Armand d", ","
'A'ishã, femme du Prophète, 204.
Alexandre le Grand, 92, 225.
Al-Alfy, mamelouk, 239.
Ali bey [al-kabir], 239, 242.
Allou, Charles-Nicolas, 257.
Amin, Qasim, 72, 107, 116, 243.
Ampère, Jean-Jacques, 110, 115.
'Amr ibn al-'Ãs, 213.
al-Ansãri, 55.
Antoine, saint, 15, 17.
Arabi pacha, voir 'Urabi.

arc, Jeanne d'', '','',
'Arif, Muh., 82.
Aristote, 92.
Artin [Shukri] bey, 43, 50, 51, et n. 4 et 6, 75 n. 1, 76 et n. 2, 115 n. 10, 256.
Artin, Yacoub, 104 n. 1 et 2, 105.
Athanase, saint, 15-16.
al-'Attar, Ahmad, 42 n. 1.
al-'Attar, Hasan, 56 et n. 1, 57, 67-68, 111.
Augustin, saint, 14.
Averroès, 135.
Avicenne, 135.
Awad, Josehp, 39 n.
Ayyubides, 35.
'Azmi, Mahmud, 244.
Bagaudes, 253.
Baignières, Paul de, 159, 166, 263.
Bailloud, général, 159.

****

المحتــوى

- تصدير، عبدالعزيز سعود البابطين ٣

- تقديم، د. كاميليا صبحي ٥

- بين يدي الكتاب، د. أنور لوقا ١٣

- مقدمة المؤلف ١٧

الجزء الأول: البعثات التعليمية

- الفصل الأول: المدرسة باريس المصرية بباريس (١٨٢٦ - ١٨٣٥) ٤٣

- الفصل الثاني: رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ٧٥

- الفصل الثالث: المدرسة العسكرية المصرية (١٨٤٤ - ١٨٤٩) ١٠١

- الفصل الرابع: علي مبارك (١٨٢٤ - ١٨٩٣) ١١٥

- الفصل الخامس: البعثات التعليمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ١٣٧

- الفصل السادس: النتائج ١٤٧

الجزء الثاني: صحفيون ليبراليون

- الفصل الأول: مصر الخديوية والصحفيون المستبعدون ١٦٣

- الفصل الثاني: أديب إسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) ١٧١

- الفصل الثالث: محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ١٧٩

- الفصل الرابع: أبو نضارة (١٨٣٩-١٩١٢) ٢٠٧

الجزء الثالث: سائحون مثقفون

- **الفصل الأول:** مصر في معارض باريس الدولية (١٨٦٧ - ١٨٧٨- ١٨٨٩- ١٩٠٠)........ ٢٤٣
- **الفصل الثاني:** عبد الله فكري ورفاقه (١٨٨٩)........ ٢٦٣
- **الفصل الثالث:** رحلات أحمد زكي (١٨٩٢ -١٩٠٠........ ٢٧٧
- **الفصل الرابع:** البكري والمويلحي (١٨٨٩ -١٩٠٠) ٢٩٣
- **خاتمة** ٣١١
- **ملاحق** ٣٢٧
- **ببليوجرافيا** ٣٤٥
- **المحتوى**........ ٤٣٧

****

VOYAGEURS ET ECRIVAINS EGYPTIENS EN FRANCE AU X1X SIECLE

Session"Shawki et Lamartine"
Série Spéciale (Paris - Octobre 2006)



الكويت
2006